سلسلة المعرفة الحضارية

نشر الكتاب

التأليف والإخراج والطباعة
منذ القدم وحتى عصرنا الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــد

أحمدك اللهم حمد الشاكرين ، وأشهد أن لا إله ألا أنت رب العالمين وناصر المستضعفين ، وأصلي وأسلم على خاتم أنبيائك ورسلك سيدنا محمد سيد الخلق أجمعين وقدوة أهل الحق واليقين وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعـــــد ...

فإن دراسة ظاهرة نشر الكتاب وإخراجه وطباعته تعتمد على الإلمام بمقدمات ومسائل لابد من تحصيلها ، كما أن التعمق في أبحاثها والترقي في دراستها في أي دور من أدوارها ، وفي أي مرحلة من مراحلها يقتضي تأهيلاً خاصاً بملكات معينة تعين على المعرفة والبحث والتقصي والمقارنة والاستنباط ، وفي ضوء هذا فصّلنا موضوع نشر الكتاب في ستة فصول :

الفصل الأول : يتضمن مدخل لوسائل الاتصال لكي تعرف دور اللغة والكتابة والرموز في الاتصال الإنساني مع الإلمام بعملية الاتصال وعناصرها وشروط نجاحها مع دراسة وسائل الثقافة والاتصال الإنساني المتمثلة في الوسائل المطبوعة كالكتاب ، والوسائل السمعية كالإذاعة ، والسمعبصرية كالتليفزيون مع المقارنة بينها لكي نتوصل إلى أهمية الكتاب في حياتنا المعاصرة .

الفصل الثاني : يتضمن بعض الجوانب لمفهومات ومعاني النشر من الجانب الأكاديمي ، يتعرض الفصل لتعريفات النشر ومفهومه لغوياً واصطلاحياً ثم العروج إلى قضية النشر والتكنولوجيا المعاصرة وبيان علاقة النشر بالتعبير الإنساني ، لكي ننهي الفصل بدراسة النشر والكتاب من حيث طبيعة العلاقة بينهما .

الفصل الثالث : يتضمن موضوع الكتاب على مرّ العصور ، في مصر القديمة وفي حضارة العراق القديم ، وحضارة اليونان ، وفي العهد الروماني

المسيحي ، ثم في الحضارة الإسلامية منذ ظهور الإسلام وانتشار الثقافة الإسلامية مع بيان أهمية الكتاب والعلم في الإسلام ، وتفضيل أهمية الكتابة على الحفظ عند المسلمين ، وإظهار مراحل التطور الموضوعي للكتابة ، بداية من كتابة المصحف في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي عهود أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم وأرضاهم ، وكيفية تطور الكتابة العربية بالنقط والتشكيل في العصرين الأموي والعباسي ، خاصة فترة المأمون ومع ازدهار حركة التأليف والترجمة والتدوين ، وكتابة الآلاف من المخطوطات العربية في كل فروع المعرفة ، والتي كانت ركيزة النهضة في أوروبا مع بداية عصر التنوير . ثم انتقلنا إلى بيان أهمية المؤلف المعاصرة وزاده الثقافي ، لكي ننتقل إلى مفهوم الكتاب ومواصفاته وخصائصه في دوائر الاتصال الإنساني على كل المستويات ، وارتباط الكتاب بالتراث وصلته بالرقابة المحلية . واختتمنا الفصل ببيان مكونات الكتاب وكيفية إعداده وتجهيزه للنشر .

أما الفصل الرابع : فإنه يتضمن موضوع الناشر ومقتطفات من النشر وأنواعه على مر العصور التي سبق أن ذكرناها في الحضارات القديمة وصولاً إلى لمحات من النشر في العصرين الوسيط والحديث ، ثم انتقلنا إلى أنواع النشر ، الدوريات ، والمطبوعات غير الدورية ، ومطبوعات الأهداف المباشرة . وأنواع نشر الكتب في مجالات كتب التراث وكتب الأطفال ، والكتب المدرسية ، والكتب الدينية ، والمترجمة ، والنشر العام مع بيان وظائف النشر وربطها بنموذجين من مؤسسات النشر في مصر ، دار المعارف ، ودار الأهرام . واختتمنا الفصل بذكر بعض أزمات الترجمة ، وأزمة تزوير الكتب وأزمة وسائل الطباعة والتكنولوجيا وأزمة دعم الكتاب .

الفصل الخامس : خصصناه لصناعة الورق ، واختراع الطباعة كأهم عنصرين تستلزمهما قضية النشر من حيث المعرفة العلمية المرتبطة بتطورهما .

الفصل السادس والأخير فقد أوقفناه على شرح الميكروفيلم أهم وسائل حفظ الكتاب المعاصر في الدول الآخذة بناصية التكنولوجيا المعاصرة ، للدخول فيما نتوقعه لمستقبل الكتاب .

وقد عالجت هذه الموضوعات بالقدر الذي يتناسب مع الوقت المخصص لتدريسه لطلاب المكتبات والوثائق ولقسم الإعلام والتصميمات المطبوعة ، على نحو منهجي أرجو أن يفيد منه طلاب وطالبات العلم وأن يفتح لهم على الأقل باباً ينفذون منه إلى التعمق في الدرس والاستقصاء في البحث ولترويض افكارهم الدهنية على ممارسة الموضوعات والقضايا المرتبطة بالنشر ومؤسساته .

والله ولي التوفيـــق .

الإسكندرية في يوليو ١٩٨٦ **د . عبد الفتاح مصطفى غنيمة**

الفصل الأول

مدخل
لوسائل الاتصال

الفصل الأول
مدخل لوسائل الاتصال الانسانى

اللغة والكتابة والرموز أدوات الاتصال الانسانى

The Process of Communication

قد يبدو للبعض أن هناك نظرية واحدة متفق عليها تشرح عملية الاتصال . والحقيقة أن هناك الكثير من الاختلاف الواضح بين أساتذة علم الاتصال فى وضع نظرية لهذه العملية الحيوية التى يمارسها الانسان منذ فجر الحياة البشرية على الأرض . والتى تلعب دورا حيويا فى حياة الافراد والجماعات والأمم . لسنا الآن بصدد شرح النظريات المختلفة للاتصال ، ولكننا سنبين الخطوط والمبادىء الاساسية التى يتفق عليها أساتذة علم الاتصال بقصد وضع أسس عامة للتعليم والاعلام والتصميم لاستخدام تلك الوسائل فيما ينبغى أن تكون عليه عملية الاتصال .

ما هى عملية الاتصال ؟

الاتصال (عملية يستطيع بواسطتها طرفان أن يتشاركا فى فكرة أو مفهوم أو أحساس أو اتجاه أو عمل ما). والمقصود بالطرفين شخص يخاطب شخصا آخر ، أو أشخاصاً آخرين كالمدرس ومجموعة من التلاميذ ، أو هيئة تخاطب مجموعة كبيرة من الناس كهيئة الإذاعة وجمهور المستمعين . وتحمل كلمة المشاركة معنى الأخذ والعطاء ، فعندما تناقش مشكلة مع زميل لك ، وتعبر عن رأيك ، فيستمع لك محاولاً أن يتعرف وجهة نظرك ، ثم يرد عليك بما عنده ، فتستمع له ، وهكذا .... ألخ يحاول كل منكما أن يشرك زميله فى أفكاره حتى تصلا إلى رأى ما . ويتضح هذا المعنى أيضا عندما تذيع هيئة

الاذاعة برنامجا ما ، وليكن برنامجا عن ضرورة زيادة الانتاج ويستمع إليه الجمهور فيقتنع البعض بما جاء فيه ، وقد يرسل إلى الاذاعة خطابا يمتدح ما سمعه كرد فعل شعورى لما سمع .

عناصر عملية الاتصال :

تحتوى عملية الاتصال على أربعة عناصر رئيسية لها صفاتها الخاصة التى يجب أن يفهمها كل مهتم بالعملية ، حتى يستطيع ضمان نجاحها . هذه العناصر هى المرسل ، والرسالة ، والمستقبل ، ووسيلة الاتصال . فعندما يتحدث خطيب أو واعظ لمجموعة من الناس عن أهمية التواضع فى حياة الانسان ، تكون العناصر الأربعة الرئيسية فى هذه العملية هى :

١ - المرسل وهو الخطيب نفسه .

٢ - الرسالة وهى الأفكار والمفاهيم والاتجاهات التى يرغب الخطيب أن يتعلم الناس إياها .

٣ - المستقبل وهو جمهور المستمعين .

٤ - وسيلة الاتصال وهى اللغة فى صورة موجات صوتية يحملها الهواء إلى آذان المستمعين / وبالمثل عندما يشرح المدرس لتلاميذه نظرية فى الهندسة المستوية تكون الاربعة عناصر الرئيسية فى هذه العملية هى المرسل وهو المدرس ، الرسالة وهى الحقائق الهندسية ، المستقبل وهو جمهور التلاميذ ، الوسيلة وهى اللغة اللفظية والرموز التصويرية التى يسجلها على السبورة ، والنماذج التى يستخدمها المدرس لتوضيح الرسالة وغيرها .

وتتضح نفس هذه العناصر أيضا فى مشهد من مسرحية إذ يكون المرسل فى هذه الحالة هو الممثل أو مجموعة الممثلين الذين يقومون بالتمثيل ، والرسالة هى مجموعة الأفكار والاتجاهات والاحساسات التى يرغب مؤلف الرواية فى نقلها إلى جمهور المتفرجين والمستقبل هو جمهور المتفرجين فى المسرح أما وسيلة

الاتصال فهى اللغة اللفظية والأصوات الأخرى التى يسمعها المتفرج ، وكذلك الحركات التى يؤديها الممثلون مضافا إلى ذلك كل ما حولهم من مناظر يراها المشاهد .

ونستطيع مما سبق أن نعرف هذه العناصر تعريفا عاما كما يأتى :

١ - المرسل Sender :

[هو الهيئة أو الفرد الذى يود التأثير فى الآخرين ليشاركوه فى أفكار واحساسات واتجاهات معينة]، كالمفكرين والفلاسفة والمدرسين والمرشدين الاجتماعيين والمذيعين ورجال الاعلام ... الخ وقد تكون هذه الأفكار والاحساسات من ابتكار المرسل نفسه ، كما يفعل المفكرون والفلاسفة عندما ينشرون بأنفسهم أفكارهم على الناس بالخطابة أو بالكتابة والتأليف ، أو من ابتكار غيرهم كالمدرس الذى يدرس لتلاميذه الحقائق العلمية التى توصل إليها مختلف العلماء ، أو ناقلا لها عن الغير مثل مذيع نشرة الأخبار فى التليفزيون والاذاعة .

٢ - المستقبل Reciever :

[هو الفرد أو الجماهير التى يوجه إليها المرسل رسالته] فالصديق الذى يستمع إلى صديقه ، والتلاميذ فى حجرة الدراسة ، والفلاحون المجتمعون مع المرشد الزراعى وجماهير المسرح ، والجماهير التى تستمع إلى الراديو أو التليفزيون أو تقرأ الصحف والمجلات والكتب ، جميعهم مستقبلون .

٣ - الرسالة Message :

[هى الأفكار والمفاهيم والاحساسات والاتجاهات التى يرغب المرسل فى إعلام الآخرين بها] فالحقائق العلمية التى يقدمها المدرس لتلاميذه رسالة ، والاتجاهات الفكرية التى يرغب المفكر الاجتماعى فى تعليم الناس اياها رسالة

والاحساس بالفرح أو بالحزن الذى يحاول الفنان أن يشرك الجمهور فيه رسالة ، والفكرة الجديدة التى يود المصمم للإعلان أن يفهمها للناس رسالة ، والكتاب بمحتواه العلمى أو الثقافى رسالة وهكذا ...

٤ – وسيلة الاتصال The Channels of Communiciation :

هى المنهج الذى تنقل به الرسالة من المرسل إلى المستقبل ، فاللغة اللفظية والكتب والمجلات والصحف والتصميمات والاعلان والملصقات والاشارات ، والحركات ، والصور والتماثيل ، وأفلام السينما والتليفزيون كلها وسائل لنقل الرسالة .

والآن نفسر ببساطة هذه العناصر الأربعة موضحين الشروط اللازم توفرها فى كل منها لتنجح عملية الاتصال .

الشروط اللازمة لنجاحها :

١- المرسل : سبق أن ذكرنا أن المرسل هو الهيئة أو الشخص الذى يود التأثير فى الآخرين ليشاركوه فى أفكار واحساسات واتجاهات معينة سميناها رسالة ، ووظيفته أن يضع فكرة الرسالة ثم يصيغها فى كلمات أو تصميمات أو حركات أو اشارات أو صور لكى ينقلها للآخرين . ولذلك يجب[١] أن يكون ملما برسالته[٢] عارفا لكيفية تصميمها بطريقة تجذب انتباه المستقبل وتساعده على ادراكها حتى يضمن بهذا نجاح عملية الاتصال . ذلك هو السبب فى اهتمام كليات الإعلام ومعاهد وكليات الفنون الجملية والتطبيقية بتدريس الأسس النظرية والعملية لمادة التخصص الإعلامي ، ثم تدريب الطالب الناشىء على كيفية الكتابة طرق التصميم ، وتدريبه على كيفية الاتصال بالناس ، كرجل اعلام للمستقبل القريب وكيف يعد البرامج وطريقة إرسالها . لأن معرفة المرسل بموضوع الرسالة وحده لا يكفي لأن اجادته لطريقة تبليغ هذه الرسالة لا تقل عن ذلك أهمية .

يراعى المرسل الناجح مدى استجابة المستقبل لرسالته ، ففى الاتصال الشخصى المباشر الذى يتم وجها لوجه بين شخص وآخر ، أو بين شخص ومجموعة من الناس يهتم المرسل بالدلائل التى تعطيه فكرة عن مدى تتبع المستقبل لرسالته واستجابته لها ، فقد يحاضر أستاذ فى موضوع ما ثم يلاحظ عدم انتباه السامعين له ، أو كثرة تحرك البعض فى كراسيهم أو النظر إلى ساعاتهم أو يسمع همهمة بعض المستمعين ، وهذه كلها أدلة على وجود شىء يعطل نجاح عملية الاتصال . وقد يحاضر آخر فيلاحظ أبصار الناس متعلقة به ، ولهفهم لسماع كلماته ، أو مقاطعتهم له بالتصفيق وهذه دلائل نجاح الاتصال ، وتعرف كل هذه الدلائل التى أشرنا إليها فى الحالتين « بالرجع » "Feed - Back" ويأخذ الرجع فى حالة الاتصال غير المباشر صورة أخرى كأن يقل أو يزداد ايراد شباك التذاكر لفيلم ما ، أو تنفذ طبعة كتاب جديد بسرعة ... الخ .

وينبغي على المرسل – ضمانا لنجاح عملية الاتصال – أن يعدل رسالته أو طريقة إرسالها فى ضوء الرجع سواء كان مباشرا أو غير مباشر .

الرسالة : عرفنا أن الرسالة هى الأفكار والمفاهيم والاحساسات والمهارات والاتجاهات التى يرغب المرسل فى اشراك المستقبل فيها ، وأن نقل الرسالة يتطلب صياغتها فى كلمات أو تصميم أو صور أو إشارات رمزية أخرى . فقد ينقل المرسل الاحساس بالفزع فى صورة صرخات ، والاحساس بالفرح فى صورة ابتسامات أو وجه مشرق . وتراعى الشروط الثلاثة الآتية فى اعداد الرسالة أو التصميم لضمان استجابة المستقبل لها .

(١)- ينبغى أن تصمم الرسالة بحيث تجذب انتباه المستقبل لأن من الصعب نجاح عملية الاتصال إذا كان المستقبل غير منتبه إلى الرسالة ، ولذلك يجب على المرسل أن يراعي العناصر الآتية ليضمن انتباه المستقبل إلى رسالته :

أ – مدى حاجة المستقبل إلى موضوع التصميم أو الرسالة ، فالتحدث فى مكافحة دودة القطن مع الفلاحين أكثر جذبا لانتباههم من حديث عن « تأثر الموسيقى الشعبية بالموسيقى الغربية » .

ب – صياغة التصميم أو الرسالة بحيث تحتوى على مثيرات تضمن استمرار انتباه المستقبل وتشوقه لمتابعة الرسالة . كالقاء الأسئلة وإثارة المشكلات المناسبة خلال عملية الاتصال .

جـ – اختيار المكان المناسب لوضع الرسالة ، فأنسب مكان لتعليم العوم هو حوض السباحة أو شاطىء البحر . وأنسب مكان للكتاب هو المكتبة وبائع الكتب ... ألخ .

د – اختيار الوقت المناسب لاستقبال الرسالة ، فبدء دخول الصيف أنسب وقت للتحدث مع الأمهات عن خطر إصابة الأطفال بالاسهال الصيفى وطرق علاجه .

(٢)- ينبغي أن يصوغ المرسل رسالته صياغة تناسب المستقبل فلا يستعمل إلا اللغة والوسائل والرموز التي يفهمها هذا المستقبل ، فالرمز اللفظي المكتوب « أسد » هو كلمة اصطلح لغوياً على كونها تدل على حيوان له خصائص تميزه عن غيره من الحيوانات ، والصوت الناتج عن نطق هذه الكلمة « أسد » له المدلول السابق نفسه . وعلى ذلك فالكلمة المكتوبة أو المسموعة ترتبط قراءتها أو سماعها بمدلول خاص ، ومن الضروري أن يكون المستقبل قادرا على الربط بين الرمز ومدلوله ، والخبرة الحقيقية أو الشيء الملموس المتعلق بالرمز حتى يفهم الرسالة . فلو قرأ شخص لافتة كتب عليها بخط واضح « احترس من الأسد » دون سابق خبرة بكلمة « أسد » لما نقلت اللافتة إليه إلا قليلا من المعنى ، وبعبارة أخرى لا تنجح عملية الاتصال . ولكنه إذا عرف معنى الرمز استطاع أن يدرك رسالة اللافتة ، وتصرف تصرفا يمليه عليه إدراكه لها .

وستطيع أن ندرك أهمية فهم الرمز لنجاح عملية الاتصال بصورة أوضح إذا تصورنا شخصين يتحدثان بلغتين مختلفتين فإنهما لا يقدران على التفاهم عن

طريق الكلام أو الكتابة لعجز كل منهما عن الربط بين الألفاظ التى يسمعها ومعانيها . لذلك يلجأ هذان الشخصان فى تفاهمهما إلى استخدام الإشارات باليد تارة ، وبالرأس تارة أخرى كما يستخدمان اشارات أخرى كالابتسامة مثلا للدلالة على الشكر والرضى إذا ما قدم أحدهما خدمة للآخر وهكذا .

وعلى ذلك فالاهتمام باختيار الرموز التى تنقل الرسالة إلى المستقبل شرط رئيسى لنجاح عملية الاتصال .

(٣) - ينبغى أن تثير الرسالة أو التصميم فى المستقبل شعورا بحاجته إلى موضوع الرسالة وأن تقترح طرقا لسد هذه الحاجة بحيث تناسب هذه الطرق الظروف المحيطة به . فقد تصمم الرسالة لتثير فى نفس المستقبل شعورا بحاجته إلى تغيير عادة التدخين وذلك باشعاره بخطورة الافراط فى التدخين ، ولكن لا ينبغى أن يترك المرسل المستقبل عند هذا الحد بل يقدم له طرقا يتبعها ليستطيع أن يمتنع عن هذه العادة .

مثال آخر : كثير من شبابنا غير مقبل على القراءة ، وقد يحاول أحد المدرسين اشعار تلاميذه بحاجتهم الماسة إلى القراءة والاطلاع المستمر المتجدد ، وقد يشعر التلاميذ بحاجتهم فعلا إلى القراءة ، ولكن إذا لم يقترح المدرس لهم طرقا تشبع هذه الحاجة كانت عملية الاتصال قاصرة عن بلوغ الهدف ، ولذلك من الضرورى ارشاد التلاميذ إلى كيفية القراءة المفيدة وإلى أسماء وعناوين الكتب الثقافية الشيقة وكيفية الحصول عليها بأبسط مجهود وأقل تكاليف ، عندئذ تنجح عملية الاتصال بتوكيد الحاجة عند التلاميذ للقراءة ثم تشبعها بتوفير الكتب اللازمة .

٢- المستقبل :

وضحنا قبل ذلك أن المستقبل هو الشخص أو الجماهير التى تستقبل الرسالة ، وأن الرسالة أو التصميم تصل إلى المستقبل فى صورة رمزية غالبا فيبدأ المستقبل فى تفهم الرسالة بالربط بين الرمز ومعناه وتعرف هذه الخطوة الأخيرة بترجمة الرموز .

يتفهم المستقبل الرسالة في ضوء خبراته السابقة وحاجاته وكلما تشابهت خبراته مع خبرات المرسل المتصلة بموضوع الرسالة ازداد فهمه .

ولتوضيح ذلك نأخذ مثلا من يحاول شرح « قانون الطفو » لطفل في الثالثة من عمره ، ونقارنه بآخر يحاول تعريف الدجاجة لنفس الطفل فمجال خبرة الطفل لا يكفي لتفهم الاصطلاحات والمعاني والأسس والفروض التي يقوم عليها هذا القانون ، بينما يسمح هذا المجال بأن نعطيه فكرة عن الدجاجة وتزيد هذه الفكرة وضوحا إذا صاحب الشرح صورة للدجاجة . وتزداد وضوحا إذا أخذنا الطفل إلى حظيرة الدواجن ليرى الدجاجة بنفسه . ومن هنا نستطيع القول أن اعتبار المرسل لخبرات المستقبل السابقة ضرورة هامة لنجاح عملية الاتصال .

هناك أربعة احتمالات نتوقعها من المستقبل للرسالة أو التصميم :

(ا) فهم الرسالة فهما كاملا بمعنى مشاركة المستقبل للمرسل في الأفكار والاحساسات التي تنقلها .

(ب) فهم الرسالة فهما غير كامل ، كأن يفهم أجزاء منها دون الأخرى ، كالمستمع الذي يفهم بعض النقط من محاضرة .

(جـ)فهم الرسالة فهما خاطئا بسبب تفسير المستقبل للرموز المستخدمة في ضوء خبراته غير المشابهة لخبرات المرسل ، ومثال ذلك الأفكار الخاطئة التي يخرج بها بعض المشاهدين لأفلام سينمائية تختصر زمن حدوث الأشياء فيفهمون أن الأحداث قد وقعت في وقت مماثل لذلك الوقت الذي استغرقته في أثناء عرض الفيلم .

(د) عدم فهم الرسالة نهائيا بسبب استخدام المرسل لرموز غير مألوفة للمستقبل كأن يستخدم المرسل كلمات صعبة فوق المستوى اللغوي للمستقبل .

فنحن جميعا ذوي خبرات مختلفة ولذلك فاننا نختلف في قدر ما نملك من

معلومات ، ولذلك فإن الرسالة الرمزية إلى شخص ما ، لايمكن أن يعى مضمونها نتيجة اختلاف خبرته عن خبرة الراسل . لذلك نقول أن فهم مدلول المصطلح المرسل يتوقف على الخبرة الخلفية للمستقبل .

يعتمد احتمال تغير سلوك المستقبل على مدى تفهمه للرسالة . فلو أن الرسالة وجهت إلى شخص يدمن التدخين وكانت عن مضار التدخين وضرورة الاقلاع عنه ، وعرضت الرسالة بوضوح كاف بحيث أمكن للمستقبل فهمها فإن احتمال تغير سلوكه يكون كبيرا ولكن هذا يجعلنا نذكر القارىء بالعوامل الأخرى التى لا تقل أهمية عن هذا الفهم فى تأثيرها على سلوك المستقبل ، وهي العوامل التى سبق ذكر بعضها مثل المجال الذى استقبلت فيه الرسالة ، وحاجات المستقبل وظروفه النفسية والصحية والاجتماعية والاقتصادية .

٤ - وسيلة الاتصال :

سبق أن عرفنا الوسيلة بأنها المنهج الذى تنقل به الرسالة من المرسل إلى المستقبل . فكما يتطلب انتقال الصوت من مصدره إلى أذن المستمع وسطا تنتقل فيه الموجات الصوتية ، كذلك يتطلب انتقال الرسالة من المرسل إلى المستقبل أو بالعكس وسيلة ما تسمى أحيانا قناة . ومن هذه الوسائل أو القنوات اللغة اللفظية مكتوبة ومقروءة ، والاشارات ، والرسم ، والتمثيل ... والخ . وتستخدم الوسائل التكنولوجية الحديثة مثل السينما والراديو والتليفزيون والفيديو والتلكس والفاكس فى توصيل الرسالة إلى عدد كبير من الناس .

ووسائل الاتصال كثيرة ومتنوعة فالاشارات الحركية بعد وسيلة هامة يستخدمها افراد القوات المسلحة كما يستخدمها فتيان الكشافة والاشارات بالأعلام للاتصال بعضهم ببعض حينما تفصل بينهم مسافة يتعذر معها سماع صوت الانسان بوضوح . والاشارات الضوئية وسيلة من وسائل الاتصال تستخدمها السفن العابرة للمحيطات . والحركات الجسمية وسيلة ، أيضا ،

كحركة اليد للتحية أو للاستغاثة أو لاظهار عدم الاهتمام بشيء ما ، وكتحريك عضلات الوجه للابتسام أو لاظهار الامتعاض ... الخ وقد اشتهر عهد السينما الصامتة بالاعتماد على حركة الممثلين للتعبير عن احساساتهم وما يدور فى خلدهم . ولحركات الممثل على خشبة المسرح أيضا نصيب كبير فى التعبير عن الدور الذى يقوم به وحركات المدرس واشاراته فى حجرة الدراسة وسيلة يتعرف بها التلاميذ على كثير من المعلومات .

ولا تقتصر وسائل الاتصال على الاشارات أو الحركات الجسمية بل قد تكون الأشياء الطبيعية أو المنتجات الصناعية وسيلة للإتصال تنقل إلى الانسان رسالة كبيرة المعنى ، فما نعرفه عن حضارة قدماء المصريين مثلا لم يصل إلينا من دراستنا لأوراق البردي أو الرموز المرسومة أو المنحوتة على مخلفاتهم فحسب ، وانما نقلت إلينا آثارهم القائمة نفسها كالأهرامات وأبو الهول والمعابد الشيء الكثير ، ولا تزال مصدرا من مصادر معرفتنا وفهمنا لحضارتهم . وزيارة الوفود الدبلوماسية أو السائحين لمعالم البلاد التى يزورونها أو مصانعها أو مزارعها كفيلة بأن تعطيهم معلومات ومعارف كثيرة عن البلاد التى زاروها حتى قد تؤثر فيهم أكثر مما يفعل الكلام .

والتماثيل التى ينحتها الفنانون وسيلة للاتصال ، فهى تعبر عن احساساتهم وأفكارهم التى يصعب تصويرها لغويا ، وكذلك الرسم والتصوير الفوتوغرافى والموسيقى والتصميمات والملصقات والاعلانات فهى وسائل للتعبير تمتاز عن الكلام وحده – أحيانا كثيرة – فى القدرة على توصيل الاحساسات والأفكار ، ولعل المثل الصينى المعروف « صورة خير من ألف كلمة » على جانب كبير من الصحة ، وان كانت المفاضلة بين وسائل الاتصال المختلفة تتوقف على طبيعة الرسالة ، والظروف المحيطة بالمرسل والمستقبل .

اللغة وهى الرموز اللفظية المكتوبة والمسموعة من أهم وسائل الاتصال استخداما وأكثرها شيوعا فى الحياة اليومية . ويرجع شيوعها إلى سهولة تداولها والاعتياد عليها منذ الطفولة ، وكذلك فهى لا تتطلب ممن يستعملها أجهزة

خاصة ، وقد دفعت كثرة استخدامها فى نواحى الاتصال المختلفة فى الحياة اليومية الكثيرين إلى الاعتقاد الخاطىء بأن اللغة اللفظية وحدها هي وسيلة الاتصال الأصلية ، وأن ما عداها من وسائل كماليات تعين على الاتصال .

نحن لا ننكر دور الوسائل اللفظية فى إيضاح المفاهيم فى حياتنا اليومية وفى التدريس ، ولكننا نعارض اعتبار اللغة اللفظية الوسيلة الوحيدة للاتصال وأن الوسائل الأخرى زيادات تسندها أو تساعد فقط على نجاح عملية الاتصال ، ونرى أن الوسائل الأخرى لغات تتميز بمميزات خاصة تقف جنبا إلى جنب مع مميزات اللغة اللفظية .

وما دامت أهداف عمليات التعليم والاعلام ، تنطوى على أكثر من إعطاء حقائق ننقلها باللغة اللفظية ، وتشتمل على تكوين الاتجاهات وتعليم المهارات واكتساب العادات الطيبة ، كان من الصعب تحقيقها عن طريق اللغة اللفظية وحدها ، لذلك ظهرت الحاجة إلى استخدام وسائل الاتصال المختلفة لتحقيق هذه الأهداف . فقد تكون الصورة وسيلة أكثر إثارة لعاطفة الانسان وتكوين اتجاه فكرى عنده نحو النظافة أكثر مما تفعل اللغة اللفظية . وتكون الوسائل التى تعرض الحركة أكثر فائدة فى تعليم المهارات من الصور الثابتة أو الوصف الكلامى لهذه المهارة . وهذا يشير إلى ضرورة اختيار وسائل الاتصال التى تناسب الهدف المقصود ، وكلما بعدت الفكرة المراد اشراك المتعلم فيها عن مجال خبرته المباشرة زادت الحاجة إلى استخدام وسائل اتصال تقدم نواحى ملموسة عن هذه الفكرة .

يدعو تفاوت الناس فى استعداداتهم الفطرية والمكتسبة ، وفى مقدار استفادتهم من لغة الكلام ومن وسائل الاتصال الأخرى أن يضطر ، رجل الاعلام أو المدرس إلى استخدام أكثر من وسيلة لتحقيق الأهداف الاعلامية والتربوية لنجاح عمليات التوجيه . نلحظ ذلك فى حياة الناس فبعضهم يفضلون الاستماع إلى نشرة الأخبار ، بينما يفضل آخرون قراءتها فى الصحف أو مشاهدتها على شاشة التليفزيون ، ويقضى بعض هواة الأدب وقتا ممتعا فى قراءة مسرحية لكاتب

مشهور ، بينما يفضل البعض الآخر مشاهدة هذه المسرحية على قراءتها . وعلى ذلك فالتنويع فى استخدام الوسائل المختلفة يزيد من فرص مقابلة الفروق الفردية بين الأفراد المستقبلين ومن ثم يؤكد نجاح عملية الاتصال .

ان لكل وسيلة من وسائل الاتصال مزايا ونواحى قصور ، وعلى المرسل أو المصمم،المفاضلة بين هذه الوسائل على أساس مقدار مساهمتها فى توصيل رسالته . وتتطلب هذه المفاضلة دراسة خصائص كل وسيلة وكيفية استخدامها والقواعد الخاصة لهذا الاستخدام ، وسنحاول تقديم وسائل الثقافة والاتصال الانسانى فى الصفحات التالية .

وسائل الثقافة والاتصال الانسانى :

وسائل الثقافة والاتصال كثيرة ومتنوعة ، وقد ازداد الاهتمام بدراسة هذه الوسائل ، وتحديد الخصائص والسمات التى تتميز بها كل وسيلة ، وقياس مدى تأثيرها على الرأى العام . وذلك لأن لكل واحدة من هذه الوسائل طبيعة خاصة تميزها عن الوسائل الأخرى ، وقد تقدمت البحوث المعاصرة ، ولاسيما فى الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا فى دراسة وتحليل وسائل الاتصال المختلفة . وتنقسم هذه الوسائل إلى ما يلى :

١ – الوسائل المطبوعة :

وتشتمل هذه الوسائل على : الصحف ، والمجلات ، والدوريات ، والكتب ، والنشرات ، والكتيبيات واللافتات ، والملصقات . وهى الوسائل الإعلامية التى تنتجها الآلات الطباعية المختلفة .

٢ – الوسائل السمعية :

وتشمل الإذاعة ، والتسجيلات الصوتية المختلفة ، وغيرها من الوسائل التى تعتمد على عنصر الصوت وحده .

٣ - الوسائل البصرية :

وتضم هذه الوسائل : المعارض ، والملصقات والطوابع والشعارات والنصب التذكارية ، والأعلام ، واللافتات ، وغير ذلك من الوسائل التى تعتمد على حاسة النظر وحدها .

٤ - الوسائل السمعية البصرية :

وتضم الوسائل التى تجمع بين الصوت والصورة ، مثل العروض السينمائية ، والتليفزيون ، والمسرح والفيديو .

٥ - وسائل الاتصال المواجهى (الوسائل الشفوية) وتشمل :

(ا) الاتصال الشخصى المباشر بين شخص وآخر فى أى موقف حوار .

(ب) الاتصال الجمعى بين شخص ومجموعة من الناس بشكل مواجهى وتتمثل فى الندوات والمناظرات والمحاضرات وخطب رجال الدين .

ولكل واحدة من هذه الوسائل مجال معين تستخدم فيه بنجاح ، وقد لا تصلح فى مجال آخر ، كما أن لكل وسيلة تأثيرها الخاص فى نوعيات معينة من الجماهير قد لا تؤثر فى نوعيات أخرى ، إلا أنه إذا اجتمعت الصورة مع الصوت فى وسيلة واحدة كان لذلك وقع فى النفوس يفوق استخدام إحداهما فقط بدرجة كبيرة .

وقد أصبحت الوسائل المرئية تشكل حوالى ٧٥٪ من حصيلة المعرفة الإنسانية ، وتعتبر هذه الوسائل من أقوى وسائل الاتصال فى الوقت الحاضر والرسالة الإعلامية المكتوبة أو المسموعة التى قد يساء فهم مضمونها بدون صورة يمكن أن تصل إلى أذهان الجمهور غالبا فى لحظات وجيزة وبشكل أوضح ، وذلك مع استخدام الصورة . وفى الحقيقة فإن الصورة يمكن أن تقص علينا قصة كاملة دون ما حاجة إلى تدعيمها بالكلمة إذا ما توافرت فيها عناصر الجاذبية

والاستهواء المباشر ومسايرتها للزمن[1] .

إلا أن كل وسيلة من الوسائل السابق ذكرها تتوافر لديها قدرة معينة على إحداث أثر ثقافى إعلامى معين بدرجة ما .

وسوف نتناول فى هذه الصفحات بشيء من الاختصار أبرز وسائل الاتصال التى تلعب دورا حيويا فى الحياة المعاصرة لنعرض طبيعة هذه الوسائل والصفات التى تميزها عن الوسائل الأخرى والمجال المناسب لعمل كل منها .

وهذه الوسائل هى :

١ - الإذاعة .
٢ - التليفزيون .
٣ - الوسائل المطبوعة (وتضم الكتب والصحف والمجلات والكتيبات والنشرات وغير ذلك) .
٤ - العروض السينمائية .
٥ - وسائل الاتصال المواجهى .

أولا : الإذاعة :

الراديو هو وسيلة الاتصال التى لم تضارعها حتى الآن وسيلة أخرى فى قوة تأثيرها ولاسيما فى المجتمعات الريفية ، ويتميز الراديو بمجموعة من الخصائص التى ينفرد بها عن سائر وسائل الاتصال الأخرى وهى :

١ - أن موجاته قادرة على اختراق كل أنحاء العالم فى أقل من لمح البصر ، وقد أكدت الدراسات أن موجة الأثير تدور حول الكرة الأرضية فى نحو ثمن ثانية ، لا يقف فى سبيلها حدود أو حواجز سياسية أو طبيعية ، ولذلك فالمذياع يعتبر أقدر وسائل الاتصال فى سرعة نقل الأخبار[2] . منذ أن ظهر الراديو إلى الوجود

(١) نخبة من خبراء العلاقات العامة بانجلترا . العلاقات العامة فى مجالات التطبيق العملى . ترجمة حسين الديب . ص ٢٥٩ .

(٢) عبد اللطيف حمزة . الإعلام له تاريخ ومذاهبه . ص ٢٠ .

وهو يلعب دورا حيويا فى تزويد العالم بالأخبار بسرعة وكفاءة ، وقد ظلت هذه الصفة الإعلامية هى التى تميز الراديو . ذلك أنه إذا لم يتوافر عنصر السرعة فى الخبر الإذاعى فان تفوقه فى نقل الأخبار سوف يضعف ويضمحل .

٢ - يستطيع الراديو أن يخاطب كل الفئات والطوائف مهما اختلفت درجة التعليم بينها ، وعلى هذا فإنه وسيلة مناسبة لمخاطبة الأميين ، نظرا لأنه لا يتطلب أدنى درجات القدرة على القراءة والكتابة وانما يتطلب من الانسان أن يستمع فقط لما يقال .

٣ - لا يحتاج الراديو إلى مجهود من جانب المستمعين فهو لا يتطلب تركيزا كاملا لمتابعة برامجه ، حيث أنه من الممكن للمرء أن يمارس أى عمل يدوى أثناء استماعه إليه ، ولهذا فهو وسيلة مناسبة لربات البيوت حيث يستطعن تأدية عمل المنزل فى نفس الوقت الذى يتابعن فيه الاستماع للراديو ، أى أنه يعتبر وسيلة سهلة تبقى الناس على علم دائم بما يدور حولهم من أحداث . والراديو هو الوسيلة الوحيدة التى لا تستحوذ على العين ، أى أنه يمكن أن يخدم الجمهور أثناء تناوله الطعام ، وأثناء قيامه بالعمل المنزلى ، وأثناء نهوضه من النوم . واستحمامه ، وشرائه متطلباته من السوق ، وكذلك أثناء طهو الطعام ، وأثناء النزهة ، والمعسكرات ، والذهاب للنوم ... إلخ . وأصبح المذياع لذلك الصديق الدائم . ودعم من هذا الدور الهام للراديو اختراع أجهزة الكاسيت الحديثة الخفيفة الوزن التى ظهرت منذ بداية الستينات .

٤ - يستطيع الراديو أن يصل إلى جماعات خاصة مثل الأفراد الكبار جدا فى السن والأقل تعليما ، والأطفال ، وغير ذلك من الجماعات المختلفة التى قد يصعب علينا الوصول إليها بوسائل الإعلام الأخرى[1] .

يستطيع الراديو أن يجذب المستمع ويستحوذ على اهتمامه لمتابعة برامجه ، وذلك لأنه يستخدم عناصر ثلاثة تضفي على المادة الإذاعية جاذبية خاصة ،

(١) جيهان رشتى . الإعلام ونظرياته فى العصر الحديث . ص ٣٢٣ .

وهذه العناصر الثلاثة هى : المؤثرات الصوتية ، والموسيقى ، والحوار . وهذه العناصر الثلاثة تجتذب المستمع للراديو ، وتوقظ انفعالاته وتخلق جوا من الصداقة والعلاقات الإنسانية[1] .

٦- يؤثر الراديو فى أغلب الناس تأثيرا خاصا ، وهو تأثير التوجيه الشخصى الخاص ، فينقل إلى السامع عالما من التفاهم غير المنظور ، موفرا له بذلك خبرة خصوصية ، فيمس أغوار النفس البشرية ، كذلك فإن طبيعة الراديو نفسه كأداة مملوكة للسامع يشعر معه أن الحديث موجه إليه هو ، ويرجع إحساس السامع بملكيته وحده لحديث الراديو إلى وضوح الصوت أيضاً ، لأن الراديو يقدم صورة صوتية واضحة ، ويمثل إمتدادا للقوى السمعية والصوتية عند الإنسان ، والصورة السمعية هى أول ما يربط بين أفراد المجتمع الإنسانى غير القارىء

٧- يتميز الإعلام الإذاعى بأن تأثيره يزداد عمقا وخطورة كلما كانت البيئة قليلة الحظ من الثقافة والتعليم ، وكذلك كلما انخفض المستوى الاقتصادى والمعيشى للأفراد ، وذلك نظرا لأن أجهزة الراديو تتوافر فى الغالبية العظمى من البيوت ولا يكاد يخلو منها مقهى أو مطعم أو باخرة أو سيارة أو قطار . والاتصال الإذاعى لا يتطلب من المستمع مقدرة ثقافية معينة ، كما تتطلب منه وسائل الاتصال الأخرى . ولكثرة وجود أجهزة الراديو فى كل مكان ، يلجأ الناس إلى التجمع حول أى جهاز فى الطريق ، فى المنزل ، أو فى المقاهى . وفى القرية المصرية نجد جهاز الراديو مفتوحاً باستمرار عند البقال ليس فقط لتسلية صاحب المحل ولكن لخدمة وجذب زبائنه وأصدقائه[2] .

---

(١) Barnouw, Erik: Ibid. p.p. 156-158.

(٢) فتح الباب عبد الحليم ، إبراهيم حفظ الله . وسائل التعليم والإعلام . ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

والإذاعات إما أن تكون حكومية تابعة للدولة ، أو أهلية تديرها شركات مساهمة، والنوع الأول هو الأكثر انتشارا ، ويكاد يكون هو النوع الذى تعتمد عليه الدول ، سواء من ناحية توجيه مواطنيها وإرشادهم ، أو الترفيه عنهم وجذب انتباههم . أما النوع الثاني وهو الإذاعات التى تؤسسها الشركات فيوجد غالبا فى الدول الرأسمالية ، إذ أنها تستخدم الإعلانات التجارية استخداما واسعا ، أى أنها إذاعات إعلان قبل أن تكون إذاعات للتوجيه والإرشاد ، وفى الولايات المتحدة الأمريكية تكثر مثل هذه الاذاعات بصفة خاصة . وفى البلدان النامية تكون الاذاعات حكومية وموجهة .

ضرورة التليفزيون والراديو :

للراديو مجالاً لا يستطيع أن ينافسه فيه التليفزيون ، وقد دلت البحوث التى أجريت فى هذا الصدد أن الأفراد الذين يملكون أجهزة التليفزيون لا يستطيعون الاستغناء عن الراديو بأى حال . فامتلاك الراديو ضرورة إلى جانب التليفزيون فى كل الأسر التى تمتلك الوسيلة ، حيث أن التليفزيون يعتبر أكثر ضرورة من الراديو لبرامج معينة تتطلب الصورة والألوان ، وأحيانا كثيرة يكون الراديو أكثر أهمية لبرامج أخرى المرتبطة بالدين والتعليم والعادات والتقاليد .

ولذا فقد بدأت محطات الراديو تغير كثيرا من برامجها بما يلائم جمهورها الجديد بعد اتساع نطاق التليفزيون ، فنشطت فيه مختلف البرامج التى تجذب المستمعين للراديو فى الأوقات التى لا يميلون فيها إلى مشاهدة التليفزيون مثل البرامج الدينية والتعليمية والثقافية والإعلامية والإخبارية المختلفة والموسيقى وأخبار الأسواق والأحاديث الخاصة بالزراعة والصناعة والتكنولوجيا والتعليم وغيرها[1] . كما أن هناك محطات إذاعية خاصة للموسيقى ، وأخرى للبرامج الثقافية ذات الطابع الخاص ، بجانب وجود محطات اذاعية للقرآن الكريم مع برامج فى التفسير والحديث وعلوم القرآن والفقه والأخيرة لها جمهور كبير فى كل أنحاء العالم .

(١) حسن سعفان شحاته : التليفزيون والمجتمع ص ٦٥ – ٦٨ .

ثانياً : التليفزيون :

يتميز التليفزيون بأنه يجمع العناصر الثلاثة المؤثرة فى خيال الجماهير وهى الصوت، والصورة، والحركة والتليفزيون يجذب الأطفال والعوام والطبقة غير المتعلمة بوجه عام ، ويتميز التليفزيون عن سائر وسائل الإعلام الأخرى بما يلى :

١ - أنه أقرب وسيلة للاتصال المواجهى . وقد يتفوق التليفزيون على الاتصال المواجهى . فى قدرته على تكبير الأشياء الصغيرة ، وتحريك الأشياء الثابتة .

٢ - أن برامج التليفزيون فى أغلبها برامج محلية وتختلف فى درجة اهتمامها بالبرامج الأجنبية وإحداث توازن بينهما ، نظرا لأن التليفزيون مازال محصورا فى دائرة الإرسال المحدد بعكس الراديو الذى تصل موجاته إلى كافة أنحاء المعمورة ، ولهذا فإن التليفزيون أقدر على مخاطبة الرأى العام داخل الوطن والتأثير فيه ، ولهذا فإن البعض يعتبره وسيلة محلية فى حين أنهم ينظرون إلى الراديو على أنه وسيلة عالمية ، نظرا لقدرته على مخاطبة الرأى العام العالمى .

٣ - تتطلب مشاهدة التليفزيون التفرغ الكامل لمتابعة برامجه ، والتركيز لذلك من جانب مشاهديه . بعكس الراديو الذى لا يشترط التفرغ وذلك التركيز لمتابعة برامجه .

٤ - يستطيع التليفزيون أن يقدم المادة الإعلامية قبل أن تمضى على حدوثها فترة زمنية طويلة ، إلا أنه لا يستطيع منافسة الراديو فى هذا السبيل .

٥ - أن التليفزيون يتفوق على مختلف وسائل الإعلام الأخرى بصورة منقطعة النظير فى الأحاديث السياسية التى يلقيها رؤساء الدول والحكومات والحكام والزعماء وقادة الرأى عن المسائل الدولية والقومية الهامة ، وكذلك الأزمات السياسية المحلية والدولية والثورات والحروب

والمباريات الرياضية الهامة(1) .

6 - أن وجود التليفزيون في المساكن يغني المشاهدين عن الذهاب إلى أماكن قد تكلفهم مجهودا لا يريدونه أو لا يقدرون عليه ، فهو وسيلة تيسر الإعلام للناس دون أن تكبدهم عبئا ماديا أو مشقة بدنية .

لكننا في النهاية نستطيع أن نقول إن التليفزيون يعتبر أحدث وسيلة عرفها الإنسان في مجال الإعلام فهو إذ يجمع بين الصورة والصوت وبذلك يستطيع أن يسيطر على حاستين من أهم حواس الإنسان وأشدها اتصالا بما يجرى في نفسه من أفكار ومشاعر . وهو إذ ينقل إلى المشاهد الأحداث أثناء حدوثها في أغلب الأحيان فإنه يربط بينه وبينها ، وينقلها إليه بكل ما فيها من معان وانفعالات ، وهو إذ ينقل إلى المشاهدين معلومات جديدة سواء في محيطهم أو خارج هذا المحيط فإنه بذلك يوسع نظرتهم للعالم بأسلوب سهل وبطريقة مشوقة ، وهو إذ يعرض المشاكل الاجتماعية القائمة في المجتمع فإنه يثير الوعي والإحساس بهذه المشاكل ، ويوجد دافعا وحماسا ورغبة للمساهمة في حلها ، كما يقوم التليفزيون بدور هام في تحقيق الترابط بين أجزاء الأمة . وتدل الابحاث على أن تأثير التليفزيون يفوق تأثير كل وسائل الاتصال الجماهيري الأخرى .

ثالثاً : الوسائل المطبوعة :

تعتبر الكتابة فنا حضاريا خالصا لاشك في ذلك ، وقد مارست الكلمة المطبوعة تأثيرها القوي في الجماهير بأشكال مختلفة . وتشمل الوسائل المطبوعة الكتب ، والنشرات ، والملصقات ، والصور ، والخرائط ، والصحف والمجلات والدوريات ، وغير ذلك .

وتتميز الكلمة المطبوعة بالعمق في التفكير ، والصبر على دقة البحث ، لأن المادة المطبوعة تحمل في طياتها الآراء المدروسة ، وتتيح المطبوعات للقارىء فرصة للتأمل والتمعن في الفكر المطبوع الذي بين يديه أكثر من مرة .

وهو في كل مرة يزداد تثبتا من الفكرة ويتمكن من تقليب وجوه الرأي

(1) حسنين عبد القادر . الرأي العام والدعاية وحرية الصحافة . ص ١٥٦ .

فيها ، وهو مالا يتاح للمستمع إلى مذيع فى الراديو أو التليفزيون ، أو المستمع إلى محاضر أو خطيب . وتتميز المطبوعات على وسائل الإعلام الأخرى بالصفات الآتية :

١ - إن المطبوعات أقدر على الاحتفاظ بالمعلومات التى لديها أطول مدة ممكنة ، وهى بهذا تتيح الفرصة للقارىء لكى يشاهد المطبوع أكثر من مرة ، ولكى يتثبت من بعض النقاط التى يود أن يركز عليها .

٢ - إن المطبوعات هى وسيلة الاتصال الوحيدة التى يستطيع القارىء أن يعرض نفسه عليها فى الوقت الذى يناسبه ويتفق مع ظروفه .

٣ - تمتاز المطبوعات أكثر من أى وسيلة أخرى بقدرتها على التصرف فى المادة التى تتضمنها فى أقل حجم ، وبأية تفصيلات تظهر الحاجة إليها .

ومعنى هذا أن المطبوعات هى أفضل وسيلة لتقديم الموضوعات الطويلة والمعقدة .

٤ - تستخدم المطبوعات بنجاح أكبر مع الجماهير المتخصصة ، مثل طلبة الجامعة وجمهور المثقفين وهواة القراءة والراغبين فى التعليم إلى غير ذلك .

٥ - تحتاج المطبوعات إلى مساهمة أكبر من جانب جمهورها بدرجة تفوق المساهمة المطلوبة لجماهير وسائل الاتصال الأخرى ، وذلك لأن المطبوعات لا تواجه جمهورها بمتحدث يسمعه كما يفعل الراديو ، أو يشاهده كما هو الحال فى التليفزيون أو العرض السينمائى ، ولهذا يسمح المطبوع بحرية أكبر فى التخيل والإلمام والتفسير وما شابه ذلك .

فالمستقبل لا يحس بأنه شخصيا جزء من عملية الاتصال كما يحس مستمع الراديو أو مشاهد التليفزيون والعرض السينمائى ، لأنه مضطر إلى أن يسهم بشكل خلاق فى نوع من أنواع الاتصال غير الشخصى[١] .

(١) نعمان ماهر الكنفانى . مدخل فى الإعلام . ص ٣١ .

٦ - تتميز المطبوعات بألفاظها وعباراتها المغرية بحيث تتوافر لها القدرة على زيادة القارىء . كما أنها تمتاز بالقدرة فى تقديم العنصر الثقافى العلمى ، حيث إنها لا تثير التشكيك فى نوايا المطبوع . كما تتميز بوضوح المقاصد والأهداف لأن الكلمة المطبوعة تتطلب هذا الوضوح . فالكتابة التى تدور حول المقصد ، أو تضطرب فى مجال الهدف دون أن تلمسه لا تترك أثرا لدى القارىء ، وخاصة إذا كان محدود الثقافة شأن الأغلبية التى تتألف منها عامة الناس . والمطبوعات يفترض دائما أنها تحتوى على مادة علمية مفيدة يحس بها القارىء ، لا فارغة يزهد فى قراءتها أو عدم الفائدة منها .

عوامل نجاح المطبوعات :

يتوقف نجاح المطبوعات على ثلاثة عناصر هى :

١ - المضمون أو الرسالة : وهو الموضوع الذى تتناوله هذه المطبوعات وطريقة معالجته ، حيث أن المادة التى تحتويها المطبوعات سوف تحتل المرتبة الأولى من حيث الأهمية . ومن هنا يجب مراعاة الأمانة والدقة فى تحرير المادة المطبوعة ، وأن تتم كتابتها بلغة صحيحة موضوعية .

٢ - المظهر : وهو الشكل الذى تظهر به هذه المطبوعات من حيث أساليب الطباعة والألوان ، والذى سيترتب عليه الانطباع المباشر الذى سيحكم عليه الجمهور من أول لحظة .

٣ - التوزيع والنشر : ويتم توزيع المطبوعات على ضوء معرفة الجمهور المستهدف الذى نرغب فى التوجه إليه . وهنا يجب أن نضع هذه الأسئلة الثلاثة نصب أعيننا بالنسبة للإعداد والتجهيز وأهم نقاط توزيع المطبوعات ، وهى : كيف ، ومتى ، ولمن ، توزيع هذه المطبوعات ؟ لأنها تمثل موضوع كتابنا هذا ، الموضوع المعروف باسم (قضية النشر)

رابعاً : السينما

قد أشارت البحوث التى أجريت على السينما فى الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية أن السينما من أقوى وسائل الاتصال بالنسبة للأطفال ، كما أثبتت البحوث التى أجريت فى أغلب دول العالم أن ثلثى رواد السينما من الشباب دون الثلاثين .

وقد أشارت البحوث إلى أن الوسائل السمعية والبصرية كالأفلام الناطقة تمتاز بتأثيرها القوى بحكم واقعية الصورة وحيويتها واقترانها بالصوت المعبر ، كما أثبتت التجارب أن الوسائل البصرية تمتاز بقدرتها الفائقة على الاستهواء ، ويؤكد معظم العلماء هذه النتيجة بالنسبة للأطفال فهم يصدقون ما يرونه من الأفلام حتى ليصعب جدا تعديل التأثيرات الناتجة عن المشاهدات السينمائية عند بعضهم ، وغنى عن البيان أن عادات الممثلين على الشاشة كالتدخين واختيار الأزياء سرعان ما تنتشر بين المراهقين وغيرهم من شديدى الحساسية للاستهواء[1] .

وأنه بالرغم من أن السينما هى أصلا وسيلة ترفيهية فإن الدول المختلفة الديمقراطية منها والدكتاتورية قد استغلت الأفلام فى مجال السياسة كما استغلها المعلنون فى مجال الدعاية التجارية . وهنا يجب التفريق بين الأفلام التجارية التى تحمل الدعاية بين طياتها ويذهب الناس لمشاهدتها بمحض إرادتهم والأفلام الدعائية القصيرة التى تنتجها سلطات الدولة المنوط بها شئون الأعلام ، والتى تعرض على الناس فى دور السينما والنوادى أو الميادين العامة والاجتماعات .

وقد اتضح أن الجمهور الذى تعرض عليه الأفلام الدعائية يتقبلها فى بعض الأحيان بالفتور وعدم الاهتمام .

وقد أهتمت أجهزة الثقافة والإعلام فى دول العالم بهذا النوع من النشاط الإعلامى بعد ما تأكدت قوة تأثيرها فى تحقيق رسالة الدولة فى مختلف الميادين ،

(١) إبراهيم إمام الاعلام والاتصال بالجماهير . ص ١٩٣ .

وبعد ما تأكدت قدرتها على نشر الوعي وبث الروح القومية لدى الجمهور ، ومن أجل هذا تعنى هيئة الاستعلامات وأجهزة الإعلام الزراعى والصحى وغيرها بإنتاج أفلام سينمائية تسجيلية تهدف إلى إعلام الجمهور بالمنجزات التى حققتها الدولة ، وتزويدهم بالمعلومات الحديثة فى كافة المجالات . ومعنى هذا أن السينما لم تصبح كما كانت من قبل مجرد وسيلة للترفيه وشغل أوقات الفراغ ، ولكنها أصبحت وسيلة اتصال لا تقل فى أهميتها عن أقوى الوسائل الإعلامية الحديثة .

والفيلم الإعلامى الناجح هو الذى تتوافر فيه الشروط الآتية(١) :-

١ - أن تكون فكرته مما ينفذ إلى شعور المشاهدين ويثير مشاعرهم ويحظى باهتمامهم .

٢ - أن يكون أسلوبه طريفا جذابا ، لا يرهق الأبصار ولا يثقل على الأعصاب .

٣ - أن تلائم أحداثه المعقول والمألوف .

٤ - أن يشير إلى هدف أو غاية محترمة لها مكانتها فى النفس .

٥ - أن يستخدم التوجيه بلباقة وحذر ، وإلا انقلب إلى دعاية قد تقابل بمعارضة .

٦ - أن يحسب عوامل الزمان والمكان والظرف المعروض فيه ، وليس من شك فى أن الفيلم الإعلامى الناجح يستطيع أن يؤثر فى المشاهدين تأثيرا بالغا فتنعكس آثاره عليهم مما يجذبهم إلى جانب الهدف أو الغاية التى يعرض الفيلم من أجلها .

السينما والتليفزيون :

معظم برامج التليفزيون تكون مسجلة على فيلم سينمائى ويتم ارسالها بواسطة آلة عرض خاصة فى محطات الارسال ، تحول الصورة والصوت إلى نبضات

(١) نعمان ماهر الكنفانى مدخل فى الإعلام . ص ٦٧ .

كهربائية تحملها موجات اللاسلكي إلى أجهزة الاستقبال التليفزيونى ، أو تكون مسجلة على شريط مغناطيسى يسمى « فديوتيب » وتستخدم فى محطات الارسال آلة خاصة لقراءة هذا الشريط وتحويل إشاراته الصوتية والمرئية إلى نبضات كهربائية تنقلها الموجات اللاسلكية إلى أجهزة الاستقبال . ومن هذا يتضح التشابه بين العمل السينمائى والعمل التليفزيونى ، ولكنهما يختلفان فى مجموعة من الصفات تميز أسلوب عمل كل منهما ، وهى[1] :

١ – أن التليفزيون أقدر على نقل الصور المتحركة الناطقة للأحداث لحظة وقوعها إلى الناس فى منازلهم أو مدارسهم أو مقار أعمالهم ، فى حين تتطلب السينما لتصوير الفيلم وتحميض وطبع نسخ منه وإعداده للعرض ثم توزيعه على الجهات المختلفة وقتا أطول .

٢ – يتميز التليفزيون على السينما فى أنه لا يتطلب من الجمهور أدنى درجات الاستعداد لمشاهدة برامجه ، بينما تتطلب السينما استعدادا معينا لمغادرة المنزل ، والتوجه إلى حيث يعرض الفيلم السينمائى . ولهذا فإن الظروف النفسية لمشاهدة التليفزيون تختلف عن الظروف النفسية لمشاهدة السينما ، نظرا لتوافر الجو العائلى ، والاسترخاء العام فى حالة التليفزيون . أما فى حالة السينما فالظروف تختلف باختلاف مكان المشاهدة والمشتركين فى هذه المشاهدة ، والجو العام الذى يحيط بهم .

٣ – إن التليفزيون يمكنه الاتصال بالجماهير فى أماكن متفرقة ومتباعدة فى وقت واحد ، بينما تعجز السينما عن ذلك ، لأن وصولها إلى الجماهير فى أماكن متفرقة ومتباعدة يستلزم ارسال نسخ من الأفلام السينمائية إلى هذه الجهات ، وتقوم هذه الجهات بدورها بتنظيم وقت عرض خاص لها ، كما يستلزم أيضاً تكرار عرضها للوصول إلى نفس العدد من الناس الذين قد يصل إليهم التليفزيون .

٤ – شاشة السينما تتيح فرصة تكبير الأجسام المعروضة عليها ، وقد تفصح

(١) فتح الباب عبد الحليم ، إبراهيم حفظ الله . المصدر السابق . ص ٣٨٣ .

الصورة المكبرة عن دقائق وتفاصيل يصعب إدراكها على شاشة التليفزيون الصغيرة ، فالصورة السينمائية بهذا تشمل تفاصيل أكثر وضوحا من الصورة التليفزيونية .

ونتيجة لهذا فإنه يفضل فى برنامج التليفزيون استخدام اللقطات المتوسطة والمكبرة والإقلال من اللقطات العامة ، كما يفضل أن تكون عناصر الصورة قليلة غير معقدة التكوين فى التليفزيون حتى لا تزدحم الشاشة الصغيرة ، ومن ثم يعجز المشاهدون عن متابعة ما يرونه عليه ، أما كبر حجم شاشة السينما فيؤدى إلى إمكانية حشد أعداد كبيرة من الناس فى مكان واحد لرؤية الصورة السينمائية ، بينما يصعب على أكثر من ثلاثين شخصا فى المتوسط الالتفاف حول جهاز تليفزيون واحد لمشاهدة برامجه بوضوح .

٥- تستطيع السينما استخدام الصور الملونة على شاشتها بتكاليف أرخص من التليفزيون ، لأن ارسال صور تليفزيونية ملونة واستقبالها ملونة أيضاً يتطلب تكاليف كبيرة فى محطات الإرسال ، ويتطلب أجهزة استقبال تليفزيونة ملونة أغلى فى أسعارها من أجهزة الاستقبال العادية . ولهذا فإن السينما الملونة سبقت التليفزيون الملون .

وإذا احتوت الصورة على الأشياء بألوانها الطبيعية ، أو بما يقرب منها بتعبير أدق كانت أقرب إلى واقع الشيء من الصورة بالأبيض والأسود وأحيانا تكون الصورة الملونة عنصرا رئيسيا فى نقل الرسالة ولاسيما عندما يكون الهدف توضيح أنماط فنية مثل طباعة القماش ، أو ألوان الخزف .

أثر التليفزيون على السينما :

السينما من وسائل الاتصال التى تأثرت بوجود التليفزيون ، وقد أكدت الإحصاءات أن رواد السينما قد قلت نسبتهم بعد ظهور التليفزيون وأنه كلما انتشر التليفزيون كلما أدى ذلك إلى إغلاق دور السينما ، كما تدل الإحصاءات على أن رواد السينما فى انخفاض مستمر بلا انقطاع ، ومن أجل هذا حاولت

دور السينما إغراء الأفراد بمختلف الحلول لجذبهم إليهم ، ولكن هذا لم يفلح فى حل المشكلة ، وكان لابد لهذه الشركات أن تحمى نفسها وذلك بأن تنتج أفلاما خاصة للتليفزيون ، كما قامت بتسهيلات كثيرة لكي توفر لشركات التليفزيون الأفلام السينمائية القديمة التى غطت نفقاتها وربحت منها هذه الشركات أرباحا طائلة فى الماضى ، غير أن فريقا من الباحثين يرون أن السينما لن يقضى عليها نهائيا ، لأنها توفر للناس جوا لا يستطيع المنزل أو أى مكان آخر توفيره لهم ، وذلك بصرف النظر عن الأفلام المعروضة ونوعيتها وقيمتها ، كما يرى عدد آخر من الباحثين أن التليفزيون قد يغنى الأفراد عن السينما فى السنين الأولى لاقتنائه فقط ، ثم بعد ذلك يسأم الأفراد منه ، ويضطرون للخروج من المنزل للسينما كالمعتاد . هذه آراء بعض الباحثين ، إلا أن جميع البحوث تكاد تكون مجمعة على أثر التليفزيون الضخم على الصناعة السينمائية المهددة بالزوال(١) .

خامساً : الوسائل الشفوية :

يعتبر الاتصال المواجهي أو الاتصال وجها لوجه بين المرسل والمستقبل هو الشكل الأول من أشكال الاتصال الإنسانى ، وظل هذا الشكل من أشكال الاتصال أكثر الوسائل المستخدمة شيوعا على مر التاريخ ، بل لقد ظلت هذه هى الوسائل الأساسية لاستمرار الحياة الإنسانية بوجه عام . وقد كان الاتصال والاتجاهات بهذه الوسائل ذا فعالية كبيرة لإعطاء التعليمات والحث على العمل ، كما كان أكثر تأثيراً لإحداث التغيير فى المواقف والاتجاهات ، وبقيت وسائل الاتصال الشفوى Verbal Communication حتى بعد اختراع الكتابة والمطبعة هى الوسائل التى ظل تفوقها ليس محل شك .

وقد كان يتم تبادل الأخبار بين مختلف البلدان فى بادىء الأمر عن طريق الكلمة المنطوقة ، واستمرت هذه الطريقة مستخدمة حتى القرن الثامن عشر ، بل أن الممارسة للسياسة العامة تعتمد إلى اليوم على الكلمة المنطوقة إلى جانب الكلمة المكتوبة .

(١) حسن سعفان شحاته . التليفزيون والمجتمع . ص ٦٨ — ٧١ .

ولا تزال الوسائل الشفوية حتى الآن تحدث أثرا قد لا تستطيع أجهزة الإعلام الجماهيرية أن تحدثه فى نفوس الجماهير وعقولهم ، ولاسيما فى المناسبات العامة والأحداث الخطيرة التى تمر بها الأوطان . ذلك أن المتحدث فى اجتماع مثلا يستطيع أن يتجاوب باستمرار مع مستمعيه . حينما يستجيبون له، كما يستطيع أن يؤثر فيهم بصوته ومظهره العام وإرشاداته وتلويحاته .

ويضاف إلى ذلك أن المستمعين يؤثر بعضهم فى البعض الآخر بما يصدر عنهم من انفعالات ظاهرة أو تعليقات ، ويسرى هذا التأثير فى جميع صفوفهم بفعل المحاكاة والتقليد والمشاركة .

أبرز وسائل الاتصال المواجهية المتداولة بين الجماهير فى مختلف المجالات ومختلف البيئات والعصور هى :

١ - الاتصال الشخصى: ويتمثل فى الاتصال بين فردين هما مرسل الرسالة ومستقبلها فقط .

٢ - الاتصال الجمعى: ويتمثل فى الوسائل التالية :

ا -الخطبة .

ب -المحاضرة .

جـ -الندوة .

ا - الخطبة :

والخطبة تعتبر من أقدم وسائل الاتصال فى المجتمعات الإنسانية ، وقد كانت وسيلة الإقناع الممتازة فى عصور البداوة الأولى ، وفى هذه البيئات تظهر الموهبة اللسانية ، وقد ظهر هذا واضحا فى تاريخ العرب والرومان . وأن تاريخ الأدب الجاهلى حافل بالأمثلة العديدة على صحة هذا الكلام ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك سوق عكاظ بمكة وسوق المربد بالبصرة[1] والميادين العامة والملاعب عند اليونان .

(١) عبد اللطيف حمزة . الإعلام له تاريخه ومذاهبه . ص ١٧ .

وتتميز الخطبة عن المحاضرة إلى أنها تتوجه إلى العواطف فى أغلب الأحيان وتثير الانفعالات فى نفوس الجماهير وتحرك مشاعرهم الحماسية معتمدة على مقدرة الخطيب الكلامية ونبرات صوته . ولهذا فهى أصلح وسيلة لمخاطبة الفئات الشعبية والطوائف التى لم تحصل على نصيب كاف من التعليم .

ب - المحاضرة : أما المحاضرة فتعتمد غالبا على الحجج المنطقية ، والأسانيد القوية والإحصاءات الدقيقة . ذلك أنها تتوجه بصفة أساسية إلى العقل لإقناعه والتأثير فيه ، ولهذا فهى أنسب وسيلة لمخاطبة طوائف المتعلمين ، والفئات المثقفة .

والمحاضرة وسيلة لفظية شائعة الاستعمال فى مختلف المجالات الصحية والزراعية والسياسية والتعليمية والاقتصادية إلى غير ذلك .

ومن شروط نجاح المحاضرة أن يكون القائم بها خبيرا فى موضوعها ، وأن تتوافر لديه خبرة كافية عن الجماهير التى سيتحدث إليها من حيث عددهم ، ونوعهم ، وفئات أعمارهم ، وكذلك ميولهم ومعتقداتهم ، وحاجاتهم وأعمالهم ، وخبراتهم وظروفهم الاقتصادية والثقافية ، وطبيعة البيئة التى يعيشون فيها . حيث أن مثل هذه الخبرة سوف تساعد على اختيار المعلومات أو المفاهيم المناسبة لهم ، ومن المهم أن تكون هذه المعلومات والمفاهيم صحيحة وحديثة وأمينة وكافية ومنظمة ومترابطة ، وتدور حول فكرة أو مفهوم رئيسى يهم أعضاء الجماعة[1] .

ومن عوامل نجاح المحاضرة أيضاً أن يشجع المحاضر مستمعيه على السؤال والمناقشة وإبداء الرأى ، وأن يساعدهم على ربط الأفكار الفرعية وأن يسير المحاضر فى شرحه ومناقشاته وأسئلته بسرعة تناسب الحاضرين وبصوت واضح ومسموع للجميع ، وأن تكون الأفكار متماسكة تنتهى بملخص ونتيجة بحيث يخرج المستمعون بفكرة عامة سليمة وواضحة ،

(١) محمد محمد عطية . وسائل الاتصال ومجالاتها واستخدامها . ص ٤٧ ، ٤٨ .

ج - **الندوة** : أما الندوة فالاتصال فيها ذو اتجاهين حيث يتم تبادل الرأى ومناقشة مختلف الأمور بين متحدث أو أكثر وبين الجمهور .

والندوة عبارة عن مناقشة متكاملة بين عدد من المتحدثين وبين جمهور معين ، عن جوانب معينة ، من موضوع واحد ، يتم توزيع جوانبه عليهم من قبل حسب تخصصاتهم . وتتميز الندوة بما يلى :

١ - التفاعل بين الخبراء والجمهور فى اتجاهين كما ذكرنا .

٢ - يستمع الجمهور لآراء أكثر من خبير ، ويمتاز هذا التفاعل وتنوع الآراء ، وتعدد المتحدثين بأنه يزيد من تشوق وانتباه واهتمام الجمهور بموضوع الندوة وحسن تفهمه لها .

٣ - تمكن الندوة رجل الإعلام من مواجهة مشاكل الجمهور المختلفة من جوانب متعددة عن طريق خبراء فيها .

ولكى يتحقق للندوة إمكانيات النجاح فإنه لابد أن تمر بالمراحل الآتية :

١ - **مرحلة الإعداد : Preparation** حيث يتم تحديد موضوع للندوة يحقق غرضا واضحا يهم الجمهور ، ويلى ذلك حسن اختيار الخبراء اللازمين لها ، وتحديد جمهور الندوة ، وإعداد المكان المناسب للجمهور وكذلك تحديد الوقت المناسب للندوة ، كما أنه لابد من الإعلان عن الندوة حتى يكون الجمهور على علم مسبق بها .

٢ - **مرحلة التنفيذ Execution** وأنه مع بداية الندوة يمهد لها بكلمة مختصرة حيث يقدم الخبراء للجمهور ، ثم يقوم كل منهم بإلقاء كلمة فى مجال تخصصه ، ثم يسمح للجمهور بالاستفسار . وعلى منظم الندوة أن ينهيها فى موعدها المحدد .

٣ - **مرحلة التقويم Evaluation** : وهى المرحلة التى يتم فيها دراسة مدى نجاح الندوة فى تحقيق الهدف الذى أعدت من أجله ، وذلك عن طريق عمل

استفتاء ، وتوزيعه علي جمهور الندوة أو مناقشتهم ، أو عن طريق توجيه أسئلة شفوية أو تحريرية إليهم ، أو يطلب منهم كتابة تقرير عن آرائهم ، وعما استفادوه من هذه الوسيلة . وعلى ضوء ما يظهر من هذه الدراسة يتم تقرير ما يجب إجراؤه كأن يكتفى بما تم أو يستكمل بوسيلة أخرى ، أو معالجة الأخطاء ومراعاتها مستقبلا .

والندوات أقرب إلى نفوس المستمعين لتعدد المتحدثين فيها ، الأمر الذى يدفع الملل ويحث على النشاط ، ويبعث فى الاجتماع حرارة وحركة ، كما أن إشراك المستمعين فى المناقشة ، واتخاذ القرارات يشعرهم أنهم أصحاب القضية المعروضة ، ويؤكد اهتمامهم بها ، واقتناعهم بما يسفر عنه الاجتماع من توصيات[1] .

أحياناً تطبع أحاديث الندوة فى كتيب أو كتاب لتوزيعه علي المهتمين بقضايا الندوة ، ليعاودوا اثارة مجالات أخرى يرون أنها تفيدهم وتهمهم فى حياتهم ، مما يدفع الخبراء الاعلان عن ندوات أخرى تكميلية تناقش مختلف الاتجاهات التى يتساءل عنها الجمهور العام . مما يكون دافعاً لكثير من الخبراء لكتابة مؤلفات متخصصة وعامة ، تخدم كل القضايا ، فى كل المجالات العلمية والاجتماعية ، والاقتصادية والسياسية وغيرها . ومن هنا تتسع دائرة نشر الكتب والمطبوعات خاصة مع التطور الصناعي والتكنولوجي . لذا وجب علينا ايضاح مفهومات النشر فى الفصل التالى .

---

(١) أنور أحمد . التوعية الاجتماعية . ص ٦٠ .

الفصل الثانى

بعض الجوانب لمفهومات
ومعانى النشر

الفصل الثانى

بعض الجوانب لمفهومات النشر

نشأت « مهنة النشر » كغيرها من المهن الثقافية حول الكتاب وما يقوم مقامه من وسائل الاتصال الانسانى ، وكانت هذه المهنة فى أول نشأتها بسيطة التكوين ، ضيقة المجال ، يمارسها أصحابها بمنطق الذكاء الفطرى ، مع قليل من الخبرات المكتسبة ، والتجارب التى تأتى نتيجة المحاولة والخطأ . وظلت كذلك على مر العصور ، ويتعقد تكوينها شيئا فشيئا ، وتتسع حدودها فى الاتجاهين الرأسى والأفقى ، وتتراكم الخبرات والمعرفة والتجارب لتصبح ثروة جديرة بالرعاية والتنمية . ويبدأ بعض محترفى المهنة بتسجيل هذه الخبرات فى صورة فطرية على شكل مذكرات ويوميات ، أو نصائح وارشادات ، وتدخل مهنة النشر المرحلة التمهيدية للدراسة والبحث ، لأنها أصبحت من موضوعات الكتابة والتأليف ، وينمو هذا الرصيد من الفكر المكتوب حول مهنة النشر ومناشطها ، وكان هذا الرصيد هو الحجر الأول فى « دراسة النشر » .

فى المرحلة الأولى ، لم يكن من الطبيعى أن تتنبه مهنة النشر إلى الحدود التى تصل أو تفصل بينها وبين المهن الثقافية الأخرى . وكان أصحاب المهنة يتحركون داخل نطاق محدود من الأعمال البسيطة التى يصعب الفصل بينها ممارسة وعملا ، وان تميزت فيما بينها تفكيرا وتجربة ، وتتغير ظروف الممارسة عصرا بعد عصر ويتسع نطاقها وتحتم ظروف التطور الحضارى الاعتراف بمبدأ التخصص .

وضعت اللبنات الأولى فى دراسة النشر على هيئة مذكرات وآراء ونصائح العاملين بالمهنة إلى ذويهم ، وعلى هيئة مناقشات فكرية لرسم اطار المهنة وحدودها . ثم نما الرصيد الفكرى المكتوب حول النشر ، وتنوعت دراساته ، وتفاوتت مستويات التأليف فيه . فهناك النوع الخلاق وهناك التحقيق العميق ،

وهناك مختصر الحقائق ، وهناك الموجز الارشادى ، وهناك التقرير الادارى ، ولكننا نستطيع أن نلمح من خلال هذه الأنواع المختلفة الألوان التيارين الأصيلين : تيار المذكرات والآراء والنصائح ، وتيار المناقشة الفكرية ، تسمع فى التيار الأول أصوات المهنة حية تتحرك فى المجال التطبيقى بما فيها لغة الأرقام ومنطق الممارسة والتنفيذ ، وترى فى الثانى هدوء البحث الأكاديمى والروح الجامعية . وفى هذا المقال نعرض لثلاثة جوانب فى دراسة النشر ، هى :

١ – تعريف النشر ومفهومه .
٢ – النشر والتكنولوجيا المعاصرة .
٣ – النشر والكتاب .

تعريف النشر ومفهومه

المعنى اللغوى :

جاء فى القاموس المحيط للفيروزابادى تحت مادة (ن ش ر) معان كثيرة ، منها : الريح الطيبة ، أو الريح بصفة عامة ، وإحياء الميت ، والحياة ، وانتشار الورق ، وايراق الشجر والأرض ناشرة إذا أبنتت ، والنشر ضد الطى ، والتفريق ، واذاعة الخبر تعنى النشر . وجاء من المشتقات : « انتشر » الخبر انذاع ، و« المنشور » الرجل المنتشر الأمر ، ومن الواضح أن هناك قدرا مشتركا بين هذه المعانى هو أصل المعنى ، وليست المعانى المذكورة الا تطبيقا لهذا القدر فى مجالات متنوعة من الاستعمال . هذه الاستعمالات بدورها يمكن أن تقدم لنا العناصر الأساسية للمعنى اللغوى فى صورته المتكاملة . فالنشر من الناحية اللغوية : مزيج من الايجاد ، والاعلان ، والتفرق إلى جزئيات صغيرة تتوزع هنا وهناك ، فكل عمل أو مادة توجد فيها كل تلك العناصر أو بعضها يمكن أن يستعمل فيه كلمة « نشر » أو ما يشتق منها .

وقد استعملت هذه الكلمة ومشتقاتها فى المعانى اللغوية السابقة ، ووردت

فى الشعر العربى أثناء العصر الجاهلى ، كما استعملت فى القرآن الكريم ، وظلت كذلك مئات السنين. ، وقد أصابها خلال تلك الفترة ما يصيب الكلمات من تطور فى مدلولاتها اتساعا أو ضيقا أو تعديلا ، والذى يهمنا من تطوراتها الدلالية أنها أصبحت فى العصر الحديث تقابل مدلولا خاصا لكلمة " Publish " فى اللغة الانجليزية ، وهو المدلول الذى يهمنا لأنه مدلول النشر فى معناه الذى يرتبط بوجود المكتبة كما يرتبط وجود المكتبة به . ولسنا ندرى متى استعملت الكلمة العربية لتدل على هذا المعنى لأول مرة .

وأغلب الظن أنها اختيرت فى أول الأمر لتقابل الكلمة الانجليزية أو الفرنسية مقابلة لغوية عادية ، ثم اكتسبت معناها الخاص أو الاصطلاحى مع الأيام وبالتدريج وبتداول الاستعمال فيه ، وذلك لأن المدلولات اللغوية العامة لكلمة Publish فى الانجليزية تشبه المدلولات اللغوية التى تعرفنا عليها لكلمة « نشر » العربية . باعتبار أن هذا المعنى الخاص فى الكلمة العربية « نشر » من المعانى الحضارية التى دخلت إلى المفردات العربية بعد أن نمت هذه المعانى واستقرت فى المفردات الأوربية المقابلة – فعلينا الآن أن نعالج الدلالات اللغوية العامة فى كلمة Publish الانجليزية تمهيدا لتوضيح المعنى الاصطلاحى الذى يعنينا .

جاء فى « قاموس أكسفورد الوسيط »(١) أن هذه الكلمة Publish عرفت فى الانجليزية لأول مرة أثناء « عصر الانجليزية الوسطى » (١١٥٠ – ١٤٧٥) وأنها جاءت إلى الانجليزية من الفرنسية Publier والفرنسية أخذتها عن اللاتينية Publicare وأنها أخذت عدة أشكال فى الانجليزية ثم استقرت فى الشكل المعروف اليوم . أما الدلالة اللغوية العامة فانها تدل على جعل شيء ما معلوما بصفة عامة أو جماهيرية ، ألا وهو الأخبار أو الجهر بأمر دون خفاء ، كما تدل على اذاعة عقيدة من العقائد أو نظام من النظم . وهذه الدلالة اللغوية العامة ما تزال موجودة منذ نشأتها حتى الآن .

---

(١) I- Shorter Oxford Dicitionary

وهناك دلالات خاصة مأخوذة من هذه الدلالة العامة ، وقد ظهرت هذه الدلالات الخاصة باعتبارها متفرعة منها ، بعضها فى أوائل عصر الانجليزية الجديدة (١٤٧٦ م) وقد اندثرت بعض هذه الدلالات وبقى بعضها ، وسوف نعرف أن المعنى الاصطلاحى الذى نهتم به كان أحد تلك الدلالات الخاصة وآخرها وقد ظهر حوالى عام ١٥٢٩م .

ويهمنا الآن أن نوازن بين الدلالة اللغوية العامة هنا والدلالة اللغوية التى تكونت للكلمة العربية ، ونحن نقدم فى هذا الصدد الملاحظات التالية :

١ - العناصر الأساسية للدلالة اللغوية موجودة فى كل من الكلمتين بصفة عامة ، وخصوصا عنصر الاعلان ، والتفرق إلى جزئيات صغيرة تتوزع هنا وهناك .

٢ - تطبيق هذه العناصر الأساسية فى الاستعمالات تعطى فى العربية مجالات متعددة منها ما يتصل بالطبيعة فى أوسع معانيها منها المظاهر الجوية مثل انتشار الرياح الساخنة أو الباردة وانتشار زراعة نبات معين فى مناطق خاصة أو انتشار ظواهر وعادات وتقاليد اجتماعية فى مجتمعات تختلف عن غيرها فى هذه الظواهر . ومثل انتشار روائح النبات دلالة على وجوده ، ومنها ما يتصل بالنشاط الانسانى مثل الأخبار ، والشهرة ، يتمثل ذلك فى انتشار أخبار الناس وشهرة العاملين فى مجالات الفن والسينما والمسرح وانتشار كل ما يتعلق بحياتهم وتصرفاتهم . أما فى الانجليزية فانه لا يغطى إلا النشاط الانسانى فقط وخصوصا ذلك النشاط المتصل بالأخبار على اختلاف أنواعها وتعدد مناسباتها . وكل الدلالات الخاصة فى الانجليزية ترتبط بهذه الدائرة المحدودة .

٣ - يرجع التفاوت فى تطبيق الاستعمالات اللغوية بين الكلمة العربية والانجليزية إلى أن الأولى عاشت أضعاف ما عاشته الكلمة الانجليزية وأنها نشأت فى لغتها نشأة طبيعية فبدأت بالدلالات المادية المحسوسة المتصلة بالطبيعة ثم أضافت اليها دلالات معنوية متصلة بالنشاط

الانسانى . وهذه مسألة مسلم بها فى تطور الدلالات اللغوية . أما فى الانجليزية فان عمرها قصير نسبيا وقد جاءت إلى الانجليزية بدلالة محدودة . والحقيقة أنها فى أصلها اللاتينى تعود إلى كلمة Publicus بمعنى Public أى : عام أو جمهور . وهكذا لم تعش الكلمة فى الانجليزية مرحلة الدلالات المحسوسة .

٤ – الدلالات اللغوية الجارية فى العربية لكلمة « نشر » أصبحت ترتبط فى الذهن بمجال النشاط الانسانى أكثر من ارتباطها بالطبيعة ولعل ذلك يرجع فى بعضه إلى أن هذه الدلالات الانسانية كثيرة التداول .

المعنى الاصطلاحى لكلمة (نشر) ، تعنى : إصدار أو العمل على اصدار نسخ لكتاب أو مطبوعة أو ما يشبههما لتباع للجمهور . وقد تطلق هذه الدلالة على المؤلف ، أو المحرر ولكنها تطلق بصفة خاصة على من يتخذ هذا العمل مهنة وهو « الناشر » وقد عرفت فى الثلث الأول من القرن السادس عشر بعد ظهور الطباعة بحوالى ٨٠ سنة . وهناك عدة عناصر ذات صفة هامة فى تكوين المعنى الاصطلاحى ، وهى : **عنصر العمل** الذى يعبر عنه بجملة اصدار أو العمل على اصدار ، **وعنصر نوعية العمل** الذى يعبر عنه بأنه كتاب أو كتيب أو ورقة مطبوعة أو ما يشبههما ، **وعنصر الهدف من العمل** الذى يعبر عنه بقوله لتباع للجمهور ، وأخيراً **عنصر التخصص أو التفرغ للعمل** حيث يطلق بصفة خاصة على من يتخذ هذا العمل مهنة .

ا – فمن ناحية العمل نفسه وهو الاصدار أو العمل على اصدار نسخ متعددة من الكتاب أو ما يشبهه ، ينبغى أن نعرف أن بذور هذا العمل ليست أمرا جديدا على النشاط الانسانى فى القرن السادس عشر، فالكتاب أداة حضارية عرفها الانسان قبل ذلك بعدة قرون وعرف الانسان قيمتها وكان يستكثر منها بوسائله المحدودة وهى كتابة نسخ متعددة من الكتاب الواحد . ونحن نعرف أن النسخ المخطوطة لبعض الكتب المشهورة قد بلغت العشرات أو المئات فى بعض البلاد . حتى منتصف القرن الخامس

عشر الذى شهد تغيرا جذريا بالنسبة لهذه المسألة بظهور الطباعة ، وبحيث لا يمكن أن نقارن بين الجذور الأولى لهذه العملية قبل عصر الطباعة وبين المستوى الذى انتقلت اليه هذه العملية حينما ظهرت الطباعة ، لأن نسخ الكتب بدأت تظهر مرة واحدة بالمئات ثم الآلاف ثم عشرات الآلاف ، واليوم تصل نسخ بعض الكتب إلى الملايين ، ولا يستغرق اعدادها ما كانت تأخذه النسخة الواحدة المخطوطة قبل عصر الطباعة . ويعنى ذلك أن الطباعة عنصر أساسى فى عملية النشر ، وأن كل تطور فيها يؤدى إلى تطور مقابل فى عملية النشر ، وسوف نلاحظ أن تاريخ النشر ارتبط بتاريخ الطباعة وتاريخ صناعة الورق ارتباطاً جذرياً يصعب فيه الفصل بينهما .

ب - ومن ناحية مجال العمل يتضح أن الكتاب أو ما يشبهه هو المجال الذى اختارته عملية النشر ليكون موضع نشاطها . والكتاب بأشكاله وأحجامه المتباينة والذى يصنعه الانسان يمثل أهم الأدوات الحضارية التى عرفها الانسان . فالكتاب فى مفهومه الوظيفى هو الوعاء الذى يحمل الفكر الانسانى بأوسع ما تتضمنه هذه الكلمة من المعانى . ومعنى ذلك أن « النشر » يرتبط بهذا الوعاء العظيم وأن الفكر الانسانى عنصر هام وأساسى فى عملية النشر . والحقيقة أن تاريخ النشر منذ القرن السادس عشر حتى الآن يؤكد هذا الارتباط ، وإذا كان الكتاب كوسيلة لنقل الأفكار وللاتصال الانسانى يتأثر بعوامل اجتماعية وسياسية وثقافية ويؤدى إلى نتائج اجتماعية وسياسية وثقافية ، فإن النشر أصبح هو الآخر مؤثرا فى العوامل السياسية والاجتماعية والثقافية السائدة ومتأثراً بها أيضا . وإذا كان الكتاب فى معناه العام أصبح يتسع ليشمل الكتاب العادى والصحيفة والمجلة والدورية . والخريطة وكتاب الموسيقى وكثيرا من المسجلات الضوئية والصوتية ، فان النشر هو الآخر أصبح يغطى أكثر هذه الأنواع أو كلها من الناحية الوظيفية على الأقل . على أن ارتباطه بالكتاب فى معناه التقليدى ارتباط عميق الجذور فريد الملامح ، بحيث ينصرف إليه المفهوم الاصطلاحى حقيقة وإلى غيره مجازا .

جـ - أما الهدف من العمل فهو أن يصل الكتاب أو الكتيب أو الورقة المطبوعة أو ما يشبههما إلى الجمهور ويباع له ، وهذا الهدف يمثل العنصر الثالث فى عملية النشر . فقد أصبح النشر نشاطا اقتصاديا يحتاج إلى كل ما تحتاج اليه الأعمال الاقتصادية من وجود رأس المال ، الادارة والسوق ، والانتاج ، وأسلوب التوزيع . وإذا كانت الطباعة بما فيها من العمليات الفنية قد ارتبطت بالنشر منذ نشأتها وكونت بذلك العنصر الأول فى عملية النشر ، فإن تاريخ الطباعة يؤكد لنا أن رأس المال ، الادارة ، والخبرة ، قد طوقت هذا الاختراع الجديد منذ أيامه الأولى ، لأن الطابعين بخبرتهم الفنية وحدها كانوا عاجزين عن الوصول بهذا الاختراع الجديد ليصبح وسيلة مقروءة للنشر ، ولكن تعاون الجانب الطباعى الفنى مع الجانب الاقتصادى الادارى ، وصل بالنشر إلى ما وصل إليه اليوم من النجاح والازدهار . وقد بدأ الجانب الاقتصادى والادارى يدخل فى عملية النشر منذ أواخر القرن الخامس عشر الذى ظهرت الطباعة فى منتصفه ، وظهر من رجال الأعمال فى مجال النشر عباقرة استطاعوا أن يدفعوا به خطوات واسعة إلى الأمام وقامت البيوت العريقة والشركات الكبرى التى يعيش كثير منها إلى اليوم ، وقد يصل عمر بعضها إلى مائتى سنة أو أكثر .

د - أما التخصص أو التفرغ للعمل فانه فى الحقيقة عنصر اضافى وليس أساسيا . وقد جاء ليوضح الفرق بين نوعين من الناشرين ، فهناك كثيرون يصدرون أو يعملون على اصدار الكتب والمطبوعات وما يشبهها وتوزيعها على الجمهور بالبيع أو بغيره من الوسائل ولكنهم لا يتخذون من هذا العمل مهنة أساسية . فالمؤلف مثلا قد يصدر كتابه ويتحمل نفقات هذا الاصدار ويعمل على توزيعه ولكنه لا يجعل من هذا العمل مهنة يتفرغ لها ، وهناك هيئات ومؤسسات ذات أغراض سياسية أو اجتماعية أو ثقافية مثل الحكومات والجمعيات والمؤسسات والشركات والجامعات لها أهدافها السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية ، التى تعمل على تحقيقها بمختلف الوسائل ، وقد ترى أن النشر يساعدها على تحقيق

أهدافها ، فتصدر أو تعمل على اصدار كتب ومطبوعات وما يشبهها ، وتعمل على وصولها إلى الجماهير بمختلف الوسائل ، بيعا ، أو إهداء ، أو تبادلا . فهى من هذه الناحية ناشر ، والعمل الذى تقوم به نشر تتحقق فيه العناصر الأساسية وهى : الجانب الطباعى الفنى ، والجانب الفكرى ، والجانب الادارى وخصوصا التوزيع . ولكنها لا تجعل النشر مهنة تتفرغ لها وانما مجرد وسيلة تحقق أغراضها . فهذا النوع من الناشرين يسمى « الناشر الهيئة » وعمله يسمى « النشر الثقافى » . أما الناشر الذي يتخذ من هذا العمل مهنة ويتفرغ لها فانه يسمى « الناشر المهنى » وعمله يسمى « النشر المهنى أو التجارى » .

تلك هى العناصر الأربعة التى تؤخذ من تعريف كلمة Publish بمفهوم المعنى فى الانجليزية . وقد استعملت الكلمة العربية « النشر » لتقابلها ، فمن الطبيعى أنها تحمل نفس المدلول الخاص السابق بعناصره الأربعة . ونحن نعرف أن هذه المعانى الخاصة قد دخلت إلى الكلمة العربية خلال القرن التاسع عشر ، مع كثير من المعانى الخاصة التى حملتها الحضارة الأوربية الحديثة .

النشر والتكنولوجيا المعاصرة

التعبير الانسانى والإتصال :

التعريف التقليدى للانسان هو أنه حيوان مفكر ناطق ، ومعنى ذلك أن صفة النطق هى مناط التمييز بينه وبين الحيوانات الأخرى ، وتقتضى سمة النطقية فى الانسان أن يكون هناك بداخله ما يعبر عنه أو ينطق به من فكرة أو شعور أو احساس أو انفعال ، وهذا هو العنصر الأساسى فى سمة ، أما الناحية الآلية أو الصوتية فى النطق فليست عنصرا جوهريا ، وإلا فان الببغاء الذى يعطى هذا الجانب الآلى الصوتى ليس انسانا ، والآدمى الأخرس مع أنه لا يملك هذا الجانب الآلى الصوتى فهو انسان . فالانسان هو ذلك الكائن الذى يملك فى نفسه ما يمكن أن يبرز إلى الوجود الخارجى فى صورة تعبيرية مقصودة . وقد

اختار التعريف التقليدى للانسان من الصور التعبيرية ، صورة واحدة وهى النطق ، لأنها الصورة الأصلية أو الطبيعة التى تعبر عن الفكرة أو الشعور .

ولكن الانسان ، فى تطوره الحضارى الطويل ، قد اصطنع إلى جانب الكلمة وسائل أخرى للتعبير ، تفريعا من الكلمة أو تطويرا لها ، كما أنه اصطنع طرائق جديدة غير الكلمة . وتستعمل هذه الطرائق منفردة ، أو يصاحب بعضها بعضا ، فالانسان مثلا قد يعبر عن أفكاره أو مشاعره بالكلمة المجردة فى صورة خطبة ، أو حكمة ، أو مثل ، أو قصيدة ، أو خبر ، أو غيرها ، كما أنه قد يغنى مستعملا بعض هذه الوسائل الكلامية ، كما أنه قد يستخدم أصواتا غير الكلمات فى شكل موسيقى ، كما أنه قد يرقص ليعبر عن فكرة أو شعور ، وقد يصاحب الرقص غناء ، أو موسيقى ، وعلى الرغم من تعدد النماذج للتعبير الانسانى فانها تتلخص فى ثلاثة أنواع : **الكلمة ذات المعنى** ، **والصوت المجرد** ، **والحركة** . وهذه الوسائل الثلاثة تشترك فى صفة خاصة وهى أن الانسان لا يلجأ إلى مادة ، فيشكلها ليعبر عن فكرة أو شعور ، ولكنه يستخدم وسائل ذاتية يعبر بها عن نفسه مباشرة ، ويمكن لذلك أن نسميها « الوسائل الذاتية فى التعبير والاتصال » .

وهناك وسائل أخرى للتعبير غير ذاتية ، لجأ فيها الانسان إلى المواد التى حوله من حجر أو خشب أو ألوان أو غيرها وصنع منها أشياء يعبر بها عن فكرة أو شعوره . فالتمثال ، والصورة ، واللوحة ، من الوسائل التى استخدمها الانسان فى التعبير منذ أقدم العصور ، وقد مرت بتطورات عديدة فى أشكال جديدة . وقد يستعمل الانسان هذه الأشكال ، منفردة أو مصاحبة لغيرها . وعلى الرغم من كل ألوان التعدد وأشكال التطور فى هذا فاننا نجدها تشترك فى صفة الاعتماد على مادة تشكيلها فى وضع معين بقصد التعبير ، ويمكن لذلك أن نسميها « الوسائل التشكيلية فى التعبير » ويتضح الفرق بين هذه المجموعة والمجموعة السابقة فى أن الوسائل التشكيلية بطبيعتها ذات بعد زمكانى واضح ، لأن المادة المشكلة يمكن أن تبقى فترة زمنية بعد اعدادها ويمكن أن تنقل إلى مكان آخر . أما الوسائل الذاتية فانها بطبيعتها لا تملك بعدا زمنيا أو مكانيا

مطلقا ، لأن الكلمة المنطوقة والموسيقى الصوتية وحركة الرقص **تملك** بعداً زمنياً محدودا بوقت النطق أو التصويت أو الرقص ، وكذلك تملك بعدا مكانيا محددا بالمدى الذى يصل اليه الصوت أو رؤية العين .

علاقة النشر بالتعبير الانسانى :

عرفنا فى المعنى الاصطلاحى للنشر ومفهومه أن هناك أربعة عناصر أساسية تمثل الكيان الحقيقى لعملية النشر ، وأحد هذه العناصر الأربعة هو المجال الذى تعمل فيه صناعة النشر ، وعرفنا أن هذا المجال **هو الكتاب فى مفهومه الوظيفى والحضارى ، باعتباره الوعاء الذى اصطنعه الانسان ليحمل أفكاره ومشاعره** ، وإذا كانت وسائل التعبير الانسانى للاتصال بين أفراد المجتمع تقوم بوظيفتها فى نقل أفكار الانسان ومشاعره إلى الآخرين ، فليس النشر بدوره الا وسيلة جديدة اضافها الانسان لكى تساعد وسائل التعبير الانسانى على القيام بوظائفها ونقل الأفكار والمشاعر إلى آفاق أوسع . وإذا كانت الصلة بينهما تصل إلى هذا المستوى من التماثل فى الوظيفة فلابد من دراسة وسائل التعبير الانسانى على أساس الوظيفة المشتركة بينها وبين النشر .

١ - درجة وكم الانتشار فى وسائل التعبير : تتفاوت وسائل التعبير الانسانى فى المدى الذى يستطيع أن يبلغه كل منها فى نقله للأفكار والمشاعر ، فالوسائل الذاتية فى التعبير ، مثل الكلمة المنطوقة والصوت المجرد ، والحركة ذات مدى محدود بطبيعتها ، لأنها لا تملك بعدا زمنيا أو مكانيا مطلقين يمكن بواسطتهما أن تمتد وظيفتها بعد لحظة الخلق الأولى . أما الوسائل التشكيلية فى التعبير ، مثل الوسيلة التعليمية والصورة واللوحة ، فإنها من هذه الناحية أبعد مدى بسبب وجود المادة التى تمد وظيفتها إلى أبعاد مكانية وزمانية غير لحظة الخلق الأولى . وهذه المقارنة بين الوسائل الذاتية والوسائل التشكيلية قاصرة على المدى فقط ولا نتعرض هنا لدرجة القوة لأنها لا تعنينا ، فالكلمة المنطوقة قد تكون أقوى أو أضعف أثرا فى نقلها للأفكار والمشاعر من الوسيلة التعليمية أو اللوحة . فنحن هنا نقيس **درجة الانتشار** ولا نتعرض لدرجة التأثير .

٢ – الكلمة المكتوبة لها درجة أكثر فى الانتشار من الكلمة المسموعة :

استطاع الانسان فى المراحل التطورية لحضارته أن يسجل كثيرا من وسائل التعبير الانسانى بطرق مختلفة ، وقد أصبحت هذه التسجيلات بدورها وسيلة أقوى لتوسيع المدى بالنسبة لوسائل التعبير ذات المدى المحدود بطبيعتها ، وازدادت بذلك درجة الانتشار فى هذه الوسائل . ولعل أهم هذه التسجيلات هو تحويل الكلمة المنطوقة إلى كلمة مكتوبة ، كما استطاع الانسان أن يقوم بتسجيل شبه كتابى للأصوات الموسيقية المجردة . وقد أصبح الورق منذ قرون عديدة هو المادة المفضلة التى توضع فوقها الكلمات المكتوبة أو الرموز الموسيقية ، ومن الواضح أن هذه المادة الورقية يمكن أن تنتقل من مكان إلى آخر ، وأن تبقى فترة من الزمن تطول أو تقصر ، واكتسبت المطبوعات بسبب هذا التطور سعة جديدة فى الانتشار وأصبحت تشبه « الوسائل التشكيلية فى التعبير » من هذه الناحية » .

٣ – الكلمة المطبوعة لها درجة أكثر فى الانتشار من الكلمة المكتوبة :

كان تحويل الكلمة المنطوقة إلى مكتوبة يتم فى بادىء الأمر فى عدد قليل جدا من النسخ ، ومن الطبيعى أن كل نسخة تمثل سعة مستقلة لأنها تستطيع أن تمتد وحدها فى الزمان والمكان ، لتوسع انتشار ما تحمل من الكلمات . فلما اخترعت الطباعة وأصبحت الكلمة المكتوبة تظهر فى مئات ثم فى آلاف أو مئات الآلاف من النسخ فى نفس اللحظة ، كان هذا الاختراع اضافة عميقة متميزة لسعة الانتشار الذى اكتسبه التعبير الكلامى بين ألوان التعبير الانسانى . وقد استفاد من هذا الاختراع أيضا كل ألوان التعبير الانسانى التى تسجل على الورق مثل الرموز الموسيقية ، والرسم ، سواء أكان تعبيرا مستقلا أو تسجيلا لتعبير انسانى آخر ، وقد عرفنا أن النشر فى معناه الاصطلاحى قد ارتبط بهذا الاختراع لعمق تأثيره فى نشر التعبير الذاتى للانسان .

٤ – البعد الصوتى لإنتشار الكلمة المكتوبة : استطاع الانسان فى المراحل الأخيرة من حضارته الحديثة ، أن يخترع وسائل جديدة ، لتسجيل التعبيرات الانسانية بجميع أنواعها ، وخصوصا التعبيرات الذاتية ، فتم تسجيل

الكلمة المكتوبة فى صورة منطوقة ، وأمكن تصنيع آلاف النسخ من هذه الصورة الصوتية . ومن الواضح أن كل نسخة منها تمثل سعة انتشارية مستقلة ، فى الزمان والمكان ، وينطبق عليها كل ما ينطبق على نسخة الكلمة المكتوبة . وإذا كان النشر بمعناه الاصطلاحى قد ارتبط بظهور آلاف النسخ المكتوبة فى نفس اللحظة ، فان هذا الاختراع الجديد قد فتح مجالا جديدا لما يمكن أن نسميه « النشر الصوتى » الذى يشبه « النشر الطباعى » حيث لهذا الاختراع الجديد السمات الأساسية للنشر بمعناه التقليدى . ومن الواضح أن التعبير الموسيقى قد استفاد فائدة كبرى من هذا الاختراع الجديد أيضا ، وأصبحت الموسيقى تنشر على نطاقين : رموز كتابية وتسجيلات صوتية .

٥ – **البعد الصوتى الضوئى لانتشار الكلمة المنطوقة والمكتوبة** : استطاع الانسان أيضا أن يستغل الضوء فى تسجيل بعض أنواع التعبير الانسانى . وقد ابتدأ أول الأمر بالصورة الساكنة ، ثم ظهرت الصور المتحركة أو السينما ، التى أمكن بواسطتها تسجيل التعبير الحركى ، وتم تسجيل ذلك فى « أفلام » قصيرة أو طويلة ، وأمكن تصنيع أى عدد من النسخ فى نفس الوقت ، ولكل نسخة سعتها الانتشارية المستقلة فى الزمان والمكان . ومعنى ذلك أن لهذا الاختراع الجديد السمات الأساسية للنشر بمعناه التقليدى .

٦ – **التكامل فى طرق تسجيل التعبير الانسانى** : فتحت الأبعاد الجديدة فى التسجيل الصوتى والضوئى آفاقا جديدة للتزاوج فى انتشار وسائل التعبير الانسانى ، فمن الممكن أن يجمع الانسان بين الحركة ، والغناء ، والتعبير القولى ، وغيرها ، وأن يسجل كل ذلك صوتيا وضوئيا ، وأن يصنع منه أى عدد من النسخ فى نفس الوقت ، وتصبح كل نسخة سعة انتشارية مستقلة فى الزمان والمكان . وهذا ما يتم فعلا فى نشر الأفلام التسجيلية ، والأفلام التجارية أيضا . وتتوفر فيهما كما نرى السمات الأساسية لتعريف النشر ، كما أن الكتاب الذى تم نشره فى صورة مكتوبة بالطرق التقليدية يمكن أن يتم نشره فى صورة صوتية ، ويتم ذلك فعلا الآن فى مجال تعليم اللغات الأجنبية ، وكذلك يمكن نشره فى صورة ضوئية على « فيلم » فى صورة مصغرة تحتاج إلى قارىء آلى ،

ويتم ذلك فعلا فى الجرائد وبعض المجلات (الميكروفيلم) بسبب مشكلات التخزين ، وإما على ورق فى صورة طبق الأصل من الصورة الأولى . وهذا الأخير نشر تقليدى بطريقة تكنولوجية جديدة .

النشر والأبعاد الجديدة فى الصوتيات والمرئيات :

النشر بمعناه التقليدى هو الذى يقوم على الطباعة ، وإعداد أعداد كبيرة من النسخ فى نفس الوقت ، تصبح كل منها ذات سعة انتشارية مستقلة فى الزمان والمكان . وقد عاش هذا النوع من النشر وحده عدة قرون حتى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ثم ظهر البعد الصوتى الذى يقوم على التسجيل فوق أشرطة أو أقراص أو غيرهما ، ويمكن إعداد عدد كبير من النسخ فى نفس الوقت ، وتصبح كل منها ذات سعة انتشارية مستقلة فى الزمان والمكان ، ويصحبها عادة جهاز خاص لاستعمالها . وكذلك ظهر البعد الضوئى الذى يسجل على أفلام أو شرائح أو غيرهما ، ويمكن إعداد عدد كبير من النسخ فى نفس الوقت ، لكل منها سعة انتشارية مستقلة فى الزمان والمكان ، وتستعمل عادة بواسطة جهاز الفيديو .

والحقيقة أن « النشر » بمعناه الاصطلاحى ارتبط عدة قرون بالطريقة الأولى وأصبح يطلق عليها على سبيل الحقيقة ، أما اطلاقه على النوعين الأخيرين فانه استعمال جديد على سبيل المجاز . وعلى الرغم من توافر السمات الأساسية للنشر فى الأنواع الثلاثة بصفة عامة إلا أن هناك عدة فروق بين النوع الأول التقليدى فى جانب وبين النوعين الأخيرين فى جانب آخر ، ويمكن تلخيص هذه الفروق فيما يلى :

١ - تختلف العمليات التكنولوجية فى النوع التقليدى عنها فى النوعين الجديدين ، وليس من السهل على دار واحدة أن تستخدم وتدير آلات ذات طبيعة مختلفة مثل آلات الطباعة فى جانب وآلات التسجيل فى جانب آخر . ولهذا قامت دور مستقلة للنوعين الجديدين ، ولم تحاول

دور النشر التقليدية أن تدخل إلى هذا الميدان الجديد ، اللهم إلا فى حالات محدودة ، حيث نجد بعض دور النشر التقليدية تأخذ من هذا الميدان ما يفيدها فى ميدانها القديم ، مثل ترويج كتب تعليم اللغة ، ومثل التصوير الفوتوغرافى للكتب التى نفدت من السوق . وهذا الموقف يؤدى بدوره إلى أن يصبح الميدان الجديد مهنة أو مهنتين مستقلتين بذاتيهما وأن يبقى النشر بحدوده التقليدية مهنة مستقلة وحدها :

٢ – تختلف العمليات الادارية والمالية وطرق التسويق فى النشر بمعناه التقليدى عنها فى الميدانين الجديدين . وقد تطورت هذه العمليات ، ونمت عبر عدة قرون ، واكتسبت تقاليداً وطرقا معينة ، ليس من السهل تطبيقها على الانتاج الصوتى والانتاج الضوئى . وهذا يؤدى بدوره إلى محاولة ابتكار وخلق مبادىء تتلاءم مع طبيعة الانتاج الجديد . ومن الطبيعى أن تنشأ لذلك دور وهيئات مستقلة ، وأن تتأكد شخصية المهنة الجديدة منفصلة عن مهنة الميدان التقليدى .

٣ – يختلف موقف المستهلك بالنسبة للمواد التى يقدمها النشر بمعناه التقليدى من المواد المطبوعة عنه بالنسبة للمواد السمعية والبصرية . فالمواد الأولى رخيصة الثمن نسبيا ، ولا تحتاج فى استخدامها إلى آلات أو أجهزة مصاحبة ، وهذا يؤدى إلى ذيوعها وسعة انتشارها . وهى بهذا المعنى أولى بالمعنى الاصطلاحى لكلمة النشر ، لأنه يتمثل فيها بطريقة أوسع وأعمق . هذا بالاضافة إلى أن بعض المواد البصرية والسمعية تحتاج فى استخدامها إلى وجود جمهور كبير ، كما أن المستخدم قد لا يستطيع أن يستعيد شيئاً يريد أن يراه أو يسمعه مرة ثانية أو ثالثة ، وكل ذلك على عكس المواد المطبوعة التى تتيح أكبر قدر من المرونة فى استخدامها مرات ومرات .

للأسباب الثلاثة السابقة يحسن أن نقصر كلمة « النشر » فى مفهومها الاصطلاحى الكامل على النوع التقليدى القديم ، الذى يقوم على الطباعة وإعداد عدد كبير من النسخ فى نفس الوقت ، وأن نكتفى بدراسة هذا النوع

وحده حين نتعرض لدراسة النشر ، أما النوعان الآخران فمن الممكن أن يطلق عليهما اسم النشر مجازا ، ولكنهما على أى حال يحتاجان إلى دراسة مستقلة لا تقع تحت اسم النشر ، على أن هناك بعض الدراسات العامة التى قد تتناول المواد المطبوعة والمواد السمعية والمواد السمعبصرة تحت اسم **« وسائل الاتصال الانسانى »** وتدرس هذه المواد معاً من ناحية الوظيفة المشتركة التى تقوم بها فى نقل أفكار الانسان وعواطفه ، والسير بعجلة الحضارة إلى الأمام . أما إذا درست على أساس أن كلا منها مجال لنشاط انسانى يمثل مهنة من المهن ، فمن المستحبسن أن تستقل المواد المطبوعة وأن تدرس وحدها ، وأن يكون ذلك تحت اسم « دراسة النشر » وأن توضع دراسة مستقلة للمواد الصوتية والضوئية .

النشر والكتاب

طبيعة العلاقة بين النشر والكتاب :

يرتبط وجود المكتبة بمجموعة من ألوان النشاط الانسانى الحضارى ، التى نمت وتطورت عبر العصور ، وأصبحت تمثل ميادين مستقلة فى العلوم ، أو التكنولوجيا ، أو الدراسات الاجتماعية والانسانية . فهندسة المبانى ، وصناعة الأثاث ، وتطوير الأجهزة الآلية – ليست إلا أمثلة محدودة تشرح الفكرة السابقة ، لأن أجزاء من وجود المكتبة تعتمد على ما ينتجه الانسان فى هذه المجالات كما أن قيام المكتبة بوظيفتها نحو القراء والباحثين ، فى كفاية ونجاح ، يعتمد بالضرورة على تطبيق أحدث ما وصل اليه العلماء فى مجالاتهم الدراسية . ومن الطبيعى أن تكون المكتبة بدورها ذات أثر كبير فى كل تلك المجالات السابقة ، بما تمنح العاملين فيها من الخدمات ، التى تمكنهم من مواصلة بحوثهم واستكشاف آفاق جديدة ، فى ميادين عملهم أو دراستهم .

ومن الممكن أن نتصور علاقة من هذا النوع بين الكتاب والنشر ، كمجال من مجالات النشاط الانسانى الحضارى ، علاقة تقوم على تبادل التأثير ، وهذا

النوع من العلاقة موجود فعلا ، ولكن الحقيقة أن الصلة بين الكتاب والنشر أكبر من ذلك . إنها صلة جذرية ترتبط بالماهية والجوهر فى كل منهما ، فلا يمكن أن نتصور مكتبة بدون الكتب والمجلات والنشرات ، وهى المواد التى تقوم عليها عملية النشر ذاتها ، وإذا كانت المكتبة فى الوقت الحاضر ، قد ضمت إلى المواد التقليدية السابقة الشرائح والأفلام والمسجلات الصوتية والسمعضوئية ، فان مجال النشر نفسه ، من إحدى وجهات النظر على الأقل ، قد اتسع ليقوم بانتاج هذه المواد الجديدة ، وعلى أى حال فما تزال المواد المطبوعة ، وهى عماد النشر التقليدى ، تمثل حجر الزاوية فى المقتنيات ، بالنسبة للأكثرية العظمى من المكتبات ، ولا تستغنى عنها مكتبة ما استغناء تاما مهما بلغت فى تطورها من التقدم والتجديد .

وهذا من ناحية وجود الكتاب ، والأمر كذلك من ناحية نشأة ونمو وازدهار النشر نفسه كنشاط انسانى حضارى ، فالمكتبات بأنواعها المختلفة فى المؤسسات التى لولا دورها المباشر وغير المباشر ، فى تشجيع القراءة والبحث ، وتقديم المواد التى يحتاج اليها الباحثون والقارئون ، لولا هذا الدور لما قامت دور النشر ، على اختلاف أنواعها وتفاوت مقدراتها ، ولما أصبح النشر صناعة ضخمة ، تعمل فيها نسبة مئوية غير قليلة من أفراد المجتمع ، ويوظف فيها جزء غير قليل من الدخل القومى .

العلاقة بين النشر و المكتبية :

إن العاملين فى مجال النشر يحتاجون إلى دراسة المكتبيات كما يدرسها رجال المكتبات والقائمون بخدماتها ، وليس معناه أيضا أن طلاب المكتبيات لابد أن يعرفوا كل جوانب النشر ودقائقه بحيث يصبحون من رجاله . ولكن الأمر يعنى أن فى داخل كل من المجالين بعض الجوانب التى يجب على أصحاب المجال الآخر أن يعالجوها ويتعرفوا عليها ، ليستكملوا بذلك الخبرات الضرورية لمجالهم الذى يعملون فيه .

ويأتى بعد ذلك سؤالان ، وهما : أين تقع دراسة المكتبيات بالنسبة لطلاب

النشر وباحثيه ؟ وأين تقع دراسة النشر بالنسبة لطلاب المكتبيات ورجالها ؟ والأجابة عن السؤال الأول تقتضى الاسترجاع الذهنى لمفهوم النشر وتعريفه ، فإذا كانت هناك ثلاث جوانب رئيسية لهذا المفهوم ، وهى **الجانب الفنى التكنولوجى** متمثلا فى الطباعة وآلاتها وأجهزتها ، **والجانب الفكرى** متمثلا فيما يحمله الكتاب - مؤثرا متأثرا - من التيارات الثقافية والاجتماعية والدينية والاقتصادية والسياسية ، **والجانب الاقتصادى الادارى** متمثلا فى رأس المال وترشيد العمل وتسويق الانتاج - فان موقع دراسة المكتبيات داخل هذا المفهوم يأتى فى الجانبين الثانى والثالث . ذلك أن المكتبة من حيث الجانب الفكرى ، تمثل مؤسسة ثقافية عميقة التأثير فى هذا الجانب ، لأن الكتب - وهى أوعية الفكر والثقافة - تبدأ أجنة فى عقول مؤلفيها وكاتبيها ، غالبا إن لم يكن دائما ، حينما تنشأ الصلة الوثيقة بينهم وبين هذه المؤسسة . والمكتبة من حيث الجانب الثالث قطاع هام فى تسويق انتاج « النشر » بما تأخذه هى من هذا الانتاج وبما تبعثه فى نفوس الأفراد على اقتناء هذا الانتاج لأنفسهم . ومن الطبيعى أن طلاب النشر ، حين يدرسون المكتبيات فى نطاق الجوانب التكنولوجية والفكرية ، يتجهون إلى تلك العناصر ذات الصلة بهذا المفهوم ، ويلونون دراستهم باللون الذى يحقق أهداف مجالهم . وهناك فعلا فى كثير من الدول المتقدمة[1] ، بعض البرامج الدراسية أو التدريبية التى ينبغى اجتيازها لمن يعملون فى قطاع النشر ، ولاسيما التجار والموزعون ، وتتفاوت هذه البرامج فى المقدار الذى تخصصه للمكتبيات ، وفى الجوانب التى تعالجها ، وليس هنا مجال التعرف على هذه البرامج أو دراسة التفاوت بينها .

وأما السؤال الثانى الخاص بموقف دراسة النشر بالنسبة لطلاب المكتبيات ورجالها فهو الذى يهمنا هنا . وينبغى للاجابة عن هذا السؤال رسم الاطار العام لدراسات المكتبات ، ثم تحديد موقع دراسة النشر داخل قطاعات هذا

---

(١) تمتاز الدول الاسكندنافية فى هذه الناحية امتيازا كثيرا .
راجع: K.C. Harrison. Libraries inscandinavia.. London, 1961. 24 op.

الاطار . ثم تحديد هذا الإطار ، كمدخل لمعالجة بعض القضايا المتصلة بدراسة المراجع ، وهو اطار عام فى غاية الاختصار . ويتكون من أربعة قطاعات أساسية وقطاعين اضافيين . فالقطاعات الأساسية هى : **دراسة المواد المكتبية ، ودراسة الادارة المكتبية ، ودراسة العمليات المكتبية ، ودراسة الخدمات المكتبية** ، والقطاعان الاضافيان هما : **دراسة المكتبات النوعية ، ودراسة المؤسسات المكتبية** . ومن الواضح أن دراسة النشر بالنسبة لطلاب المكتبات على أساس هذا الاطار السداسى ، تقع بالاصالة فى القطاع الأول وهو دراسة المواد المكتبية ، ذلك أن هذه المواد هى الانتاج الذى تقوم عليه صناعة النشر ومهنته ودراساته ، وهى فى نفس الوقت العنصر الذى يقوم عليه وجود المكتبة وتتصل به وظائفها وأهدافها . ولكن وجودها لا يقف عند القطاع الأول من هذه القطاعات الستة ، وانما يمتد بالتبعية إلى باقى القطاعات ، على تفاوت بينها فى نوع العلاقة ودرجة الاتصال .

وأيا كان الأمر فدراسة موضوع النشر فى برامج دراسات المكتبات ، لا تتم بصورة واحدة ، ولا تأخذ اهتماما متساويا فى كل الحالات ، ولكنها تتفق فى معالجة الموضوع من الزاوية التى تساعد الدارسين والممارسين على ادراك القضايا والمسائل التى توجد فى كل قطاع من هذه القطاعات الستة ، ادراكا واعيا صحيحا يساعدهم على القيام بعملهم فى داخل المكتبة ، أو على كشف آفاق جديدة من دراسات المكتبيات وبحوثها . وقد تكون المعالجة داخلة ضمن الوحدات الدراسية التقليدية فى برامج المكتبات ، مثل الببليوجرافيا ، أو المراجع ، أو الادارة ، أو الفهرسة ، أو الخدمة . وقد تكون مستقلة فى وحدات دراسية خاصة بها ، مثل الطباعة[1] ، أو النشر ، أو الناشرون ، أو مواد الاتصال .

---

(١) يوجد فى قسم الوثائق والمكتبات بكلية الآداب بجامعة القاهرة دراسة شبه مستقلة خاصة بالطباعة كما توجد دراسات أخرى كثيرة عن الطباعة والنشر بأقسام الطباعة بكليات الفنون .

نماذج نوعية لقيمة النشر فى دراسات المكتبات وأعمالها :

عرفنا طبيعة الصلة بين النشر كنشاط انسانى حضارى ، وبين المكتبة كمؤسسة ثقافية فكرية ، تقوم بوظائف معينة وتنمو حولها دراسات خاصة . وتظهر قيمة هذه الصلة فى كثير من الأعمال التى تقوم بها المكتبة ، وفى أنواع الدراسات المرتبطة بها ، ولن نستطيع هنا أن نستوعب كل مظاهر هذه الصلة وقيمها ، سنشير فى ايجاز إلى وجودها العام فى بعض الأمثلة ، وسنعرض هذه الأمثلة مأخوذة من القطاعات الأربعة الأساسية لاطار المكتبات ، وقد أخذ القطاع الأول منها وهو قطاع المواد المكتبية النماذج الثلاثة الأولى باعتبار أنه القطاع الذى يتصل بمهنة النشر أصالة كما ذكرنا من قبل . أما القطاعات الثلاثة الباقية فتمت معالجة كل منها فى نموذج واحد .

والفكرة الأساسية خلف هذه النماذج ، وخلف كل علاقة تربط النشر بدراسات المكتبات وأعمالها ، تكمن كما قلنا من قبل فى أن الانتاج الذى تقدمه صناعة النشر ، هو العنصر الذى يقوم عليه وجود المكتبة وتتصل به أهدافها ووظائفها . فالمواد المكتبية هى الشريان الحيوى الذى يربط بين المجالين ، وكأنها خط واحد يقع النشر فى أوله كمنتج ، وتقع المكتبة فى نهايته كمستهلك ومن الطبيعى والضرورى معا ، للمركز الذى يقع فى نهاية الخط ، أن يدرس ويتعرف على المصدر الذى يمده بمادة الوجود والعمل فى أول الخط . وتمثل هذه الصلة الأساسية الجوهر الحقيقى لكل النماذج النوعية والفردية لقيمة النشر ودوره فى دراسات المكتبات وأعمالها ، بما فيها تلك النماذج المحدودة التى ستذكر فى الفقرات التالية .

يلاحظ أن هناك مستويين أساسيين لقيمة النشر بالنسبة للمكتبيات أولهما **مستوى الممارسة** فى داخل المكتبة والثانى **مستوى الدراسة** فى داخل معاهد المكتبات . ولا يمثل المستويان فى الحقيقة وجودين مستقلين ، ولكنهما أشبه بالوجهين لعملة واحدة ، وتظهر هذه العلاقة الضرورية بصورة واضحة فى النماذج المذكورة فيما يلى .

١ – البيبلوجرافيات ودراساتها : إذا أخذنا البيبلوجرافيا بمعناها العلمى أو بمعناها الفنى فاننا نجدها مجموعة من الدراسات الخاصة والطرق الفنية التى تتناول الكتاب بأوسع معانيه سواء من ناحية تكوينه المادى أو من ناحية وظيفته فى نقل الأفكار والمشاعر . فالكتاب هو موضوع هذا النوع من الدراسات وهو المجال الذى ترتبط به . ومن الواضح أن الكتاب هو الانتاج الذى تقوم صناعة النشر على اعداده وتقديمه إلى الناس . ومن هنا نجد أن جزءا كبيرا من البيبلوجرافيا بمعناها العلمى يتكون من مجموعة الحقائق المنظمة المرتبطة بانتاج الكتاب أى بصناعة النشر ، وتتضح هذه الصلة بصفة خاصة فى « البيبليوجرافيا التحليلية » التى تعتمد على معرفة كل ما ارتبط بصناعة النشر فى مراحلها التاريخية الأولى ، ورصد هذه الحقائق بطريقة علمية تخدم أهداف البيبليوجرافيا التحليلية ، وهى معرفة الحقائق المتصلة بنشر كتاب ما من الكتب وتأليفه .

٢ – المراجع ودراساتها : تمثل المراجع قطاعا هاما من المواد القرائية بالمكتبة ، حيث تستطيع أن تقدم للعاملين بالمكتبة وللقراء والباحثين ، ما يحتاجون إليه من المعلومات ، التى نظمت بداخلها تنظيما يمكن من الحصول عليها فى أقل وقت وبأقل جهد . ومن أجل ذلك أصبح هذا القطاع من مواد المكتبة موضوعا لدراسات متعددة داخل الاطار العام للمكتبيات . ولن نعالج هنا كل دراسات المراجع وعلاقتها بدراسة النشر وانما سنكتفى منها بثلاثة . فهناك **أولا الدراسة النظرية العامة للمراجع التى تتناول تعريفها ، ونشأتها وتطورها ، وأهميتها فى البحث والدراسة ، وتقسيماتها المختلفة ، وقضاياها العامة ، مثل** : التجديد الدورى وقيمته بالنسبة للمراجع ، واعداد المراجع ونشرها . وفى كثير من جوانب هذه الدراسة النظرية العامة يحتاج الدارس إلى معرفة الدور الذى لعبته وتلعبه صناعة النشر فى تكوين هذا القطاع الهام من مواد المكتبة بصفة عامة ، كما يحتاج إلى دراسة واعية دقيقة لنواح معينة فى مهنة النشر ، تؤثر تأثيرا مباشرا فى رسم الصورة العامة للمراجع ، مثل التطورات التكنولوجية فى الطباعة ، ومشكلات التكاليف والتوزيع والاثمان .

وهناك **ثانيا الدراسة النظرية النوعية للمراجع** ، حيث يمكن تقسيم هذا القطاع الهام من مواد المكتبة إلى فصائل وأنواع على أساس الوظيفة التى تقوم بها ، مثل القواميس ودوائر المعارف ، أو على أساس اللغة التى كتبت بها ، أو على أساس المجال أو الموضوع الذى تغطيه ، أو على غير ذلك من أسس التقسيم والتنويع . ويمثل كل نوع أو فصيلة من المراجع تكوينا خاصا له مفهومه النظرى ، وله نشأته وتطوره ، وتاريخه ، وله أهميته المتميزة فى الدراسة والبحث ، وله سماته وقضاياه ومشكلاته . وهذه الجوانب هى مجال الدراسة النظرية النوعية ، وكما رأينا فى الدراسة النظرية العامة يحتاج الدارس لاستيعاب هذه الجوانب فى وعى وعمق أن يدرك تبادل التأثير بينها وبين صناعة النشر .

وهناك **ثالثا الدراسة الفردية التي تتناول مرجعا معينا** ، للتعرف عليه تعرفا يمكن الدارس من استخدامه والانتفاع به ، وهذا التعرف يغطى خمسة جوانب أساسية ، وهى كفاءة القائمين بالمرجع ، ومدى السعة ، وطريقة التنظيم ، والمادة المرجعية ، والشكل المادى . ويمثل الناشر عنصرا لا يمكن الاستغناء عنه فى التعرف على الجانب الأول ، وعلى الدارس أن يستكشف ويقدر القيم الفنية المعروفة عن هذا الناشر وأثر هذه القيم فى المرجع الذى أمامه . كما أن دراسة الجانب الخامس تتناول بطبيعتها القيم الطباعية من حيث نوع الورق ، وحروف الطباعة ، والمسافات ، والهوامش ، والايضاحات ، وكلها أو أكثرها يدخل تحت الجانب الفنى التكنولوجى وهو أحد الأعمدة الثلاثة التى تقوم عليها صناعة لنشر .

٣ – القطاعات النوعية من المواد المكتبية ودراساتها : هناك أنواع معينة من المواد المكتبية ، اقتضت طبيعتها من حيث النشر والاصدار أن تعالج معالجة خاصة بها فى داخل المكتبات ، وأن تخصص لها وحدات دراسية معينة فى برامج التدريس لعلوم المكتبيات ، وذلك مثل المطبوعات الحكومية ومنشورات الهيئات الدولية فى النطاق السياسى والاجتماعى والاقتصادى ، وكذلك الأعمال التى تقوم بنشرها المنظمات المحلية والاقليمية سواء أكانت رسمية أو شبه رسمية فكثير من المكتبات تخصص لهذه المواد قسما مستقلا عن المجموعة الرئيسية

للمكتبة ، ويقوم بأمرها هيئة عمل خاصة . ومن الطبيعى أن نجاح القائمين بأمر هذه المجموعة الخاصة مرتبط بمقدار ما يعرفونه عن هذه المواد من حيث النشر والاصدار ، وهما العامل الأساسى الذى دعا إلى هذا الاستقلال . كما أن الوحدات الدراسية المخصصة لهذه القطاعات النوعية من المواد المكتبية توجه اهتماما كبيرا إلى طبيعتها من حيث النشر والاصدار . وقد ازدادت أهمية هذه المواد بعد الحرب العالمية الثانية وأصبحت موضوعا لبعض الرسائل العلمية على المستوى الأكاديمى ، وتعالج هذه الرسائل جزئيا أو كليا جانب النشر والاصدار اللذين يمتاز بهما هذا النوع من المواد المكتبية .

٤ - **الادارة المكتبية ودراساتها** : تتناول الادارة المكتبية جميع الأعمال وألوان النشاط ، التى تتصل بأقسام المكتبة ووحداتها ، لتوزيع الأعمال بينها وتنسيق المسئوليات والقيام بها ، حتى تستطيع المكتبة أن تصل إلى أهدافها فى كفاية ونجاح . ومن أهم الأعمال الادارية عمليات التزويد والتسجيل ، وما يتصل بهما من مسائل التوصية والشراء والدفع والاستلام للمواد المكتبية . وهذه العمليات كلها تتصل بالكتاب وما فى حكمه ، مما تنتجه وتقدمه صناعة النشر ، ومن هنا نجد أن النجاح فى القيام بهذه العمليات يحتاج إلى معرفة السمات المختلفة لأعمال النشر وأنواعها واختلافاتها ، فهناك ناشرون تجار ينبغى للحصول على كتبهم اتخاذ اجراءات معينة ، وهناك ناشرون هيئات قد لا تكون موادهم موجودة للبيع ، ولكن يمكن الحصول عليها بالاشتراك مقدما فيها قبل الطباعة ، وهناك كتب تبقى فى السوق سنوات طويلة ، وهناك كتب تنفذ من السوق بمجرد ظهورها ، ولابد لكى تنجح المكتبة فى الحصول على ما تريد أن يتنبه المسئول إلى كل هذه السمات . وهكذا نرى فى هذه الأمثلة القليلة كيف يحتاج المسئول الذى يقوم بهذه العمليات إلى دراسة النشر والناشرين حتى يستطيع أن يؤدى عمله فى كفاية ونجاح .

٥ - **الأعمال الفنية ودراساتها** : يقصد بالأعمال الفنية فى دراسات المكتبات تلك العمليات التى تتم بعيدا عن أنظار رواد المكتبة ، ولا تتصل بهم اتصالا مباشرا ، وتختلف تسميتها فهناك من يطلق عليها « **العمليات المكتبية** »

أو « الخدمات الفنية » أو « الاجراءات المكتبية » .ووظيفتها على أى حال هى جعل مواد المكتبة فى متناول الرواد فى أيسر صورة وأسهلها . وفى مقدمة هذه العمليات الفنية التصنيف والفهرسة . ولهاتين العمليتين جانب الممارسة فى داخل المكتبة ، وجانب التعليم والتدريب فى برامج التدريس ، وجانب البحث والدراسة بين كبار المتخصصين ، وجانب الخلق والابتكار بإعداد تقنيات الفهرسة وخطط التصنيف . وفى هذه المستويات الأربعة يتعامل المفهرسون أو المصنفون ، والطلاب ، والمدرسون ، والباحثون ، والمقننون ، والمخططون مع المواد التى تنتجها صناعة النشر ، وتترك هذه الصناعة على المواد التى تنتجها كثيرا من البصمات التى ينبغى أن يتنبه لها كل هؤلاء المتعاملين مع تلك المواد على اختلاف مستوياتهم ، لكى يقوموا بواجبهم نحوها فى كفاية ونجاح . والتنبه إلى هذه البصمات معناه دراسة هادفة لجانب أو لآخر من جوانب النشر .

٦ – **الخدمات المكتبية ودراستها** : الخدمات المكتبية هى النشاط الذى يتصل برواد المكتبة اتصالا مباشرا ، فى شكل اعارة لبعض مواد المكتبة ، أو ارشاد يهدى القراء إلى ما يحقق أهدافهم ، أو اجابة سليمة عن الاستفسارات التى يرفعها الباحثون أو ما يشبه ذلك من ألوان النشاط الذى يمثل الثمرة النهائية لوجود المكتبة ووظيفتها . وتعتمد هذه الخدمات بطبيعتها على مقتنيات المكتبة ، التى تمثل أحد قطبى الخدمة ، أما القطب الآخر فهو رواد المكتبة أنفسهم ، ودور رجل الخدمة هو عقد اللقاء المثمر بين القارىء أو الباحث فى جانب ، وبين المواد التى يحتاج إليها فى الجانب الآخر . ومعنى ذلك أن الخدمة المكتبية الناجحة تتطلب من جانب القائمين بها ، الادراك الواعى للسمات والجوانب الأساسية للرواد والمقتنيات .

ولاشك أن دراسة النشر والالمام بجوانبه يحقق جزءا كبيرا من الادراك المطلوب بالنسبة للمواد المكتبية . فهناك مثلا سلسلة لأحد الناشرين ، تتناول حلقاتها موضوعات مختلفة ، وهناك سلسلة أخرى أو كتب مستقلة ، تتناول نفس الموضوعات فى مستوى يختلف عن مستوى السلسلة الأولى ، فكتاب من إحدى السلسلتين يصلح فى موقف ارشادى معين ، وكتاب من السلسلة

الأخرى يصلح فى موقف آخر . ويتوقف نجاح القائم بالارشاد فى عمله ، على المعرفة السابقة بالفرق بين مستوى السلسلتين ، حتى يختار لكل موقف ما يلائمه . وتعتمد هذه المعرفة فيما تعتمد على الإلمام بأهداف الناشر من هذه السلسلة بصفة عامة ، والملابسات الفكرية والثقافية والاجتماعية التى شجعت على ظهور هذه السلسلة ، أو ارتبطت بمؤلفيها .

الفصـل الثـالث

الكتاب على مرّ العصور حتى
بداية عصـر النهضـة

الفصـل الثـالث

الكتاب على مرّ العصور حتى بداية عصر النهضة

الكتاب فى مصر القديمة :

علماء الآثار المصرية ينظرون إلى أوراق « البردى » التى خلفها الفراعنة نظرة تردد ، لأن الكثير منها - فى رأيهم - لا يعود على الباحثين بفائدة تذكر عن الحياة المصرية القديمة لأن ما تضمنه الكثير من أوراق البردى لا يعدو أن يكون نصوصا سحرية أو دينية . وكتاب الموتى المشهور فى التاريخ الفرعونى لم يطلق عليه أصحابه اسم كتاب ، وانما اصطلح علماء الآثار على اطلاق هذه التسمية على قراطيس أو لفائف البردى التى تكتب فيها نصوص دينية كان الغرض منها أن تكون حرزا للميت تقية أهوال الآخرة . وهى نصوص متطورة لما كان يكتب قبلها على الاهرامات ثم على التوابيت . وما كتاب الموتى إلّا صورة متطورة تكتب على قطع من البردى وتوضع مع الميت فى التابوت .

وإذا مضينا مع أوراق البردى التى خلفها الفراعنة فان بعض علماء الآثار يرى أن ما يوجد فى بعضها من أدب دنيوى لا يتعدى الدائرة الضيقة للمدرسة وقد قصد به حض الطلبة الكتبة من الشباب على الفضيلة وحب العلم . وما تقصه علينا هذه الكتب (أوراق البردى) من الحظ الحسن الذى يناله الموظفون المتعلمون . والحظ السيء الذى يصيب غيرهم من الطبقات .

ويؤكد معظم الأثريين المصريين اهتمام المصريين القدماء بالتعليم ، وحضهم أبناءهم عليه . وبسبب عمق الحياة الدينية من جانب ، والاهتمام بالتعليم من جانب آخر كانت كثرة النصوص الدينية والتربوية فيما خلفه الفراعنة من برديات . ولكن ذلك لم يمنع أو يحل دون أدب فرعونى خالص . فالدكتور أحمد فخرى فى كتاب تاريخ الحضارة المصرية يؤكد أن المصريين القدماء تركوا ألوانا مختلفة من الفن القصصى الذى يمثل حياتهم ، وقصصا خرافية يقصد بها مؤلفها الموعظة . ولدينا آلاف من الكتابات التى على جدران المقابر وعلى

اللوحات والتماثيل والأدوات المختلفة ، وهذه قل أن نجد بينها ما يمكن أن تضعه تحت عنوان الكتاب ، لأنه لا يعدو ذكر مناقب أصحابها ووظائفهم وذكر الآلهة أو بعض الطقوس الدينية ، وربما كان متفرقة بين تلك الأناشيد أو فى تاريخ حياة بعض الأفراد ، أو فى أغانى العمال المرسومين على المقابر ، ما يمكن أن نعتبره نصاً لكتاب ويمكننا أن نقول ذلك أيضا عن نقوش المعابد والنقوش التاريخية . وبعض البرديات ملأى بنصوص دينية وبعضها يحوى علوماً كالطب والتحنيط والرياضيات ، كما يحوى البعض الآخر نصوصاً خاصة بالسحر أو بتفصيل تحقيقات قضائية ، وكلها على جانب كبير من الأهمية لفهم نواحى الحضارة المصرية ، كما يحوى عدد كبير من تلك البرديات ما يمكن أن نسميه نصوصاً أدبية تصلح أن تكون كتباً بمفهومنااليوم . وهى تكون الجزء الأعظم من ذلك التراث الضخم الذى اصطلحنا على تسميته بالأدب المصرى القديم والذى يمكن تقسيمه إلى الأبواب الأربعة التالية :

١ - الأساطير الدينية
٢ - القصص
٣ - الأناشيد والأغانى
٤ - الحكم والنصائح

ولست فى حاجة إلى القول أنه ليس من الميسور عمل حدود فاصلة بين هذه الأقسام الأربعة ، فهى تتداخل فى بعضها البعض كآداب أى أمة أخرى ، سواء فى العصور القديمة أو فى العصور الحديثة ، وتعطينا فى مجموعها صورة صادقة عما كتبه القدامى ، لأن كتابة أى شعب هى المرآة التى تعكس لنا عقليته وأمانيه ، وتوضح لنا مدى ما وصل إليه ذلك المجتمع من نضوج ذهنى .

وبالمتاحف نماذج من عشرات القصص والأساطير التى كانت تتناول كافة نواحى الحياة فى مصر الفرعونية والتى منها نتصور جانبا من الكتاب الفرعونى .

فى الأدب التهذيبى تعاليم ووصايا سياسية أو خلقية من فرعون أو إحدى الشخصيات البارزة يوجهها بصفة خاصة لابنه . ومن ذلك كتاب الحكم

(لبتاح حتب) وهو خير ما يملك التاريخ الفرعونى من هذا النوع من الأدب ، فى عصر الدولة القديمة ، اتخذ منه المصريون معينا للحكم والتعاليم . وجعلوا منه أساسا لاصول التربية والسلوك . والذى يقرأ كتاب (بتاح حتب) يستطيع أن يحكم منه على اتجاه الأدب الفرعونى فى ذلك العهد ، وعلى القيم الخلقية وآداب السلوك العام ، ويستطيع أن يرى فيه ما يشير إلى ارتفاع مستوى الحياة المصرية أيضا . بعض نصائح ذلك الكتاب لا نزال نسمعها الآن كما سمعها المصرى منذ آلاف السنين مثل :

(لا تخن من ائتمنك لتزداد شرفا ويعمر بيتك) .

(لا تترك التحلى بحلية العلم ودماثة الخلق) .

(كن سمح الوجه ما حييت) .

ومن صور الكتاب الفرعونى يمكننا أن نضيف تعاليم امنمحات الأول لولده سنوسرت فقد كتب الملك امنمحات الأول ، مؤسس الأسرة الثانية عشرة ، وصية لابنه لتكون بمثابة دستور يسترشد به فى حكم البلاد . وقد جاءت هذه التعاليم خلاصة تجارب ذلك الرجل من ناحية ، وصورة صادقة لحياته المليئة بالجد والكفاح من ناحية أخرى ، وقد كانت تحتل مكانا رفيعا بين آداب المصريين فى ذلك العهد . وظاهر من مطلع الوصية أن الملك الشيخ قد امتلأت نفسه بالشك والريبة بعد المؤامرة التى دبرت لقتله ، فأخذ يحذر ولده من الناس ، بل من أقرب الناس اليه ، فيقول مخاطبا اياه :

« أنت يا من غدوت ملكا ، استمع لما أقول حتى تصبح ملكا على الوادى ، وحتى يمكنك أن تعمل صالحا . خذ الحذر من عمالك ، فما أطاع الناس إلا من أرهبهم ، وإياك أن تدنو منهم وحدك ، وإياك أن تثق بأخ ، أو تصطفى لنفسك صاحبا ، فلا خير فى ذلك كله . ولتكن حارس نفسك عندما تنام حرصا على حياتك ، فلا صديق لامرىء فى ساعة الحرج والشدة . لقد أعطيت السائل وربيت اليتيم ، وأغنت المعدوم ، ومع ذلك من أكل عيشى هو الذى استعدى الناس على ، والذى مددت له يد المعونة ردها بالكبر » .

وهكذا يسوق الشيخ النصح لخليفته فى ألفاظ تدل على طول خبرته وتجاربه ، وهى فى الوقت نفسه مرآه لقلبه المحزون ، ونفسه المليئة بالشك والريبة ، كذلك لم يترك المصريون فى زمان الدولة الوسطى وزمان الدولة الحديثة نوعا من الأدب امتاز بأسلوبه الشعرى الذى يجعله أقرب إلى النظم منه إلى النثر ، والذى يمكن أن نسميه آدب الملاحم إلا وكان لهم فيه نصيب خاصة الأشعار التى تفيض رقة وعذوبة ونلمس فيها العفة والحنان ، وتتغنى بجمال الطبيعة وكيف يسعد بها الانسان .

الكتاب فى الحضارة البابلية الأشورية (العراق القديم)

يرى علماء الآثار أن الطين التى استخدمها الأنسان فى حضارة ما بين النهرين فى صناعة الأوانى الفخارية هى التى هيأت للطالب القديم مادته الأولى التى يخط عليها كتاباته .

فمنذ أربعة آلاف سنة سجل السومريون والبابليون كتاباتهم على ألواح الطين ، ولم يستخدم البابليون المداد الذى استخدمه المصريون فى كتاباتهم بل كتبوا على الطين الطري ونقشوا عليه بسن ألة حادة بأسلوب الكتابة المسمارية أو الاسفينية . وكان الكاتب إذا انتهى من كتاباته جفف اللوح الطينى فى النار أو عرضه لحرارة الشمس وجعله بذلك مخطوطا يمكن الاحتفاظ به على مدى الدهر .

يقف البابليون والأشوريون فى بلاد ما بين النهرين على قدم المساواة مع المصرين والصينيين بوصفهم أول مخترعين لنظم الكتابة وقد استخدم السومريون فى كل ما كتبوه خمسة أشكال مسمارية ولذلك عرفت كتاباتهم بالمسمارية Cuneiform script .

وقد نشأت مكتبات فى حضارة ما بين النهرين من كتب الألواح الطينية والفخارية كذلك ، واستعملوا أيضاً الألواح الطينية المبللة ، وعرفوا تصفيف مخطوطاتهم ووثائقهم تصفيفاً موضوعياً ، بحيث كانت تحفظ كل مجموعة من

نوع واحد فى قدر كبير ، ثم ترتب هذه القدور فوق أرفف فى ردهات كبيرة تلحق بالمعابد ، وكانت هذه الردهات تؤدى نفس الغرض الذى تؤديه المكتبات العامة فى وقتنا الحاضر . وكانت معظم هذه الكتابات تدور حول حرص ملوك بابل وأشور على تسجيل ما قاموا به من حروب انتصروا فيها ، ولم تكن النقوش المنتشرة فى قاعات القصور الملكية سوى تكرار لتمجيد الأعمال العسكرية ، والاشادة بالانتصارات والغزوات التى انتصر فيها ملوكهم . وبعض هذه الألواح كانت تحفظ فى قدور أخرى توضع فى أساسيات المبانى لحفظها على المدى الطويل ، ويتضح للباحث فى الفكر الأشورى أنه بدأ مع حياة الانسان فى تلك المنطقة بجنوب العراق القديم ، بدأ هناك الانسان حياته بإقامة الحياة الزراعية والصناعية رغم مواجهته لبيئة أرضية ومائية نهرية وجوية متغيرة لا تنعم بالاستقرار ، ولا تدفع إلى الطمأنينة ، بل تتصف بالتقلب والتغير المستمر إلى درجة تهديد حياته بالفناء والحاق مختلف الصعاب بحياته ومصيره ، وتعريض انتاجه الزراعى إلى أضرار بالغة . مما دفعه إلى البحث والتعمق فى دوافع تلك الاشكالات البيئية ، وهل من وسيلة إلى التحكم فيها وإحلال الخير والمنفعة والطمأنينة مكان الجوانب الضارة بحياته ومستقبله .

اتجه الانسان الأشورى إلى البحث عن القوى الخفية الخبيرة والشريرة ، وقد اعتبر انسان بلاد ما بين النهرين السماء منذ البداية ذات أولوية خاصة فى حياته ، حيث أن السماء هى مصدر الأمطار التى تتجمع فى الأنهار لرى الأراضى ، فأعتقد فى وجود قوة إلهية تتحكم فى السماء ، وأن هناك قوى أخرى تتمثل فى الهواء والأرض والشمس والقمر والنجوم والبحر والنهر واتجه الأشوريون إلى الاعتقاد فى وجود تنظيم يجمع كافة القوى الالهية ، وأن سلوك القوى الإلهية وتصرفاتها من وجه النظر الأشورية ، كانت كبيرة الشبه بالسلوك الانسانى فيسود بينها الحق والصدق ، كما يتجه بعضها إلى الظلم ، كما أن الآلهة من وجه نظر الانسان الأشورى ، كانت تأكل وتشرب وتتزوج وتنجب وتحارب وتقتل ، وغير ذلك من مختلف ظواهر تصرفات الانسان المعتادة ، كان الإله آن AN إله السماء هو الاله الأول أمام كل الآلهة الأخرى ، وكان الإله

إنليل Enlil إله الهواء والرياح فى المرتبة الثانية عند الأشوريين ، وكان الإله إنكى Enki هو إله الماء والأرض والعالم السفلى والحكمة . أما القوة الإلهية الرابعة عندهم فكانت متمثلة فى الإله ننخرساج Ninhursag آلهة الأمومة والانجاب والجبل وهى زوجة الإله نان إله السماء

وكان الفكر الدينى الأشورى يعتمد على بعض القيم والمبادىء الأساسية فالخلود للآلهة فقط بينما الانسان ينعم بخدمة الآلهة وينفذ أوامرها دون أية معارضة وحيث حياته محدودة وتنتهى بنزول روحه إلى العالم السفلى . ومن ناحية أخرى دعا الفكر الأشورى إلى العديد من القيم الخيرة كالعدالة والحرية والرحمة والصدق ، وقد سجل الانسان الأشورى العديد من تلك القيم والمبادىء فى شكل أساطير وملاحم تجمع بين الحقيقة والخيال،ومن أهم الأساطير الأشورية أسطورة الطوفان أو الفيضان الكبير الذى تعرضت له الطرق القديمة مع بداية العصر التاريخى ، تشير ذلك الأسطورة إلى موضوعات خلق الانسان وتكون المدن القديمة وخلق الحيوان . ومن الأساطير الخالدة أيضاً أسطورة دطون أو الفردوس والتى يظهر فيها الإله أنكى وزوجته لينخرساج الذين كانا الزوجين الوحيدين فى أرض دطون وقصة انجابهما للآلهة الأخرى ، ولم يكتف الانسان الأشورى بالتعبير بالكتابة السومرية ، بل اتجه إلى استخدام وسائل التعبير الفنية الأخرى وخاصة فى مجال الشخصيات الأسطورية الخيالية التى تجمع فى تشكيلها بين الأجسام البشرية أو أجزاء فيها ، وبين بعض الحيوانات أو الطيور أو الحشرات أو أجزاء منها أيضاً ، وقد استدعى ذلك أن اتجاه الانسان السومرى إلى انشاء المعابد لتأدية الطقوس وتقديم القرابين حتى أصبحت مركزاً لكافة العلوم والمعارف بعد أن أجاد الكتابة بالرموز المسمارية .

الكتاب فى الحضارة اليونانية :

كان العلم اليونانى قد اشتمل على علم الأقدمين كالفراعنة القدماء والبابليين

إضافة إلى الانجازات التى حققها اليونان أنفسهم والتى انحصرت فى الفلسفة والطب والرياضيات والجغرافيا والفلك وكانت أهم الكتب التى أعتمد عليها العرب .

كتب أبوقراط وجالينوس وديقوريدوس فى الطب وكتاب المجسطى لبطليموس السكندرى فى الفلك وكتابه فى الجغرافيا ، وكتب أقليدس وأرشميدس وأبولونيوس وديوفنطس فى الرياضيات وكتب أفلاطون وأرسطو وأفلوطين فى الفلسفة والمنطق/ كان المجتمع اليونانى متفتحا على غيره من المجتمعات التى سبقته إلى ازدهار النشاط الحضارى ولاشك أن أثر الحضارة اليونانية لا يزال قائما فى عالمنا المعاصر بصورة مباشرة أو غير مباشرة فى أكثر من جانب . وتكمن قيمة الحضارة اليونانية للإنسانية فى أنها استطاعت أن تحدد الكثير من المفاهيم التى تعبر عن وقائع الحياة وحقائق الكون والمعرفة وليس أدل على ذلك من الصيغ والمسميات اليونانية القديمة التى يستخدمها علماء اليوم مثل : الفلسفة والتاريخ والرياضة والفلك والفيزياء والذرة وغيرها . وبفضل الموهبة الصافية والعبقرية الفذة التى منحها الله للسلالة اليونانية ظهرت الكثير من الآراء والنظريات والمذاهب التى تدرسها جميع الأجيال المتعاقبة فى كل أنحاء الدنيا وبكل اللغات،وأقامت على أساسها الانسانية صروح الحضارات المتلاحقة عبر تاريخ التطور والتقدم للفكر البشرى ولقد كان تراث اليونان بحق هو المنبع الأساسى الذى أخذت منه الحضارة الاسلامية فى أول مراحل نهضتها العلمية فى عهد الرشيد والمأمون العباسيين .

كانت مصر تصدر ورق البردى إلى العالم اليونانى فى القرن السابع قبل الميلاد بسبب خفته ومتانه أوراقه ، وكان حملها إلى مسافات بعيدة أمراً ميسوراً سواء على هيئة أفرخ منفصلة أو لفافات طويلة ، وبذلك أتاحت لليونان استخدام أداة تلائم الكتابة أكثر من أى شىء استخدموه من قبل ، فأخذ عدد الكتب اليونانية فى الازدياد وكان اليونان يطلقون على اللفافة المصنوعة من البردى اسم (Byblos) وقد كتبت هذه الكلمة فيما بعد (Bibpos) ومنها اشتقت كلمة Bible ومنها اشتقت اللغات الأوربية الحديثة اسم بيبر Paper

للورق ، كما كانوا يسمون مادة الورق خارتيس Chartes ومن الكلمة اليونانية اشتق اللفظ اللاتيني Charta للدلالة على ورقة بردية . ولهذا مازال الايطاليون يسمون الورق Carta وفى القرن الخامس قبل الميلاد بدأ اليونان يدونون تراثهم الأدبى منذ عصر هوميروس Homeros على كميات ضخمة من لفات البردى التى أخذت تتداولها الأيدى أو تباع فى الأسواق . وعندئذ ظهر هواة تكوين المكتبات التى لم تكن سوى أمكنة توضع فيها لفافات البردى ويقال أن يوربيدس Euipedes الشاعر اليونانى كانت لديه أضخم مجموعة من لفافات البردى فى عصره . وعندما انشأ أفلاطون Plato فى القرن الرابع قبل الميلاد مدرسة للبحث الفلسفى أسماها الأكاديمية عام ٣٨٧ ق . م زودها بمكتبة وأنشأ أرسطو Aristotle فى مدرسته مكتبة أكبر من مدرسة أستاذة أفلاطون . وبعد وفاة الأسكندر عام ٣٢٣ ق . م أصبح بطليموس إبن لاجوس أحد قادته المقدونيين ملكاً على مصر ، وبذلك صار ذلك الرجل اليونانى المثقف حاكما على الدول التى تمد باق العالم بورق البردى ، وكانت صناعة البردى فى مصر – على الأرجح – احتكاراً للملك فى عهدخلفاء بطليموس الذين حملوا جميعا اسم مؤسس الأسرة وبذلك صارت المادة اللازمة لصناعة الكتب فى المنطقة التى سادتها الثقافة اليونانية تأتى من مصانع مصر وحدها .

ولما كان بطليموس أغنى رجل فى العالم المعروف وقت ذاك ، علاوة على سيطرته على مورد البردى فى العالم ، لذلك فقد دفعه طموحه إلى تأسيس أعظم مكتبات العالم وهى مكتبة الاسكندرية ، والحق بهذه المكتبة معهداً يسمى Museum ، وكانت مبانى المعهد ملحقة بالقصر المطل على البحر فى الأسكندرية ، وللمعهد مدير يعينه ملك مصر ويحمل لقب « كاهن ربات الفنون » وكان العلماء والفلاسفة اليونان يتوافدون على الأسكندرية من جميع أنحاء العالم ليتوفروا على البحث فى المعهد يساعدهم على ذلك توافر المراجع والمؤلفات فى المكتبة وإذا تتبعنا ظاهرة انشاء المكتبات فى الحضارات القديمة نجد مكتبة الأسكندرية أشهر ما ذكره المؤرخون وأهم حدث علمى على الاطلاق فى تاريخ الحضارة وتدوين العلم فى العصور القديمة . وكان العلماء يتقاضون

مرتبات من الملك حتى عام ٣٠ ق . م . ومن الحكومة الرومانية بعد هذا التاريخ .

ويقال أن مكتبة الأسكندرية كانت تحتوى فى أواخر عهد فيلا دلفوس (عام ٢٨٥ - ٢٤٧ ق . م) على ٤٠٠,٠٠٠ لفافة مختلطة و ٩٠,٠٠٠ لفافة غير مختلطة والمقصود باللفافات المختلطة أنها كانت تحتوى على أكثر من مؤلف أدبى واحد . ولقد اتضح أن هذا العدد الهائل من اللفافات المختلطة وغير المختلطة فى المكتبة كان يزيد كثيراً عما يتطلبه تدوين كل المؤلفات التى انتجها العالم اليونانى حتى ذلك الحين ، مما يدل على أن جزءاً كبيراً من هذه اللفافات كان يحتوى على نسخ مكررة .

الكتابة فى الحضارة اليونانية :

ما أكثر ما عالج الكتاب اليونان الأحداث والمواقف والأفكار والتجارب فى كتاباتهم إذا درسنا تاريخ المجتمع اليونانى بأكمله بأفراده وطبقاته وما كان لديهم من مواقف وأفكار ومعلومات ... ولاشك أن كل ذلك قد أدى إلى تطور وتقدم هذا المجتمع.وفى هذا المجال نجد لدينا كتابات عدد من المؤرخين ، وأول هؤلاء هو هيرودوت Herodotos فى أواسط القران الخامس قبل الميلاد . كتب هيرودوث تاريخا حاول أن يجعله شاملاً عن أخبار العالم كما كانت معروفة فى عصره وحيث كان يتحدث عن كل شيء ، عند وصف الأماكن والأشخاص والأحداث, والأفكار والعادات والعقائد والأساطير بأسلوب تقريرى ، غالبا ما يعتمد على الرواية وعلى ما تواتر من أخبار الأجيال . ربما كانت هذه الطريقة الوحيدة المتاحة له آنذاك ... وهى وإن ساعدته فى الحصول على كثير من المعلومات إلا أنها أعطته أيضا قدراً كبيراً من الأخبار المشكوك فيها والتى حرفتها الأجيال قبل أن تصل إليه لكى يكتبها .

ومن بين المؤرخين اليونان كذلك ثيوكيديدس Thukdides فى أوائل القرن الرابع قبل الميلاد وقد ركز كتاباته حول موضوع واحد هو موضوع الحروب

البيلوبونيسية التى قامت بين اثينا وأسبرطة فى الثلث الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد بكل تفاصيلها،حيث عاصر هذه الفترة الحرجة فى تاريخ اليونان ، بالاضافة إلى اشتراكه فى هذه الحرب بصفته قائداً من قواد اثينا ، كما كان على صلة بالساسة الكبار فى البلدين ، وعلى هذا جاءت معلوماته مباشرة ، كما امتاز بمقدرته على تحليل الحوادث والمواقف والشخصيات تحليلاً اجتماعياً ونفسياً عميقاً فكان بذلك أول مؤرخ يونانى يتبع المنهج العلمى التحليلى فى كتابة التاريخ .

كذلك هناك كتابات المؤرخ كسينوفون Xenophon وقد ظهر فى أوائل القرن الرابع ق . م . وكتب عدة كتب عن تاريخ بلاد اليونان ونظمها وعن تنشئة الملك قورش الأمبراطور الفارسى كما تصورها ، وعن موضوعات أخرى بعضها عسكرى وبعضها اجتماعي وبعضها اقتصادى ، وكتاباته تمتاز بأنها متعددة الموضوعات إلا أنها أقل من وجهة التدقيق والتحقيق ويمكن أن يوصف بأنه كاتب ممتاز يعطى معلومات طريفة ومتعددة الجوانب لكنها لا ترقى إلى مستوى ثيوكيديدس فإذا تركنا كتابات المؤرخين ، وجدنا كتابات من نوع آخر هى الخطب التى كان يلقيها خطباء اليونان ، وقد كانوا كثيرين ، يتحدثون فيها أمام المجالس الشعبية وأمام الهيئات السياسية والقضائية وغيرها فى القضايا السياسية والاجتماعية والقومية التى كانت واردة فى المجتمع اليونانى آنذاك .

ومن بين أشهر ما وصل إلينا من هذه الخطب تلك المقولة إلى بركليس Perikles الزعيم الأثينى الذى استكمل النظام الديموقراطى فى اثينا خلال منتصف القرن الخامس ق . م . كذلك ديموشتنيس Demosthenes الخطيب والسياسى الأثينى الذى ظهر فى أواسط القرن الرابع ق . م ومن خلال خطبه نعرف الكثير من الأحوال الداخلية فى اثينا ، كما تعرف الكثير عن السياسة الخارجية التى انتهجها المجتمع الأثينى آنذاك . رغم أن هذه الخطب دائما ما تحمل جانباً واحداً من الحقيقة أو على الأقل نوعاً من المبالغة والتهويل فى عرض الحقائق . فالخطيب يدعم قضيته بذكر كل التفاصيل التى تسيء إلى قضية خصمه .

وهناك كتابات أخرى أهم بكثير من كتابات المؤرخين وهى كتابات الفلاسفة من أمثال سقراط Socrates وأفلاطون Plato وأرسطو Aristotle وهناك المفكرون الآخرون الذين كانوا يمارسون ألوانا من الثقافة العامة والذين أطلق عليهم اسم السوفسطائيين Sophists وهناك المدارس المذهبية والتى كانت تضم العلماء الذين يعالجون موضوعات الفلك والتنجيم والرياضة والطب والعلاج وغير ذلك من ميادين الثقافة والعلم قبل المدرسة الفيثاغورية .. لاشك أن الانسانية استفادت كثيراً من كتابات كل هؤلاء من حيث أنها تبصرنا بالانجاز الفكرى والعلمى الذى حققه المجتمع اليونانى ومدى تأثره بغيره من المجتمعات أو تأثيره فيها فى كل هذه المجالات وهكذا ...

وفى مجال الكتابة عند اليونان مصدر هام هو الأدب ، وهذا النوع من المصادر يضم كل ما وصلنا من إنتاج الأدباء بكل ما فى ذلك من أغانى وأشعار ومسرحيات ، وبكل ما تتضمنه هذه من أفكار وحقائق وخيالات وأوهام وخرافات وأساطير ، وبما تصوره من مشاعر وعواطف وانفعالات وأحاسيس ، وبما يظهر فيها من لوحات حية للقوة والبطولة والتضحية والنبل والسيطرة والعنف والخنوع والأثرة والجبن والنذالة ، ومن صور السعادة والبؤس والأمل واليأس والرجاء ، وبما ينم عنه كل ذلك من رغبات ومن قيم أو معايير اجتماعية تعتز بها طبقة أو أكثر من طبقات المجتمع ، ومن المثل العليا التى تكافح فى سبيل تحقيقها والاتجاهات التى تسيطر على هذا الكفاح ، وكلها تمثل جوانب أساسية صادقة التصوير والتعبير عن حياة المجتمع .

ولنعرض هنا لنوع آخر من كتابات الأدب اشتهر به اليونان وهو أدب الملاحم، والملحمة ببساطة هى رواية أسطورية أو شبه أسطورية ، مكتوبة بالشعر . وأهم الملاحم اليونانية هما ملحمتا الالياذة والأوديسة المنسوبتان إلى هوميروس Homeros . وهناك ملحمتين أخريتين للشاعر اليونانى هزيود Hesiodos هما الأعمال والأيام Egra kai hemera ونسب الألهة Theogonia وإذا أخذنا ملحمتى الألياذة والأوديسة ، لنرى كيف يمكن للمؤرخ أن يعتمد عليهما نرى أنهما عبارة عن مجموعة من الأشعار والأناشيد الفولكلورية قيلت

وأنشدت وتغنى بها الناس فى فترة تمتد أكثر من ثلاثة قرون ، وجمعها وصاغها هوميروس فى هيئة هاتين الملحمتين ولقد سميت هاتان القصيدتان بإنجيل. اليونان . تدور الالياذة حول مهاجمة القوات اليونانية المحاربة لمنطقة طروادة على الساحل الشمالى لآسيا الصغرى . وتدور الأوديسة حول المغامرات والأهوال التى واجهها أحد أبطال اليونانيين فى هذه الحرب ، هو الملك أوديسيوس Odysseus فى طريق عودته من طروادة ، بعد أن اسقطها وأحرقها اليونان ، إلى بلده ومقر ملكه إثاكة Ithaka على الساحل الغربى لبلاد اليونان كما تعبر الالياذة عما جلبته هذه الحروب من العذاب والموت والعار لليونان .

كما تمثل هذه الأشعار تراثاً شعبياً يونانياً أصيلاً . تغنى أهل اليونان بهذا الشعر وتخليدهم اياه إنما يدل على أن هذا الشعر كان شعبيا ، وكان محبوباً . كما أن أشعار الملحمتين كانتا تشكلان الدروس الأولى التى يجب أن يتعلمها ويتدرب عليها النشىء اليونانى . وقد كان هذا الأمر سارياً فى كل العصور التى نعرف خلالها شيئا عن المجتمع اليونانى . كما يصف هذا الشعر حياتهم اليومية سواء فى البيت أو السوق أو الحقل أو المرعى أو ميدان القتال ، وكما يوضح نظرة اليونان إلى الدين والألهة ، ويظهر موقف أهل اليونان من القانون وما كان يسودهم من تنظيم سياسي واقتصادي ومن تعايش طبقى واجتماعى ، وأيضا كل ما يتعلق بآمال اليونان وأمانيهم وبأفكارهم عن المجتمع المثالى الذى لا نظهر فيه عيوب مجتمعهم ، وهذه يوردها الشاعر على لسان شخصياته فيجعل هذه الشخصيات تقارن بين ما كان سائداً فعلاً وما كانوا يتمنونه أو يرون أنه ينبغى أن يكون ، وقيمة هذه الأفكار مجتمعة هى أنها تعكس لنا التيارات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى كانت تسود مجتمع اليونان ومن ثم فهى بداية لتحليل الفكر الفلسفى الذى تركه اليونان فى كل ما كتبه هؤلاء المفكرون والعلماء والشعراء .

وربما كانت رطوبة الجو فى بلاد اليونان من أهم عوامل التلف والفساد بالنسبة للبرديات ومواد الكتابة الأخرى كالورق التى استعملها اليونانيون فى تاريخهم السحيق . فالأمة اليونانية عرفت الكتابة منذ أيام هوميروس ووجدت

الكتب مع ظهور بواكر النهضة الأدبية عندهم . كانت الحياة الاجتماعية فى اثينا تغرى الناس بالقراءة كأداة للتحصيل والدرس وكوسيلة من وسائل المعرفة والبيان والجدل . ولاشك أن قادة الفكر منهم كانوا يحتفظون لأنفسهم بمجموعات خاصة من الكتب بدليل من تذكره المصادر القديمة من أن ديموقريطس ويوربيلو (القرن الخامس ق . م) كان لكل منهما مكتبته الخاصة ، وما ذكره المؤرخ كسينوفون فى القرن الرابع ق . م عن عدد الكتب التى كاد يملكها يوشيديموس أحد اتباع سقراط .

وما تؤكده البرديات التى عثر عليها فى مصر بالفيوم من وجود مكتبات خاصة ذكر بها ١٣٢ لفافة فى الفلسفة ، ٢٩٦ لفافة فى الطب كانت ضمن إحدى مقتنيات مكتبة خاصة فى القرن الثالث ق . م .

وكان عصر أفلاطون عصر بحث وتفكر فى الدين والفلسفة ، وكانت طريقة الحوار التى يتبعها فى تدريسه تفرض على السامعين اطلاعاً وبحثاً دائمين . خاصة وأنه كان يذكر فى محاوراته الكثير من الكتب . إن أكاديمية أفلاطون امتدت بها الحياة الخصبة ما يقرب من عشر قرون من سنة ٥٢٩م حين اغلقت ابوابها على يد جستنيان . هذه الأكاديمية جمعت الكثير من الكتب والوثائق والتاريخ يحدثنا أنه فى سنة ٣٠٦ ق . م كانت المدرسة الأبيقورية تفتح أبواب مكتبتها للقراء . وبإنتقالنا من جيل أفلاطون إلى جيل أرسطو ، ننتقل إلى عصر التحول العظيم إلى القراءة والكتابة والتأليف ، حتى ليقال أن أرسطو أول من جمع الكتب والبحوث فى معهده العظيم[1] .

الكتاب فى الحضارة الرومانية :

على مدى ما يقرب من عشرة قرون ، قامت المكتبات اليونانية وعلى رأسها مكتبة الأسكندرية بالحفاظ على تراث اليونان واحتضنت تراث البشرية كله فى تاريخها الطويل ولم ترق أى مكتبة أخرى إلى مستوى مكتبة الأسكندرية لا فى الحجم ولا فى الدور الانسانى الكبير الذى نهضت به فى تاريخ الحضارة البشرية

(١) د. لطفى عبد الوهاب : اليونان : مقدمة فى التاريخ الحضارى ص ٢٢٥-٢٦٢ .

وانتقل هذا التراث إلى القسطنطينية فى العهد الرومانى وشارك الرومان بنصيبهم فى التراث الانسانى . ولاشك أن الكتابة والكتب لا توجد إلا حيث توجد نهضة فكرية تتمخض عن نتاج مكتوب .

كان نظام التعليم عند اليونان يرتكز على المدرسة ومعلمى البيان والخطابة وعلى الحياة الاجتماعية التى يحياها التلاميذ خارج بيوتهم ، أما الرومان فإنهم كانوا يعتمدون على الأب فى تعليم الأبناء . ومن أجل هذا كان البيت الرومانى يقوم بوظيفة تربوية وتعليمية فى وقت واحد . والنتيجة الطبيعية لذلك أن تظهر المكتبات الخاصة فى المنازل قبل ظهور المكتبات العامة التى تنشئها الدولة ... ولقد بدأت هذه المكتبات الخاصة تظهر فى ميلاد الرومان وتصبح سمة بارزة من سمات الحضارة الرومانية منذ منتصف القرن الثانى قبل الميلاد وحتى أوائل القرن السادس الميلادى .

ومنذ عصر شيشرون أصبحت المكتبات الخاصة شيئا أساسياً بالنسبة لكل دارس أو معلم أو كاتب أو مسئول ، وأصبحت كل مكتبة من هذه المكتبات تقتنى ثمرات الفكر اليونانى والرومانى على السواء .

ومع بداية عهد أغسطين (٦٣ ق . م – ١٤ م) نرى الكتب الرومانية وقد غمرت الأسواق ، ونرى المكتبات الخاصة وقد انتشرت ، حتى أصبح لكل شاعر أو أديب أو سياسى من رجال العصر مجموعته الخاصة .

وتحول اقتناء الكتب إلى مظهر من مظاهر الثراء والتفاخر ، حرص على الأغنياء والأزياء حتى أصبحت ظاهرة مرضية ، وكتب سينكا Seneca ينعى على قومه أنهم يجمعون كميات عظيمة من الكتيب لمجرد تزيين الحجرات والجدران وعلى الرغم من عيوب هذه الظاهرة إلا أنها كانت المستودع الأمين الذى احتفظ بالتراث اليونانى والرومانى وصانه بعيداً عن أيدى العبث والدمار .

وكانت أول مكتبة عامة هى تلك التى أنشأها اسينوس بوليو فى معبه الحرية عام ٣٩ ق . م .

وفى عهد الامبراطور الرومانى أغسطين انشئت فى روما مكتبتات هما المكتبة البالاتينية Palatine library بجوار معبد أبولو بروما والمكتبة الالكتافية Octavian التى انشئت فى ميدان الإله مارس . ولا نكاد نصل إلى القرن الثانى الميلادى حتى نجد فى روما ٢٦ مكتبة ترتبط جميعها بالمعابد والهياكل الدينية ، ولعل أهمها وأضخمها وأطولها عمراً مكتبة أولبيا Uipian library التى انشأها إلا امبراطور تراجان بجوار معبده ، وكانت مركزاً للوثائق الرومائية ، وامتدت بها الحياة حتى القرن الخامس الميلادى .

ومع انتشار الحكم الرومانى والحضارة الرومانية ، انتشرت المكتبات الرومانية فى شمال أفريقيا وأسبانيا وجنوب فرنسا وشرق البحر المتوسط ، ولم تكن هذه الكتبات العامة مجرد دور للكتب ، وإنما كانت أيضا ملتقى للباحثين والدارسين والمفكرين والعلماء .

وفى القرن الرابع الميلادى تتقلص الامبراطورية الرومانية وتنتشر المسيحية انتشاراً حاملة معها الأدب المسيحى الجديد وتقلص الأدب الوثنى القديم .

الكتاب فى الحضارة الاسلامية

فإذا انتقلنا إلى فجر الحضارة العربية نتلمس تاريخ الكتاب وجدنا المعلقات فى الجاهلية أقدم صور الكتاب فى التاريخ العربى . والمعلقات كما هو معروف فى تاريخ الأدب العربى هى أروع القصائد للشعراء فى الجاهلية . وانهم كانوا يعلقونها على الكعبة تعظيما وتشريفا لتلك القصائد . ومهما شك النقاد والمؤرخون فى اجراءات تعليق القصائد أو شكوا فى كثير من الشعر الجاهلى برمته ، فان شكهم لا ينفى ازدهار الشعر فى الجاهلية ، ولا ينفى أن العرب كانوا يعلقون فى أستار الكعبة أو فى جوفها ما يكبرون أمره .

ويروى بعض مؤرخى الشعر الجاهلى أن ملوك الغساسنة المتأخرين كانوا يحتفظون فى خزائنهم بديوان يضم القصائد التى مدح بها الشعراء أجدادهم من الملوك . ولكن هذا الديوان لم يصل إلى المتأخرين منسوخا أو مكتوبا ، وانما

ظل النقل الشفاهي للقصائد متفرقة حتى عصر التدوين فى الدولة الاسلامية .

والصحيفة المكتوبة فى العهد المكي)للنبوة هي صحيفة المقاطعة التى تعهدت فيها قريش بمقاطعة بني عبد المطلب بحيث لا يبيعون لهم ولا يشترون منهم ولا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم ، وذلك بغية اجبار أبى طالب زعيم العشيرة.وعم الرسول ﷺ على تسليمه محمدا أو القضاء على الاسلام . وقد علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم وتشددا فى المقاطعة . وقد لقى أبو طالب ومعه بنو هاشم (عدا أبو لهب) وبنو عبد المطلب عنتا شديدا من الحصار الذى بلغ حد التجويع ، حتى نقض بعض أصحاب الصحيفة شروطها الجائرة . ومزقها مصعب بن عدى . ذلك الرجل الذى أجار رسول الله ﷺ عقب عودته من ثقيف بالطائف .

أما الصحيفة المكتوبة فى العهد المدنى فهى أول وثيقة فى تاريخ الأمة الاسلامية عقب الهجرة مباشرة . وفيها بيان الحقوق والواجبات للمسلمين من مهاجرين وأنصار ، ولمشركي المدينة ، ولليهود . وهذه الوثيقة التى أوردها ابن هشام فى كتابه المشهور عن سيرة الرسول ﷺ . ولم يذكر النص المكتوب الذى نقل منه . ولكن المشهور انه كتب السيرة عن ابن اسحق بطريقة المشافهة .

وتروى لنا كتب السيرة أن صلح الحديبية كان مكتوبا . كذلك تروى لنا كتب الحديث جوانب عما جمع من بعض أحاديث الرسول ﷺ . فقد روا نافع عن ابن عمر أنه وجد فى قائم سيف عمر بن الخطاب رضى الله عنه صحيفة فيها صدقة السوائم . وروى محمد بن عبد الرحمن الأنصارى قال : لما استخلف عمر بن عبد العزيز أرسل إلى المدينة يلتمس كتاب رسول الله ﷺ فى الصدقات ، وكتاب عمر بن الخطاب ووجد عند آل عمر كتاب عمر فى الصدقات مثل كتاب رسول الله ﷺ . قال فنسخناه له / وروى محمد بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهما قال أرسلنى أبى ، قال : خذ هذا الكتاب فأذهب به إلى عثمان ، فان فيه أمر النبى ﷺ بالصدقة . أما أشهر الكتب أو الصحف

التي عرفتها العربية ، غير القرآن الكريم ، فهو صحيفة الصادقة لعبد الله بن عمرو بن العاص (٥٧هـ ٦٥هـ) . والصادقة تحتوى أحاديث عن الرسول ﷺ . وفى تاريخ الاسلام قضية أو مشكلة علمية تتعلق بتدوين الحديث . ذلك أن النبي والخلفاء الراشدين من بعده صرفوا جهدهم الأول فى العناية والتدوين والمحافظة على القرآن الكريم . ولم يسمحوا لنص آخر يختلط به أو يواجهه أو يصرف الناس عنه . غير أن المشكلة التي تواجه الباحثين فى تدوين الحديث هى أنه فى عصر النبوة ، ثم فى عصر الخلفاء الراشدين ، لم يكن النبى قاطعا عن تدوين الحديث . ولكن بصفة عامة كان الانصراف إلى حفظ القرآن . ومن الحالات النادرة التي دون فيها بعض الحديث حالة الصادقة . فقد سمح الرسول ﷺ لعبد الله بن عمرو ابن العاص رضى الله عنهما بكتابة الحديث . لأنه كان كاتبا محسنا ، واشتهرت صحيفته بالصحيفة الصادقة كما أراد كاتبها أن يسميها . ولم تصلنا الصادقة كما كتبها عبد الله بن عمرو بخطه ، وإنما نقل الأمام أحمد محتواها فى مسنده . وضمت كتاب السنن جانبا منها . ومن ثم فان انتقالها من التدوين إلى المشافهة ثم إلى التدوين يجعل ما نقل منها يخضع لدراسة علماء الحديث . ومما نستشفه عن عبد الله بن عمرو أنه كان باحثاً بالمعنى القريب من البحث العلمى فى عصرنا هذا . أو كان مهتماً بالكتابة على وجه من الوجوه . فيروى أنه كان يملى الحديث على تلاميذ فى مصر . وأنه عقب معركة اليرموك حصل على كتب كثيرة مما كان فى حوزة أهل الكتاب حملها على بعيرين[1] .

وإذا كانت الصحيفة الصادقة لم تصلنا بخط كاتبها فان صحيفة أخرى وصلتنا مكتوبة هى الصحيفة الصحيحة لهمام بن منبه (٤٠ - ١٣١هـ) . وهمام ليس صحابيا ولكنه تابع ، أى أدرك بعض الصحابة . لقد لقى همام الصحابى الجليل أبا هريرة وكتب عنه كثيرا من الأحاديث التي رواها عن النبي وجمعها فى صحيفة أطلق عليها الصحيحة على مثال الصادقة ، ولقد عثر على هذه الصحيفة الدكتور المحقق محمد حميد الله فى مخطوطتين متماثلتين فى

(١) د. محمد سيد محمد : صناعة الكتاب ونشره . وهو كتاب قيم من أهم المراجع المؤلفة باللغة العربية - دار المعارف ١٩٨٣ ص ٣٤ .

دمشق وبرلين . وكان الإمام أحمد قد نقلها بتمامها فى مسنده .

وإلى جانب تلك الجهود المتفرقة فى تدوين الحديث كانت تظهر جهود أخرى فى التأليف المبكر ، تتمثل فيما ترجم لخالد بن يزيد بن معاوية من علوم اليونان ، وما ألف هو من كتب فى الطب والكيمياء ، وما ألفه عبيد الله بن شرية لمعاوية بن أبى سفيان من أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها ، وقد طبع هذا الكتاب فى « حيدر أباد » سنة ١٣٤٧هـ . ويرجع بعض المحققين نسبتها لابن هشام. ثم ما ألفه وهب بن منبه المتوفى سنة ١١٠هـ من كتاب التيجان فى ملوك حمير ، وقد طبع هذا الكتاب من رواية ابن هشام سنة ١٣٤٧هـ مع سابقه . كما ذكر بعض الباحثين أن زياد بن أبيه وضع لابنه كتابا فى مثالب العرب ، وأن يونس بن سليمان وضع كتابا فى الأغانى ونسبتها إلى المغنيين وأن « ماسرجويه » الطبيب ترجم كتاب « أهرن بن أعين » من السريانية إلى العربية .

ولا نكاد نصل إلى عهد عمر بن الخطاب حتى نجد الكتابة وقد أصبحت جزءاً أساسياً من أعمال الدولة ، فقد فتحت البلاد وأبرمت العهود والمواثيق بين المسلمين وغيرهم ممن دخلوا فى طاعتهم دون حرب ، وكثرت المراسلات بين الخليفة والولاة فى حالات السلم والحرب على السواء ، ودونت الدواوين ، ووجدت نظم وسجلات تدون فيها الأسماء والأرزاق التى تجرى على المسلمين . وكان الفتح الاسلامى لمصر فتحاً فى تاريخ الكتابة والكتاب ، فقد أتيح للعرب أن يتعرفوا على مادتين جديدتين صالحتين للكتابة وهما البردى والكتان « القباطى » ، وهما أيسر من العسب والكرانيف من النخيل فى الكتابة ، كما أنهما أفضل من أكتاف وأضلاع الإبل والأغنام ، وأخف من اللخف وهى الحجارة البيض الرقيقة ، وأرخص من الرق والجلود ، وأوفر من المهارق الحريرية ولقد ظل البردى يتصدر مواد الكتابة ، طوال عصر بن أمية وخلال الفترة الأولى من عصر بنى العباس لأنه كان فى متناول عامة الناس ، وبلغ من كثرته وانتشاره أن وجد له درب يعرف بدرب القراطيس ببغداد ، ذكره الطبرى فى كتابه المحاسن والأضداد .

وفى العصر العباسى يظهر الورق كمنافس جديد للبردى فاستعملوه فى

الكتابة بعد أن صنعوه بأيديهم وعلى أرضهم فى زمن الرشيد ، إثر انتصار الجيوش الاسلامية بقيادة زياد بن صالح عام ١٣٣هـ (٧٥١م) ، فقد عاد المسلمون إلى سمرقند ومعهم الأسرى الصينيون ممن يعرفون صناعة الورق . ثم لم تلبث أن انتقلت من بغداد إلى الكوفه والبصرة ، وإلى أنحاء العالم العربى كله ، وانتشرت الكتابة فى الورق إلى سائر الأقطار ، وبظهور صناعة الورق فى المشرق والمغرب العربى ، يدخل المخطوط أو الكتاب العربى إلى آفاق جديدة ، وإلى أهم مرحلة من مراحل نموه وتطوره ، وهى مرحلة خصبة تمتاز بكثرة الانتاج ووفرته وسهولة تداوله بين القارئين .

كما كان للعرب فضل الحفاظ على تراث الإنسانية ، وما أنتجته قرائح اليونان فى الفلسفة والهندسة والعلوم ، وكانت اللغة العربية هى الوعاء الذى انتقلت فيه الثقافات اليونانية والفارسية والهندية والصينية والمصرية القديمة إلى أمم الغرب فى العصور الوسطى . وكان للأمة العربية الفضل فى إدخال صناعة الورق إلى أوروبا من طليطلة بالأندلس فى القرن الثانى عشر الميلادى .

إن حركة تأليف الكتب عند العرب بدأت فى القرن الثانى الهجرى ولم تلبث أن ازدهرت ازدهاراً رائعاً مع أوائل القرن الثالث ، وكنتيجة طبيعية تظهر أول مكتبة ضخمة فى تاريخ العرب وهى التى يطلق عليها بيت أو خزانة الحكمة ، والتى تنسب إلى الرشيد والمأمون ، والأخير جلب إليها الكتب من كل حدب وصوب وأمر العلماء بتعريبها ، وجعل سهل بن هارون أميناً لها . ولم تكن خزانة الحكمة هذه مجرد مخزن للكتب ، وإنما كانت مركزاً للثقافة بأوسع معانيها فقد كانت منتدى للعلماء وقاعة للباحثين والدارسين ، ومركزاً للترجمة والنسخ والنشر ، حتى كثرت الكتب والمصنفات لدرجة تلفت النظر ويصعب إحصاؤها ، خاصة وأن بعض هذه المصنفات كانت مجلدات ضخمة . والواقع أن الكثرة والضخامة لكمية الكتب لم تكن عنصر الابهار فى هذا العصر ، فقد كان يقابلها شغف شديد بالقراءة ، كان يدفع بعجلة التأليف والترجمة ويمدها بأسباب القوة والانطلاق . وحيث قضت الظروف أن تكون الكتب وحدها السبيل إلى تحصيل المعرفة والثقافة والعلم .

ظهور الإسلام وانتشار الثقافة الاسلامية

ولد محمد بن عبد الله فى مكة حوالى سنة ٥٧٠ ميلادية ، ونشأ يتيماً فقيراً إذ توفى أبوه عبد الله وهو لا يزال جنيناً فى بطن أمه . كفله جده عبد المطلب وأحسن رعايته وتربيته ، حتى بلغ الثامنة ، ثم كفله بعد موته عمه أبو طالب وجعله كأحد بنيه ، وأسبغ عليه من عطفه وحمايته ما كان له أكبر الأثر فى حياته . اشتهر بصدقه وأمانته ، فتزوجته وهو فى الخامسة والعشرين السيدة خديجة ، إحدى ثريات قريش ، ونعم بالعيش معها واطمأن اليها ، وظل يذكرها طوال أيام حياته . وهى أول من آمن به إذ كذبه الناس ، وأول من أغدقت عليه من مالها إذ حرمه الناس . وفى الأربعين نزل عليه الوحى ، وبدأ يدعو للإسلام وخاض صراعاً عنيفاً انتصر فى نهايته وتكونت دولة الاسلام وخضع العرب لأول بشير فى تاريخهم استطاع أن يجمعهم تحت راية واحدة ، ويوجههم نحو هدف مشترك .

محمد فى المفهوم الاسلامى هو النبى الذى أرسله الله ليبلغ الناس كافة دينه الحق – دون أنبيائه ورسله جميعاً ، وليقضى على الشرك – وليجعل كلمة الله هى العليا .

﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل إسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ (البقرة ١٣٦) .

هذا فيما يتعلق بالايمان بالرسالات السابقة ، أما فيما يتعلق « بالله » فالاسلام يدعو إلى « إله » واحد : ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ (الاخلاص) . كذلك هو يدعو إلى مجتمع واحد ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (سبأ/٢٨) .

محمد إذن بلغ الناس كافة رسالة ربه . أما من حيث علاقة المسلم بربه ،

فالاسلام لا ينطوى على أى مبدأ يجعل أحداً حتى رسول الاسلام ذاته بين الله وعباده . فعلاقة الانسان بربه فى الاسلام مباشرة وبغير واسطة . والانسان منذ مولده حتى وفاته فى حضرة الله ، وتحت سمعه وبصره . إذن فالعقيدة مسألة شخصية والله وحده القادر على الحكم على عباده المؤمنين . ومن هنا لا يوجد فى الاسلام رهبنة ولا قدسيون ولا تقديس ولا أحد أياً كان بين المسلم وربه .

اعتنقت جميع القبائل العربية الدين الجديد وتوحدت لأول مرة فى تاريخها الطويل الحافل بمختلف ضروب بطولات الفتح الاسلامى ، وكان من الواجبات الأولى التى حثهم عليها دينهم الجديد ، الجهاد فى سبيل الله لنصرة الدين ونشره بكل وسائل الاتصال المعروفة لديهم آنذاك ، وهى التلقين بما حفظته الصدور وبما كتبته أيدى كتاب الاسلام الأوائل .

اجتاحت جحافل المسلمين جزءاً كبيراً من العالم المعروف فى ذلك الوقت ، واستطاعت أن تؤسس فى أقل من قرن من الزمان أكبر وأقوى دولة عرفتها القرون الوسطى ، استولى المسلمون على شاطىء الفرات فى سنة ٦٣٣ م . وانتصروا على الروم فى أجنادين فى سنة ٦٣٤ م ودخلوا دمشق فى سنة ٦٣٥ وحققوا نصر اليرموك الرائع فى سنة ٦٣٦ م ، وانتصروا على الفرس فى القادسية فى سنة ٦٣٧ م ، وخضعت لهم سوريا فى سنة ٦٣٨ وجميع فارس فى سنة ٦٤٢ ومصر فى سنة ٦٣٩ – ٦٤٢ وآذربيجان فى سنة ٦٤٢ وأفغانستان فى سنة ٦٦١ ، وتونس فى سنة ٦٧٤ ، وبخارى فى سنة ٦٧٤ ، والسند فى سنة ٧٠٨ ، ومراكش فى سنة ٧٠٨ ، وأسبانيا فى سنة ٧١١ – ٧١٢ ، وسمرقند فى سنة ٧١٢ م .واستولوا فى خلال القرنين الثامن والتاسع على معظم جزر البحر المتوسط ، وأصبحوا سادة الدنيا بلا منازع .

وهنا يجدر بنا أن نثير بعض التساؤلات . كيف كانت حالة الشعوب التى فتحها المسلمون قبل الفتح وكيف صارت بعده ؟ هل كانت المبادىء التى حكمت هذه الشعوب بمقتضاها خطوة إلى الأمام أم إلى الوراء ؟ هل حدث

تطور وتقدم أم لا ؟ هل حققت الشعوب المغزوة رواجاً اقتصادياً ومزيداً من الحرية أم لا ؟ وهل حققت رواجاً ثقافياً ودينياً وعلمياً أم لا ؟ .

وسواء أكانت طبيعة هذه الحروب دينية بحتة أم اقتصادية أم مزيجاً من هذا وذاك فذلك أمر لا يعنينا كثيراً فى هذا البحث . وانما يعنينا فى المقام الأول الآثار الحضارية المترتبة على نقل واستساغة الثقافة الاسلامية المباشرة لهذه الانطلاقة العربية الاسلامية التى غيرت وجه التاريخ .

ونحن إذا نظرنا فى صفحات هذا التاريخ نظرة موضوعية صرفة ، إذن لاستطعنا أن نستوضح حقيقتين هامتين جداً . أولاً أن الاسلام كان خطوة تقدم هامة وكبرى فى التخفيف عن عاتق الشعوب ، الكثير ، بل الكثير جداً من القيود والظلامات التى فرضتها عليها الامبراطورية الرومانية . وثانياً أن الاسلام كان باعثاً على حركة احياء العلوم والآداب والفنون فى حركة من أهم حركات تاريخ العلم .

ترك الاسلام لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) حريتهم الكاملة فى أن يقيموا شعائرهم الدينية كيفما يريدون . وكانت كنيسة القسطنطينية تدعمها قوة الامبراطورية المادية والحربية ، قد أذاقت السوريين والمصريين وكل اتباع كنائس سوريا وأرمينيا ومصر ألواناً من الاضطهاد لأنهم تحدوا كنيسة القسطنطينية التى تشبثت بالاعتقاد بأن المسيح أقنوم واحد ذو طبيعيتين ، فى حين اعتقدت كنائس مصر وسوريا وأرمينية بأنه ذو طبيعة واحدة لا ذو طبيعتين(١) .

والحقيقة المؤكدة هى أن اليهود والنصارى أصبحوا فى الواقع تحت الحكم الاسلامى آمنين على أموالهم وأنفسهم وأبنائهم وتمتعوا – بغض النظر عن بعض القيود التى فرضت عليهم – بكثير من الامتيازات التى لم يحلموا بها منذ قرون تحت الحكم الرومانى . لذلك نجدهم وقد تنفسوا كثيراً من ريح الحرية

---

(١) القول بالطبيعة الواحدة يعنى أن المسيح هو الله والانسان اتحدا فى طبيعة واحدة هى المسيح . أما القول بالطبيعتين فيعنى أن المسيح اله حق وانسان حق فى نفس الوقت ، استغفر الله العظيم .

فازدهروا ، وظهر كثير من الفلاسفة والعلماء النصارى واليهود ونالوا حظوة كبيرة فى بلاد الخلفاء والأمراء المسلمين .

ومما يدلنا أبلغ دلالة على ترحيب الشعوب المغزوة بالفتح الاسلامى الذى خفف عن كاهلها كثيراً من أعباء الماضى ، ما جاء فى فتوح البلدان للبلاذرى من أنه « عندما جمع هرقل (العاهل الرومانى) للمسلمين الجموع ، وبلغ المسلمين اقبالهم اليهم لوقعة اليرموك ، ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم . فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم ونهض اليهود وقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد ، فاغلوا الأبواب وحرسوها . وكذلك فعل أهل المدن التى صولحت من النصارى واليهود وقالوا : ان ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه ، وإلا فإنا على أمرنا ما بقى للمسلمين عدد » .

إذن نستطيع القول مطمئنين بأن طابع التسامح الدينى الذى كان سائداً فى أنحاء العالم الاسلامى فى عصر ازدهار الحضارة الاسلامية كان كبيراً جداً . ولنا أن نشير هنا إلى أقوال بعض كبار المؤرخين الذين أعجبوا أيما اعجاب بهذا التسامح الذى كان مثله فى غير الدولة الاسلامية ضرباً من المستحيلات فى ذلك العصر . يقول الأستاذ « سيديو » أن المذهب النسطورى المسيحى قد تغلغل وانتشر فى الأجزاء الشرقية من آسيا تحت الحماية العسكرية الاسلامية . ويعجب الاستاذ « دريبر » من أن المسلمين لم يسمحوا للنساطرة بممارسة شعائرهم الدينية بحرية فحسب ، وانما عهدوا اليهم فى بعض الأحيان بتثقيف أبناء العائلات الكبيرة ، ويضيف إلى ذلك قوله أن هذا الموقف تحرر مذهل إذ قورن بتعصب أوربا فى ذلك الوقت ، وهو تحرر ، تطرف فيه هارون الرشيد لدرجة أنه جعل يوحنا بن ماسويه وهو نسطورى مسيحى مشرفاً على التعليم العام فى عصره .

أما مجلس الخليفة المأمون فكان يتكون من ممثلين لجميع الطوائف التى تدين بملكه . ويذكر الأستاذ « دوزى » مبرهناً على حرية الفكر فى ذلك العصر ، أى عصر ازدهار الحضارة الاسلامية ، قصة نقلها عن أحد علماء الكلام العرب ، يروى فيها كيف أنه كان يحضر فى بغداد دروساً كثيرة عن الفلسفة يشترك فيها يهود وزنادقة ومجوس ومسلمون ونصارى ، وكيف أن الحضور كانوا يستمعون إلى كل منهم باحترام عظيم ، وأنه لم يكن ينبى لأى منهم أن يستند إلا إلى الأدلة الصادرة عن العقل ، لا إلى الأدلة المستقاة من أى كتاب مقدس .

لا غرو إذن أن سمح الخلفاء والأمراء المسلمون للنصارى واليهود أن يتقلدوا مناصب الدولة كالمسلمين تماماً . ويدلل الأستاذ « جوستاف لوبون » على ذلك بقوله : إن أسبانيا الاسلامية كانت الدولة الوحيدة فى أوربا التى تمتع فيها اليهود بحماية الدولة ورعايتها فازداد عددهم زيادة كبيرة . وفى ذلك تقول الموسوعة البريطانية أيضاً أن حكام طليطلة العرب كانوا يحمون الجالية اليهودية الكبيرة فازدهرت فيها وأينعت أعمالها التجارية والثقافية ، ولكنهم فقدوا كل شىء بل طردوا منها عندما انتهت دولة الاسلام فى أسبانيا .

ولاشك أن طابع التسامح الاسلامى كان ذا أثر فعال هائل فى حركة الاحياء العلمى والبناء الحضارى التى تولاها العرب بعد الفتح . ذلك أن علماء النساطرة كانوا قد لجأوا إلى فارس التى حمتهم من اضطهاد الروم . وسرعان ما ازدهرت تعاليمهم فى المدرسة الفارسية فى « جند يسابور » وكانوا يستعينون بشىء من الفلسفة اليونانية لبث تعاليمهم . كما لجأ العلماء والفلاسفة اليونان عندما أغلق الامبراطور جيستنيان فى سنة ٥٢٩ أكاديمية أفلاطون فى أثينا ، وكانت آخر معقل من معاقل العلوم فى العالم الرومانى فى ذلك الوقت ، إلى فارس والتقت الثقافات المسيحية واليونانية والهندية والفارسية فى هذه المدرسة التى اشتهرت شهرة واسعة . وعندما وقعت جند يسابور فى قبضة العرب فى القرن السابع ، لقى هؤلاء العلماء المسيحيون تسامحاً كبيراً وتشجيعاً عظيماً من

الحكام المسلمين الذين استعانوا بهم فى تشييد صرح الدولة العلمى والثقافى ، فظهر منهم كثير من الأطباء والعلماء والتراجمة[1] .

لم يخرج العرب فى واقع الأمر من جزيرتهم إلى الأقطار المغزوة خالى الوفاض أو مجرد غازين فحسب ، وانما خرجوا إلى رحاب هذا العالم الفسيح الذى فتحوه وهم يحملون ثروة هائلة من أدبهم الجاهلى تتمثل فى لغة كاملة وخطابة وشعر وحكم وأمثال . وفوق ذلك ثروة هائلة من الأحكام الدينية والأخلاقية والاقتصادية والتشريعية المنظمة لمختلف شئون المجتمع والتى تضمنها القرآن والحديث . ولا عجب إذن أن كان للدين الجديد وتعاليمه الفضل كل الفضل فى دفع الناس إلى تعلمه وتسابقهم للاستزادة منه والوقوف على حقائقه .

وان فى تعاليم محمد لنورانية :

« الناس عالم ومتعلم وسائرهم همج »

« اطلب العلم من المهد إلى اللحد »

« طلب العلم فريضة على كل مسلم »

« من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع »

« ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب ، ولمداد ما جرت به أقلام العلماء خير من دماء الشهداء فى سبيل الله » .

لقد رفع الاسلام الحنيف من قدر العلم والعلماء ، وحث على طلب العلم ثم أن معجزته كتاب هو القرآن الكريم ، ومن آياته ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ ﴿ ورفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات ﴾ ﴿ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ ومن أقوال الرسول ﷺ أيضاً : « غدوة و طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة » ، ثم « لموت قبيلة أيسر من موت عالم » وقوله : « أطلبوا العلم ولو بالصين » وقوله : « لا خير فيمن كان من

---

(١) من مشاهير المترجمين فى عهد الرشيد يوحنا بن مساوية ، وابن البطريق وحنين ابن اسحق ، وعمر بن الفرحان ، واسحق بن حنين وثابت به قرة ، وكثير من أسرة بختيشوع .

أمتى ليس بعالم ولا متعلم » وقوله : « لا يزال طالب العلم عالماً حتى إذا ظن أنه علم فقد جهل » .

ومن ثمة كان طبيعياً وضرورياً أن يظهر فى أعقاب الاستقرار الاسلامى الكثير من الكتبة الذين يعلمون غيرهم القراءة والكتابة ومن ثم أنشئت المدارس اللازمة لتعليم القراءة بالقدر الكافى على الأقل للتمكن من الاطلاع على القرآن . وكان حفظ القرآن وتلاوته فى جميع المناسبات هم الناس الأول وشاغلهم الذى لا يشغلهم عنه شيء . كذلك كان الخليفة يوصى ولاته بالعدل حسبما جاء فى القرآن والسنة . واذن كان الاسلام ذاته فى واقع الأمر أول حافز على ازدياد حركة القراءة والكتابة والنسخ لتعليم الناس مبادىء الدين الجديد . وأسلوب تعامل الانسان مع غيره من الناس . بعد ذلك تطور الأمر بطبيعة الحال ، ونشأت علوم جديدة مثل علوم التفسير والحديث واللغة والبلاغة والبيان ، فلما اتسعت دائرة العلوم ، اتسع بطبيعة الحال مجال العلم والتدريس وشمل هذه العلوم أيضاً .

ورث العرب عن الامبراطوريتين الفارسية والرومانية ثلاث مدارس ، هى مدرسة جند يسابور الزرداشتيه التى اختطلت فيها ثقافة اليونان وعلومهم بثقافة الهنود والفرس وعلومهم ، ثم مدرسة حران الوثنية ، وكانت مركزاً للتأثر الاغريقى منذ عصر الاسكندر المقدونى ثم مدرسة الاسكندرية المسيحية المتأخرة . على أن العرب لم يرثوا هذه المدارس فارغة ، وإنما ورثوها بالعلماء والفلاسفة والمترجمين الذين كانوا يعلمون بها . ولما كان الاسلام دينا واقعياً ، حض المسلمين على الاستزادة من العلم ولم يضع أى عقبات فى هذا السبيل ، كان طبيعياً أن تستمر هذه المدارس وأن تنشأ مدارس جديدة وأن يستفيد المسلمون من هذه المدارس وهؤلاء العلماء ، فى وضع حجر الأساس للحضارة العلمية الاسلامية .

لم يلبث العرب طويلاً بعد استقرارهم فى الامبراطورية التى فتحوها حتى بدأت أنظارهم تتوجه إلى العلوم الدنيوية . وقد يكون الأمير خالد بن يزيد بن

معاوية الأموى المتوفى فى سنة ٧٠٤ م ، هو أول أمير عربى أضاء شعلة العلم فى الاسلام . ذلك أنه كان أول من عمل على ترجمة كتب القدماء فى الطب والفلك والكيمياء كما يقول ابن النديم فى كتابه الفهرست . ثم جاء العباسيون واهتم أبو جعفر المنصور منذ البداية بترجمة العلوم ، واتسعت الحركة اتساعاً كبيراً فى عهدى هارون الرشيد وولده المأمون على الأخص .

أسس الرشيد بيت الحكمة أو مدرسة الترجمة التى أخذت فى عصر المأمون صورة أكاديمية . وضع المأمون على رأسها يوحنا بن ماسويه فقامت المدرسة بأكبر مجهود فى ترجمة العلوم والفلسفة والمعارف القديمة . وفى حدود منتصف القرن التاسع الميلادى أصبح تحت يد العرب مختلف علوم الأسبقين ومعارفهم .

اشتمل العلم اليونانى على علوم الأقدمين كالمصريين القدماء والبابليين ، زيادة على الانجازات التى حققها اليونان أنفسهم . وانحصرت العلوم حتى ذلك العصر فى الطب والرياضيات والجغرافيا والفلك .. وكانت أهم الكتب التى اعتمد عليها العرب فى بناء صرح حضارتهم العلمية كتب أبقراط وجالينوس[1] وديسقوريدوس اليونان فى الطب مع بعض الكتب الهندية ، و كتاب المجسطى لبطليموس السكندرى فى الفلك وكتابه فى الجغرافيا ، وكتب اقليدس وارشميدس[2] وأبولونيوس وديوفنطس اليونان فى الرياضيات وكتاب

---

(١) جالينوس Galen (١٢٩ - ١٩٩ م) . الطبيب الاغريقى المعروف ولد فى برجاموم بآسيا الصغرى وتعلم الطب فى أزمير والاسكندرية وروما ، عمل طبيباً لبلاط قيصر الرومان ، وظل سلطان علمه قائماً فى أوروبا حتى منتصف القرن الحادى عشر ، وقد بحث جالينوس بين الظواهر الجسمية والظواهر النفسية . راجع : تاريخ الطب عند العرب للمؤلف .

(٢) أرشميدس Archimedes هو عالم الفيزياء ، والهندسة اليونانى الشهير ولد بمدينة سيراكيوز بجزيرة صقلية فى نحو عام ٢٨٧ ق.م . ثم تفرغ لدراسة العلم والرياضة ، وهو الوحيد بين القدماء الذى خلف لنا شيئاً نافعاً فى الميكانيكا والهيدروماتيكا (علم موازنة السوائل) ومن هذه الأخيرة نظرية ارشميدس المعروفة بنظرية الأوانى المستطرقة .

« السندهند » فى الفلك والرياضة ، وهو النسخة الهندية المنقحة من كتاب سندهانالبراهماكوبتا الهندى . وهذه هى أهم الكتب العلمية التى تلقاها العرب من الدنيا القديمة عن طريق اليونان والهنود ، والتى كونت المادة العلمية التى بنوا عليها ثقافتهم العلمية .

والحق أن طريقة اكتساب المسلمين للعلوم واستيعابهم لها وقصر المدة التى استغرقوها ليصبحوا قادرين على تصحيح هذه العلوم واضافة جديد لم يسبقهم إليه أحد ، أمور كانت فريدة فى التاريخ ، بعد جيل واحد أو جيلين من دخولهم دنيا العلم ، تربعوا على عرشها وأصبحوا سادتها لا منازع لهم . ويكفى أن نذكر فى هذا المقام قولة الأستاذ جورج سارتون : « حقق المسلمون عباقرة الشرق أعظم المآثر فى القرون الوسطى . فكتبت أعظم المؤلفات قيمة وأكثرها أصالة وأغزرها مادة باللغة العربية ، التى كانت من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادى عشر لغة العلم الارتقائية للجنس البشرى كله ، حتى لقد كان ينبغى لأى كائن ، إذا ما أراد أن يلم بثقافة عصره ، وبأحدث صورها ، أن يتعلم اللغة العربية ، ولقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها »[1] .

صحح المسلمون علوم الأقدمين بالقدر الذى سمح به علم عصرهم ، وأضافوا علوماً جديدة مثل الكيمياء والجبر فى صورته الجديدة ، وعلم البصريات الهام ، وحساب المثلثات المسطحة والكروية ، والحساب الجديد الذى نقلوه عن الهنود وطوروه وجعلوه علماً ذائعاً . هذا فضلاً عن كثير من الاضافات الأخرى مما سيأتى ذكره فيما بعد . ولم يتأتى ذلك لهم إلا بظهور فئة الكتاب والنساخ أو هؤلاء الذين يطلق عليهم كتبة ديوان الانشاء .. بذلك كون المسلمون تراثاً علمياً جديداً مميز الطابع ، نستطيع بحق أن نصفه بالتراث العلمى الاسلامى[2] . الذى أصبح فيما بعد الأساس الذى ارتكزت عليه

---

(١) جورج سارتون : تاريخ العلم الجزء٣ دار المعارف ص

(٢) كانت اضافات العلماء العرب فى الطب والتشريح والكيمياء والمعادن والنبات والحيوان من أمثال جابر بن حيان وابن طفيل والزهراوى والرازى ، والجلدكى ، والخازن وابن النفيس والبغدادى والقزوينى ، وداود ، وابن البيطار ، والادريسى ، والدينورى =

الحضارة الحديثة التى ترجع إلى إسهام مقتضيات العقيدة الاسلامية بكتابة القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة فى بادىء ظهور الاسلام بلغة عربية خالية من النقاط والتشكيل متفاوتة فى أسلوب الكتابة متأثرة باللهجات العربية المختلفة إلى أن تم كتابة المصحف الأمام فى عهد عثمان وهذا ما سنفصله فى الصفحات الآتية وبعد ذكرنا لأهمية الكتابة والعلم فى الاسلام .

أهمية الكتابة
والعلم فى الاسلام

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم ﴾[٢] .

هذه أول آيات بينات نزلت على سيدنا محمد الرسول الأمين ، تنبئه بالرسالة وتحمله مسئوليتها ، تصدع أول كلماتها بالقراءة وهى مفتاح التعليم ، وتنطق آياتها بتعليم الله عز وجل لعباده مالم يعلموا ، وتذكر القلم وسيلة الكتابة وحفظ العلم ونقله ، وآلة التدوين بما يجول فى الخواطر .

لقد استرعى الله عز وجل انتباهنا إلى أهمية العلم ، فى أولى آيات القرآن الكريم ، لأنه سبيل الى التحرر من العبودية لغير الله ، والطريق القويمة إلى معر الله عز وجل ومعرفة شرعه وحسن تطبيقه والعمل به .

= والصورى وابن حمزه ، وابن يونس والجاحظ وابن خلدون وابن مسكويه وغيرهم وأن مؤلفاتهم لتعد بالمئات وبالألوف . كما أن مؤلفات بعضهم ظلت المراجع المعتمدة فى أوروبا حتى القرن السابع عشر ، لقد سبق العلماء العرب إلى كثير من النظريات والآراء وانها لتنسب فى الوقت الحاضر إلى علماء النهضة الأوروبية دون إشارة إل هؤلاء الرواد .

(١) سورة الفلق آية ١ - ٥ .

وحسبنا أن تنوه الآيات الأولى من دستور الاسلام بالعلم لندرك اهتمام هذا الدين الحنيف به ، ولو أننا تأملنا فيما ورد فى القرآن الكريم من آيات تتناول العلم وفضله وسبله ، وما يلحق به ، وما ورد فى السنة فى هذا الباب ، لوقفنا على مكانة العلم فى الاسلام ، وأدركنا اهتمامه الكبير به ، ومن خلال الآيات التى تحث على العلم والتعليم وتشجيع طلاب العلم ، وترفع من شأن العلماء ، ومحاربة الجهل . والظلام[1] ، تريد للانسانية نور العلم والمعرفة بدلاً من ظلام الجهل والغفلة – ومن هنا خاطب الاسلام العقول والقلوب ، وجعل العقل مدار التكليف ، وبه ميز الله عز وجل الانسان عن سائر مخلوقاته – من هذا قوله عز وجل : ﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾[2] وقوله عز وجل : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾[3] ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ هل يستوى الأعمى والبصير أفلا يتفكرون ﴾[4] ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾[5] .

وإنا لنجد دعوة القرآن الكريم إلى العلم والرفع من شأنه مبثوثة فى كثير من آياته قال تعالى : ﴿ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾[6] .

ورفع مكانة العلماء فى قوله عز وجل : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم

---

(١) محمد عجاج الخطيب : لمحات فى المكتبة والبحث والمصادر ص ١٣ .
(٢) سورة الزخرف آية ٣ .
(٣) سورة العنكبوت آية ٤٣ .
(٤) سورة الأنعام آية ٥٠ .
(٥) سورة النحل آية ٤٤ .
(٦) سورة الزمر آية ٩ .

والذين أوتوا العلم درجات ﴾[١] ، وقال سبحانه : ﴿ وفوق ذى كل علم عليم ﴾[٢] .

وترى من خلال آيات القرآن الكريم ما للعلم والعلماء من أهمية كبيرة فى الدعوة إلى الله والتحرر من عبودية ما سواه .

وقد خاطب الاسلام فى الانسان عقله وحواسه وجوارحه ، التى تنفذ به إلى المعرفة والتعليم[٣] ، فاسترعى انتباهه إلى مفاتيح العلوم بالنظر والمشاهدة والتأمل والاعتبار ، وغير ذلك مما يدفع به إلى ذروة المعرفة والوقوف على الحقيقة الكبرى لهذا الكون .

وقد حض الرسول عليه الصلاة والسلام على طلب العلم ، وبين منزلة العلماء فقال : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين »[٤] ، وجعل طلب العلم الشرعى الذى يحتاج اليه كل مسلم ليقيم أمور دينه فريضة على كل مسلم بنص قوله ﷺ : « طلب العلم فريضة على كل مسلم »[٥] .

ولم يترك الرسول ﷺ طريقة من طرق التعليم والتبليغ والتوصيل والاعلام فى ذلك العصر إلا سلكها فى سبيل نشر الاسلام وتبليغه – فكان يعقد مجالس العلم بنفسه ، ويبعث الرسل ويرسل الكتب ويوجه الأمراء والقضاة والمعلمين ليفقهوا الناس بالدين – فكان ﷺ خير مبلغ .

ومنزلة العلماء المعلمين من أرفع المنازل فى الاسلام بنص قول الرسول ﷺ : « العلماء ورثة الأنبياء »[٦] ، ومن هنا حث الاسلام على احترام أهل

---

(١) سورة المجادلة آية ١١ .

(٢) سورة يوسف آية ٧٦ .

(٣) محمد عجاج الخطيب : لمحات فى المكتبة والبحث والمصادر ص ١٦ .

(٤) أخرجه الامام أحمد عن أبى هريرة مسند أحمد جـ ١٢ ص ١٨٠ حديث ٧١٩٣ .

(٥) أخرجه ابن ماجه عن أنس – سنن ابن ماجه جـ ١ ص ٥ .

(٦) مجمع الزوائد ص ١٢١ جـ ١ .

العلم ، على لسان سيدنا محمد ﷺ فقال : « ليس من أمتى من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه »[1] .

هكذا يتبين لنا حرص الشريعة الاسلامية على العلم والتعليم ، وقد مارس الرسول ﷺ ذلك بنفسه ، وشجع على طلب العلم ، وأوصى بطلابه ، وبين ما للمشاركة فيه من أجر حتى بلغ التشجيع العلمى أوجهه ، وفتح باب العلم للجميع ليس بينه وبين أحد حاجز أو مانع ، وأبلغ من هذا كله ، أن الرسول ﷺ حذر العلماء من أن يتساهلوا فى أداء واجبهم وتعليم الجاهلين وأنذرهم بالعقاب ، وحذر الجاهلين من البقاء على جهلهم[2] ، وحثهم على طلب العلم .

أهمية الكتابة :

إن أغلى ما يعبر الانسان عن فكره وأحاسيسه هو الكلام بمجموع ألفاظ مفرداته وجمله ، وهو الوسيلة الأولى للخطاب ونشر العلم وكسب المعرفة ، والانسان فى خطابه وعباراته المنطوقة أقوى على التعبير عما يريد ، وأفصح من محاولته ذلك بأى وسيلة أخرى . ويلى العبارة المنطوقة فى الافصاح عن الفكر ، العبارة المكتوبة .

ومن ثم كان للكتابة عند الأمم جميعاً أثر بعيد ، وكان لها الفضل الكبير فى حفظ تراث الأمم السابقة فى دواوين العلم — وقد ازدادت أهمية الكتابة وآثارها فى العصر الحاضر ، وتطورت وسائل الطباعة تطوراً سريعاً يناسب روح العصر ، ويفى بحاجته[3] .

ولقد كتب القلقشندى كتاباً ضخماً فى أربعة عشر جزءاً عن الكتابة أسماه « صبح الأعشى فى صناعة الانشا » (لن نذكر الكثير عنه رغم أنه

(١) مجمع الزوائد ص ١٢٧ جـ ١ .
(٢) محمد عجاج الخطيب : لمحات فى المكتبة والبحث والمصادر ص ٢١ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٥ .

قاموس زاخر بالفوائد الرائعة فيما يتعلق بهذه الصناعة من جميع نواحيها .. ويقول الكاتب فى فضل الكتابة[1] ، إن أعظم شاهد لجليل قدرها وأقوى مثل على رفعة شأنها أن الله تعالى نسب تعليمها إليه جل جلاله واعتبرها من وافر كرمه .

ثم قال بأن الله سبحانه وتعالى وصف بها الحفظة الكرام من ملائكته فقال جلت قدرته ﴿ وان عليكم لحافظين كراماً كاتبين ﴾[2] .

ويقول القلقشندى :

ليس بين الصناعات ما يلحق بصناعة الكتابة ولا يكسب ما تكسبه من الفوائد مع الحصول على الرفاهية والتنزه عن دناءة المكاسب ، ثم مع ما توصل اليه من مشاركة الملوك والرؤساء . وكفى بهذه الصناعة شرفاً أن صاحب السيف يزاحم الكاتب فى قلمه ولا يزاحمه الكاتب فى سيفه .

وقد اشتغل بالكتابة علية البشر ، ومنهم من صاروا أنبياء أو خلفاء ، ومن هؤلاء يوسف الذى كان يكتب للعزيز بمصر – وهارون ويوشع ابن نون وكانا يكتبان لموسى ، ومنهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وكانوا يكتبون للرسول عليه الصلاة والسلام ، ثم أصبحوا بعده خلفاء الواحد بعد الآخر .

وقد تنبه قوم بالكتابة بعد الخمول ، وصاروا إلى الرتب العلية والمنازل السنية ، منهم « سرجون » الذى كان رومياً خاملاً فرعته الكتابة ، حتى اتصل بمعاوية وكتب له ولابنه يزيد ولمروان بن الحكم ، ومنهم عبد الحميد بن يحيى الذى اشتهر باسم الكاتب الأول حتى غمر اللقب نسبه – وشرف بضاعته واشتهر بها[3] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : « أو أثارة من علم » أنه الخط كما

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا .
(٢) سورة الانفطار اية ١٠ .
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٣٩ – ٤٢ .

تقدم الكلام عليه ، ويروى أن سليمان عليه السلام سأل عفريتاً عن الكلام فقال : ريح لا يبقى . قال : فما قيده ؟ قال : الكتابة ..

وقال عبيد الله بن العباس : الخط لسان اليد . وقال النظام : الخط أصل الروح له جسدانية فى سائر الأعمال إلى ما يجرى هذا المجرى .

وقال ابراهيم بن محمد الشيبانى : الخط لسان اليد وبهجة الضمير وسفير العقول ، ووصى الفكر ، وسلاح المعرفة ، وأنس الأخوان عند الفرقة ، ومحادثهم على بعد المسافة ، ومستودع السر وديوان الأمور(١) .

ولو لم يكن من شرف الكتابة إلا أن الله تعالى أنزلها على آدم أو هود عليهما السلام كما تقدم ذكره – وأنزل الصحف على الأنبياء مسطورة(٢) : وأنزل الألواح على موسى عليه السلام مكتوبة لكان فيه كفاية .

ففى الآيات الكريمة الآتية قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ أم لم ينبأ بما فى صحف موسى ﴾(٣)

﴿ بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة ﴾(٤) .

﴿ رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ﴾(٥) .

﴿ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾(٦) .

هذا وفى الكتابة حفظ الحقوق ومنع تمرد ذوى العقوق ، بما يسطر عليهم من الشهادات التى تقع فى السجلات والمكاتبات بين الناس لحوائجهم من

(١) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا جـ ٣ ص ١ ، ٢ .
(٢) نفس المرجع السابق جـ ٣ ص ٣ .
(٣) سورة النجم آية ٣٦ .
(٤) سورة المدثر آية ٥٢ .
(٥) سورة البينة آية ٢ .
(٦) سورة الأعراف آية ١٥٤ .

المسافات البعيدة التى لا ينضبط مثل ذلك لحامل رسالة ، ولا يناله الحاضر بمشافهة وان كثر حفظه ، وزادت بلاغته ولذلك قيل : الكتابة أفضل من اللفظ - لأن اللفظ المنطوق يفهم الحاضر فقط واللفظ المكتوب يفهم الحاضر والغائب[1] .

تفضيل الكتابة على الحفظ عند العرب بعد ظهور الأسلام :

لم يقدر للحروف العربية أن تتطور تطوراً كافياً جعل شكلها مقارباً للشكل الذى نعرفه الآن إلا مع ظهور الاسلام وبعده ، وقد مرت الحروف العربية التى كانت فى الأصل نبطية متفرعة من الهجاء الفينيقى فى سلسلة من التطور جعلتها تتخلص شيئاً فشيئاً من العيوب التى ورثتها عن الحروف التى نقلت منها . وكان حذق العرب للكتابة فى الجاهلية حدثاً هاماً فى تاريخ الفكر لم يظهر أثره إلا بظهور الاسلام ، وقد عرف الكتابة أهل الذمة ونقلها عنهم الصحابة من كتابة الوحى . وفى الواقع كان للكتابة أثر بالغ فى نقل الاسلام ، ولا عجب فى هذا فهى الوسيلة إلى تعلم العربية وحفظ القرآن وتعاليم السنة النبوية وتدوين الأحاديث الشريفة والتفسير ، هذا بالاضافة إلى خدمة الدولة وأولى الأمر .

ومن أبرز مظاهر التطور التى أدخلت على الهجاء العربى ، زيادة حروف الروادف وابتكار التنقيط والاعجام والحركات والضوابط والهمزة .

وفى عصر النبوة كان كتبة الوحى يكتبون بذلك الخط العربى الذى تحددت صورته ولكنه لم يستطع أن يتخلص من بعض مظاهر الخط النبطى ولم تصل إلينا أمثلة من هذا الخط الحجازى الذى كان مستعملاً أيام النبى صلوات الله عليه فى مكة والمدينة المنورة ، وأغلب الظن أنه تحددت لهذا الخط منذ ذا الوقت صورتان :

صورة لينة يميل فيها إلى التدوير وكانت تستعمل فى التدوين السريع وصورة جافة يميل إلى التربيع ، وكانت تستعمل فى كتابة الشئون الهامة التى يراعى فى

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣ .

كتابتها التأنى والتؤدة ، والراجح أن كتاب الوحى كانوا يكتبون القرآن فور نزوله على النبى بالخط اللين لأنه أطوع لهم وأيسر عليهم حتى يلاحقوا النبى وهو يتلو الآية ، وكانوا عندما يعودون إلى دورهم ويستقرون فى مجلسهم يعيدون كتابة ما دونوه بالخط اللين فى حضرة النبى صلوات الله عليه – بالخط الجاف تعظيماً لكلمات الله وتقديراً لها .

وقد كان النبى عليه الصلاة والسلام يدرك قيمة الكتابة ، ويقدر أثرها ولذلك كان يطلق الأسير فى غزوة بدر اذا علم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة ، كما كان أقرب الناس إلى نفس الرسول كتاب الوحى . بظهور الاسلام أخذ شأن الكتابة العربية فى الازدهار ، ولم يلبث العرب أن انتشروا فى كثير من أجزاء العالم المتحضر فى ذلك الوقت ، وامتد نفوذ العرب المسلمين فى نحو قرن من الزمان من حدود الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً ، ومن ثم أصبحت اللغة العربية ذات قيمة سياسية إلى جانب أهميتها الدينية والأدبية ، وتبع ذلك بطبيعة الحال التمكين فى هذه الأقطار للكتابة العربية التى لم يقتصر نفوذها على اللغة العربية ، بل امتد نطاقها فصارت تكتب بها لغات أخرى مثل الفارسية والأردية .. وهكذا نجد أن العرب نقلوا إلى الأقطار الاسلامية بدايات الخط العربى كما نقلوا اليها اللغة العربية والاسلام سواء بسواء . ويستشف من الأخبار التى وصلتنا أن العرب كانوا يصنعون الكتابة فى مرتبة أعلى من الحفظ ، وكانت القصيدة التى تحوز تقديرهم فيما قبل الاسلام تكتب بماء الذهب وتعلق فى الكعبة اجلالاً لشأنها ولذلك سميت هذه القصائد بالمعلقات . وتأكدت نزعة تفضيل الكتابة على الحفظ عند العرب بعد الاسلام ، ولقد عبر ذو الرمة عن ذلك حين قال لعيسى بن عمر : أكتب شعرى فالكتاب اعجب إلى من الحفظ لأن الأعرابى ينسى الكلمة « قد تعب فى طلبها يوماً أو ليلة فيضع فى موضعها كلمة فى وزنها ثم ينشدها الناس » .

التطور الموضوعي للكتابة العربية

كتابة القرآن الكريم فى عهد الرسول ﷺ :

ليس جديداً القول بأن بزوغ شمس الاسلام كان إيذاناً بنهضة كتابية عظيمة تتمثل فى حرص المصطفى عليه الصلاة والسلام على تعلم الصحابة الكتابة وعلى تدوين القرآن الكريم منذ فجر الاسلام .

لقد كان الرسول ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، فلم يكن هناك بد من أن يلقن القرآن الكريم تلقينا ، فأنزله الله عليه أقرب إلى الحفظ فى الصدور وأبعد عن النسيان ، فكانت تنزل عليه الآيات القرآنية بين وقت وآخر ، تتابع أحياناً وتبطىء أحياناً أخرى ، يقول الله تعالى فى سورة الفرقان :

﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ﴾ .

واستغرق نزول القرآن بضعة وعشرين عاماً ولقد حرص النبى ﷺ منذ اللحظة الأولى على حفظه وتحفيظه لأتباعه ، كما حرص فى الوقت نفسه على تدوينه فور نزوله ، وكان هذا التدوين يتم تحت اشرافه ، وهكذا أصبح القرآن صورتان واضحتان .

صورة صوتية عندما يتلى وصورة مكتوبة ، والصورة الأولى تتجلى فى تلقى القرآن بالمشافهة من جبريل ، إذ كان النبى يقرأ ما ينزل عليه والصحابة حوله يسمعون بآذانهم ما يقرأه النبى ، فيعرفون عن طريق السماع حقيقة النظم القرآنى ويقفون على أسلوب أدائه ، وتكررت القراءة ، وتكرر التلقى عن النبى فالرسول الكريم حافظ القرآن والصحابة الآخذون عنه كانوا يحفظونه كذلك ، ثم تتكرر قراءة القرآن خلال الصلوات . فيزداد حفظ القرآن فى الصدور .

ولم تكن اللغة العربية الفصحى التى نزل بها القرآن الكريم قد تهيأت لها السيطرة اللغوية حينئذ ، بل كانت متعددة اللهجات نظراً لاتساع شبه الجزيرة

العربية واختلاف البيئات فيها ، الأمر الذى جعل التباين فى نطق الألسن وفى التعبير بالصوت .

ولما كان من العسير على الصحابة أن يحفظوا القرآن بغير اللهجة التى يتكلمون بها ، فقد أجاز لهم النبى تلاوته باللهجات التى درجوا عليها ، وأقرأهم بهذه اللهجات أو بعبارة أخرى بهذه القراءات وفقاً لما تستطيعه ألسنتهم عند النطق .

وقد كان من الطبيعى أن يترتب على هذه اللهجات المختلفة ظهور شيء من الخلاف بين العرب فى قراءة القرآن عندما كان واحد منهم يقرأ بلهجة أو حرف على حد تعبير رجال القراءات لم يقرأ به أخ له فيفزع لذلك ، ويسارع إلى الرسول يسأله الحقيقة فى هذه القراءة التى سمعها من أخيه ، فيطمئن النبى خاطره ويقول له « كلاكما على صواب » وهكذا نجد بين قراءات الصحابة اختلافات فى الأداء والنطق وفى وجوه القراءة ، ناشيء عن أن كلا منهم تلقى عن النبى باللهجة التى أعتادها لسانه[1] .

هذه هى الصورة الصوتية للقرآن الكريم عندما يتلى ، يحفظه النبى وأصحابه عن ظهر قلب ومن أشهر هؤلاء عثمان بن عفان وأبى بن كعب وزيد بن ثابت[2] .

أما الصورة المكتوبة فان التدوين والكتابة لم تكن من الأمور الشائعة بين العرب فى ذلك العصر ، فقد كانت الأمية طاغية عليهم ، والكاتبون قلة ، ولكن حرص النبى على حفظ كلمات الله قد دفعه إلى العمل على تدوينها فور نزولها ، فاتخذ كتبة يكتبون آيات القرآن أولاً بأول ، ويلازمون النبى حيثما ذهب وأنى أقام ، لكى يؤدوا هذا العمل الذى تفرغوا له ، لا يشغلهم عنه شاغل ، وقد تمت هذه الكتابة بين كتاب من قريش فى مكة ، وكتاب من

(١) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن – جزء أول .
(٢) د. عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن القاهرة ١٩٦٦ .

الأنصار فى المدينة ، ولم يكن فى رسم الحروف فروق واضحة كما كان الحال فى القراءة الشفوية ومن أشهر هؤلاء الكتاب معاوية بن أبى سفيان فى مكة ، وزيد بن ثابت فى المدينة(١) .

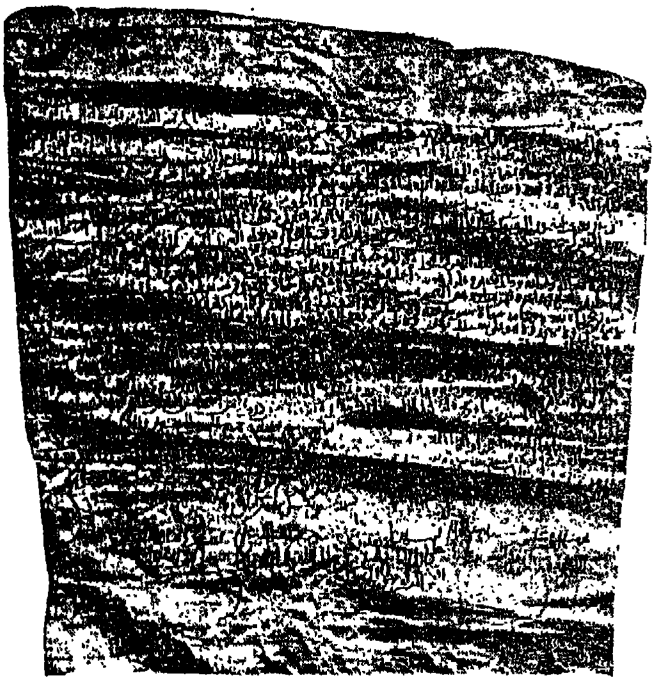
وسجلت آيات الكتاب على مواد متباينة متعددة ، فقد اختلفت فى أحجامها كما اختلفت فى مادتها ، فكانت قطعاً كبيرة وصغيرة من العظم ومن الخشب ومن الفخار ومن الحجر ومن جريد النخل ومن جلود الحيوان ومن الكتان ومن الرق . وقد كانت جلود الحيوانات عامة مما يكتب عليه بعد أن تربع وتعالج بالطرق المختلفة لتصلح لهذا الغرض ، ثم رأى الانسان أن المعدة والأمعاء فى بعض الحيوانات مثل الماعز والعجل والغزلان لا تحتاج إلى جهد فى اعدادها للكتابة مثل الجلود ففضلت واستخدمت بكثرة فى الكتابة .

وهكذا أصبح للقرآن الكريم وسيلة الكتابة إلى جانب صدور الحفاظ التى استوعبته وحيث خطته يد الكتبة فى مكة والمدينة على المواد السالفة الذكر بدليل تلك الصحيفة التى كانت تقرأ فيها أخت عمر بن الخطاب مع زوجها آيات القرآن من سورة طه .. عندما دخل عليها عمر .. مع بداية قصة اسلامه .. ولقد كتبت هذه الآيات القرآنية فى مكة والمدينة بالخط العربى فى صورته الأولى التى استقامت له بعد أن استقل فى كيانه عن الخط النبطى الذى ولد منه ، والواقع أننا يجب أن نفرق بين نوعين من الخط العربى ، مما كان مستعملاً فى تلك الفترة من تاريخ العرب والاسلام ، الخط اللين الذى يميل الى الاستدارة والمتميز بالطواعية والمرونة عند كتابته ، والمستخدم فى الكتابات المعتادة . والخط الجاف المتميز بالزوايا والتربيع والمسمى بذى الحواف والذى عرف فيما بعد بالخط الكوفى ، حيث كان يتطلب وقتاً كافياً للكتابة به ، لما يتمتع به من جلال وجدية وفخامة خاصة عند كتبة الوحى للقرآن الكريم فور نزوله بالأسلوب اللين لسهولته وطواعيته ، فإذا ما استقروا فى الديار ، كتبوه بأسلوب التأنى والتؤدة ، تفخيماً وتكريماً وتعظيماً لكلمات الله عز وجل .

---

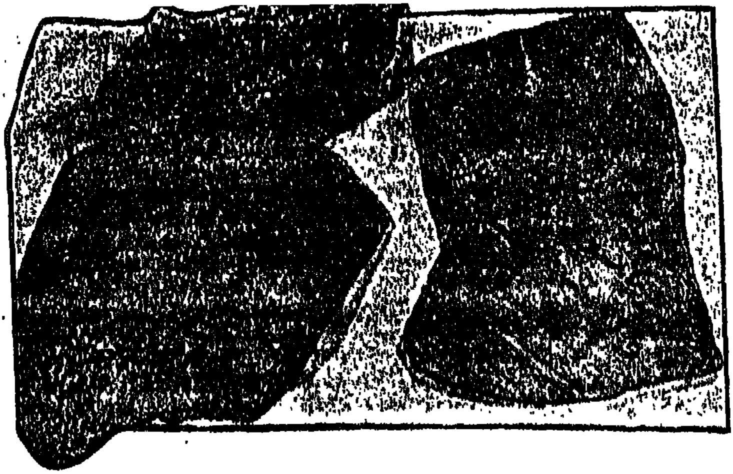
(١) د. عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن – القاهرة ١٩٦٦ .

ويمكن أن نشهد الصورة الأولى للكتابات القرآنية فيما وصل الينا من نصوص قرآنية كتبت فى العصور الأولى للاسلام وهى موزعة بين المكتبات العامة ، والمتاحف والمجموعات الخاصة . شكل (٣/١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) .

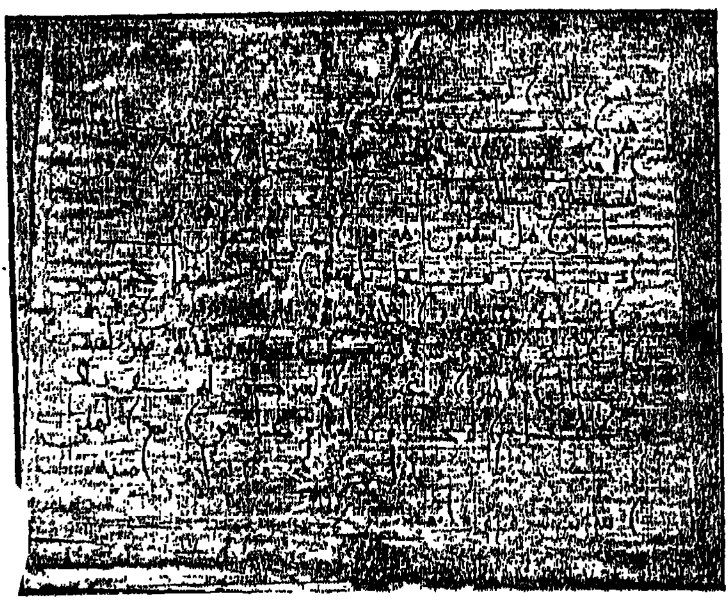


شكل (٣ - ١) كتابة على الرق وهو جلد الأمعاء للماعز والخراف من القرن الأول للهجرة . راجع د. محمد عبد العزيز مرزوق : القرآن الكريم دار الشعب ١٩٦١ .

والتأمل فى هذه النصوص ، يكشف لنا فى وضوح عن مظاهر لا نعرفها اليوم فى كتابتنا العربية ففيها حروف يعبر كل واحد منها على صوتين مختلفين لا صوت واحد مثل حرف الدال فقد يكون (د) أو (ذ) ومثل حرف الراء فقد يكون (ر) أو (ز) ومثل حرف السين فقد يكون (س) أو (ش) ومثل حرف



شكل (٣ - ٢) كتابة قرآنية على الحجارة وأخرى على الفخار - من القرن الأول للهجرة



شكل (٣ - ٣) كتابة قرآنية على البردى من القرن الأول للهجرة
راجع : المرجع السابق



شكل (٣ – ٤) كتابة على عظمة كتف جمل .. من القرن الأول للهجرة

الصاد فقد يكون (ص) أو (ض) ومثل حرف الطاء فقد يكون (ط) أو (ظ) ومثل حرف العين فقد يكون (ع) أو (غ) . ومثل حرف الفاء فقد يكون (ف) أو (ق) .

ومنها حروف يعبر الواحد منها عن عدة أصوات مختلفة مثل حرف الباء فقد يكون (ب) أو (ت) أو (ث) أو (ن) أو (ى) ومثل حرف الجيم فقد يكون (ج) أو (ح) أو (خ) .

ومنها كلمات رسمت بطريقة لا يتفق فيها المنطوق مع المكتوب مثل كلمة أشياعكم وكلمة جنات ، فهى قد دونت وكتبت (أشيعكم) و (جنت) .

وهناك كلمات كثيرة فى المصحف الشريف يضيق المقام عن ذكرها يختلف فيها المكتوب عن المنطوق نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر (الحياة - الصلاة - الزكاة - النجاة - مشكاة) فقد كتبت الألف الوسطى فيها واواً فصارت (الحيوة - الصلوة - الزكوة - مشكوة) .

وفيها كلمات مجزأة بين سطرين أو الكلمة فى آخر السطر وآخر الكلمة فى السطر الذى يليه وهكذا تحددت معالم صورة المصحف الشريف كما نعرفه اليوم مقسماً إلى ثلاثين جزءاً .

هذه هى الصورة المكتوبة للقرآن الكريم فى عهد النبى ﷺ ، حروف يعبر الواحد منها عن صوتين أو أكثر ، وكلمات ترسم بطريقة لا يتفق فيها المنطوق مع المكتوب ، وكلمة مجزأة بين سطرين ، وهكذا .

وإذا نحن تذكرنا أن النبى صلوات الله عليه قد أجاز للصحابة رضوان الله عليهم أن يقرءوا القرآن بلهجاتهم التى درجوا عليها وأنه قد أقرأهم بهذه اللهجات وفقاً لما تستطيعه ألسنتهم ، إذا نحن تذكرنا ذلك ، رأينا أن هذه الصورة المكتوبة التى تم وصفها ، كانت محققة لما ينطق به العرب ، ومحققة أيضاً لما أراده النبى ﷺ - من تسهيل قراءة القرآن وفهمه للعرب جميعاً على اختلاف لهجاتهم .

وتم نزول القرآن ، وتولى النبى ﷺ بنفسه ترتيب آياته فعين موضعها من بعضها البعض ، وحدد مكانها فى السور المختلفة طبقاً لما تلقاه من الوحى . أما ترتيب السور فقد ترك شأنه فى أول الأمر إلى الصحابة أنفسهم ، فنسخ كل صحابى منهم القرآن على النحو الذى رآه ، فمنهم من رتب السور على أساس التنزيل مثل الأمام على كرم الله وجهه - فقد كانت نسخة القرآن التى عنده تبدأ بسورة اقرأ تليها سورة المدثر تليها سورة (ق) ، تليها سورة المزمل ، وهكذا بحسب نزول الآيات .

وكانت نسخة القرآن التى عند الصحابى الجليل ابن مسعود ، تبدأ بسورة البقرة ثم تليها سورة النساء ثم تليها سورة آل عمران .

وكانت نسخة القرآن التى عند الصحابى أبى ابن كعب ، تبدأ بسورة الفاتحة ثم تليها سورة البقرة ، ثم تليها سورة النساء . ثم تليها سورة آل عمران ، ثم تليها سورة الأنعام .

وأغلب الآراء ترجيحاً أن النبى صلوات الله عليه بعد أن تم نزول القرآن عليه رأى ترتيب السور على النحو الذى بين أيدينا اليوم : أى يبدأ بطوال السور ثم أوساطها ثم قصارها ، وطبيعى أن يستجيب الصحابة لهذا الرأى فيعيدون النظر فى ترتيب نسخ القرآن التى لديهم على النحو الذى رآه النبى .

وانتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وقد انتظم عقد القرآن فى مائة واربع عشرة سورة سميت كل سورة منها بالكلمة التى تبدأ بها ، أو بكلمة وردت فيها ، أو بموضوع بارز فيها ، أو بقصة تدور حولها ، وبعض السور عرف له أكثر من اسم : مثل سورة الفاتحة التى تعرف أيضاً بسورة أم الكتاب أو السبع المثانى أو الحمد ، وسورة التوبة التى تعرف أيضاً بسورة براءة ، وسورة الاسراء التى تعرف أيضاً بسورة بنى اسرائيل وسورة السجدة التى تعرف أيضاً بسورة الملائكة وسورة المؤمن التى تعرف أيضاً بسورة « غافر » وسورة محمد ﷺ التى تعرف أيضاً بسورة القتال ، وسورة الملك التى تعرف أيضاً بسورة تبارك ، وسورة النبأ التى تعرف أيضاً بسورة « عم »(١) ولعله من المناسب هنا أن نذكر أن ترتيب الآيات والسور فى القرآن لم يكن موضوعياً أو زمنياً ، بل انفرد هذا الكتاب السماوى بترتيب خاص به ، فقد قصد به أن يكون كتاب هداية نفسية وخلقية واجتماعية تتناسب مع دوام الدعوة الاسلامية وانتشارها واستمرارها إلى آخر الدهر ، كما تتناسب أيضاً مع ختم هذه الدعوة

---

(١) محمد على الأشقر : الجواب من تاريخ القرآن – طبعة النجف الأشرف بالعراق .
وأيضاً أمين الخولى : بحث عن القرآن دائرة معارف الشعب ١٩٦١ .

لرسالات السماء إلى الأرض ، فهو يمس دائماً الأصول الكبرى والأسس العامة .

وقد ظهرت كلمة مصحف أول ما ظهرت فى هذا الوقت وقد كان سالم بن معقل المتوفى سنة ١٢ هجرية أول من أطلق هذه الكلمة على القرآن الكريم بعد أن جمع القرآن فى صحف وضعت بين دفتين . بحيث يحفظ محتوى الكتاب وييسر الانتفاع به ، ويصونه فى تماسك وجمال .

وقد أوضح السيوطى فى كتابه الاتقان فى علوم القرآن : ان القوم اختلفوا فيما يسمونه ، وقال بعضهم سموه السفر ، وقال آخرون تلك تسمية اليهود وكرهوه ، وقال آخرون : رأيت مثله فى الحبشة سمى بالمصحف فاجتمع رأيهم على أن يسموه المصحف . وهكذا ذاعت كلمة المصحف للدلالة على الكتاب المدون به القرآن الكريم . وهكذا تحددت معالم صورة المصحف الشريف كما نعرفه اليوم . أما تقسيمه إلى أحزاب وأجزاء وأخماس وأعشار فهى محدثة على حد قول الأمام الغزالى فى كتابه (إحياء علوم الدين – باب ظاهر آداب التلاوة من الجزء الأول) وقد كان ذو النورين – عثمان ابن عفان – حريصاً على تلاوة القرآن الكريم جميعه كل أسبوع . فكان يبدأ ليلة الجمعة بقراءة سورة البقرة حتى نهاية سورة المائدة ، ويبدأ ليلة السبت فى قراءة سورة الأنعام حتى نهاية سورة هود ويبدأ ليلة الأحد بقراءة سورة يوسف حتى نهاية سورة مريم ، ويبدأ ليلة الاثنين بقراءة سورة طه حتى نهاية سورة طسم ، ويبدأ ليلة الثلاثاء بقراءة سورة العنكبوت حتى نهاية سورة « ص » ويبدأ ليلة الأربعاء سورة الزمر حتى نهاية سورة الرحمن ويختم ليلة الخميس ما بقى من سور القرآن الكريم . وقد كان هذا التقسيم أساساً لما عرف بأحزاب المصحف وهى سبعة على عدد أيام الأسبوع .

ويلاحظ أن المصحف الشريف مقسم إلى ثلاثين جزءاً وأن كل سورة قد قسمت إلى خميسات أى خمس آيات وعشيرات أى عشر آيات .

وقد ميزت الأحزاب ، والأجزاء والخميسات والعشيرات بعلامات خاصة

عند كتابة المصحف لعب الفن الجميل فيها دوراً واضحاً يرجع ذلك إلى تمجيد وتعظيم المسلمين لهذا الكتاب الكريم فهو فى الحقيقة عمل فنى متكامل ، تسهم فيه طوائف شتى من الفنانين ، تفرغ كل طائفة فيها جهدها لكى تجعل منه تحفه فنيه ، يسر العين ويشيع الغبطة والانشراح فى النفس ويفتح قلوب المؤمنين لهديه ، فيقبلون على التلاوة فيه آناء الليل والنهار .

أسباب جمع القرآن وكتابته فى عهد أبى بكر رضى الله عنه

لما قام بأمر المسلمين بعد الرسول ﷺ أبو بكر الصديق رضى الله عنه بمبايعة الصحابة له . حدث فى عهده ما نبهه إلى وجوب جمع القرآن فى مكتوب واحد خشية عليه من الضياع والتفرق . خصوصاً بعد نشوب الحرب بينه وبين أهل الردة من أتباع مسيلمة الكذاب وغيرهم . وكان من أكبر الملاحم التى اشتبك فيها جموع المسلمين بجموع المرتدين . موقعة اليمامة المشهورة . وسببها - أنه لما انتقل النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى وتولى أبوبكر الخلافة ، أظهر مسيلمة الكذاب إلى أبى بكر ما كان سبب هلاكه . فجهز إليه أبو بكر فئة من المسلمين ذات بأس شديد وأمر عليها سيف الله خالد بن الوليد فسارت إليه ، فلما التقت الفئتان واشتعلت نار الحرب بينهما وتأخر الفتح . ومات من المسلمين ألف ومئتان ، وكان منهم سبعمائة من حملة القرآن الكريم . ثار البراء بن مالك مع من سلم من المسلمين على مسيلمة الكذاب وجيشه وجاء نصر الله فانهزموا وتبعهم المسلمون حتى ادخلوهم حديقة . أغلق أصحاب مسيلمة بابها عليهم . فحمل البراء بن مالك وألقى بنفسه عليهم حتى صار معهم فى الحديقة وفتح بابها للمسلمين فدخلوا وقتلوا مسيلمة وأصحابه ومات من المشركين زهاء عشرة آلاف فسميت حديقة الموت .

وقد هال ذلك المسلمين وعز الأمر على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فدخل على ابى بكر رضى الله عنه وأخبره الخبر وبين له ما يخشاه من ضياع القرآن إذا كثر القتل فى قراء الصحابة واقترح عليه جمع القرآن . فتردد

أبو بكر أولاً . لأن ذلك أمر محدث لم تكن له سابقة فى عهد الرسول ﷺ . وكان أبو بكر أحرص الناس على اتباع الرسول . ومجانبة كل مالم يفعله .

ولكن بعد نقاش طويل مع عمر رضى الله عنه . اقتنع بصواب رأى عمر . وتجلى له وجه المصلحة فيه . وعلم أن ذلك الجمع ، وإن لم يفعله الرسول ، من أكبر وسائل حفظ القرآن الكريم وصيانته من الضياع ، فأقدم على رأى عمر . مراعاة لتلك المصلحة . وكان موفقاً غاية التوفيق .

ورأى بنور الله أن يندب لتحقيقها رجلاً من خيرة رجال الصحابة وهو زيد بن ثابت فأرسل إلى زيد بن ثابت بعد استشارة عمر يدعوه إلى كتابة القرآن وجمعه فى مكان واحد . وإنما آثر الصديق زيداً رضى الله عنهما بهذه المنقبة مع أن فى الصحابة من هو أكبر سناً وأقدم إسلاماً . وأكثر فضائل ، لأنه اجتمع فيه من المواهب ذات الأثر فى جمع القرآن مالم يجتمع فى غيره من الرجال ، إذ كان من حفاظ القرآن . ومن كتاب الوحى لرسول الله ﷺ ، وشهد العرضة الأخيرة للقرآن فى ختام حياته ﷺ ، فيها بيان ما نسخ ومالم ينسخ من القرآن وكان فوق ذلك معروفاً بشدة ورعه ، وعظم أمانته ، وكمال خلقه ، واستقامة دينه . فاجتمع فيه من المزايا مالم يجتمع لغيره من أكابر الصحابة . فلذلك اختاره أبو بكر لهذه المهمة العظمى ولما شرع زيد فى جمع القرآن اعتمد على مصدرين : الأول ، ما كان مكتوباً بحضرة النبى ﷺ ، الثانى ما كان محفوظاً فى صدور الحفاظ ، وكان يستوثق فى الأخذ من المكتوب غاية التوثق حتى يتيقن أنه مما كتب بين يدى رسول الله ﷺ ، وأنه مما ثبت فى العرضة الأخيرة . وأنه لم تنسخ تلاوته . ولذلك لم يكن يقبل شيئاً من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان . أنه كتب أمام الرسول ﷺ ، يدل على ذلك ما أخرجه ابن أبى داود ، قال : قدم عمر فقال من تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به .

وشرع زيد فى ذلك ، وأبو بكر وعمر وكبار الصحابة يشرفون عليه ويعاونونه . فكان يتتبع القرآن ويجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال

ويتحرى أن يكون جمعه مما كتب بين يدى رسول الله ﷺ ، تحرياً دقيقاً حتى أتم جمعه فى صحف ، وإنما كان زيد يتتبع المكتوب فى هذه الأشياء مع حفظه القرآن كله . مبالغة فى الضبط وزيادة فى الاحتياط حتى تكون الكتابة معاضدة مؤازرة للحفظ .

وفي ذلك يروي البخاري في صحيحه أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أرسل إلى أبو بكر مقتل اليمامة (أي عقب استشهاد القراء في واقعة اليمامة) فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال أبو بكر رضي الله عنه : أن عمر أتاني فقال أن القتل قد استحر (أي اشتد) يوم اليمامة بقراءة القرآن وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن . وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن ، قلت لعمر : كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ . قال عمر هذا والله خير . فلم يزل عمر يراجعني . حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال . ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن . قلت كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ قال : هو والله خير فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر ، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدرو الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ... حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله . ثم عند عمر طيلة حياته ثم حفصة بنت عمر وقد قوبلت هذه الصحف التي جمعها زيد بما تستحق من عناية فائقة .

وعلى هذا الدستور الرشيد تم جمع القرآن بإشراف أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة وإجماع الأمة عليه دون نكير . وكان ذلك منقبة خالدة لايزال التاريخ يذكرها بالجميل لأبي بكر في الإشراف ، ولعمر في الاقتراح ، ولزيد في التنفيذ ، وللصحابة في المعاونة والإقرار ، وقد راعى زيد في كتابة هذه

الصحف أن تكون مشتملة على ما ثبتت قرآنيته بطريق التواتر ، واستقر في العرضة الأخيرة ، ولم تنسخ تلاوته ، وأن تكون مرتبة الآيات والسور جميعها ومقتضى كلام العلماء ومنهم الإمام الداني والإمام الشاطبي في العقلية والإمام ابن الجزري في كتابة المنجد أن الصحف المذكورة كتبت مشتملة على الأحرف السبعة[1] التي نزل القرآن بها والتي وردت في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن رسول الله ﷺ .

وكان جمعه في عهد الصديق رضي الله عنه من أجل مناقبه ، وأفضل مزاياه ، لأنه ضمن للمسلمين حفظ كتابهم من التفرق والضياع . وقد قال الإمام علي كرم الله وجهه « أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر رحمه الله . فأبو بكر هو أول من جمع كتاب الله » أخرجه ابن أبي داود في كتابه المصاحف بإسناد حسن .

أسباب جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه

ظلت الصحف التي جمع فيها القرآن في رعاية الخليفة الأول أبي بكر الصديق مدة خلافته ثم انتقلت بعده إلى رعاية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ثم عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر بعد وفاة أبيها وبقيت عندها إلى أن طلبها الخليفة الثالث عثمان بن عفان في صدر خلافته ، ففي عهده اتسعت الفتوحات ، وامتد العمران . وتفرق المسلمون في الأمصار والأقطار ونبتت ناشئة جديدة في حاجة إلى دراسة القرآن . وطال عهد الناس بالرسول ﷺ . وبالوحي والتنزيل . وكان كل إقليم من أقاليم الإسلام يأخذون بقراءة من اشتهر

(١) كثرت الأقوال في تفسير النزول على سبعة أحرف كثرة لخطها المفسرون أنفسهم وعلقوا عليها . والذي يعنينا هنا من هذه الأحرف السبعة أنها ليست القراءات السبع المشهورة بهذا العدد وأن هذه الأحرف إنما هي لهجات مختلفة في اللغة العربية وكان إقراء الرسول عليه السلام القرآن لأصحاب هذه اللهجات بما تستطيعه ألسنتهم فاختلف الأقراء باختلاف لهجاتهم اقتضته الضرورة تيسيراً على أصحاب اللهجات المختلفة وتسهيلاً لهم . راجع د. عبد الصبور شاهين تاريخ القرآن ١٩٦٦ .

عندهم من الصحابة . فأهل الشام يقرءون بقراءة أبي بن كعب وأهل الكوفة يقرءون بقراءة عبد الله بن مسعود . وغيرهم يقرأ بقراءة أبي موسى الأشعري .

لذا كان بينهم اختلاف في وجوه القراءة ومنشأ هذا الاختلاف إنزال القرآن على سبعة أحرف كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ بالأحاديث المتواترة . ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب قال : « سمعت هشام ابن حكيم ابن خزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أساوره في الصلاة – أي أقاتله – فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه – أي جمعت رداءه على لبته – فقلت من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ . قال أقرأنيها رسول الله ﷺ فقلت كذبت . فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت . فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها . فقال رسول الله اقرأ يا هشام فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ . فقال رسول الله ﷺ كذا أنزلت . ثم قال إقرأ يا عمر فقرأت القراءة التي أقرأني فقال ﷺ كذلك أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه » .

وكان هذا الخلاف مدعاة إلى فتح باب الفرقة والشقاق بين المسلمين في قراءة القرآن العظيم خصوصاً بعد هؤلاء المختلفين عن النبوة . وعدم وجود الرسول بينهم يطمئنون إلى حكمه ويأخذون جميعاً برأيه . واستفحل الداء ، كادت أن تكون فتنة في الأرض وفساد كبير ، وكانت الأمصار النائية عن المدينة والحجاز أشد خلافاً ونزاعاً . أضف إلى ذلك أن الأحرف السبعة التي نزل القرآن الكريم لم تكن معروفة لأهل تلك الأمصار البعيدة ولم يكن من السهل عليهم أن يعرفوها كلها حتى يتحاكموا إليها عند الاختلاف إنما كان كل صحابي في إقليم يقرئهم بما يعرف من الحروف التي نزل القرآن بها . ولم يكن بينهم مصحف جامع يرجعون إليه . وفي السنة الثانية أو الثالثة على اختلاف الروايات من خلافة عثمان رضي الله عنه ، سنة خمس وعشرين من الهجرة ، كان حذيفة بن اليمان مأموراً بغزو الري وهي مدينة مشهورة بالعراق . فرأى كثرة

اختلاف المسلمين في وجوه القراءة . ورأى أن كلا من جماعات المسلمين يزعم أن قراءته أفضل من قراءة غيره ، فاستعظم ذلك حذيفة وأكبره . وفزع إلى الخليفة عثمان وأخبره الذي رأى وقال له : أدرك الناس قبل أن يختلفوا في القرآن ، الذي هو أصل الشريعة ودعامة الدين كما اختلف اليهود والنصارى في كتبهم .

فلهذه الأسباب والأحداث أدرك عثمان رضي الله عنه بثاقب نظره أن وراء هذا الاختلاف فتنة كبرى ففكر في علاجها . قبل أن يستفحل خطرها : فجمع أعلام الصحابة وذوي الرأي منهم وكان عددهم اثنى عشر ألفاً للبحث عن علاج هذه الفتنة ووضع حد لهذا الاختلاف . فأجمعوا رأيهم على نسخ مصاحف يرسل لكل إقليم مصحف منها يكون مرجعاً للناس عند الاختلاف . وعلى إحراق ما عداها من المصاحف . ومنها مصاحف كانت لبعض الصحابة وهي مصحف عبد الله بن مسعود ومصحف أبي بن كعب ومصحف عائشة ومصحف الإمام علي . ومصحف سالم مولى حذيفة بن اليمان وغيرها . أصبحت كلها مغسولة بالماء أو محرقة بالنار وبعدئذ طهر الجو الإسلامي من أوبئة الشقاق والنزاع . وبذلك يستأصل الخلاف في كتاب الله العزيز . وبعث عثمان إلى حفصة أم المؤمنين(١) واستحضر من عندها الصحف التي كتبت في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه . وأحضر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام . وأمرهم أن ينسخوها في المصاحف وشرط عليهم أن يكون النسخ على لسان قريش أي على مصطلح كتابتهم كما نص على ذلك جماعة من المحققين .

وجعل الرئيس عليهم زيد بن ثابت لعدالته وحسن سيرته . ولكونه كان كاتب الوحي المداوم عليه بين يدي النبي ﷺ ، ولاعتماد أبي بكر وعمر عليه في كتابة الصحف في خلافة الصديق قيل ، وقد انضم لمساعدتهم جماعة منهم

---

(١) حفصة إبنة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عرفت في عصرها بإتقانها للقراءة والكتابة هذا بخلاف بنوتها للخليفة وزوجيتها للرسول ﷺ .

عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمرو ابن العاص ، وأبيّ بن كعب ، وأنس بن مالك ، وإبان بن سعيد ، ومالك بن عامر جد الإمام مالك وابن أنس وكثير بن مفلح ، فنسخوها في المصاحف بالتحرير التام . وكان نسخ هذه المصاحف بإشراف الخليفة عثمان ، وأعلام الصحابة من المهاجرين والأنصار .

وكانوا لا يكتبون في هذه المصاحف شيئاً إلا بعد أن يعرض على الصحابة جميعاً ويتحققوا أنه قرآن ، وأنه لم تنسخ تلاوته . وأنه استقر في العرضة الأخيرة فلم يكتبوا ما نسخت تلاوته ، ولا ما لم يكن في العرضة الأخيرة . وقد كتبوا مصاحف متعددة وكان قصدِ الخليفة عثمان إرسال ما وقع عليه إجماع الصحابة إلى الأقطار الإسلامية ، وهي متعددة . وكتبوا هذه المصاحف خالية من النقط والشكل لتكون مشتملة على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم .

فالكلمة التي اشتملت على أكثر من قراءة وخلوها من النقط والشكل يجعلها محتملة لما اشتملت عليه من القراءات . تكتب برسم واحد في جميع المصاحف وذلك نحو « فتبتوا » و « ننشرها » و « هيت لك » و « أف » وهكذا . أما الكلمات التي تضمنت قراءتين أو أكثر ، وتجريدها من النقط والشكل لا يجعلها محتملة لما ورد فيها من القراءات . لا تكتب برسم واحد في جميع المصاحف بل ترسم في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة . وفي بعضها برسم آخر يدل على القراءة الأخرى نحو « ووصي بها إبراهيم » بالبقرة فقد رسمت في بعض المصاحف بواوين قبل الصاد وفي بعضها بإثبات همزة الواوين ففي قراءة « ووصي » وفي قراءة « وأوصى » « ونحو » وسارعوا إلى مغفرة من ربكم « بآل عمران رسم في بعض المصاحف بواو قبل السين وفي بعضها بحذف الواو . ونحو تجري تحتها الأنهار ، بالتوبة في الموضع الأخير منها رسمت في المصحف المكي بزيادة من قبل تحتها وفي بقية المصاحف بحذفها ونحو « فإن الله هو الغني الحميد كتب في بعض المصاحف بإثبات ضمير الفصل « وهو » وفي بعضها بحذفها . والذي دعا الصحابة إلى سلوك هذا المنهج في كتابة

المصاحف أنهم تلقوا القرآن عن رسول الله ﷺ بجميع وجوه قراءاته التي نزل بها القرآن الكريم فكانت هذه الطريقة أدنى بالإحاطة بالوجوه التي نزل عليها القرآن الكريم . فلا يقال أنهم أسقطوا شيئاً من قراءاته لأنها منقولة متواتراً عن رسول الله ﷺ . ومن هنا يتضح أن اختلاف القراء الذي أفزع حذيفة وعثمان رضي الله عنهما وكان سبباً في كتابة المصاحف إنما كان في أحرف وقراءات تلقاها قراؤهم قبل العرضة(١) الأخيرة ثم نسخت بهذه العرضة ولكن نسخها لم يبلغ هؤلاء القراء .

ولما أتموا نسخ الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة أم المؤمنين وأرسل إلى كل أفق من الآفاق الإسلامية مصحفاً مما نسخوا . وأمر بما سواه من صحف أو مصاحف أن يحرق سداً لباب الشر وحملاً للمسلمين على أن يجعلوا هذه المصاحف مرجعهم الوحيد وأصلهم المعتمد ، فرضى الله عن ذي النورين عثمان . فقد أرضى بذلك العمل الجليل ربه . وحافظ على القرآن الكريم وجمع كلمة الأمة وأغلق باب الفتنة ولا يبرح المسلمون يقطفون من ثمار صنعه إلى اليوم وما بعد اليوم . ومن الجدير بالذكر في هذا المقام أن رسم الحروف التي كتب بها مصحف عثمان كل يمثل البداية الأولى لتكوين حروفِ الهجاء العربية واستقلالها ، وأن رسم هذه الحروف بلغ في التطور مبلغاً كبيراً مع ازدهار الحضارة الإسلامية في مختلف الأقطار التي دخلها الإسلام .

---

(١) العرضة : أن يقرأ واحد ويقابل عليه الآخر للمراجعة . وقد ورد في حديث عاد وفاطمة رضي الله عنهما من أن جبريل كان يعارض النبي ﷺ القرآن في كل سنة . شهر رمضان مرة واحدة . وفي السنة الأخيرة من حياته عارضه مرتين فأحس الرسول ﷺ بدنو أجله . وبأن القرآن بعد العرضة الأخيرة كتبه زيد بن ثابت وأبيّ بن كعب وأبو الدرداء ومعاذ وغيرهم من كبار الصحابة .

راجع : د. محمود غنيم : حفني ناصف أعلام العرب العدد ١٩٦٥/٤٧ ص٧٣ .

نسخ المصاحف بعد عهد الخلفاء الراشدين

ما كاد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه يرسل المصاحف إلى الأقطار الإسلامية حتى أقبلت عليها الأمة الإسلامية من كل صوب وحدب. وحتى اجتمعت عليها الكلمة في الشرق والغرب. وحتى نسخت على غرارها الآلاف المؤلفة من المصاحف المقدسة في كل جيل وقبيل. وكانت خالية من النقط والشكل. ولم يكن الشكل والإعجام معروفاً عندهم وأخذت يد التحسين تتناول المصاحف بألوان شتى، وضروب متنوعة. فهناك تحسينات مادية ترجع إلى النسخ والتجليد والتذهيب ونحو ذلك وهذه فيها بعض التيسير والترغيب والتشويق إلى القرآن الكريم. وهناك تحسينات معنوية وجوهرية ترجع إلى تقريب النطق بالحروف. وتمييز الكلمات بوضع النقط والشكل لتحقيق الفروق بين الحروف المتشابهات. وفي هذا نسوق الحديث، والمعروف أن المصحف العثماني لم يكن منقوطاً ولا مشكولاً. لإبقاء الكلمة محتملة لأن تقرأ بكل ما يمكن من وجوه القراءات الصحيحة المتواترة عن النبي ﷺ، وضبط المصاحف بالشكل لم يحدث على المشهور إلا في عهد أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان. ففي عهده اتسعت رقعة الإسلام، واختلط العرب بالعجم، وكادت ألسنة الأعاجم أن تطغى على اللغة الفصحى وفشا اللحن. وشق على الناس التمييز بين حروف المصحف وكلماته وخشي أمير المؤمنين أن يفضي ذلك إلى اللحن والتحريف في كتاب الله تعالى فعمل هو وأمراء المؤمنين من بعده على تلافي ذلك. وأحدثوا من الوسائل ما يكفل صيانة الكتاب العزيز من اللحن وحفظه من التحريف.

تطور الكتابة العربية بالنقط والشكل:

كانت الطريقة لإصلاح اللحن هي تعديل شكل الحروف، والمقصود بالشكل أو التشكيل هو ضبط الكلمة بالحركات، لتؤدي المعنى المقصود منها وفقاً للغة العرب الصحيحة.

وكان أول من وضع مبادىء التشكيل في الكلمات هم السريان ، وذلك عندما دخلوا في المسيحية ، ونقلوا الكتب المقدسة إلى لغتهم ، ورأوا أن بعض الناس يلحنون في قراءتها. فخافوا أن ينشأ عن ذلك تحريف في اللفظ قد يغير المعنى ويؤدي إلى الكفر والزندقة . فاخترع الأسقف الرهاوي الملقب بمفسر الكتب والمتوفي عام ٤٦٠ م مبادىء التشكيل وكان ذلك بالنقط فاقتدى العرب بالسريان في اتخاذ الحركات بالنقط الكبيرة والصغيرة ثم استبدلوها بالحركات المستقلة .

للنقط معنيان : الأول ما يعرض للحرف من حركة أو سكون أو شد أو نحو ذلك ، ويسمى هذا النقط الإعراب . الثاني : ما يدل على ذات الحرف ويبين المعجم منه والمهمل كالنقطة الموضوعة على الباء من أسفل . وعلى الجيم كذلك . والنقطتين على التاء من أعلاها والثلاث نقط على الثاء من أعلى ، والثلاث نقط الموضوعة على الشين والنقطتين تحت الياء .

فنقطة الباء قد ميزتها عما يشاركها في رسمها من التاء والثاء والياء ونقطة الجيم قد ميزتها عن الحاء والخاء ويسمى هذا النقط نقط الأعجام . والشكل هو ما يعرض للحرف من حركات كالفتح والكسر والضم والسكون ونحو ذلك ، ويرادفه الضبط وعلى هذا يكون المعنى الأول للنقط مساوياً لمعنى الشكل والضبط . والذي جنح إليه المحققون من العلماء أن المخترع الأول للنقط بمعناه الأول المرادف للشكل والضبط هو أبو الأسود الدؤلي وهو أول من ابتدع علم النحو ووضع أساس الشكل لأحرف العربية . وليس من المستبعد أنه استعان بطريقة السريان في وضع النقط إذ كان كثيرا لمخالطة لهم . وربما درس وتعلم على أيدي أساتذة منهم .

فقد ذكر الإمام الداني قال : كتب معاوية رضي الله عنه إلى زياد عامله بالبصرة يطلب عبيد الله ابنه . فلما قدم عليه كلمه فوجده يلحن . فرده إلى زياد . وكتب إليه كتاباً يلومه فيه ويقول : أمثل عبيد الله يضيع ، فبعث زياد إلى أبي الأسود الدؤلي ، فقال يا أبا الأسود إن الأعاجم قد أفسدوا اللغة العربية فلو وضعت شيئاً يصلح به الناس كلامهم ويعربون به كتاب الله تعالى ، فأبى

ذلك أبو الأسود وكره إجابة زياد إلى ما سأل . فوجه زياد رجلاً . فقال اقعد في طريق أبي الأسود فإذا مر بك فاقرأ شيئاً من القرآن وتعمد اللحن . ففعل ذلك ، فلما مر به أبو الأسود . رفع الرجل صوته فقال : « إن الله بريء من المشركين ورسوله » بكسر اللام « ورسوله » فاستعظم ذلك أبو الأسود وقال : عز وجه الله أن يتبرأ من رسوله . ثم رجع من فوره إلى زياد فقال : يا هذا أجبتك إلى ما سألت . ورأيت أن أبدأ باعراب القرآن فابعث إلى ثلاثين رجلاً . فأحضرهم زياد . فاختار منهم أبو الأسود عشرة ، ثم لم يزل يختار منهم حتى اختار رجلاً من عبد القيس ، فقال له خذ المصحف وصبغا يخالف لون المداد الذي كتب به فإذا فتحت شفتي فانقط واحدة فوق الحرف فإذا أضممتها فانقط النقطة إلى جانب الحرف وإذا كسرتهما فاجعل النقطة في أسفله فإذا أتبعت شيئاً من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين ، ويريد بالغنة التنوين لأنه يخرج من الخيشوم . فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره .

وعلى كل حال كان أبو الأسود الدؤلي صاحب الفضل في اختراع هذه الطريقة التي من شأنها أن تعلم الناس القراءة الصحيحة لكتاب الله تعالى . لأنه أول من وضع قواعد للنقط المرادف للشكل وقد كتب هذا النقط كما قلنا بمداد يخالف لون المداد المكتوب به المصحف . ويؤخذ مما تقدم أن من وضع النقط بمعناه الأول هو أبو الأسود الدؤلي وأنه لم يتعرض لنقط الأعجام وإنما تعرض لنقط الأعراب وعنه أخذ العلماء من بعده وأدخلوا عليه الإصلاح الثاني وهو أعجام الحروف (وضع النقط في الحروف) بعد الإصلاح الأول بحوالي ٢٠ سنة في عهد عبد الملك بن مروان وعلى يد واليه الحجاج بن يوسف الثقفي الذي كان والياً على العراق . فقد دعا الحجاج الكتّاب ومنهم نصر بن عاصم الليثي المتوفي سنة ٨٩هـ ويحيى بن يعمر العدواني قاضي خراسان المتوفي سنة ١٢٩هـ لوضع الأعجام بمعنى النقط . ونقطت الحروف بنفس مواد الكتابة باعتبار أن النقط جزء من الحرف نفسه . وظلت نقط الأعراب تكتب بحبر مخالف لحبر الكتابة ، كما رأينا أن أعجام الحروف يستلزم إعادة ترتيب الحروف الهجائية بحيث ترتب الحروف المتماثلة وتتتابع . فبعد أن كانت أبجد هوز حطي

كلمن سعفص تخذ ضظغ أصبحت كالتالى أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ .. الخ .

شغف العرب بالكتب :

شغف العرب بالكتب واقبلوا عليها اقبالاً أذهل الأمم الغربية إلى وقتنا الحاضر .

فلقد أسس العباسيون دار الحكمة ببغداد وانتشرت المكتبات فى كل مكان لتستقبل كل طالب علم سواء كان مستعيراً أم مطلعاً بداخلها ، كما كان فى كل مكتبة المترجمون والنساخ بالاضافة الى قاعات الندوات والمناقشة . ولم يكن شيء يجتذب مودة الأمراء العرب مثل الحصول على المخطوطات القديمة وتشغيل المترجمين الذين يترجمون لهم هذه المخطوطات . وكانوا يدفعون الأموال الطائلة للعلماء والوسطاء الباحثين عن التراث العقلى القديم . وترجمت إلى اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم وأصبحت من أوعية الثقافة العربية وبذلك ازدهرت المكتبات ازدهاراً عظيماً ، فامتلكت مدينة النجف – وهى مدينة صغيرة نسبياً – أربعين ألف مجلد ، وسجلت مكتبة مدينة الري أسماء كتبها في فهرس يقع في عشرة مجلدات كبيرة ، وكان في كل مسجد مكتبة ، وكل مستشفى يستقبل زواره في قاعته الكبرى الغنية بالكتب ، ويحرص على شراء جميع ما يظهر من الكتب إشباعاً لحاجة الطلاب والباحثين ، ونجد في جنوب بلاد العرب أميراً عالماً يمتلك مكتبة بها مائة ألف مجلد ، وشاهد ابن سينا في مكتبة قصر سلطان بخاري ؟ لا يعرف الكثيرون أسماءها ولم يرها ابن سينا من قبل ولا من بعد . وكان مكتبة الفاطميين بالقاهرة زهاء مليون وستمائة ألف مجلد وكلها في حالة جيدة ومن بينها ستة آلاف وخمسمائة كتاب في الرياضيات وثمانية عشر ألف كتاب في الفلسفة ، وجاء خليفة فاطمي آخر فأسس مكتبة أخرى إلى جوار الأولى وكانت تشغل ثماني عشرة قاعة .

ولقد شجع هذا الإقبال من جانب الخلفاء والسلاطين غيرهم على الاقتداء

بهم ، فترك الوزير المهلبي عند وفاته عام ٩٦٣م نحو مائة وسبعة عشر ألف مجلد ، واقتنى زميله ابن عباد مكتبة من مائتين وستة آلاف مجلد ، كما خلف أحد القضاة مليوناً وخمسين ألف مجلد .

وكانت تجارة الكتب تكلف المجتمع العربي آلاف الآلاف من الدنانير سنوياً ، كذلك كانت الكتب مصدراً من أهم مصادر الرزق لمئات الألوف من البشر .. فهناك صنّاع الورق في سمرقند وبغداد ودمشق والقاهرة ، وهنا النسّاخ والخطّاطون ومعظمهم من الرجال الذين يريدون أن يكسبوا قوتهم اليومي أو من فقراء المتعلمين ، ثم نجد مجلدي الكتب يطبقون الورق على الطريقة الصينية في الحجم الذي كان يعرف باسم المنصوري – والذي يعرف الآن باسم (فوليو Folio) والبغدادي ، وهو المعروف الآن باسم (كوارت Quart) ، وبالإضافة إلى هؤلاء وهؤلاء نجد تجار الورق وتجار الكتب ... ومن أشهر تجار الورق ابن النديم الذي نشر فهرسه في عشرة مجلدات تشتمل على جميع ما وصل إليه علمه من الكتب التي ظهرت حتى ذلك الحين باللغة العربية ، سواء في الفلسفة أو الفلك أو الرياضيات أو الطبيعة أو الكيمياء أو الطيب ، وسواء أكانت من الكتب العربية الأصيلة أم المنقولة إليها من اللغات الأجنبية .

وأدى انتشار الورق في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية إلى كثرة الكتابة ، وأصبحت الوراقة مهنة ذائعة الشهرة ، وكانت تقوم مقام المطابع اليوم ، ومن الطريف أن بعض وراقين كانوا في الأصل من العلماء ، ودعاهم الفقر إلى احتراف مهنة الوراقة ، مثل ياقوت الحموي وأبي حيان التوحيدي ، ومما لاشك فيه أن الوراقة كانت حرفة شاقة ، تجهد فيها الأعين بسبب وكثرة النسخ ، وكان مما سبب الخصومة بين الصاحب بن عباد وأبي حيان التوحيدي ، أن الصاحب كلفه أن ينسخ كتباً كثيرة ، استكثرها أبو حيان . إلا أن الفقر هو الذي اضطره إلى قبول ذلك .

وحكى عن أبي زكريا يحيى بن عُدَيّ ، وهو نصراني ، نسخ بخطه نسختين من تفسير الطبري ، وأنه كان يكتب اليوم والليلة مائة ورقة ، ومن الطريف أن

حكى وراق نام ليلة فرأى في المنام كأن القيامة قامت ، وحوسب فدخل الجنة ، فلما دخل الباب استلقى على قفاه وقال : « آه والله استرحت من النسخ » .

ومن الطريف أن العرب اصطلحوا على أبعاد قياسية للورق يحرصون عليها ، ويخصصون كلاً منها من الكتابات ، أو يختصون به طائفة دون طائفة ، وكانت الورقة الكاملة تسمى (الطومار) ، فكان يكتب للخلفاء في ورقة من ثلثي طومار ، وإلى الأمراء من نصف طومار ، وإلى العمال والكتاب من ثلث طومار ، وإلى التجار وأشباههم من ربع طومار ، وإلى الحساب والمساح من سدس طومار .

ولقد خصص القلقشندي فصلاً من كتابه (صبح الأعشى في صناعة الانشا) للحديث عن مقادير قطع الورق ، وما يناسب كل مقدار منها من الأقلام ، فبين مقادير قطع الورق في الزمن القديم ، ومقاديره في زمانه ، ويختتم القلقشندي حديثه عن مقادير قطع الورق بقوله : هذه مقادير قطع الورق بالديار المصرية والبلاد الشامية ، أما غير مملكة الديار المصرية من الممالك ، فالحال فيها يختلف في مقادير الورق المستعمل بدواوينها ، فأما بلاد المشرق فعلى نحو المقادير المصرية ، وأما بلاد المغرب والسودان وبلاد الفرنج ، فعادة كتابتهم في طومار واحد ، يزيد طوله على عرضه قليلاً ، ما بين صغير وكبير ومع ما يقتضيه حال المكتوب .

وكان يستعمل بديوان الإنشاء ثلاثة أنواع من الورق : **أولاً : الورق البغدادي** ، أجود هذه الأنواع وأكثرها اتساعاً ، وقد خصص لكتابة المصاحف وعهود الخلفاء وبيعتهم ومكاتبة الملوك ، سمي بذلك أنه كان يجلب من مدينة بغداد ، **ثانياً : الورق الشامي** ، وهو على أنواع منها الحموي وقد عرف بذلك لأنه كان يجلب من حماة ثم ينقل إلى دمشق ، ومنها الورق الشامي المشهور الذي كان يستعمل بدواوين الإنشاء في اليمن والحجاز وبلاد الروم ، ولا يقدم كاتب السر على استعمال هذا النوع من الورق إلا بإذن خاص ، وآخر أنواع الورق الشامي هو ورق الطير ويقال له ورق البطائق ، وكان رقيقاً

جداً بحيث يمكن وضعه تحت أجنحة حمام الزاجل . **ثالثاً : الورق المصري** ومنه الورق المنصوري ويعتبر أرق الورق قطعاً وأعظمه حجماً .

تاريخ الكتابة والكتاب في العصرين الأموي والعباسي

في عنق كل جيل من الناس أمانة عظيمة بالنسبة للأجيال التي سبقته ، وهذه الأمانة هي أن يقوم هذا الجيل بنقل ما ورثه من تراث أدبي وعلمي وفني عن تلك العصور ، وذلك بأسلوب جديد وعرض جديد للظروف المحيطة بالأمة ، وبهذه الطريقة تصل هذه الأمة ماضيها بحاضرها ، وتجعل من جهود أسلافها في شتى العصور سلسلة متصلة الحلقات يمكن أن تعطى صورة دقيقة من حضارتها التي تميزت بها عن سائر الحضارات .

والمعروف أن الثقافة العربية ثقافة قديمة عميقة الجذور ، وذلك في كل إقليم من الأقاليم التي ازدهرت فيها تلك الثقافة ، وهي من هذه الناحية خليقة بأن يعنى بها على هذا النحو ، بحيث نعتبر أنفسنا مقصرين في حق أمتنا إذا نحن، تركنا التراث العربي القديم مكتوباً بخطوط أصحابه وأعلامه ، معروضاً بطريقتهم التي كانت ملائمة للعصر الذي عاشو فيه . ومن هنا يدعونا داعي الانتماء للعروبة والإسلام من آن لآن . أن نعمد إلى هذا التراث . فنقوم بنشره أولاً عن طريق الطباعة الحديثة ، والطباعة من الأساليب التكنولوجية المعاصرة والتي من أجلها سميت العصور الحديثة بهذا الاسم . ولا يجب الاكتفاء بنشر هذا التراث القديم عن طريق الطباعة فقط ، إنما يجب أن نأخذ في عرض هذا التراث بطريقة حديثة تلائم أذواق الجيل الذي نحن منه وللأجيال التي تأتي من بعدنا أن تفعل ما فعلنا وهكذا ...

الكتابة والكتاب في العصر الأموي :

تحول العرب سريعاً من أمة أمِّيّة لا تعرف الكتابة ، وتعتمد فقط على ما وعته الآذان وحوته العقول وحفظته الصدور ... إلى تعلم الكتابة ، وكان أول

ما عني به العرب تدوين أخبار آبائهم في الجاهلية ، وأنسابهم وأشعارهم فكثر بينهم علماء النسب وأصحاب الأخبار .

وعناية العرب في هذا العصر بتدوين أخبارهم الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم لا تعدل عنايتهم بتدوين كل ما اتصل بدينهم الحنيف ، فقد قامت في كل البلاد والأمصار الإسلامية مدارس دينية ، عنيت بتفسر القرآن الكريم ورواية الحديث الشريف ، وتلقين الناس الفقه ، وكان الكثير من المتعلمين في هذه المدارس يحرصون على تدوين ما يسمعونه . كما أخذت تدون في القرن الأول الغزوات الإسلامية وممن عنوا بها ، عروة بن الزيد وأبان بن عثمان بن عفان . وأخذ الناس منذ أوائل عصر بني أميّة ينقلون عن الموالي بعض معارفهم كما كثرت كتب التاريخ والأدب وزخرت برسائل سياسية ، مثل شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة ، وكذلك كتاب الإمامة والسياسة المنسوب إلى ابن قتيبة .

الدواوين : من المعلوم أن عمر بن الخطاب أول من أقام الدواوين في الإسلام ، إذ أحس بالحاجة إلى سجلات يدون فيها الناس معطياتهم وأموال الغنائم ... ولما وُلّيَ الخلافة معاوية اتخذ ديوانين هما ديوان الرسائل وديوان الخاتم وفيه كانت تختم الرسائل الصادرة منه وظل ديوان الخراج يكتب في الشام ومصر بالكتابة الرومية وفي العراق بالكتابة الفارسية إلى عصر عبد الملك بن مروان . فنقلها إلى العربية .

وأصحاب ديوان الرسائل ، هم الذين كانوا يدبجون الكتب على ألسنة الخلفاء والولاه ، وكانوا يختارون من أرباب الكلام وأصحاب البيان ... أبلغ كتاب العصر الأموي هو **عبد الحميد بني يحيى الكاتب** وقد سماه الجاحظ في بيانه عبد الحميد الأكبر ، ونصح الكُتّاب أن يتخذوا كتابته نموذجاً لهم وظلت شهرته مدوية على القرون حتى قيل : فتحت كتابة الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد . ولكم كان أبي العباس القلقشندي بارعاً وأميناً حين أشار إلى الأستاذ الأول لفن الكتابة العربية وهو **عبد الحميد الكاتب فذكر أنه وضع الأساس الأول لآداب هذه الكتابة في رسالته التي عنوانها** « إلى

الكُتّاب ، والتي أولها » أما بعد حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وأرشدكم فإن الله عز وجل – جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين وبعد الملوك المكرمين أصنافاً وإن كانوا في الحقيقة سواء ، فجعلكم معشر الكُتّاب في أشرف الجهات ، أهل الأدب والمروءة ، والعلم والرواية ، فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها يبصرون وألسنتهم التي بها ينطقون وأيديهم التي بها يبطشون ، فليس أحد أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة ، وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكُتّاب ، فتناقشوا معشر الكُتّاب في صنوف الآداب وتفقهوا في الدين ... وأبدأوا بعلم كتاب الله عز وجل ، ثم بالعربية فإنها ثقات ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم ، وأرووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك معين لكم على ما تصبوا إليه هممكم ، وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم وتواصوا عليها بالذي هو أليق بأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم ...

ويمضي عبد الحميد الكاتب في رسالته ليحدد للكتاب ما ينبغي أن يكون عليه طعامهم وسكنهم ، بالبعد عن التبذير ، ويحذرهم من الانشغال بالتدبير عن العمل . ويحذرهم من الغرور . « ولا يجاوز الرجل منكم – في هيئة مجلسه ، وملبسه ، ومركبه ، ومطعمه ومشربه ، وبنائه وخدمه ، وغير ذلك من فنون أمره – قدر حقه ، فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم – خدمة لا تحملون في خدمتكم على التقصير ، وحفظة لا تحتمل منكم أفعال التصنيع والتبذير ، واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم ، وقصصته عليكم ، واحذروا متالف الشرف ، وسوء العاقبة في الترف ، فإنهما يعقبان الفقر ، ويذلان الرقاب ويفضحان أهلها ، ولا سيما الكُتّاب وأرباب الآداب .

واعلموا أن للتدبير آفة متلفة ، وهي الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ عمله ورؤيته ، فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقه ، وليوجز في ابتدائه وجوابه ، وليأخذ بمجامع حججه ، فإن ذلك مصلحة لفعله

ومدفعة للشاغل عن إكثاره ، وليضرع إلى الله في صلة توفيقه ، وإمداده بتسديده ، مخافة وقوعه في الغلط المضر ببدنه وعقله وأدبه ، فإنه إن ظن منكم ظان ، أو قال قائل : أن الذي برز من جميل صنعته ، وقوة حركته ، إنما هو بفضل حيلته ، وحسن تدبيره ، فقد تعرض بظنه أو مقالته إلى أن يكله الله عز وجل إلى نفسه ، فيصير منها إلى غير كاف ، وذلك من تأمله غير جاف .

ولا يقل أحد منكم أنه أبصر بالأمور ، وأحمل لعبء التدبير ، من مرافقه في صناعته ، ومصاحبه في خدمته ، فإن أعقل الرجلين عند ذوي الألباب ، ومن رمى بالعجب وراء ظهره ، ورأى أن صاحبه أعقل منه ، وأحمد في طريقته ، وعلى واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه ، من غير اغترار برأيه ، ولا تكاثر على أخيه أو نظيره ، وصاحبه وعشيره ، وحمد الله واجب على الجميع ، وذلك بالتواضع لعظمته ، والتذلل لعزته ، والتحدث بنعمته » .

بل إن عبد الحميد الكاتب في هذه الرسالة يوصي الكُتَّاب بالدور الذي تقوم به في حياتنا المعاصرة اتحادات الكُتَّاب في الرعاية الاجتماعية لأعضائها إذ يقول :

« وإن نبأ الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه ، حتى يرجع إليه حاله ، ويثوب إليه أمره ، وإن أقعد أحدكم الكبر عن مكسبه ولقاء إخوانه ، فزوروه وعظموه ، وشاوروه ، واستظهروا بفضل تجربته ، وقدم معرفته ، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه احفظ منه على ولده وأخيه ، فإن عرضت في الشغل محمدة ، فلا يضفيها إلا إلى صاحبه ، وإن عرضت مذمة فليحملها هو من دونه ، وليحذر السقطة والزلة ، والملل عند تغير الحال ، فإن العيب إليكم معشر الكُتَّاب ، أسرع منه إلى القراء ، وهو لكم أفسد منه لها » .

ويحدد عبد الحميد للكاتب دوره عند توليه مسئولية قائلاً :

« وليكن على الضعيف رفيقاً ، وللمظلوم منصفاً ، فإن الخلق عيال الله وأحبهم إليه أرفقهم بعياله ، ثم ليكن بالعدل حاكماً ، وللأشراف مكرماً وللفيء موفراً ، وللبلاد عامراً ، وللرعية متألفاً ، وعن إيذائهم متخلفاً » .

ويمضي عبد الحميد مع الكُتَّاب يوجههم بأسلوب التغيير الذي ينبغي أن يلجأ إليه الكاتب قائلاً :

« وإذا صحب أحدكم رجلاً فليختبر خلائقه ، فإذا عرف حسنها وقبيحها ، أعانه على ما يوافقه من الحسن ، واحتال لصرفه بألف حيلة وأجمل وسيلة ، وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها ، التمس معرفة أخلاقها ، فإن كانت رموحاً لم يهجها إذا ركبها ، وإن كانت شبوباً اتقاها من قبل يديها ، وإن خاف منها شروداً توقاها من ناحية رأسها ، وإن كانت حروناً قمع برفق هواها في طريقها فإن استمرت عطفها يسيراً ، فيسلس له قيادها ، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم ، وجربهم وداخلهم .

والكاتب بفضل أدبه ، وشريف صنعته ، ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظره ، ويفهم عنه أو يخاف سطوته ، أولى بالرفق بصاحبه ، ومداراته وتقويم أوده ، من سائس البهيمة التي لا تحير جواباً ، ولا تعرف صواباً ، ولا تفهم خطاباً ، إلا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عليها . إلا فأمعنوا – رحمكم الله – في النظر ، واعملوا فيه ما أمكنكم من الروية والفكر ، تأمنوا بإذن الله ممن صحبتموه النبوة ، والاستثقال والجفرة ، ويصير منكم إلى الموافقة ، ويصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة ، إن شاء الله تعالى » .

قد يغضب القارىء المعاصر أو قد يضحك من تشبيه عبد الحميد لمهمة المؤلف بمهمة سائس البهيمة ولكن التشبيه في عصر عبد الحميد لم يكن يثير غضباً ولا ضحكاً ، بل كان متوافقاً مع ظروف العصر والبيئة .

ورسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب معروفة وجميلة ، وهي من عيون النثر العربي إلى يومنا هذا .. ثم هي جماع الأخلاق والفضائل التي يجب أن يتحلى بها الكتاب قديماً وحديثاً .

التطور الشكلي للكتابة في العصر الأموي
(بدايات تحسين الخط)

جاء العصر الأموي وكان له فضلان على الكتابة العربية :

أولاً : فضل بداية « تجويد » خط الكتابة وتحسينه أي إعطاؤه السمة الجمالية للحروف وتكوينها بعيداً عن المعاني والمضمون ... أي بداية الحركة الفنية للخط .

ثانياً : فضل نقل صناعة الورق من أطراف الصين إلى سمرقند وبغداد وطرابلس والشام ، ولا يخفى ما في هذه الخطوة الذكية وهي إنشاء صناعة الورق بالدول الإسلامية من أثر بالغ في نهوض وانطلاق صناعتي الكتابة العادية (أي صياغة الكلمات) وكتابة الخط (أي تجويد الحروف وتشكيلها تشكيلاً فنياً) .

ويلاحظ هنا أن « فن الخط » بدأ على أيدي « الكتاب » فالكاتب أصلاً في الدولة الإسلامية هو ما يعادل الآن « وزير القصر » أو رئيس الديوان ... أو هو الأديب والسياسي والدبلوماسي والمسئول عن صياغة المعاني وتوجيهات الخليفة أو الوالي ... فلابد أن تكون العبارة التي يصيغها في قمة البلاغة والكياسة والجمال المعبر عن رفعة مصدرها ، وتشاء حكمة العلي القدير أن تكون الكلمة العربية متسعة لكل ما يصل إليه الفكر من المعاني والخيال وحبك الصياغة وإلهامات الفن وإيحاءاته . وتنافس الكُتّاب وظهر النابهون والنابغون وهم كثيرون ومنهم عبد الحميد الكاتب كما سبق أن ذكرنا : وخالد بن أبي الهياج ومالك بن دينار ... وفي أواخر الدولة الأموية ظهر كاتب خطاط أجاد فن الكتابة فأوجد لنفسه عريضة بناها على أساس ابتكاره لأنواع جديدة من الخطوط لم تكن معروفة قبل ذلك هو : قطبه المحرر الذي انتهت إليه ريادة فن الخط في العصر الأموي .

أنواع خطوط الكتابة في العصر الأموي :

من الواضح أنه قبل ظهور الإسلام لم يكن هناك اهتمام بالكتابة أو تجويدها وسادت الكتابة السريانية والنبطية ...

وبعد ظهور الإسلام واهتمام الرسول ﷺ والدعوة بالكتابة وتجويدها من واقع قوله لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه : الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً بدأ ظهور المدارس الإقليمية .

وكان مما هيأ الفرصة للعناية بالخط العربي وانتشاره تعريب الدواوين في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان : إذ أدى استخدام اللغة العربية في الدواوين إلى إحلال الكتابة بالخط العربي محل الكتابات الأخرى . وأدى ذلك إلى الإقبال على تعلم الكتابة العربية وانتشار الخط العربي في الأقطار التي خضعت لحكم العرب بحيث صار الخط العربي من أهم مظاهر سيادة الدولة الإسلامية ، بل صارت كثير من اللغات غير العربية تكتب بخط عربي مثل الفارسية والتركية وغيرها .

وكان الخط يسمى باسم هذه الأقاليم مثل : الخط الحجازي ... والخط المدني ... الأول يمتاز بالليونة والثاني باليبوسة ثم خط التدوين المتميز بالسرعة والاستدارات .

ثم ظهرت مدرسة الكوفة صاحبة « الخط الكوفي » المنتسب إلى مدرسة « المدينة » اليابسة و « مدرسة البصرة » الخط البصري المنتمي إلى الخط الحجازي اللين .

ثم انتقلت الرعاية والاهتمام إلى دمشق بعد ما قامت الدولة الأموية وخطت الكتابة العربية خطوات إلى الأمام وظهر لها أعلام كان أعلامهم « قطبه المحرر » والذي أخذ يبتدع خطوطاً جديدة ويشير إلى قواعد تكوينها .

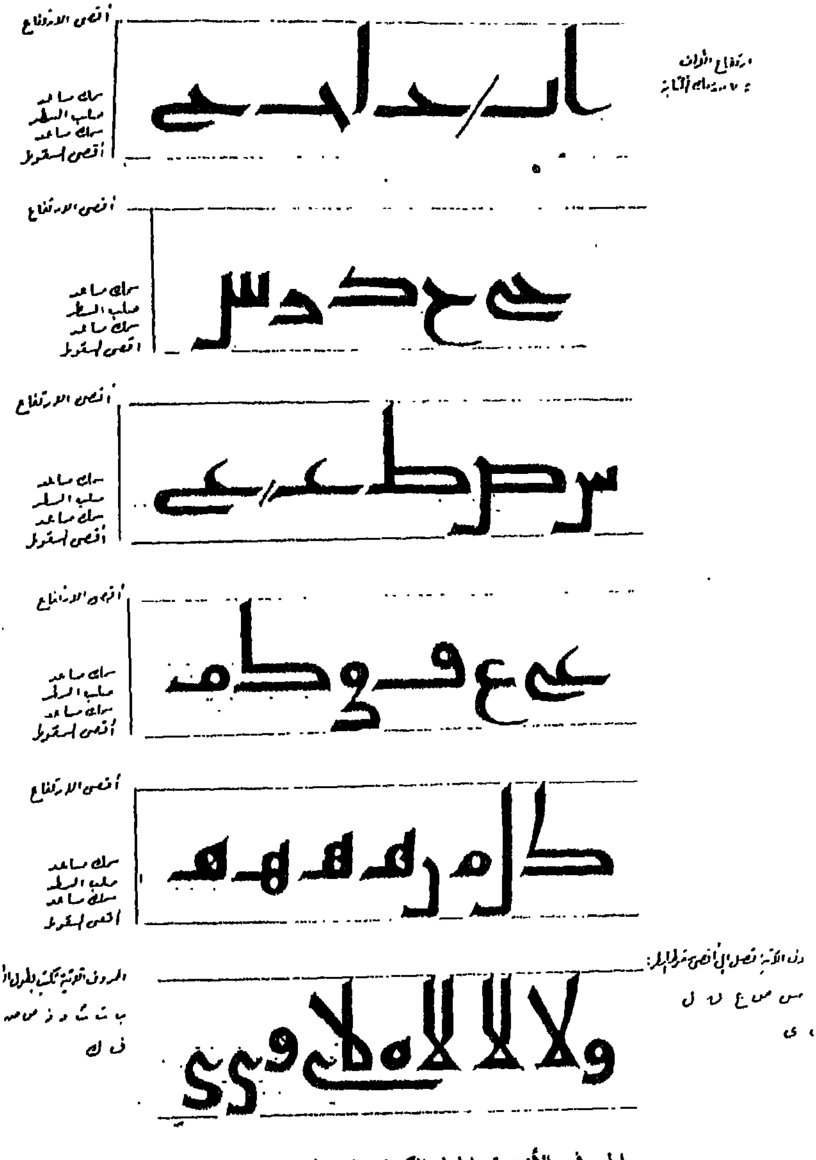
العصر العباسي عصر التأليف والترجمة والتدوين

لقد كان المسلمون في أواسط القرن الثاني الهجري يتدارسون علوماً كثيرة ، منها الشرعية ، ومنها اللسانية ، ومنها الكونية . وكان اعتمادهم في مدارستهم على التلقي والمشافهة . وكان بعض طلاب العلم يقيدون ذلك بالكتابة لتكون تذكرة لهم إذا ما طغى على عقولهم النسيان . وكانت الحافظة عندهم هي المرجع الأول وعليها المعول ، فلما أنشئت مدينة بغداد وأصبحت مقر الخلافة الإسلامية أقبل أهل الفضل إليها ، وأمها العلماء من كل صوب ، وجعلوها دار أقامتهم ، فأصبحت بذلك موئل العلوم الإسلامية ومجتمع الفنون الأدبية وملتقى الثقافات المختلفة ، فزخرت بالنور وازدهت بالعرفان ، وأينعت فيها ثمار العقول ، وصارت منار الحاضر ومحط رحال العلماء والفضلاء .

والحق أن تاريخ بغداد السياسي والاجتماعي والأدبي يعتبر – إلى حد ما – تاريخ العالم الإسلامي في خلال حقبة من الزمان لا تقل عن خمسة قرون . ولا مراء في أنه لم تصل مدينة من مدن الإسلام في تلك العصور الخالية إلى ما وصلت إليه بغداد من سعة العمران وعظم الآثار . كما أنه لم تصب مدينة منها بما أصيبت به بغداد من الكوارث والجوائح . فكما تضافرت الأيدي على عمرانها ورفعة شأنها ، تضافرت الخطوب والعوادي على تمزيق أوصالها وطمس معالمها ، حتى لم يبق من رسومها اليوم أثر يمكن أن يهتدي به الباحث المنقب إلى تعيين المواضع التي كانت تقوم عليها تلك القصور الشاهقة والمباني الشامخة والمساجد الجامعة والمدارس العظيمة التي كانت تملأ سمع الزمان وبصره ، اللهم إلا بعض أطلال لاتزال ماثلة .

وقد أخذ الخلفاء والأمراء بناصر العلم والعلماء ، واشتد ولعهم بنقل العلوم الأجنبية وتدوين العلوم الدينية ، فاكتظت بغداد بالنابغين في علوم الدين ، والعباقرة في العلوم اللسانية ، والمبرزين في فنون السياسة والحرب . وكان كل من تفرد بضرب من ضروب المعرفة يلقى من الخلفاء ألواناً من الأكرام وضروباً من أشكال المنح والعطايا .

كوفي المصاحف



الحروف الأبجدية بالخط الكوفي المعروف بخط المصاحف القديم

بقلم الأستاذ كامل إبراهيم

وفي هذه الفترة نبغ أئمة المذاهب الأربعة ، ودون مذهبا أبي حنيفة ومالك ، وزار بغداد الإمام محمد بن إدريس الشافعي مرتين ، وفيها أملى مذهبه القديم ، ولقيه فيها الإمام أحمد بن حنبل ولقح مذهبه بآرائه ، وقد أخذ عن ابن حنبل الكاتب الأديب ابن قتيبة .

وفي هذه الحقبة تم تدوين الحديث واللغة والشعر والتاريخ ، وظهر عظماء القراء ، ونهضت حركة الترجمة نهوضها مباركاً فغزت العلوم الكونية الفكر العربي وصقلته صقلاً ظهر أثره في جميع نواحي الحياة العباسية . وكان الخلفاء – وبخاصة المأمون – يشجعون هذه الحركة بكل ما أوتوا من قوة ، ويرسلون البعثات إلى البلاد الأجنبية ليستحضروا الكتب ، فيتلقفها المترجمون وينشروها بين الناس بالعربية ، وكانوا يغدقون العطايا لهؤلاء المترجمين حتى ليقال « أن المأمون كان يعطي حنين بن اسحاق من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلاً بمثل[1].

وكان خلفاء بني العباس في عصرهم الأول يجلون العلماء ويحتفون بهم . وقد سهلوا نزوحهم إليهم ، وأجروا الأرزاق عليهم ، وبالغوا في إكرامهم ، وقربوهم ، وجالسوهم ، وآكلوهم ، وحادثوهم وعولوا على آرائهم ، فلم يبق ذو قريحة أو علم إلا واتجه إلى بغداد . والعلم لا يزدهر إلا في ظل حاكم يشغف به ويأخذ بأيدي أهله . وهؤلاء الخلفاء كانوا من أكثر الملوك رغبة في العلم ، ولهذا عنوا – إلى جانب ما ذكرنا – بإنشاء خزائن الكتب ودورها ، وكان لهذه الدور شأن كبير في نشر العلم والمعرفة ، ويقول المستشرق الأستاذ جويدي : « من الأمور التي أحيت العلوم في الأمة العربية إقامة دار الحكمة في بغداد[2]. وكان في تلك الدار خزانة الكتب قيمة يجتمع فيها علماء ذلك العصر للدرس والبحث والمذاكرة . وكان علان الشعوبي ينسخ من تلك الخزانة كتباً

(١) وإذا كنت في حاجة إلى معرفة واسعة عن حالة الترجمة فاقرأ كتاب أخبار الحكماء للقفطي ، وكتاب التمدن الإسلامي لجورجي زيدان ، وكتاب عصر المأمون لفريد رفاعي .

(٢) محاضرات جويدي ص ٩ .

للرشيد والمأمون والبرامكة . وكان ابن أبي الحريش يجلد هذه الكتب وهو معروف بهذه الصناعة(١).

ومما ساعد على تقدم العلوم التنافس الذي قام بين العرب والروم . فقد أنشأ الروم في ذلك العصر أيضاً مدرسة تشبه دار الحكمة في القسطنطينية ، وكان ملك الروم « قسطنطين الثاني » محباً للعلم ، مشجعاً لأهله(٢).

وقد تنافس الأمراء وعلية القوم في اقتفاء أثر الخلفاء في خدمة الأدب والعلم ، والناس – كما يقولون – على دين ملوكهم ، فأنشأوا خزائن الكتب في قصورهم ، وسعوا ما وسعهم السعي إلى جمع الكتب ، مجزلين العطايا لكل من ينقل لهم ضرباً جديداً من المعارف . ومن أشهرهم بنو موسى بن شاكر ، محمد وأحمد والحسن ، ويقول عنهم ابن خلكان : « وكانت لهم همم عالية في تحصيل العلوم القديمة وكتب الأوائل . وكذلك آل بختيشوع ، وآل حنين بن اسحاق وآل الكرخي واسحاق الموصلي وغيرهم .

وقد أدرك القوم أن كل عز لم يسند بعلم كان مآله الانحلال ، فأكبوا على العلوم والآداب ، ينهلون من بحارها ، وحرص أرباب اليسار على تثقيف أبنائهم ، وأصبح التعليم صناعة ، فرخت عيشة المؤدبين ، وغدا التأديب طريقاً إلى المجد والسؤدد وسبيلاً إلى مؤانسة الخلفاء ومسامرتهم . وقد عمرت مجالس العلم والأدب ، وأمست دور الكبراء مثابة المفكرين وحملة الأشعار والطرف والأخبار .

وقد نهضت العلوم اللسانية نهوضاً حثيثاً في ذلك العهد ، ولاشك أن الدافع الأول لوضع هذه العلوم هو الدين . ذلك أنه لم تفش اللحن في اللغة العربية بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الأعاجم جزع الأئمة وذوو النعرة العربية من هذا اللحن وأشفقوا على القرآن أن يستغلق فهمه على الناس ، فهبوا لمحاربة هذا الوباء بالحض على التعلم وتدوين علوم اللسان من لغة ونحو .

---

(١) فهرست ابن النديم ص ١٠ .

(٢) محاضرات جويدي ص ١٠ .

وقد شد الخلفاء ورجال الدولة أزر هذه النهضة حرصاً على الدين الذي كان مظهرهم الأكبر ، فحشدوا في قصورهم أئمة اللسان يؤدبون أولادهم ، فكانوا أمراء الكلام والبلاغة ، كما كانوا أمراء الملك وسادة الدولة . وقد عرف الناس منهم ذلك فتقربوا إليهم بالعلم والأدب ، لم يعز على من فاته شرف الحسب والسلطان أن يتجه إليه العلم والأدب ، فنبغ فيهم الكثير وقد كان نشاط المسلمين وتنافسهم في هذه الناحية يستثير الإعجاب ، وكانوا يتسابقون في تدوين العلم وتنظيمه تسابق آبائهم في الفتوح والغزوات .

ومن المحقق أو أول ما دُوِّنَ وكُتِب – بعد القرآن طبعاً – هو الحديث والفقه وأصوله ، ثم جاء النحو وعلوم العربية بعد ذلك .

وكانت هذه العلوم قبل ذلك العهد مختلطة غير مرتبة « فكان الأئمة يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة »[1] كما يقول السيوطي .

أما في العصر العباسي فقد دونت هذه العلوم واتخذت شكلاً آخر من حيث الترتيب والتبويب والقياس عليها . ووجدت بجانبها علوم أخرى دنيوية كالمنطق والفلسفة والرياضة والطب والهيئة والكيمياء .

والحق أن العلوم العربية كلها تقريباً قد وضعت أسسها في العصر العباسي الأول ، وبعضها تم بناؤه في هذا العصر . وكذلك ترجمت علوم الأمم الأخرى – كما ذكرنا – وتمثلها المسلمون ، وبدأ علماؤهم بعد ذلك يؤلفون فيها .

وقد ظل المسلمون فترات طويلة يعتمدون في حياتهم العلمية على تلك العلوم التي وضعت في هذا العصر .

وكان مما ساعد على تنشيط هذه الحركة العلمية والنهوض بها ظهور صناعة الورق واتساعها ويقال أن البرامكة هم الذين أشاروا بعمل الكاغد لنسخ

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٠١ .

أسفارهم[1]. ثم أمر الرشيد ألا يكتب الناس إلا في الكاغد ، لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة ، فتقبل التزوير ، وانتشرت الكتابة في الورق إلى سائر الأقطار[2] وكان لظهور الورق فضل وجود الكتب وخزائنها ، كما كان له فضل في قيام صناعة « الوراقة » . وكان أصحابها يقومون بنسخ الكتب وتصحيحها ، وكان كثير من العلماء يذهبون إلى دكاكين الوراقين ويقرؤون ما فيها من كتب ، واشتهر منهم الجاحظ .

وليس من شك في أن العلوم قد اتخذت لوناً خاصاً في ظلال العباسيين ما كانت لتتخذه لو بعثت في عصر غير هذا العصر باستثناء العلوم التي كان مقياسها العقل الخالص كالمنطق والرياضيات وما شابهها[3].

وكانت هذه العلوم تنتشر في الآفاق بوسائل عدة أهمها الكتاتيب والمساجد . وكان بالمساجد حلقات لمختلف العلوم كما كان الحال بالأزهر الشريف إلى عهد قريب . وكانت وسائل نشر العلم أيضاً مجالس المناظرة في القصور والدور ، وكان كثير من الخلفاء والوزراء والولاة يشجعون هذه المناظرات مادياً وأدبياً ، وأحياناً يشتركون فيها . وقد عقد السيوطي فصلاً « عن المناظرات والمجالسات والفتاوى والمكاتبات والمراسلات »[4] أورد فيها الكثير منها . ومن أهم هذه الوسائل « المكتبات » . وأعظم مكتبة ظهرت في العصر العباسي مكتبة « بيت الحكمة » التي أشرنا إليها فيما قبل .

وقد انتشرت إلى جانب ذلك مجالس اللهو والشراب ، وكان يغشاها الأدباء والشعراء وأرباب الفنون ، فكانت هي الأخرى ينبوعاً للشعر وما يتبعه من لطيف الملح وطريف الأفاكية .

---

(١) حضارة الإسلام في دار السلام لجميل المدور ص ١٧٢ .

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٤٩ ، وصبح الأعشى ٤٧٥/٢ .

(٣) في كتاب ضحي الإسلام ج ٢ ص حـ ٢ وما بعدها للأستاذ أحمد أمين .

(٤) انظر كتاب «الأشياه والنظائر » ١٥/٣ للسيوطي .

وقد أخذ الناس يتمززون طعم الحياة وينعمون بمباهجها ، وأضحى رجال الدولة ومن والاهم يغشون مجالس الغناء والموسيقى والطرب وأصبحت معظم الطبقات تألف ذلك من غير حرج .

ولقد ساعد على تنوع الثقافات الحرية الفكرية التي أظلت العقول في ذلك الحين نتيجة امتزاج العنصر العربي بغيره من العناصر الأجنبية الأخرى وبخاصة في زمن المأمون .

وكان المأمون يترك للناس حرية المعتقدات مهما كان فيها من زيغ ومروق . وكان يؤتي بالمارق يمثل بين يديه فيجادله بالتي هي أحسن حتى يهديه سواء السبيل . وقد قال للمرتد الخراساني لأن أستحييك بحق أحب إلى من أقتلك بحق ، ولأن أقبلك بالبراءة أحب إلى من أن أدفعك بالتهمة . وأخذ يحاوره حتى أقام عليه الحجة ، فأناب المرتد إلى الله عن عقيدة وإيمان .

وكان المأمون يسهم في المناظرات الدينية ويحاج الفقهاء في كثير من الأمور . وكان يأمر قاضي قضاته يحيى بن أكثم أن يحضر معه رجالاً يحسنون الفقه والجواب ، فيدخلون عليه وهو جالس على فراشه ، وعليه سواده وطيلسانه وعمامته ، فإذا استقر بهم المجلس تحدر عن فراشه ونزع عمامته ووضع قلنسوته ، وما كان يمنعه من خلع خفيه إلا العلة ، ثم يأمرهم بنزع قلانسهم وخفافهم وطيالسهم ويقول لهم : « إنما بعثت لكم معشر القوم للمناظرة » ثم يلقي عليهم مسائل الفقه ويرد على كل واحد منهم ، وكان يخيرهم أن يسألوه أو يسألهم . ويؤثر عنه أنه كان يجل علماء اليهود والنصارى ، ويحتفي بهم في مجلسه لعلمهم وثقافتهم في لغة العرب وحذقهم لغة اليونان والسريان .

ويبدو لي أن المأمون كان يرمي من وراء هذه المناظرات كلها إلى اجتماع الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين . وكان يكره في المناظرات إلى ما كان يبتغيه ، فلم ير بداً من الاستعانة بسلطانه في إقامة مايراه الحق ، ولا سيما مسألة خلق القرآن .

وقد بلغ من تمتع القوم بهذه الحرية أن المجوس كانا يعارضون علماء المسلمين ، وقد ذكر الجاحظ بعض هذه المعارضات في كتاب الحيوان .

والحق أن هذه الحرية الفكرية التي أباحها المأمون للناس جميعاً كانت سبباً في تشتيت العقائد و كثرة الفرق بين المسلمين . فبعد أن كانوا لا يعرفون غير الكتاب والسنة اختلفت كلمتهم حتى أصبح الإنسان يحار في كثرة الفرق ، ما بين حديثي ومعتزلي وشيعي وزيدي ورافضي وجبري ورجئي وعثماني وجهمي ... إلخ ، فضلاً عن المارقة والدهرية وأشباههما . وكان المأمون نفسه شيعياً ، وله في ذلك مظهر عملي معروف ذكره المؤرخون . وكان وزيره يحيى بن أكثم سنياً وقاضي قضاته أحمد بن أبي داود معتزلياً . وربما تعددت المذاهب بين الأخوة في البيت الواحد مثل أولاد أبي الجعد ، وكانوا ستة ، منهم اثنان شيعيان ، واثنان مرجئان ، واثنان خارجيان .

مهما يكن من شيء فقد تمتع الناس في زمن المأمون بحرية فكرية ودينية لم ير لها مثيل في أي عصر من عصور الإسلام .

وقد كان من أثر اختلاف السكان في الدولة الإسلامية وتباين أصولهم وأجناسهم ، وامتزاجهم بالسكنى والزواج وغير ذلك ، ودخول كثير من أفراد الأمم الأجنبية في الإسلام ، ونمو الحضارة نمواً يتطلب دراية واسعة بكثير من شئون الحياة من هندسة وطب وفلك ونظام وحكم وسياسة ولغة وأدب كان من أثر ذلك كله أن انتشرت في الدولة ثقافات مختلفة لأمم مختلفة . وكان لكل ثقافة رجالها البارزون الذين يحاولون جهدهم نشرها والترويج لها .

وكان من مظاهر هذا التنافس أن أخذت كل ثقافة تشق لنفسها طريقاً تسير فيه . ولكن هذه الثقافات جميعاً أخذت تلتقي رويداً رويداً وتمتزج بالثقافة العربية ، وقد تكون من مجموعها ثقافة كبرى ذالت لون خاص ، قد صبغت الصبغة الإسلامية ، وهي ما يعرف « **بالثقافة الإسلامية** » .

وهذه الثقافات التي اتصلت بالثقافة العربية ثلاث : **الثقافة الفارسية** ،

والثقافة اليونانية ، والثقافة الهندية ، يضاف إلى ذلك الثقافات الدينية كاليهودية والنصرانية[1].

وقد أقبل رجال هذه الثقافات الأجنبية على اللغة العربية فحذقوها حذقاً يدعو إلى الإعجاب الشديد . ويحكي الجاحظ عن موسى بن يسار الأسواري وهو قصاص فارسي الأصل أنه « كان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية . وكان يجلس في مجلسه المشهور به ، فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدري بأي اللسانين هو أبين » ، وهذا مثل له نظراء كثيرون . ونحن نجد بين علماء المسلمين رجالاً من كل جنس ونحلة قد أخذوا بحظ وافر في جميع نواحي العلم . ولعل أعظم هذه الأجناس أثراً في الحياة العباسية الفرس[1].

لقد أثرت الثقافة الفارسية في الثقافة الإسلامية من نواحيها المختلفة . وأظهر ذلك الألفاظ الفارسية التي تسربت إلى اللغة العربية . وكان الفرس يدلون على العرب بما أخذته العربية من الفارسية . وقد نقلوا كثيراً من تراث آبائهم إلى العربية ، ويقول ابن النديم : « أول من صنف الخرافات وجعل لها كتباً وأودعها الخزائن وجعل بعض ذلك على ألسنة الحيوان الفرس . ونقلته العرب إلى اللغة العربية » .

هذا إلى أن كثيراً من العرب عكفوا على تعلم الفارسية ، وقد نضح ذلك على ثمار قرائحهم وأقلامهم ، حتى الشعراء نراهم يدرسون الفارسية ويتقنونها ، وأوضح مثل لذلك العتابي الشاعر العباسي المعروف وهو عربي من

---

(١) أحيلك على هذه الكتب لتقرأ الكثير فيها عن أثر الثقافات الأجنبية في الثقافة الإسلامية طبقات الأمم لصاعد الأندلسي ، فهرست ابن النديم ، طبقات ابن أبي أصيبعة ، أخبار الحكماء للقفطي ، ثم ضحى الإسلام لأحمد أمين ، وتاريخ آداب جورجي زيدان وعصر المأمون لفريد رفاعي .

(٢) البيان والتبيين ١/٢٣٤ .

تغلب ، وقد سأله رجل : « لم كتبت كتب العجم ؟ فقال : وهل المعاني إلا في كتب العجم والبلاغة واللغة لنا والمعاني لهم » وليس هناك من ريب في أن إلمام ابن قتيبة بالفارسية كان من الأسباب التي جعلت كتبه على شيء من الترتيب والتنسيق .

ومن أبرز أثر الفرس أن الكثير من عاداتهم قد تغلغل في المجتمع العباسي تغلغلاً شديداً وبخاصة ما يتصل بالغناء واللهو والشراب .

وهناك لون آخر من الأدب كان للفرس أثر كبير فيه وهو باب « التوقيعات » وقد أعجب بها العرب . لأن الإيجاز من خصائص البلاغة العربية . وقد اهتم وزراء بني العباس وكتابهم بأمر التوقيعات ، وكأنما نزع فيهم عرق من آبائهم ، فأنشأوا لها ديواناً سموه « ديوان التوقيع » .

هذا إلى أنه قد ترجم إلى العربية كثير من أمثال العجم وحكمهم ، وقد أورد الثعالبي قدراً كبيراً منها في كتاب « خاص الخاص » ويشير ابن قتيبة في مواطن متعددة من عيون الأخبار إلى المعاني التي اقتبسها الشعراء والخطباء من حكم الفرس .

ويرى أستاذنا المرحوم الدكتور أحمد أمين أن الكتب التي عرفت في العربية باسم « المحاسن والمساوىء » أو « المحاسن والأضداد » كانت محاكاة للكتب الفارسية التي عرفت باسم « شايد وناشايد » أي « ينبغي ولا ينبغي » أو « شايسته وناشايسته » أي « اللائق وغير اللائق » ويلاحظ أن حملة العلم في المسلمين كان أكثرهم من العجم في ذلك العصر مثل أبي حنيفة وحماد الراوية وخلف الأحمر وسيبويه والكسائي والفراء وأبي عبيدة وأبي العتاهية وبشار بن برد والجاحظ وابن قتيبة ... وغيرهم وغيرهم .

أما الثقافة اليونانية فكانت مستفيضة في بلاد الشرق بعد فتوح الاسكندر ، وقد وجد العرب في أول يقظتهم مستودعاً لآثار اليونانيين ، وقد نقلوا في العصر العباسي أهم ما وصل إليه العقل اليوناني ، كتآليف أرسطو ،

وبعض مؤلفاته أفلاطون ، وأهم كتب جالينوس في الطب ، ورياضة فيثاغورس وغيرها . وهندسة اقليدس ... الخ .

وقد ظلت الاسكندرية عاصمة مصر اليونانية زمناً غير قصير منهل الوارد من طلاب العلم والثقافة . وكانت المدرسة التي أنشأها كسرى الأول سنة ٣٥٠م في جند يسابور تنشر في الشرق علوم اليونانيين ، وتستجيب لرغبة القوم في تذوق الفلسفة والطب حتى لقد قيل أن الحارث بن كلدة الثقفى طبيب العرب تلقى علم الطب قبيل الاسلام في هذه المدرسة(١) التى ظلت تؤدى عملها في العصر العباسى .

وكانت حران في بلاد ما بين النهرين ذات حضارة يونانية ، وكان أهلها ينصرفون خاصة إلى الرياضيات والفلك ، واشتهر منهم في العصر العباسي ثابت بن قرة وابن سنان الطبيب العالم وأبو اسحاق الصابىء صاحب الرسائل .

وليس من شك في أن علماء الكلام قد اتصلوا بالكتب اليونانية التي ترجمت إلى العربية ، وتأثرت أبحاثهم بالمنطق ليدعموا م أمام خصومهم ، كما كان يفعل اليهود والنصارى الذين اتصلوا بالفلسفة اليونانية قبلاً . ثم أصبح المسلمون يطلبون هذه الفلسفة للذة العقلية بعد أن كانوا يطلبونها للدفاع عن أنفسهم .

وكان للثقافة اليونانية أثر كبير في العلوم الإسلامية في الشكل وفي الموضوع على حد تعبير المرحوم أحمد أمين(٢). أما في الشكل فيرجع إلى تأثير المنطق اليوناني الذي لون العلوم بلونه الخاص ، وكان ابن سينا يسميه « خادم العلوم » ، أما في الموضوع فقد كان للفلسفة اليونانية أثر كبير في تعاليم المتكلمين .

وقد أثرت البلاغة اليونانية في البلاغة العربية ، وعربت كثير من الألفاظ

---

(١) أخبار الحكماء للقفطي ص ١٦١ .

(٢) ضحى الإسلام ١/٢٧٤ .

اليونانية ، ونقلت قصص يونانية إلى العربية . وقد ذكر ابن النديم أسماء كتب كثيرة في الأسمار والتاريخ ترجمت إلى اللسان العربي[1]. ونحن نقرأ في البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد وغيرها كثيراً من حكم فلاسفة اليونان . ولاشك أن تمثل وهضم الثقافة اليونانية أنجب اخوان الصفا والفارابي وابن سينا وابن رشد وأمثالهم .

وأما الثقافة الهندية فقد وصلت إلى العرب عن طريق الفرس ، وربما كان أهم ما عرفه العرب منها الإلهيات (ويراد بها الدين ممتزجاً بالفلسفة) ، والحكم ، وبعض الرياضيات ، وشيئاً من الأدب والفن .

وقد تأثرت بعض الفرق الدينية الإسلامية بالدين الهندي ، وأخذوا عنه فكرة « تناسخ الأرواح التي تأثرت بها كثير من الديانات السماوية وغير السماوية . ولاشك أن التصوف اتصال بمذاهب النساك في الهند . ومكانة التصوف في الأدب العربي نثره ونظمه لا تحتاج إلى تبيان .

وكان في بغداد أطباء هنود إلى جانب أطباء اليونان والروم والفرس ، مثل « صالح بن بهلة الهندي » و « منكه » و « بازيكر » و « قلبرقل » وغيرهم .

وقد اندمج الهنود عقب الفتح الإسلامي في المسلمين ، واعتنق كثير منهم الإسلام ، وأقبلوا على تعلم العلوم الإسلامية ، ونبغ فيها بعضهم ، وظهر فيهم وفي أولادهم الشعراء وعلماء اللغة والمحدثون ، منهم أبو عطاء السندي ، وابن الأعرابي ، وأبو معشر نجيح السندي ، وفتح بن عبد الله السندي الفقيه المتكلم . وقد ترجم إلى العربية كثير من كتب الهنود ، وبخاصة ما يتصل بالكواكب والفلك .

وقد عربت ألفاظ هندية كثيرة ، وبخاصة أسماء النباتات ، ونقلت إلى العربية آراء لهم في البلاغة ذكر الجاحظ طرفاً منها ، وهي تدل على أن تعريفهم للبلاغة

---

(١) الفهرست ص ٣٠٥ .

يقرب من تعريف العرب لها وقد أولع العرب بالقصص الهندي ، ومن المحقق أن كثيراً من أصول « كليلة ودمنة » هندي ترجم إلى الفارسية ، ومنها إلى العربية مع زيادة على الأصل الهندي . ويرجح ابن النديم أن قصة السندباد البحري هندية . وقد نقل العرب كثيراً من حكم الهند ، وتجد قدراً كبيراً منها في « عيون الأخبار » وكثيراً ما تقرأ لابن قتيبة هذه الجملة « وقرأت في كتب الهند » وقد أشار ابن قتيبة إلى بعض المعاني التي اقتبسها الشعراء عن الهنود .

وللديانتين اليهودية والنصرانية أثر كبير في الثقافة الإسلامية والمعروف أن الامبراطورية الإسلامية كانت تضم عدداً غير قليل من أهل الكتاب ينعمون بحرية العمل والعبادة ، وقد أثرى كثير منهم وخالط المسلمون هؤلاء واتخذوهم أصدقاء ولبعض شعراء المسلمين شعر يمدح فيه النصارى واليهود ويذكر لهم خلالاً كريمة .

وقد تسرب إلى المسلمين شيء كثير من ثقافة هاتين الديانتين . ولعل أهم منبع لهذه الثقافة التوراة والإنجيل ، وهما كتابان سماويان اعترف الإسلام وورد ذكرهما كثيراً في القرآن .

وقد استفاد العرب كثيراً في قصصهم من أهل الكتاب وممن أسلم منهم ، وبخاصة ما يسمونه العلم الأول وهو ما يتعلق بأخبار الأمم السالفة .

وأكثر ما تأثر بالثقافة اليهودية هذه المسائل التي وردت في القرآن الكريم ولها نظير في التوراة ولا سيما قصص الأنبياء فقد كان علماء التفسير يضيفون إلى شروحهم ما ذكر في التوراة وغيرها من الكتب اليهودية ، يعينهم على ذلك اليهود أنفسهم أو من أسلم منهم . ومن أشهرهم عبد الله بن سلام الذي أسلم عند هجرة الرسول عليه السلام إلى المدينة ، وكعب الأحبار الذي أسلم في خلافة عمر ، ووهب بن منبه وغيرهم .

كما أن المسلمين عنوا بتاريخ بني إسرائيل وأنبيائهم ، كما فعل ابن قتيبة في كتاب المعارف والطبري في تاريخه .

وكان لليهود أثر واضح في بعض المذاهب التي ظهرت في الإسلام . ويقال أن أول من تفوه بكلمة خبيثة في الاعتقاد في الإسلام هو « الجعد بن درهم » مؤدب مروان بن محمد ، وقد أخذ ذلك عن بعض اليهود ، ويروى ابن الأثير أن أحمد بن أبي داود الذي كان يقول بخلق القرآن قد أخذ مذهبه هذا عن اليهود من مصدر يصل سندة إلى لبيد بن الأعصم اليهودي وكان يقول بخلق التوراة . وابن عبد ربه يذكر أن فرقة الرافضة قد تأثرت أشد تأثر بتعاليم اليهود . ولا شك أن مسائل التشبيه التي أثيرت في تفسير بعض الآيات القرآنية مثل « الرحمن على العرش استوى » و « يد الله فوق أيديهم » قد تأثرت بتفسير اليهود للآيات المماثلة لها في التوراة . وقد آمن جماعة من الشيعة بالتشبيه .

وقد تأثر كثير من المسائل التي أثارها المتكلمون باليهود . ومن زعماء المتكلمين الذين هم من أصل يهودي « بشر المريسي » ، وهو من القائلين بخلق القرآن . وأضف إلى ذلك أن كثيراً من حِكَم اليهود ونصائحهم قد غزت الأدب العربي ، وورد كثير منها في عيون الأخبار والعقد الفريد . وقد أشار الأستاذ جويدي إلى كثيراً من الأخبار التي أوردها ياقوت في « معجم البلدان » مأخوذ من كتب اليهود ، وأورد كثيراً من تآليف اليهود التي أثرت في ثقافة العرب .

والحال كذلك في **الديانة النصرانية** ، فقد كان لها ثقافة دينية أهمها لإنجيل ، وما لازمه من شروح ، وما أضيف إليه من قصص وأخبار . وقد تسرب ذلك كله إلى المسلمين ، كما كان الشأن مع اليهود تماماً . وعني مؤرخو المسلمين بتاريخ النصارى وبعض الحواريين ، كالطبري والمسعودي .

وكما نشأ جدل بين اليهود والمسلمين نشأ جدل أيضاً بين النصارى والمسلمين ، والظاهر أن الجدل قد حمى وطيسه بين المسلمين والنصارى بصورة أقوى مما كان بين المسلمين واليهود ، وذلك لأن اليهود – فيما أرى – عنصر يؤثر العافية ولا يوجه نشاطه إلا إلى النواحي المادية وما يتصل بجمع المال واستثماره .

وقد دخل الشعر العربي كثير من ألفاظ النصرانية مثل الصليب والقربان والمسوح . وكانت الأديرة منتجع الشعراء يغشونها ويتشببون بفتيانها وفتياتها في شعر رقيق .

هذه هي الثقافات الأجنبية التي طرأت على الثقافة العربية ، وقد امتزجت بها امتزاجاً قوياً . وأطلق عليها كلها مؤرخ الأدب « **الثقافة الإسلامية العباسية** » . وهذه الثقافة تباين من غير شك - الثقافة الإسلامية العربية في العصر الأموي .

وكان أكثر المسلمين إلماماً بهذه الثقافات أهل الكلام . ومن أجل هذا كان المتكلمون هم أصحاب اليد الطولى في المزج بين هذه الثقافات كلها كما يقول المرحوم الأستاذ أحمد أمين .

فلا مندوحة من القول إذن بأن اللغة العربية قد دخلتها عناصر لم يكن لها عهد بأمثالها من قبل ، فاستلزم ذلك أنماطاً حديثة من التفكير . فبعد أن كان العقل لاصقاً بصور المادة لا يحيط إلا بما تعانيه الحواس انسلخ [illegible] الشيء من هذه المادة ، وتعلق بالأمور المجردة ، فحلل أجزاء النفس وأحاسيسها وعواطفها ، وطمح فيما فوق البشر ، فنظر في المبادىء والنتائج والعلل ، وما شابه ذلك .

ومما يبعث على الإعجاب المقرون بالفخار أن نرى هذه اللغة البدوية قد فسحت في رحابها حتى وسعت ثمار كل هاتيك القرائح .

وبعد فإني لأرى الضرورة تلح عليّ في أن أشير - في لمحة خاطفة - إلى سم[illegible] كانت بارزة في سماء هذا العصر لتكتمل لنا الصورة الصادقة الكاملة له ... وتلك السمة هي **الصراع الذي كان بين العرب والموالي** ، وكان لهذا الصراع أثر بالغ في الأدب والعلم والفن جميعاً .

لقد اعتنق العرب الإسلام ورفعوا راية الجهاد في سبيل نشره ووقر في أذهانهم أنهم من جنس لا يتطاول إليه جنس آخر ، وتملكهم شعور بالعظمة

والسيادة والاستعلاء . فنظروا إلى غيرهم نظرة السيد إلى المسود ، وسموا من هو غير عربي « أعجمياً » .

وكان العرب – شعباً وحكاماً – في العصر الأموي يسيرون على ضوء هذه الفكرة ، وكتب الأدب مترعة بالحكايات التي تدل على ذلك ، وبلغ من غلوهم في ذلك أن الحجاج أمر ألا يؤم بالكوفة إلا عربي .

وهذه العصبية العربية العنيفة كانت تقابلها عصبية أخرى من أولئك الموالى المستضعفين ولاسيما الفرس ، وهم خلقاء أن يأكل الحقد قلوبهم ، لأنهم كانوا سادة فأصبحوا مسودين . وكانوا يفخرون على العرب بمجدهم الغابر وعزهم التليد ، ويعتبرون حكم العرب لهم ضرباً من سخرية القدر . ولذلك نراهم يهتبلون كل فرصة لإظهار ما يضطرم في نفوسهم من الحقد والبغض ، ولكن بني أمية كانوا يكبتون هذا الشعور أعنف كبت كما حدث لاسماعيل بن يسار مع هشام بن عبد الملك . بيد أن هذه النزعة التي أخمدها الأمويون قد اتجهت إلى دعاية خفية ضد بني أمية ، وانتهت بقيام دولة بني العباس كما هو معروف .

وقد عرف العباسيون للفرس عظيم فضلهم في قيام دولتهم ، وصرح زعماؤهم بذلك في خطبهم وفي أحاديثهم مثل داود بن علي وأبي جعفر المنصور .

من ذلك ندرك أنه قد أصبح للفرس في دولة العباسيين شأن كبير ، ولكنهم لم يقضوا على نفوذ العرب تماماً لأنه الخلفاء عرب هاشميون ، وهم يفخرون بذلك ، ولذلك نراهم ينكلون بالفرس أشنع تنكيل يوم شعروا بطغيانهم كما فعل المنصور بأبي مسلم ، والرشيد بالبرامكة ، والمأمون بالفضل بن سهل .

ومن أجل هذا نرى كثيراً من عظماء الفرس ينزعون إلى الفخر بالنسب العربي والولاء العربي حتى أن أبا مسلم الخراساني يصطنع لنفسه نسباً عربياً فينتمي إلى سليط بن عبد الله ابن عباس وكذلك نرى اسحاق بن إبراهيم الموصلي – على الرغم من مكانته لدى الرشيد – يهرع إلى خازم بن خزيمة – وهو عربي – وينتمي إليه معتزاً بذلك .

فليس من شك إذن في أن العرب لم يذلوا كثيروا في هذا العصر ، ولم تهوى عزتهم إلى الحد الذي يصوره المؤرخون . وكل ما حدث أن حركة العصبية العربية قد دفعت بحركة أخرى فارسية ، وأن الصوت الخافت الذي كان يهمهم به إسماعيل بن يسار قد انطلق من عقاله حراً قوياً .

وكان يتزعم هذه الحركة الفارسية جماعة على رأسهم بشار ابن برد الذي كان يفخر بالعجم ويتبرأ من الولاء العربي ويدعو الموالى إلى تركه ، ويحقر العرب ، وكان يجهر بذلك أمام المهدي فلا يعاقبه كما عاقب هشام إسماعيل بن يسار حينما فخر بأجداده الفرس .. وحذا حذو بشار في ذلك شعراء الموالى مثل ديك الجن والخزيمي والمتوكلي « وكان من ندماء المتوكل » .

مهما يكن من شيء فقد قوي نفوذ الفرس في الدولة العباسية ، وأصبحت الاستعانة بهم في أمور الدولة أمراً مقرراً ، بعد أن كان استخدامهم في العصر الأموي – على ندرته – يقابل بالامتعاض ، ويقول الجاحظ[1]: « إن دولتهم » أي العباسيين « أعجمية خراسانية ، ودولة بني مروان عربية أعرابية » . ويذكر السيوطي « أن المنصور أول من استعمل مواليه على الأعمال وقدمهم على العرب » ، وحذا حذوه الخلفاء من بعده « فسقطت وبادت العرب وزال بأسها وذهبت مراتبها » كما يقول المسعودي .

وبلغ من نفوذ الفرس أن حبب بعضهم إلى المنصور أن يستبدل الكعبة بما يقوم مقامها في العراق وتكون حجاً للناس ، فبنى بناء سماه « العتبة الخضراء » ، وقطع الميرة في البحر عن المدينة فغضب أهل الحجاز ، وخلعوا بيعة المنصور ، وقد أفتى لهم بذلك الإمام مالك بن أنس ، فعذبه والي المدينة ،

---

(١) الجاحظ (ت – ٢٥٥ هـ) عاش ما يقرب من مائة سنة وهو أبو عثمان عمرو بن بحر ، من كنانة ، ونشأ بالبصرة ، يعد الجاحظ أكبر كاتب ظهر في العصر العباسي وهو ثمرة ناضجة لكل الجهود العقلية الخصبة التي نهض بها المعتزلة من حيث المنطق والاستدلال وتوجيه المعاني راجع خط حياته وثقافته الفهرست ص ١٧٥ وأيضاً ضحى الإسلام لأحمد أمين ص ٣٨٦ .

فلما تولى المهدي « أكرم أهل الحرمين وكسا الكعبة كسوة جديدة ، وفرق هناك مالاً عظيماً ، واتخذ حرساً من الأنصار » .

وقد قوي نفوذ الفرس في زمن الرشيد بفضل البرامكة ، واتسع نفوذهم في عهد المأمون لما تغلب على أخيه الأمين بفضل مناصرتهم له ، وعد انتصاره انتصاراً للفرس على العرب .

وزاد هذا النفوذ أيضاً أن الخلفاء العباسيين كانوا يتعصبون للإسلام ، ولم يتعصبوا هذا التعصب للعروبة . وساعد على ذلك أن أكثر هؤلاء الخلفاء كانوا مولدين ، فلا عجب إذا جهر الفرس بذم العرب والتعصب لجنسهم ، ولا عجب أن يصبح هذا مذهباً لهم يعرف « بالشعوبية » . وكان الخلفاء العباسيون لا ينكرون منهم ذلك ، بل إننا نرى المأمون يدنيهم منه ، فيجعل سهل بن هارون – المعروف بمقته للعرب – يتولى الهيمنة على خزائن الكتب .

وقد دأب الشعوبية على أن يسلكوا كل سبيل يوصلهم إلى تحقير العرب الازدراء عليهم . ومن ذلك التأليف في « مناقب العجم وفي مثالب العرب » . ومن أشهر من فعلوا ذلك علان الشعوبي ، فقد وضع كتاباً في ذم العرب اسمه « حلبة المثالب » ، وهو أشد الكتب التي هتكت العرب . ومنهم سهل بن هارون الذي أشرنا إليه والذي يقول فيه ابن النديم : « كان حكيماً فصيحاً شاعراً ، فارسي الأصل ، شعوبي المذهب ، شديد العصبية على العرب ، وله في ذلك كتب كثيرة » وبلغ من شدة بغض سهل للعرب أن ألّف رسالته المشهورة في البخل ، وفيها يقلب الكرم رذيلة والبخل فضيلة ، لأن العرب كانوا يمتدحون بالكرم ويعتبرونه من أكرم صفات الإنسان ، كما اشتهر الفرس بالبخل وبخاصة أهل خراسان .

ومن ألد أعداء العرب « الهيثم بن عديّ » ، وكان من جلساء المنصور والهادي ، وله كتب كثيرة في ذم العرب ، وكذلك أبو عبيدة معمر بن المثنى المشهور بشدة كرهه للعرب ، وقد صور ابن قتيبة كيف كان هذا الرجل يعمد إلى سرد مفاخر العرب ، ثم يتهكم بها أشد تهكم ، ويقارن بين أشرافها وملوك

الفرس ، وقد وضع عدة كتب في ثلب العرب . وهناك غير هؤلاء كثير ممن لا يتسع المقام لذكرهم .

وهذه الكتب التي وضعها الشعوبية في ذم العرب لم يصلنا شيء منها ، وإنما وصلتنا نتف من أقوالهم وآرائهم في الكتب الكبرى .

ولم يكتف الموالي بتأليف هذه الكتب ، فكانوا يضعون القصص في التشنيع على العرب ، ويفسدون الشعر بإضافة النص إلى غير قائله ، فيذيع بين الناس ، كما كان يفعل حماد الراوية وخلف الأحمر .

وهكذا نرى أن العرب قد واجهوا حرباً شعواء زعزعت من مكانتهم ، فشغلوا عن التعصب القبلي الذي تأججت ناره في زمن بني أمية ، وهبوا جميعاً يدرؤن عن أنفسهم هذه الحرب العنيفة ، ولكنهم غلبوا على أمرهم ، وبدأوا يحيون في المدن العراقية حياة اجتماعية تشبه حياة الفرس ، ونشأ بينهم لون آخر من التعصب هو التعصب الإقليمي . أعني أن عرب العراق يتعصبون للعراق ، وعرب الحجاز يتعصبون للحجاز ... وهكذا : واشتطوا في هذا التعصب البيئي ، فتميم البصرة تفخر على تميم الكوفة ... وهكذا .

ولاشك أن هذا التعصب البيئي قد أحدث نهضة علمية خصبة في جميع العلوم . فمدرسة البصرة في النحو تناهض مدرسة الكوفة ، ولكل منهما أنصار . ولما ظهرت مدرسة بغداد ناهضت المدرستين الأوليين . وكان الفقيه العراقي ينازع الفقيه الحجازي ، ونشأ عن ذلك مذهب الرأي ومذهب الحديث .

وقد أورثتنا هذه العصبية البيئية كثيراً من الأخبار التي وضعت في مزايا البلدان وعيوبها ، وفي طباع سكانها وأخلاقهم . ونقرأ الكثير من ذلك في كتاب « عيون الأخبار » .

وينبغي أن أذكر أن بعض علماء الموالي ممن شرح الله صدورهم للإسلام قد أنكروا من بني جنسهم هذا التحامل البغيض ، فهبوا يردون عليهم بكل ما أوتوا من قوة ، وعلى رأس هؤلاء ابن قتيبة .

ونستطيع أن نجمل مظاهر نفوذ الفرس فيما يلي :

١ – مُلِئَتْ قصور الخلفاء بالموالي يستخدمون في أعمالي شتى .

٢ – أصبحت المناصب الكبيرة مقصورة على الفرس تقريباً ، وأهمها الوزارة .

٣ – تغلغلت النظم والعادات والتقاليد الفارسية في الحياة العباسية من جميع نواحيها ، ويقول أستاذنا الدكتور طه حسين : « لست أنكر أن الفرس قد أثروا في الحياة العربية تأثيراً شديداً ، ولكنه في كثير من الأحيان تأثيراً سيىء جداً . وحسبنا أن الفرس هم الذين أدخلوا على العرب **سياسة الحكم المطلق** ، وجعلوا قصور الخلفاء في بغداد أشبه بقصور الأكاسرة في المدائن . فقد تعلموا من الفرس طرائقهم في الأكل والشرب واللبس وتأثيث القصور واللهو والعبث » .

ولعل أظهر أثر للفرس في نظام الحكم العباسي « **الوزارة** » ، وبجانب الوزارة موظف آخر اسمه « **السياف** » . وذلك مظهر من مظاهر الحكومات الفارسية القديمة ، ولم يكن معروفاً في الدولة الأموية . ولقد لعب المنجمون دوراً كبيراً في البلاط العباسي ، وكان رأيهم هو الأعلى فى شئون الدولة حتى فى الحملات العسكرية . ولهذا – من غير شك – أثر من آثار الفرس . وقد نقل العباسيون كذلك عن الفرس **نظام البريد** . يضاف إلى ذلك أن الثقافة الفارسية انتشرت أعظم انتشار كما بينا .

وبعد ، فقد قدمت صورة موجزة للعصر الذي سبق عصر ابن قتيبة ، وهو العصر العباسي الأول . وهذا أمر ما منه بد ، فالمؤرخون يجعلون هذا العصر ينتهي بنهاية حكم الواثق عام ٢٣٢هـ . وابن قتيبة ولد سنة ٢١٣هـ ، أي أنه سلخ من عمره في هذا العصر تسعة عشر عاماً كان قد بلغ أشده فيها ، وقضى منها شطراً في الدرس والتحصيل .

ولاشك في أن دراستنا لهذه الفترة من جميع نواحيها تعيننا على فهم الظواهر السياسية والاجتماعية والعقلية التي برزت في القرن الثالث الهجري ، لأن كل

عصر يسلم إلى العصر الذي يليه ويعتبر أساساً له . وفي الوقت نفسه ندرك في غير عسر العلل التي جعلت ابن قتيبة يتجه في إنتاجه اتجاهاً خاصاً في الدين والعلم والأدب . ولا أجد قولاً جامعاً في وصف هذا العصر من نواحيه المختلفة خيراً من هذه العبارة التي قدم بها الكاتب الإنجليزي « تشارلز ديكنز Charles Dickens » قصة المدينتين « عن الثورة الفرنسية ، يقول فيها : » كان ذاك العصر خير العصور ، وكان كذلك شر العصور . كان عصر الحكمة ، وكان عصر الحماقة . كان زمن اليقين ، وكان زمن الشك . كان زمن الضياء ، وكان زمن الظلماء . كان ربيع الأمل ، وكان شتاء اليأس . وكان في الغاية القصوى إما من الصلاح ، وإما من الفساد » .

تلك العبارة في الواقع تصور لنا تصويراً صادقاً القرن الثالث الهجري ، ويخيل إلينا أنها تصف عصرين مختلفين ، لا عصراً واحداً .

كانت الدولة العباسية مشرق العلوم والمعارف ، وكانت دولة العلم والتدوين والترجمة وظهر فيها فطاحل العلماء الذين نبغوا في كل فن .

وقد تركزت العلوم في القرن الثالث الهجري . وتمثلت المعارف التي ترجمت ، واتجه العلماء إلى ناحية التخصص والاتقان بسبب اتساع آفاق العلم ، فظهر المحدثون واللغويون والمشتغلون بالنحو والصرف ، والمتخصصون في رواية الأخبار ومهما يكن من شيء فلا جدال في أن القرن الثالث الهجري كان من أزهر عصور الإسلام من الناحية العلمية ، فقد تم فيه نمو علوم الثقافة الإسلامية كلها ، ففيه أتمت المذاهب الأربعة في الفقه وظهرت آثار أقطاب الحديث ، وما من علم قديم أو حديث إلا له أعلام نابغون في هذا القرن خاصة علوم اللغة والأدب والنحو والرواية ومن الأعلام المشهورين في هذا القرن ابن السكيت وابن الأعرابي والجاحظ وأبو عثمان المازني وثعلب والمبرد والزجاج وابن الأنباري وابن دريد وابن الأخفش وأبو حاتم السجستاني وابن راهوية وأبو بكر الصولي وغيرهم وغيرهم ممن لهم درجات عالية في هذه العلوم .

ومن مؤرخي هذا القرن من العرب وجغرافييهم **البلاذري والبلخي**

واليعقوبي والطبري وابن البطريق ومن الفلاسفة الكندي والفارابي ومن الأطباء الرازي وابن ماسويه وممن برزوا في الرياضيات الخوارزمي واضع الجبر ولم يكن الأمر مقصوراً على نبوغ هؤلاء الأعلام ، بل كانت الثقافة الموسوعية قسمة شائعة بين الناس جميعاً ، يشارك فيها خاصة الناس وعامتهم وكلهم يحضرون مجامعها ومناظراتها وقد شاع ذلك بينهم شيوعاً كبيراً .

وإذا كان لنا أن نرد الفضل إلى ذويه في مجال الكتاب والكتابة العربية فى العصر العباسي وجب علينا أن نذكر أن ابن قتيبة (٢١٣-٢٧٦هـ) لأنه أول من ألف في الموسوعات العربية ومنها كتاب « أدب الكاتب » ، ثم اتخذ من جاءوا بعده هذا الأساس وشادوا عليه موسوعاتهم مثل أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (٢٥٥-٣٣٦هـ) الذي ألف كتابه (أدب الكتاب) فغمز فيه ابن قتيبة بالتقصير في كتابه أدب الكاتب وتوسع ابن الصولي في مسائل لم يتعرض لها سابقه ، كحسن الخط والدواة والقلم وترتيب الكتاب والقراطيس والدعاء في الكتاب والمكاتبات وغير ذلك من المسائل الكثيرة التي أغفلها ابن قتيبة .

ومن بعدهم جاء القلقشندي (٧٥٦-٨٢١هـ) ليصل إلى الذروة السامقة في موسوعته المشهورة « صبح الأعشى في صناعة الانشا » إلى المستوى العلمي المشهود له به في هذا المجال .

كتابة المخطوطات العربية

المقصود بالمخطوط العربي هو الكتاب المخطوط بخط عربي سواء كان في شكل لفائف أو في شكل دفتر أو كتيب أو كراس أو صحف وأياً كان حجم هذا الكتاب . ومن ثمّ فإن الرسائل والعهود والمواثيق والصكوك والنقوش تخرج عن حدود هذا الكتاب المخطوط .

وللمخطوطات العربية أهمية خاصة في التاريخ الفكري والثقافي العربي ، لأنه سجل للنشاط الفكري العربي طوال قرون عديدة تمثل أزهى فترات الحضارة

العربية الإسلامية وهي الفترة التي كان فيها العرب يحملون لواء الحضارة الإنسانية ، وكانت اللغة العربية هي لغة العلم دولياً ، فمن المؤكد أن هذه المخطوطات تحمل بين طياتها مادة علمية خصبة قيمة ، كانت ومازالت محلاً للدرس والبحث من جانب مجموعة من الباحثين والعلماء المشتغلين في جميع قطاعات العلوم الاجتماعية والإنسانية منها والعلوم البحتة والتطبيقية .

إن المخطوط العربي كتاب الحضارة الإسلامية والعصور الوسطى ، والكتب لا توجد في أمة من الأمم إلا إذا تحققت لها عناصر ثلاث مواد يكتب عليها ، وأدوات يكتب بها ، وأناس يعرفون الكتابة والنسخ ، وتراث فكري يحرض الناس على تدوينه وتداوله ، ولهذا فإن المقدمة الطبيعية لدراسة نشأة المخطوط العربي ، وتطوره هي الحديث عن أدوات الكتابة وموادها عند العرب ، ما هي ، ومتى وجدت ؟ وكيف تطورت ؟ وللإجابة على هذه التساؤلات نذهب إلى أن العرب كانوا يكتبون على :

(أ) **الرق والأديم** : والرق هو أجزاء تربع من معدة الحيوانات المجترة كالإبل والماعز والخراف . أما الأديم فهو الجلد المدبوغ ويميل إلى الاحمرار ، وكانت أفضل أنواع الرق هي جلود العجول الضأن الصغيرة ، حيث يغسل ثم يدفن في حجر الطباشير للتخلص من شحومه ، وبعد ذلك يبسط على إطار ويترك يجف ، ثم تحلق الشعيرات ويصقل الجلد للحصول على سطح بالغ الملامسة يصلح تماماً لأغراض الكتابة وقد استخدم في أماكن عديدة من العالم القديم ، لقد استخدمه الفراعنة والفرس والبابليون ، ولم تكن صناعة الرق اختراعاً لدولة معينة مثل البردى ، ولكنه كان شائعاً في معظم حضارات العالم القديم .

(ب) **الأكتاف والأضلاع** : ونعني بها عظام أكتاف الإبل والأغنام والأجزاء العريضة من العظام التي يمكن الكتابة عليها وذلك بعد تنظيفها من الشحوم والدهون بفركها في الرمال .

(ج) **اللخـــاف** : وهي قطع الحجارة البيضاء رقيقة السمك والتي تتصف بالنعومة والاستواء لأحد سطحيها حيث يمكن استخدامها في الكتابة .

(د) **الكرانيف والعسب** : والكرانيف هي الجزء العريض الغليظ لبداية نمو جريد السعف خاصة في الجزء العلوي من النخل وهي في الغالب ناعمة الملمس وعريضة تصلح للكتابة عليها ، ولعلها كانت من أكثر المواد شيوعاً واستعمالاً لتوفرها ورخصها وسهولة الحصول عليها في صحراء العرب .

(هـ) **الحرير الأبيض أو المهارق** : وهي صحف بيضاء من القماش كانت تجلب من الشرق الأقصى مع القوافل التجارية ولذا فإنها كانت غالية الثمن ولا يكتب عليها إلا كل أمر عظيم خاصة العهود والمواثيق . وهي صناعة صينية من الحرير الطبيعي الذي يغمس في الأصماغ أو الورنيشات لكي يكسبه درجة من الصقل واللمعان ونعومة الملمس . فتسهل عليه الكتابة .

(و) **قماش القباطي** : وهو نوع من القماش الكتاني صنعته مصر وصدرته إلى كثير من بلدان العالم .

هذه هي المواد التي استعملت في العصر الجاهلي ، رغم تأكيد البعض شيوع الأمية في شبه الجزيرة وأن العرب لم يكونوا أهل كتابة وقراءة .

إلا أن نفي معرفة العرب للكتابة قبل الإسلام إلى حد الندرة إخلال بالمنهج العقلي السديد ، ورد للروايات والشواهد التي تؤكد أنه كان للكتابة العربية شأن قبل الإسلام سواء في قلب الجزيرة العربية أم في أطرافها ، فلم تعد معرفة عرب الجاهلية للكتابة موطن شك ، فإن كثرة منهم في الحاضرة ، وقلة في البادية كانت تقرأ وتكتب ، وجاء في القرآن الكريم ما يفيد معرفة عرب الجاهلية قبيل الإسلام القراءة والكتابة ، فقد تكررت في كثير من الآيات مادة « كتب » وما في معناها وما اشتق منها في القرآن أكثر من ثلثمائة مرة ، ومادة « قرأ » وما اشتق منها نحواً من ثمانين مرة .

وردت كذلك مادة خط وأسماء وأدوات الكتابة : القلم والصحف والقرطاس والرق ، ولا تعقل مخاطبة القرآن الكريم قوماً بهذه الآيات لو لم

يكونوا على علم وبصيرة بالقراءة والكتابة ، والقرآن الكريم أصدق وثيقة تحدثنا عن حياة العرب في تلك الفترة .

ومع كل ذلك فإن الكتابة العربية كانت تنتظر فرصة أخرى أعظم من كل الفرص ، ألا وهي ظهور الدين الإسلامي الحنيف المعبر عن حضارة جديدة يقودها القرآن الكريم إلى أن يشاء الله .

الكتب فى عصر النهضة

فإذا انتقلنا مع تاريخ الكتاب إلى عصر النهضة الأوربية ، فإننا نجد أنه عندما اخترع جوتنبرج الطباعة (١٤٣٦ م) كان النسخ هو السائد فى انتاج الكتب . وظل بعد المطبعة لفترة طويلة ، ولكن القليل من انتاج الكتب كان يطبع بطريقة الطباعة الخشبية التى تكاد تشبه (الكليشهات) فى عصرنا هذا ، ويحدثنا (أريك دى جروليبه) بأنه فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر الميلادى طبعت على الخشب تقاويم ، وكتب مزخرفة لتعليم الأبجدية ، وكتب صغيرة تتألف من عشرين إلى ثلاثين صفحة . وهى تشمل كتباً فى الإرشاد الدينى أو كتباً مدرسية أو كتباً فى الطوالع . وكانت الصور عنصراً هاماً فى هذه الكتب . ومطبوعات « جوتنبرج » الأولى مطبوعات صغيرة شبيهة بالتى كانت تطبع بالألواح الخشبية ، وهى عبارة عن نشر من إثنتى عشر صحيفة موجهة ضد الأتراك . وقصيدة باللغة الألمانية للكشف عن الطابع ، وتقويم سنة ١٤٥٧ ، ولوحة تبين مواقع الكواكب لمعرفة الطالع ترجع إلى عام ١٤٥٠ م . واتجه الطابعون أو الناشرون الأوربيون فى أعقاب اختراع الطباعة إلى طباعة ونشر التراث اليوناني القديم ، وفى أواخر القرن السادس عشر أصاب خريطة صناعة الكتاب فى أوروبا تغيراً كبيراً ، فقد ضعفت التيارات التجارية التى كانت سبباً فى اثراء البندقية ، واختفى الأمراء والبابوات المترفون حماة الفنون والآداب واضمحل الكتاب الايطالى ، وكانت الاضطرابات السياسية فى ألمانيا سبباً فى تأخر الكتاب الألمانى . وكانت الحروب الدينية فى فرنسا سبباً فى تعويق حركة نشر الكتب . وكانت حركة نشر الكتب فى أوروبا فى القرن

السابع عشر تحاول تخفيف حدة المنافسة ، وتنشيط السوق كلما ألم بها الكساد ، وتقاوم الرقابة الحكومية القاسية على المطابع . ثم جاء القرن الثامن عشر فكان عصر الكتاب الذهبى المطبوع فى فرنسا . وكانت باريس فى تلك الآونة المثال الذى يحتذى فى أوروبا كلها فى هذا الميدان ، فقد سارت على نهجها « ليبزج » ومدريد « وبطرسبرج » وكان أثرها ملموساً حتى فى أمريكا . وكان القرن الثامن عشر كما هو المعروف فى تاريخ أوروبا الحديث قرن الثورة الصناعية . ولقد صاحب هذه الثورة تقدم ثقافى واسع النطاق فأصبح الكتاب يضم دوائر المعارف ، والكتب ذات الأجزاء الضخمة المتعددة . والكتاب المطبوع بالألوان والذى يحوى الصور الفنية والخرائط والرسوم ، ومع الثورة الصناعية ونشأة الطبقة العامة المتعلمة بدأ عصر الكتاب الشعبى الساذج فى القرن السابع عشر الذى كان يطبع طباعة رديئة ، ويحلى بصور تافهة ، ويحوى مضامين مثل التقاويم وتفسير الأحلام والقصص الخرافية . أصبح الكتاب الشعبى فى القرن الثامن عشر أجود فى طباعته ، ويحوى قصصاً أكثر تطوراً وتقدماً مما كان عليه كتاب القرن السابع عشر . كما بدأت كتب الأطفال فى القرن الثامن عشر أيضاً ، ثم كان نجاح الثورة الفرنسية عام ١٧٨٠ ، وتكسيرها للقيود التى تعوق انطلاق الانتاج الرأسمالى . وانتشار ذلك فى أوروبا بأسرها ، كان ذلك كله خطوة باهرة فى انتاج الكتاب وانتشاره .

المؤلف المعاصر وزاده الثقافى :

المؤلف المعاصر هو الكاتب للمادة التى يمكن أن تطبع سواء كانت هذه المادة التأليفية للخاصة أم للعامة . ومن أهم مميزات المؤلف المعاصر الثقافة الموسوعية فى مجال التخصص للكتابة . فهناك مثلاً المؤلف فى المجال الإعلامى للكلمة المذاعة أو الكلمة المرئية وهناك المؤلف للكتاب للقارىء العام القصصى والاخبارى والروائى .

وهناك المؤلف وصاحب التخصص الدقيق فى مجالات العلوم والآداب

والفنون والتكنولوجيا المعاصرة ويمثل الفئة الأخيرة أساتذة الجامعات والمراكز العلمية المتخصصة الذين يكتبون فى العلوم المختلفة سواء الأكاديمية والتطبيقية أو فى العلوم الانسانية .

عادة ما يقوم كل مؤلف بممارسة البحث والتأليف على أن طبيعة ذلك البحث ودرجة تعمقه عادة ما تختلف اختلافا كبيرا ، تبعا لموضوع الكتابة والتأليف وما إذا كان موجها لجمهور متخصص أو لجمهور عام . وأيا كان مجال التأليف فان على المؤلف أن يكون على علم بأضعاف ما يكتبه فعلا حتى يخرج عمله فى صورة مقنعة .

ومن الخطورة بمكان على أى مؤلف فى أى مجال الاعتماد على مصدر واحد فقط للحصول على معلومة معينة مهما بدا هناك من دواعى الثقة فى هذا المصدر . فغالبا ما تقع الأخطاء حتى فى أكثر الكتب مدعاة للثقة . وقد لا تكون هذه الأخطاء مسئولية المؤلف الأصلى على الاطلاق ، وانما يمكن أن تأتى نتيجة النقل عن ، أو نتيجة لخطأ تقع فيه المطبعة فى مرحلة لاحقة عند إعادة تصويب بعض الأخطاء . والمؤسف فى هذا الأمر أن مثل هذه الأخطاء بمجرد وقوعها فانها عادة ما تنتقل بحسن نية إذا ما أعتمد مؤلف آخر على الكتاب الأصلى ، ويمكن لكتاب هذا المؤلف أن يصبح مصدرا لغيره حتى بعد صدور طبعة جديدة مصححة من الكتاب الأصلى . وهناك الأخطاء التى يمكن أن تقع نتيجة الاختلاف فى هجاء أسماء الاعلام أو فى اقتباس أحد الأرقام وهذه من الأخطاء التى قد لا يكتشفها القارىء بالضرورة .

وبالاضافة إلى هذه الأخطاء بكل أنواعها هناك ما يمكن تسميته بتضارب معلومات المصادر ، وهو من أخطر ما يصادفه المؤلف الباحث التاريخى من مشكلات ، حيث أنه لابد وأن يصادف حتما فى مرحلة معينة من مراحل بحثه أكثر من تاريخ واحد وأكثر من تفسير واحد لحادثة تاريخية معينة . فكيف يمكنه أن يحدد المصادر التى يمكن أن يوثق بها ؟ ويتعين عليه فى هذه الحالة — أن أمكن — الرجوع إلى المصادر الأصلية المعاصرة للحادثة . وإذا لم يكن ذلك ممكناً

فانه أما إن يقيم الحجج والأسانيد التى يسوقها مختلف المؤرخين ليحدد أيهم أدعى للتصديق ، وإما أن يورد تقريرا عن الآراء المتضاربة ويحدد الأسباب التى تدعوه لتفضيل إحداها عن الأخرى .

ولاشك أن وقت المؤلف من أثمن ما يملك . ومن ثم فانه يتعين عليه أن يعرف أين وكيف يحصل على ما يحتاج إليه من معلومات فى أسرع وقت وبأكفأ الوسائل وأيسرها . وكما يرى المؤرخون فإن المعرفة ضربان ، الضرب الأول أن نكون على دراية بموضوع معين ، والضرب الثانى أن نعرف سبيل الوصول إلى المعلومات المتصلة بهذا الموضوع . وفى الوقت الذى يتعين فيه على المتخصص أن يكون محيطا بكل جوانب تخصصه ، فإن إحاطة المؤلف بوسائل الوصول إلى ما يحتاج إلى من معلومات أمر غاية فى الأهمية . حتى وإن كان من الممكن بشريا اختزان كميات هائلة من المعلومات فى موضوعات متنوعة فى ذاكرة شخص ما طول الوقت أو أن يكون موسوعة متحركة ، فان معظم المؤلفين يتفقون على أن الالمام الواعى بالمصادر المتاحة أمر هام لابد وأن يتحقق ، وإذا أعوزهم ذلك إلى وجود فئة بحث متخصصة وثقة يمكن الاعتماد على خدماتها من أخصائى المعلومات فى المكتبات مما يتيح للمؤلفين فرصة تكريس جانب كبير من وقتهم للتركيز فى النشاط الابداعى .

وفى حياته المؤلف العملية يصادف العديد من المهام المتنوعة : ويمكن لمثل هذه المهام أن تتراوح ما بين مجرد مراجعة بعض الحقائق البسيطة كالتواريخ والاقتباسات والاحصاءات والمفردات اللغوية ، ومحاولة تتبع أحد الموضوعات المعاصرة لاحدى الأحداث التاريخية ، أو محاولة التعرف الوثيق على الجو العام الذى تدور فيه أحداث كتابية لموضوع بعينه . من أجل الوصول إلى الحقيقة .

وبالنسبة للبحث عن الحقيقة فان المؤلف عادة ما يكون على دراية على وجه التحديد بما هو بصدد البحث عنه وما يتوقع العثور عليه فعلا ، وعلى ذلك فانه إذا حدث أن كان يعرف المصدر الذى يمكن أن يجد فيه المعلومات فانه لا يصادف صعوبة تذكر ، وكلما تمرس المؤلف فى البحث كلما ازداد خبرة

بمصادره . وعادة ما يبدأ المؤلف فى أى بحث بالرجوع إلى أحد المصادر الموثوق بها ، حيث يقوده هذا المرجع إلى غيره الذى يقوده بدوره إلى ثالث ، وهكذا إلى أن يقتنع بأنه قد حصل على كل ما يحتاج إلى معرفته . والصبر والأناة والمثابرة من الخصائص التى ينبغى أن يتحلى بها المؤلف المدقق .

ومن المشكلات الأساسية التى يواجهها المؤلف فى بحثه عن الحقيقة أن هذه الحقيقة كالأرقام والاحصاءات غالباً ما تتقادم بمجرد نشرها . وينطبق ذلك أيضاً على كل ما يكتب عن المجتمع المعاصر حيث العالم فى تغيره المستمر ينمو ويتغير بسرعة هائلة يوما بعد يوم . وللتغلب على هذه المشكلة يمكن للمؤلف أن يحرص جهد طاقته فى دراسته وتحليله على أحدث ما نشر من معلومات أو أحدث ما يتوافر له من بيانات من المصادر الموثوق بها على ألا تنقطع صلته بالمصادر التى حصل منها على هذه المعلومات والبيانات ليتسنى له رصد ما قد يتوافر من بيانات جديدة . وإذا كانت هذه البيانات الجديدة لا تغير فيما انتهى إليه من استنتاجات فانه يمكن أن يكتفى بمجرد الاشارة إليها ، أما إذا كان من شأنها تغيير الأساس الذى بنيت عليه تحليلاته واستنتاجاته فانه يتعين عليه دراسة الموقف من جديد على ضوء ما أستجد من بيانات وهذا هو مجال التأليف العلمى الأكاديمى والتطبيقى فى الكيمياء والفيزياء والفلك والرياضيات والكمبيوتر والوراثة والأمراض وما إلى ذلك من فروع العلم المختلفة التى ترتبط بحياة الانسان وتقدمه .

وهناك مشكلة أخرى يصادفها المؤلف فى تعامله مع الحقائق والأرقام ، وهى اختلاف الأسس التى يتم عليها بناء تحليل البيانات من مجال لآخر ومن هيئة علمية لأخرى . وعلى ذلك فان المقارنة غير الواعية يمكن أن تكون فى غاية الخطورة فى أسوأ الحالات ومضللة فى أحسنها . وكما يحدث أيضاً فى غالب الأحيان أن يكون من المستحيل على المؤلف أن يحصل على التحليل الدقيق الذى يبحث عنه . وبدون التسلح بالمعرفة الواعية فإنه يفضل عدم الخوض فى الاحصاءات ، وحيثما يجد المؤلف أن ما حصل عليه من بيانات لا يتفق تماما وسياق معالجته لموضوعه فإن الحل الوحيد أن يقتبس هذه البيانات وأن يضيف

حاشية توضيحية من عنده . يتمثل ذلك فى مجال التأليف فى العلوم الاحصائية والاجتماعية والادارية والسلوكيات وما إلى ذلك من فروع العلم التى تعتمد على قراءة وفهم المعنى من وراء الأرقام والرسوم البيانية والاحصائيات .

وبالإضافة إلى المصادر الاحصائية ، ومعظمها إن لم يكن كلها من المطبوعات الرسمية ، هناك الكثير من كتب الحقائق المتخصصة فى معظم المجالات ، فضلا عن الكتب السنوية الرسمية والكتب السنوية الملحقة بدوائر المعارف الكبرى . كل هذه من المصادر التى يمكن الحصول منها على الحقيقة . يضاف إليها أيضا أى عمل مرجعى متميز فى طابعه وشمول تغطيته وتتابع صدوره .

والتأليف التاريخى بطبيعته أوسع مجالا من التأليف عن الحقائق سواء من حيث المواد المتاحة أو من حيث طبيعة الافادة من هذه المواد . وكما أنه لا يمكن لكاتبين يتناولان نفس الحبكة الروائية ونفس مجموعة الشخصيات أن يكتبا قصتين متطابقتين ، فانه لا يمكن لمؤلفين تاريخيين يتعاملان مع نفس المصادر الوثائقية أن يستفيدا من هذه المصادر بنفس الطريقة . فالحقائق الأساسية أو الهيكل العام واحد ، إلا أنه فى الوقت الذى يحاول فيه أحد المؤلفين استكشاف أحد الاتجاهات بشكل أكثر تفصيلا من الآخر ، وربما اقتبس بكثافة من احدى الوثائق التى لم تحظ من جانب غيره إلا بمجرد إشارة عابرة ، فان المؤلف الأخر قد يبدى تحيزا لجانب مختلف من البحث على حساب الجوانب الأخرى . ويتوقف ذلك على زاوية تناول كل منهما للموضوع ، والتى تتوقف بدورها على اتجاهات المؤلف وطبيعة الوسط الذى يخاطبه . إن الصفحة المؤلفة باعتبارها وسيلة من وسائل الاتصال البشرى للمساس والتأثير فى الفكر والسلوك ، هى صفحة خالية من الصوت البشرى ، وبخلوها منه تفقد العنصر الذى تستمد منه وسائل السينما والراديو والتليفزيون دفئاً وتأثيراً . والقارىء للصفحة المؤلفة المطبوعة لا يخضع لسرعة الصوت ، إنه يستطيع أن يسبق الكلمات أو يتوقف عن بعضها متذوقاً ، ويستطيع أن يرتد إلى الوراء ، ويستطيع أن يسقط بعضها . إلا أنها تتطلب مجهوداً للقراءة ومجهوداً للتحليل المستمر وللمشاركة فى

عمق التجربة ولاشك أن عملية التأليف هى أمانة عظيمة فى عنق كل جيل بالنسبة للأجيال التى سبقته ، وهذه الأمانة هى أن يقوم هذا الجيل بنقل ماورثه من تراث أدبى وعلمى وفنى عن تلك العصور ، وذلك بأسلوب جديد وعرض جديد للظروف المحيطة بالأمة . وبهذه الطريقة تصل هذه الأمة ما فيها بحاضرها ، وتجعل من جهود أسلافها فى شتى العصور سلسلة متصلة الحلقات يمكن أن تعطى صورة دقيقة من حضاراتها التى تميزت بها عن سائر الحضارات .

المستقبل (Receiver) وهو هنا القارىء . سواء كان ناقدا أو باحثا أو قارئا عاديا . وقارىء الكتاب بصفة عامة يمتاز بالبحث عن المضمون الذى يشبعه . فضلا عن اجادته للقراءة بطبيعة الحال . وغالبا ما يكون محباً للقراءة واسع الثقافة ، لأن الكتاب يمتاز عادة بالعمق والشمول ، والدراسة بين وسائل الأعلام المختلفة . ومن الطريف أن الثراء ليس سببا فى اقبال الناس على شراء الكتب . فقد تزهد المجتمعات المترفة فى الكتاب . وتلجأ إلى وسائل أكثر ترفيها . مثل أفلام الفيديو والكاسيت والسبب الرئيسى وراء اقبال الناس على الكتب هو إزدياد المعدلات التعليمية والارتباط النفسى بأهمية الثقافة والعلم على أساس أنها من عوامل التفرقة بين البشر فى المجتمع الواحد ، فكلما كان الانسان مثقفاً وقارئاً للكتب كلما كانت له مكانته بين أقرانه ،وكلها تميزه كإنسان فى مجتمعه .

إلا أن ازدياد المعدل التعليمى قد لا يكون مرتبطا بالحصول على شهادات دراسية ، فكثيرا ما نجد محبى قراءة الكتب والاقبال عليها من هؤلاء الحاصلين على مؤهلات متوسطة أو ما دون ، وارتباطهم بالقراءة حباً فى رفع مستواه الثقافى من أجل حياة المجتمعات ، وليس من أجل الحصول على شهادات دراسية أعلى ، وإنما الارتباط يرجع إلى الاحساس الجمعى بأن إزدياد معدل القراءة والثقافة من أهم عناصر التحضر والتمدن والارتقاء .

وقد تكون هناك سمات خاصة للثقافة الوطنية فى مجتمع من المجتمعات تجعل للكتاب أو لنوع من الكتب وضعا أكثر انتشارا . فالكتاب الاسلامى يلقى

رواجا نسبيا فى الاقطار الاسلامية أكثر من غيره ، ومن الشائع بين كثير من المثقفين العرب أن العراقيين من أكثر العرب قراءة للشعر لأنهم أكثر الشعوب العربية كتابة للشعر ، وأن المصريين من أكثر العرب قراءة للقصة الطويلة . وإذا تأملنا تحليلا أمريكيا لازدهار الكتاب فى أوربا عنه فى أمريكا فاننا نجد عمقا تاريخيا لهذه الظاهرة ماذا يقول التحليل الأمريكى ؟ يقول : انه مما يلفت نظر الأجانب المولعين بالملاحظة أن الأمريكيين ليسوا قراء كتب . وهناك شىء من الصدق فى تعميمهم هذا . فبينما نجد أن الأوربيين قراء كتب ، فان الأمريكيين يتميزون بقراءة الصحف والمجلات . وفى الصحف اليومية الأمريكية البالغ عددها ١٧٦١ صحيفة حوالى ١٢ صحيفة فقط تصدر ملاحق منتظمة لعرض الكتب . وقد فسر بعض مؤرخى الكتب الاختلاف بين الاتجاهات التى يتخذها الأوربيون والاتجاهات التى يتخذها الأمريكيون نحو الكتب ، بأنه اختلاف يعود إلى الأغراض التى استخدمت الطباعة من أجلها أصلا فى القارتين . فيذكر أن الطباعة فى أوربا ، قد بدأت فى مجتمعات استقرت طويلا باعتبارها وسيلة سهلة وزهيدة الثمن لنشر التراث الأدبى المتراكم من كنوز المخطوطات فى العالم القديم وعالم القرون الوسطى . أما فى أمريكا فقد أصبحت الطباعة قوة هامة للدعاية والإعلان عن التعمير والتوسع فى بناء المدن المستعمرات . ويضيف « لقد غزت المطبعة الأوربية الفكر أساسا أما المطبعة الأمريكية فقد غزت ميادين العمل . وفى أوربا كان معنى الطباعة منذ البداية هو الكتب القديمة وكتب الفلسفة والعلم ، أما فى أمريكا فقد كان معنى الطباعة منذ البداية تقريبا هو الصحف والاعلانات وإدارة الأعمال .

الرسالة : (Message) وهى هنا ما يتعلق بمضمون الكتاب . ان الأسباب والاعتبارات والسمات التى شكلت لنا حيثيات الحكم على الكتاب بأنه وسيلة اعلام ، تنطبق كلها على عنصر الرسالة من عناصر العملية الاعلامية فى مجال الكتب . وتحديد المفكرين لمفهوم الرسالة بأنها جملة المعلومات والأفكار والمعانى والتصورات التى يريد المصدر نقلها إلى المستقبل . هذا التحديد يتمثل تمثيلا واضحا فى الكتاب باعتباره وسيلة فكر واعلام بما يحتويه من ثقافة وعلم وفن .

وما تتعرض له الرسائل الاعلامية ممن يسمون بحراس البوابات ، يتعرض له الكتاب ، فى بعض الأحيان ، ولكن بصورة أقل كثيرا مما تتعرض له الرسائل الاعلامية فى الصحف والراديو والتليفزيون . وذلك لعدة أسباب ، **أولها** :

سيطرة المؤلف على كتابه واعتداده بذلك **وثانيها** : قصر خطوط شبكات الانتقال بين مؤلف الكتاب وقارىء الكتاب عنها فى الانتقال بين المحرر وبين المستمع أو المشاهد أو قارىء الجريدة أو المجلة . **وثالثها** : لأن الاعتبارات الخارجية عن المؤلف وفكرته التى يضعها المؤلف فى حسابه وهو يؤلف كتابا أقل مثلا من الاعتبارات الخارجية التى يضعها كاتب « السيناريو » فى حسابه وهو يكتب للسينما أو التليفزيون .

التأثير : (Effects) ورد الفعل **(Feed Back)** ان هذين العنصرين من عناصر العملية الاعلامية يكاد فعلهما أن يصل إلى حد الاندماج بالنسبة للكتاب . فالتأثير ورد الفعل لدى ناقدى الكتب أمرا واحدا ، وهما يقتربان من الأمر الواحد لدى القارىء أيضا . والتأثير يتميز بالاستمرار بالنسبة للكتاب أكثر من غيره من وسائل الفكر الاعلامى الأخرى .

ويرى المؤرخون أن الكتب وسيلة أعلام ذات أثر بالغ فى حياتنا جميعا . أنها دليلنا على الماضى ، وهى تساعدنا لفهم أنفسنا ، وفهم العالم الذى نعيش فيه ، وهى تمدنا بالعون لنرسم خطانا للمستقبل بطريقة أفضل . والكتب هى أداة تعليمنا الرئيسية . والكتب وسيلة امتاع الناس فى كافة أعمارهم .

وحول أثر الكتاب يقول أستاذنا أنيس منصور « أعلم مقدما أن من الممكن أن يقرأ ألف شخص كتابا واحدا ، ويكون هناك ألف أثر مختلف . ولكن شخصا واحدا يقرأ هذا الكتاب ويخرج منه على الناس بمعنى لم يخطر لأحد على بال .. يرجع ذلك إلى فردية وذاتية الانسان التى يتميز بها كإنسان ، أرقى الكائنات وأكملها بالمعرفة ، إن الجامعات تدرس التخصصات المختلفة . ويتخرج آلاف من المهندسين والأطباء والعلميين والزراعيين ، ومع ذلك فهناك فلتات خاصة من هؤلاء يتميزون بما لا يتميز به غيرهم وينجحون ويقودون

مجتمعاتهم برؤية وشمولية تختلف عن أقرانهم ، يرجع هذا إلى كونهم تأثروا بما درسوه فى حياتهم أكثر من غيرهم .

مفهوم الكتاب ومواصفاته :

لمعرفة الكتاب لابد أن نبدأ بتعريفه . في قواميس اللغة ومعاجمها نجد المعنى اللغوي للكتاب . وفي دوائر المعارف قد نصل إلى المصطلح المعاصر لتعريف الكتاب . ففي لسان العرب يزودنا ابن منظور بمرادفات الكتاب ، فهو الصحيفة والدواة وهو الفرض والحكم والقدر وهو اسم لما كتب مجموعاً . ولا ننسى أن الكتاب في بدايته عند العرب لم يكن يعنى فيه بالاختيار ، وإنما مسألة من هنا ومسألة من هناك ، واستطراد لا ضابط له ، ومسائل متفرقة في الكتاب ، ومسائل مجتمعة لا تنضوي تحت موضوع واحد ، وذلك ملحوظ في كتب « البيان والتبيين ، والحيوان ، والكامل » فإذا تناولنا كتاب « الحيوان » أحسسنا أنه يمثل فوضى التأليف ، فهو حيناً يتكلم عن الكلب والديك ، وحيناً يعرض للمفاضلة بينهما ، ثم يخرج عن ذلك كله إلى موضوعات لا تخطر على بال ، فنرى المؤلف في أثناء ذلك يسوق كلاماً في الإمامة والشيعة ، وفي الشعر وأثره في القبيلة ، واعتزاز العرب بالشاعر ، وهكذا الحال في البيان والتبيين والكامل .

ولكن الأمر يختلف في « عيون الأخبار » ففيه يشعر المرء بأنه بداية لكتب المختارات الأدبية التي خطت خطوات واسعة نحو الكمال عند ابن قتيبة ، وذلك أنه رتب الموضوعات وبوّبها وجمع ما تشابه منها تحت عنوان واحد مثل : كتاب السلطان ، وكتاب الحرب ، وكتاب الطعام ، وكتاب النساء ... الخ . فإذا تحدث عن السلطان مثلاً يتكلم عن صحبته وآدابها ، واتقاء شره ، واختيار عماله ، وكتّابه وبطانته ، وغير ذلك مورداً في ثنايا ذلك المأثور من القول الحكيم والشعر الرائع والنوادر اللطيفة والفكاهة البارعة .. كل ذلك في تنسيق بديع .

أما في موسوعة (لاروس) الفرنسية فإن كلمة كتاب في الفرنسية Livre مشتقة من الكلمة اللاتينية Liber ، والكتاب مجموعة من الأوراق المطبوعة والمجمعة في مجلد (Volume) واحد أياً كان شكل التجليد . وهناك تعريف آخر بأن الكتاب مؤلف من النثر أو الشعر على شيء من التوسع والإسهاب . ويعرف الكتاب أحياناً بأنه فرع من المصنفات . والتعريف المجازي للكتاب بأنه مصدر من مصادر التعليم والثقافة ، وتعبير بسكال (Pascal) بأن الضمير أعظم كتاب في الأخلاق . أما دائرة المعارف البريطانية فترى أنه لكي نحدد تعريف الكتاب فمن الضروري أن نبحث عن السمات الثابتة في الكتاب ، لكي نصل إلى تعريف محدد له . وأبرز سمة للكتاب هي أنه يقصد به أن يكون وسيلة اتصال ولقد كان هذا القصد و الغرض من الكتاب في أشكاله المختلفة ، منذ ألواح الطين البابلية ولفائف البردى المصرية ، ثم الكتاب من الرق في العصور الوسطى ، إلى الكتاب المطبوع على الورق في عالمنا المعاصر ، ثم الميكروفيلم وغير ذلك . ويصدق هذا القصد على تنوع محتوى الكتاب ، فكتب التراث والتفسير والحديث والتراجم تتساوى مع الكتب الصغيرة والمنشورات التافهة ، يستويان في السمة الرئيسية للكتاب بأنه وسيلة اتصال . والسمة الثانية هي أن الكتاب يستخدم الكتابة الهجائية أو نظاماً آخر من الرموز المرئية مثل الصور والرسومات والأشكال لإيصال المعنى . والسمة الثالثة هي نشر الكتاب بمعنى توزيعه . وعلى ذلك فالكتاب — كما ترى دائرة المعارف البريطانية رسالة على قدر من الطول والإسهاب ، كتبت بخط اليد أو طبعت وقصد بها الانتشار والتوزيع ، وسجلت على مواد ورقية ، لكنها قابلة للاستمرار والبقاء بدرجة توفر إمكانيات الحمل والنقل بسهولة نسبية . والغرض الرئيسي من الكتاب أن يحمل رسالة ومضموناً للناس . وهو بهذا المعنى يتعدى حدود الزمان والمكان ليحفظ وينقل المعرفة .

ولقد عرفت منظمة (اليونسكو) الكتاب بأنه المطبوع غير الدوري الذي تصل عدد صفحاته إلى ٤٩ صفحة على الأقل غير الغلاف . ولكن هذا التعريف لا يعبر عن شيء وإنما هو تحديد للأغراض الإحصائية . وللتفرقة احصائياً بين الكتاب والكتيب والنشرة .

يؤخذ على هذا التعريف الأخير أنه لا يعدو كونه تعريفاً سطحياً يستهدف الشكل ولا يمس الموضوع وبالتالي يجب اجتنابه وعدم اعتماده كتعريف للكتاب . ولعله من العسير على المرء أن يضع تعريفاً جامعاً مانعاً للكتاب بدون أن يميز بين أنواع الكتب والخدمات التي يمكن أن يؤديها الكتاب الواحد في أكثر من ميدان وأكثر من وسط . وقد تعرض لهذا الموضوع كتّاب وأدباء كثيرون ، تجنب أغلبهم وضع تعريف للكتاب .

وقد يطلق الكتاب على كتاب بعينه فالقرآن كتاب الله أشهر وأعظم الكتب عند المسلمين ، ونحن نعلم من كتب الله السماوية التوراة والإنجيل والصحف التي أنزلت على إبراهيم . والكتاب في عرف النحويين يطلق على كتاب سيبويه ، وكتاب الموتى عند الفراعنة مايجمع في سطوره الطقوس اللازمة للميت ، وكانوا يضعونه في تابوت موتاهم . والكتاب الذهبي في مدينة البندقية في العصور الوسطى هو الكتاب الذي كانت تسجل فيه بحروف من الذهب أسماء العائلات النبيلة في ذلك الوقت .

وعلى ضوء هذه التعريفات المختلفة نجد أنها تؤدي إلى فكرة محورية هي أن الكتاب وسيلة أعلام . والقول بأن الكتاب وسيلة إعلام نتيجة منطقية لكافة تعريفات الكتاب ونتيجة منطقية لتاريخ الكتاب في الوقت نفسه ، ولحاضره ومستقبله .

أي الكتب وسيلة إعلام ؟

إن التساؤل الجدير بالاهتمام هو : هل كل الكتب وسيلة إعلام ؟ أم أن كتباً بعينها تعد وسيلة إعلام ؟

مادمنا قد قررنا بأن الكتاب وسيلة إعلام فإن ماينطبق على وسائل الإعلام ينطبق عليه . فالكتاب بصفة عامة وسيلة إعلام . وهذا القول يوازي القول بأن التليفزيون وسيلة إعلام ، أو أن الصحيفة وسيلة إعلام . والبرنامج العلمي الشديد التخصص في التليفزيون وإن حظى بجمهور قليل له صفته الإعلامية ، والبرامج التعليمية في التليفزيون تعادل الكتاب المدرسي – في عالم نشر الكتب –

في كثير من الوجوه . ومايقال عن التليفزيون يمكن تطبيقه على الصحف ، فالمجلات المتخصصة الشديدة التخصص لها صفتها الإعلامية أيضاً .

نخلص من ذلك إلى القول بأن الكتاب جملة أو الكتاب بصفة عامة وسيلة إعلام ، ينطبق عليه ما ينطبق على مثيله من الوسائل . وكلما كان الكتاب في الثقافة العامة وغير متخصص كلما خاطب جمهوراً واسعاً ، وكلما أوغل في التخصص كلما قل جمهوره . وقد يكون التخصص عاماً مثل كتب تربية الأطفال ، أو الشعر أو تاريخ الطباعة . وقد يكون التخصص خاصاً مثل طباعة النسيج أو طباعة الرقائق المرنة (الفلكسو) . وعلى قدر درجة التخصص يقاس جمهور الكتاب . فكتب الهندسة والطب مثلاً عندما تتناول العلم والنظريات العلمية والمعادلات تصبح كتباً علمية وحسب . ولكنها إذا تناولت الهندسة أو الطب مثلاً باعتبارها من المعارف العامة وباعتبارها زاداً ثقافياً إنسانياً ، أو باعتبار ضرورات الحياة اليومية أو الضرورات الاجتماعية فإنها تصبح كتباً في الثقافة العامة ، وهكذا .. وقد تعودنا أن نربط الحضارة بالثقافة ، باعتبارها أهم وسيلة يمكنن بها حفظ تراث الإنسانيّة ، وأن الكتاب بصورة عامة من صميم خصائص الحضارة ومخلداتها . والكتاب هو خلاصة المعرفة الإنسانية التي قام بها الإنسان في الآداب والعلوم والفنون ، وهو دعامة الثقافة والتعليم .

خصـــائص الكتـــاب :

لعل من أهم ما يبين خصائص الكتاب باعتباره وسيلة إعلام هو إجا السؤال المتعلق بهويته . ذلك السؤال : هل الكتاب صناعة أم رسالة ؟

ولطالما أثير في تاريخ الدراسات الصحفية والصناعية هذا السؤال التقليدي المعروف هل الطباعة رسالة أم صناعة ؟ ولقد كانت إجابة السؤال حتى القرن العشرين الميلادي فيها قولان مختلفان . القول الأول يرى أن الطباعة رسالة سامية يجب أن تترفع عن الربح وأن القائمين عليها هم رسل الإرشاد والتوعية للشعوب . والقول الثاني يرى أن الطباعة مجرد صناعة مثل غيرها من

الصناعات ، وأن هدفها الأول هو تحقيق الربح ، بل إنها تملك وسيلة تحقيق الربح والنفوذ معاً .

وفي القرن العشرين أصبح السؤال حول رسالة الطباعة وصناعة الكتاب ليس بالبساطة الأولى ، ولم تعد الإجابة عن السؤال فيها قولان مختلفان . بل أصبحت الإجابة تحوي القولين معاً باعتبارهما وجهين لموضوع واحد متلازمين ومتفاعلين ومتكاملين . ولأنه تبين أن الطباعة صناعة ، ولكنها ذات طبيعة خاصة . لأن الجانب المعنوي مرتبط بالجانب المادي ارتباطاً عضوياً ، فالمطبعة والورق والأحبار تعمل مع الفكر في كل يوم وفي كل عدد وهكذا الكتاب . حيث يملك ويباع ويشترى ويقايض به ، وعلى الرغم من ذلك ، فإننا لا نستطيع إدراجه في قائمة السلع بمختلف أنواعها فالثمن فيه لا ينصب على الورق والأحبار وإنما يمتد إلى ماوراء ذلك ، إلى المحتوى والمضمون إن أمكن تقييمه .

ويرى البعض أن من يقول أن الكتاب رسالة كمن يقول أن الإنسان جسد . ومن يقول أنه صناعة كمن يقول أن الإنسان روح . والصناعة الجيدة هي التي تجعل كتاباً يروج والصناعة السيئة هي التي تجعل مثيله يفشل . لأن تمومات السلعة الجيدة عندما تتوفر للكتاب من ورق جيد وطباعة أنيقة تحقق نجاح . وعندما يصبح مثيل هذا الكتاب مطبوعاً بأحرف مشوهة وحبر سيىء وتجليد رخيص لا سبيل أمامه غير الفشل والركود . ويؤكد المتخصصون على أن الكتاب سلعة كسائر السلع ، لايأخذ سبيله إلى الأسواق باعتباره رسالة وحسب ، وإنما يشق طريقه باعتباره رسالة ذات مضمون وبمقوماته وتغليفه ، وبسعره المنافس ، وتسويقه الناجح وتمويله المدروس ، وبالإعلان عنه في جميع نطاق الطلب عليه . والكتاب الثقافي العام الذي لا يتمكن من بيع نسخة لا يتمكن بطبيعة الحال من إبلاغ رسالته . فإذا لم يحدث اللقاء بين المؤلف والقراء فوق صفحات الكتاب فيالخسارة المؤلف فيما سطر من رأي ، وياالخسارة الناشر فيما دفع من مال ، وياالخسارة الطابع فيما أنجز من

ملازم ، وبالخسارة الموزع فيما بذل من جهد . كل هذا أصبح عبثاً لأن القراء لم يستفيدوا منه .

وإذا كانت الإجابة عن هوية الكتاب توضح لنا شيئاً من خصائصه ، فإن موقع الكتاب بين حلقات الإعلام أو الاتصال تظهر لنا من خصائصه جانباً ثانياً . **فأين مكانة الكتاب بين دوائر الاتصال الشخصي أو المباشر ، ثم الاتصال الجماهيري ، ثم الاتصال الحضاري ؟**

نستطيع القول بأن الكتاب يجمع بين فضائل وسيلة الاتصال الجماهيري بحكم الأعداد المطبوعة منه ، وبين فضائل الاتصال المباشر لأن القارىء لابد وأن يخلو للكتاب وأن يتهيأ للقراءة . والكتاب في دائرة الاتصال الحضاري يحظى بموقع فريد . وتقف بعض الكتب كأنها علامات بارزة في نقل التراث الحضاري من جيل إلى جيل ومن حضارة إلى أخرى . ومثال ذلك كتاب (أقوال الآباء) الفرعوني الأصل والمجهول المؤلف ، والذي فقد أصله الهيروغليفي ، وترجم من اللغة اليونانية إلى اللاتينية في القرن الخامس الميلادي ثم إلى عدد من اللغات القديمة في ظل الكنيسة ، وكتاب وصف مصر الذي وضعه علماء الحملة الفرنسية ، وكتاب الأمير لمكيافيلي ، وكتاب ألف ليلة وليلة ، وكتاب الإلياذة ، وكتاب كليلة ودمنة .

ومن أراد أن يرى الصورة الكاملة لضخامة حركة تأليف الكتاب في بداية العصر العباسي فليرجع إلى فهرست ابن النديم الذي يعتبر في حد ذاته دليلاً حياً وملموساً على كثرة المصنفات والترجمات . ولم تكن كثرة الكتب وحدها هي التي تلفت النظر في هذا العصر ، وإنما الذي يسترعى الإنتباه حقاً أن كثيراً من هذه المصنفات كان يقع في مجلدات ضخمة ، يكفي أن نشير إلى تفسير الطبري وتاريخه ، وإلى كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني ، وكتاب مروج الذهب الذي ألفه المسعودي في ثلاثين مجلداً .. وغيرها وغيرها ... وليست كثرة التأليف وضخامتها هي كل ما يبهر في هذا العصر ، فقد كان يقابلها شغف شديد بالقراءة وهو الدافع الحقيقي وراء عجلة التأليف والكتابة .

وتمثل الترجمة الجانب الأساسي في مجال الكتاب باعتباره وسيلة اتصال حضاري . ويحدثنا التاريخ عن اهتمام العرب بترجمة أهم الكتب اليونانية إلى اللغة العربية . وأن حركة الترجمة قد بدأت مع الدولة الأموية ثم بلغت شأناً كبيراً في الدولة العباسية ، وبخاصة في عصر المأمون الذي اهتم بالترجمة اهتماماً خاصاً ، وأنفق عليها بسخاء .

توسعت الثقافة الإسلامية بعد الفتوح الإسلامية لفارس وتركيا والهند والتركستان ومصر ولصقلية وكريت وكان حَمَلَة العلم آنذاك أكثرهم من العجم ، وقد بدأ التوسع الثقافي عن طريق النقل بالترجمة من علوم الأوائل كالفرس واليونان والهنود والمصريين وإن اقتصر فى أول الأمر على ترجمة مايتفق وحاجتهم مثل الرياضيات والطب ، وبعد ذلك شملت الترجمة نواحي المعرفة المختلفة ، وساعد على ذلك ، أن مراكز الثقافة في العالم القديم ، كان أغلبها قد دخل الإسلام وقد بدأت الترجمة في عهد الخليفة العباس أبو جعفر المنصور الذي يقال أنه كان أعلم من في عصره ، وبلغت الترجمة أشدها في عهد المأمون ، الذي حرص على نقل التراث اليوناني والفارسي إلى العربية ، فكان يأخذ منه مايتلاءم مع عقلية العرب ، ولكي يتم هذا النقل على أكمل وجه أنشأ في بغداد ما عُرف بدار الحكمة أو دار العلم في سنة ٢١٥هـ/٨٣٠م جمع فيها عدداً كبيراً من النساخ والمترجمين ، الذين يتقنون عدة لغات ، وألحق بها مكتبة ومن أغرب ماوصل إلينا عن هذا الخليفة أنه ترك الجهاد وتداخل مع ملوك الروم وأتحفهم بالهدايا لقاء أن يرسلوا إليه بالمخطوطات ، مما يدل على اهتمامه بنشر الثقافة والعلم . ففي عهده ترجمت كتب اليونان الكبرى مثل كتب أفلاطون وأرسطو في الفلسفة والحكمة وأبقراط وجالينوس في الطب ، وأقليدس وأرشميدس في الرياضيات والهندسة والميكانيكا وغير ذلك ، وبذلك نضج الفكر الإسلامي وتوسع بسبب ما جدّ من الثقافات الأجنبية وخاصة وأن المسلمين أجادوا التلمذة وهضموا ما ترجموه ، وقد كان الإسلام – على عكس أديان أخرى – لا يحرِّم علوم الآخرين ، ويحث على طلب العلم « تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه

جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة » ثم أن العرب هم أصحاب المثل القائل : « العلم نور » أما الأحاديث فمنها والعلماء ورثة الأنبياء ، وطلب العلم فريضة على كل مسلم .

ثم جاء الدور على أوربا في نهضتها الحديثة لتترجم كتب العرب إلى اللاتينية ، ولتترجم الكتب اليونانية من النص العربي . ومن هذا الباب الواسع كان الكتاب سفير الحضارات . لقد دخلت العلوم أوربا من أسبانيا وصقلية وإيطاليا . وذلك بإنشاء مكتب للمترجمين في طليطلة ، بدأ منذ سنة ١١٣٠م ينقل أهم كتب العرب إلى اللغة اللاتينية ، تحت رعاية رئيس الأساقفة « ريمون » وكللت أعماله في الترجمة بالنجاح ، ولم يتوان الغرب في أمر هذه الترجمة في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر من الميلاد . ولم يقتصر الغرب على ترجمة مؤلفات علماء العرب كالرازي وابن سينا وابن رشد وغيرهم إلى اللغة اللاتينية ، بل نقلت إليها أيضاً كتب علماء اليونان التي كان المسلمون قد ترجموها إلى لغتهم ، كتب جالينوس وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقليدس وأرشميدس وبطليموس ، فزاد عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللغة اللاتينية على ثلاثمائة كتاب . والحق أن القرون الوسطى لم تعرف كتب العالم اليوناني القدمي إلا من ترجمتها اللغة العربية ، وبفضل هذه الترجمة أطلعت أوربا على كتب اليونان التي ضاع أصلها اليوناني . وقد وصلت الحضارة الإسلامية إلى أووربا من عدة طرق منها : طريق الأندلس وذلك لأن العرب المسلمين استقروا في هذه البلاد حوالي ثمانية قرون بلغت فيها الحضار الإسلامية أوجها وكانت تشع من مراكز متعددة مثل قرطبة وأشبيلية وغرناط وطليطلة ولما أفل نجم العرب في الأندلس وظهرت حركة استرداد الأرض من المسلمين نجد أن الملك الفونسو العاشر الملقب بالحكيم (١٢٥٢-١٣٨٤م) يفتح مدرسة للترجمة في طليطلة لينقل علوم المسلمين إلى الأسبانية والإيطالية واللاتينية . طريق آخر لا يقل عن الأندلس في نقل حضارة الإسلام هو طريق صقلية . كان أهلها قد تذوقوا الحضارة الإسلامية ، وكان بلاطهم يعج بعلماء المسلمين ، يشجعون الترجمة لعلوم الإسلام إلى اليونانية والإيطالية ، طريق

ثالث لنقل الحضارة هو التجارة بين الشرق والغرب عن طريق مصر .

وفي عالمنا المعاصر تمثل ترجمة الكتب في أغلبها اتجاهاً ذا تدفق واحد ، من الحضارة الأوربية المعاصرة إلى العالم الثالث . وقليل من كتب العالم الثالث التي تحظى بالترجمة إلى إحدى اللغات الأوربية . لذلك كانت ضمن مقترحات مصر في مؤتمر السياسات الثقافية الذي عقد في المكسيك خلال يوليو ١٩٨٢ تحت مظلة منظمة « اليونسكو » اقتراح بإنشاء مركز عالمي للترجمة يتبع منظمة « اليونسكو » تكون مهمته تلقي ما ترشحه الهيئات الثقافية في دول العالم الثالث من أعمال فكرية وأدبية وفنية وترجمته في وقت واحد إلى اللغات الأوربية ، وطبعه ونشره وتوزيعه في كل الشعوب التي تتكلم هذه اللغات ، مع الالتزام بكل الحقوق الخاصة بالمؤلف ودار النشر الأولى ، حتى يمكن تعريف المثقف العالمي بإنتاج مثقفي دول العالم الثالث .

كذلك من الكتب التي تذكر في وسائل الاتصال الحضاري إنتاج المستشرقين ، والمعاجم المزدوجة اللغة مثل معاجم الياس أنطون الياس ، والقاموس العصري عربي - إنجليزي . وغيرها الكثير .

وإذا كانت الدوائر الإعلامية من شخصي إلى جماهيري إلى حضاري قد أسهمت في إجلاء خصائص الكتاب باعتباره وسيلة إعلام ، فإن مركزاً آخر لدوائر الإعلام من الناحية الجغرافية يظهر لنا خصائص الكتاب . **فأين يقع الكتاب في دوائر الإعلام المحلي أو الإقليمي ، ثم الوطني أو القومي ، ثم الدولي أو العالمي ؟**

إن الكتاب بصفة عامة لابد وأن يعكس الثقافة التي ينتمي إليها . إن الإطلاع على كتاب مدرسي في قواعد اللغة العربية والتعبير في الأزهر المعاصر ، أو في مركز من مراكز تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها يختلف ثقافياً عن كتاب مدرسي في قواعد اللغة الإنجليزية والتعبير في مدرسة أمريكية ، أو في مركز ثقافي أمريكي في قارات العالم . وإذا كان المثل الذي نضربه بقواعد اللغة فما بالك بالأدب مثلاً . إن الكتاب محصلة ونتاج لكل من الثقافة والبيئة التي

ينتمي إليها . ولكن ذلك لا يقف عائقاً أمام انتشار الكتاب من دائرة الإعلام المحلي أو الإقليمي إلى دائرة الإعلام الوطني أو القومي ، ثم إلى دائرة الإعلام الدولي . بل إن الطعم الخاص والمذاق الخاص للكتاب ، باعتباره انعكاساً لثقافة ينتمي إليها انعكاساً لبيئة نبت فيها وخرج منها يعد عاملاً هاماً في انتشاره دولياً ، إذا تحققت له شروط النجاح .

وتحاول الدول من جانب آخر أن تجعل من كتبها وسيلة يمكن الاعتماد عليها فى مجال الثقافة والاتصال الاعلامى الدولى . لقد أدركت الجهات المسئولة عن الحركة الثقافية والاعلام الدولى والاعلام الخارجى فى وقت مبكر أهمية الكتاب باعتباره وسيلة هامة للاعلام الدولى أو الاعلام الخارجى . لقد كان من بين أول المشروعات الاعلامية التى نظمتها وزارة الخارجية الأمريكية بالتعاون مع مؤسسات غير رسمية اصدار كتاب فى عام ١٩٤٣ حول تاريخ الولايات المتحدة . وأشرف على اصداره مجموعة من الباحثين فى جامعة (برنستون) . وتم نشره فى العالم العربى .

ولقد قامت وزارة الخارجية الأمريكية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية بتزويد العديد من المكتبات العربية العامة بمجموعات من الكتب الأمريكية . وكان ذلك فى نطاق النشاط الثقافى الاعلامى المباشر وغير المباشر ، وقد استقبلت المكتبات العربية الهبات الأمريكية من الكتب بالترحاب ، وبخاصة أنها كانت تفتقر إلى الكتب الأجنبية التى انقطعت بسبب ظروف الحرب والاقتصاد .

وفى عام ١٩٧٧ طورت وكالة المعلومات الأمريكية التى أصبح أسمها وكالة الاتصال الدولى الأمريكية USICA نشاطها وذلك باستئناف برنامج ترجمة الكتب الأمريكية للغة العربية الذى كان قد توقف فى أعقاب حرب ١٩٦٧ ، ثم بانشاء مكتبات بعضها تابع للمؤسسات التعليمية الأمريكية مثل مكتبة الجامعة الأمريكية فى القاهرة وفى الاسكندرية وفى بيروت .

ويوضح تقرير لجنة مشكلة لبحث مشكلات الاعلام العالمى فى نطاق

« اليونسكو » (١٩٧٧) أن الكتب تعتبر وسيلة اعلام جماهيرية أولى ، فبرغم تطور المنافسة بعد ظهور أشكال جديدة للاتصال بالجماهير ظل عدد القراء فى تزايد مستمر . فمن عام ١٩٥٥ إلى عام ١٩٧٦ زاد انتاج الكتب فى العالم زيادة مطردة إلى أن تضاعف ، هذا إذا ما أخذنا فى الاعتبار عدد عناوين الكتب الصادرة فى كل سنة ، أما إذا اعتبرنا عدد النسخ فان الرقم يصبح ثلاثة أضعاف ما كان من قبل ، وفى منتصف العقد الثامن من القرن العشرين أصبح يوجد فى الأسواق أكثر من ٥٩٠,٠٠٠ كتاب طبعت منها حوالى ثمانية مليارات من النسخ ، وكان من أهم أسباب هذا التزايد هو التغير الجذرى الذى طرأ بعد الحرب العالمية الثانية على الوسائل الطباعية لانتاج وتوزيع الكتب .

ان صناعة الكتب تشكل جزءا من القطاع العام والخاص حسب النظام السياسى والاقتصادى لأى دولة . وفى كثير من البلاد تدخل هذه الصناعة ضمن النشاط الخاص ، وان وجد إلى جانبها نشاط حكومى متطور فى هذا المجال ، ومثال ذلك فى الولايات المتحدة : (Government printing office) وفى المملكة المتحدة (Her Majesty instation) أما فى البلاد الاشتراكية فتشكل صناعة الكتب جزءا من الاقتصاد الوطنى الموجّه ، هذا وقد طبقت بعض الدول النامية نظاماً مختلطاً وذلك لسببين :

١ – عجز النظام الخاص عن إشباع الاحتياجات مما يجبر الحكومات على أن تتولى بنفسها أمر النشر عن طريق هيئات أو مؤسسات لهذا الغرض .

٢ – الأهمية القصوى لانتاج الكتب المدرسية .

وقد دفع الاقتصاد الحديث صناعة النشر إلى الانتقال من الطور الحرفى إلى طور الانتاج على نطاق واسع Mass production . وقد أدى هذا التطور بكثير من الناشرين إلى الاندماج فى شركات أعلامية أو مالية ، مما أدى إلى نتائج سياسية وثقافية هامة على الصعيد الدولى .

وكانت الطباعة أول وسيلة اعلام جماهيرية صالحه للتصدير ، وساعد على ذلك نشاط الناشرين الأوربيين فى خلق الأسواق ، ثم تأسيس الفروع فى

المستعمرات القديمة . وفى عام ١٩٧٥ بلغ حجم الصادرات البريطانية ١٣٣ مليون جنيه استرلينى أى ما يعادل ٤٠٪ من مجموع مبيعات أصحاب دور النشر والمكتبات البريطانية . أما صادرات الولايات المتحدة من الكتب فقد بلغت حوالى ٣٠٠ مليون دولار فى عام ١٩٧٦ وهى تزداد بمعدل سنوى قدره ١٠٪ . وقد شكلت الكتب المدرسية من أصل هذه الصادرات ١٩٪ فى المملكة المتحدة و٣٠٪ فى الولايات المتحدة الأمريكية بينما بلغت نسبة الكتب العلمية ٢٦٪ والتكنولوجية ١٦٪ . وكان من شأن تطور أسواق التصدير هذه وبخاصة فى مجال الثقافة والتعليم حيث سبب نمو النظم المدرسية ازديادا فى الطلب على الكتب وغيرها من المواد التعليمية والمواد السمعية البصرية ، كما شجع أصحاب الشركات على توسيع وتنويع أسواقهم فى مجال وسائل الاعلام الالكترونية . وشرع الناشرون كذلك فى ممارسة أنشطة تتعلق بالمجلات التليفزيونية والأفلام وغيرها من المواد التعليمية بالاضافة إلى نشر الكتب وقد ساعد هذا الدمج على تطوير تكنولوجيا الطباعة إلى صناعة دولية . وبصورة عامة فقد ساعد هذا على ازدهار طباعة الكتاب كإحدى أهم وسائل الاعلام المعاصرة . والمشكلة الأساسية التى يواجهها الكتاب على المستوى الدولى تتلخص فى أن العالم يشهد اليوم تناقضا بين زيادة انتاج الكتب وبين عدم توافره فى البلدان النامية . ويقدر بعض الخبراء الدوليين نسبة الكتب المدرسية من اجمالى الكتب المطبوعة فى العالم الثالث بما يتراوح بين ٨٠٪ إلى ٩٥٪ .

ومن أبرز خصائص الكتاب باعتباره وسيلة أعلام أنه ينتمى إلى الاعلام المكتوب أى المطبوع . وهذه السمة التى تتعلق بالخصائص الحسية لوسيلة الاعلام لها أهمية بالغة بالنسبة للكتاب . فإذا كان الخبر القصير مثلا يمكن سماعه فى الراديو فلا يهدر من فائدته كثيرا عن قراءته فى الصحفية اليومية ، فالكتاب تستحيل اذاعته فى (الراديو) دون أن يهدر معظم مادته العلمية ، وتتميز الكلمة المكتوبة أى المطبوعة بتحررها من دائرة الاتصال بالتواجد . فالكلمة المنطوقة تتطلب انسانا حاضرا . هذا الانسان قبل الراديو كان لابد من تواجده قريبا من المتكلم ، وأصبح بعد الراديو والتليفزيون لابد من تواجده وقت اذاعة

الرسالة الاعلامية . أما الكلمة المكتوبة فإنها تتوجه إلى الشخص الغائب وتحقق هدفها الذى تحققه مع الشخص الحاضر . ولعلنا نذكر هنا أن أول من تنبه إلى هذا الأمر هو أبو بكر الصولى رحمه الله (٢٥٥ - ٣٣٦هـ) . الكاتب الأديب الأخبارى العلامة والمحدث الفقيه ، الملم بعلوم الهندسة والفلك إلى جانب نبوغه فى علم الشطرنج ، وله مؤلفات جمه فى كل هذه المعارف . وقد لمس أهمية التفرغ والاعتكاف على التدوين والتأليف والتصنيف ، أيماناً منه بضرورة التأليف والنسخ خدمه للعلماء والأدباء وطلاب المعرفة من بعد ، ونتج عن دعوته هذه أن خرجت لنا الثقافة العربية الاسلامية ثقافة واسعة شاملة ، حاويه لجميع الثقافات التى انعكست على مرآتها ، وتغير كل شيء فى حياة الأمة العربية الثقافية والعلمية .... كثرت العلوم ، وتعدد المؤلفات وتغيرت المفاهيم والتصورات ، وتغيرت الأذواق والأمزجة ، فارتقت الأداب والعلوم وعلى ضوء أن الكلمة المكتوبة تفيد الحاضر والغائب ، نهضت الحياة العلمية والثقافية نهضة واسعة ، وتعددت مجالاتها .

الكتاب والتراث :

يرتبط الكتاب بالتراث ارتباطا وثيقا . لأنه أهم وأكبر وأخطر أوعية التراث . وفى عالمنا العربى والاسلامى الرباط أوثق . وتبدو كلمة التراث ضخمة ومحاطة بشيء من القداسة . فى حين **أن التراث عموما يحوى أحيانا أشياء عديمة القيمة** ، **بل وأشياء ضارة** ، كما أن الأغانى الشعبية والرقص وحكايات الجدات والأساطير وكافة أشكال « الفولكولور » تصنف ضمن التراث . ولكن التراث المرتبط بالكتاب العربى على وجه الخصوص يطلق على كنوز المعرفة التى خلفتها الحضارة العربية الاسلامية فى عصور إزدهار ، هذا بطبيعة الحال غير التراث الفكرى الاسلامى الذى يسير فى حياة الأمة العربية سير الدم فى العروق . **وهذا التراث قد نحس به** وقد لا نحس ولكنه يحكم حياتنا **المعاصرة إحكاماً شديداً** . وهذا الإحكام الشديد ما يجعل مشكلة التراث فى حياتنا المعاصرة مشكلة حية مشتغلة متجددة .

ونحن نستخدم تعبيرات متعددة حول قضية واحدة هي أحياء التراث . فنقول تحقيق التراث ، ونقول مشكلة التراث ، ونقول الاهتمام بالتراث . وهذه القضية لا يكاد مفكر عربي إلا وأدلى فيها بدلوه .

يقول الدكتور حسين مؤنس التراث يشمل ثلاثة أشياء : تراث يختص بالكتب والمؤلفات وتراث العلم الذى انتقل إلى الغرب وبلاد العالم ، وأصبح جزءا من حضارة العالم وتراث التقاليد والعادات والمأثورات ، وهو غير مدون فى كتب وإنما يتمثل فى الناس والأشخاص ، فأما تراث الكتب فهو تراث جليل لأن أى أمة من الأمم الماضية لم تكتب من الكتب قدر ما كتب العرب ، ويكفى أن أذكر أننا نقدر اعداد الكتب العربية وأعنى (المخطوطات الموجودة فى مكتبات العالم العربى والاسلامى وخارجه) بنحو مليونين من المخطوطات بينما فى المقابل لو أحصينا ما كتبه اليونان والرومان فلن نجد أكثر من عشر آلاف مخطوط . ان تراثنا الحضارى العربى الاسلامى قد تناول كل نواحى العلم والمعرفة ، التى عرفت فى العصور الماضية ولم يترك العلماء العرب أو المهندسون أو المعماريون أو الحرفيون أمراً إلا وطرقوه وخاضوا فى تفاصيله فالأمة العربية أبدت فعالية ونشاطا كبيرين فى أوج تألقها . والمشكلة أن جانبا كبيرا من تراثنا غير محقق ولا مجموع .

ويفرق بعض الباحثين بين تيارين من التراث تيار يمكن أن نسميه التراث المتحفى على حد تعبير البعض ، وتيار يمكن أن نسميه التراث الحياتى . وهذا التراث الحياتى موصول وموجود فى عروقنا كالدم . إنه التراث المتحرك ويمكن تلخيص العلاقة الايجابية بين الكتاب والتراث فى واقعنا العربى المعاصر إلى أربعة نقاط رئيسية هى :

١ - تحقيق المفيد من التراث ونشره والمفيد هنا بمعنى المفيد لحياتنا الحاضرة . فالدكتور زكى نجيب محمود ، عندما يتناول قضية احياء التراث يرى أنه ليس من الأحياء فى شيء اعادة طبع كتاب اصفرت أوراقه فى كتاب ابيضت فيه تلك الأوراق . أو نقل (المادة) من مخطوط إلى كتاب مطبوع

دون النظر إلى قيمة المخطوط والفائدة التى يمكن أن تجنى من وراء تحقيقه ونشره أولا وقبل أى شيء ، وإنما الهدف من الاحياء أن يخرج قارئه ودارسه بروح يستمدها مما قرأ أو درس ليبثها فى حناياه ، فإذا هو مصطنع لنظرة جديدة من شأنها أن تعقد الأواصر بيننا وبين السلف الذى أحيينا تراثه ، حتى لو وقف من مضمون إرثه موقف الناقد أو المشكك . فالقارىء لديوان المتنبى مثلا قراءة إحياء يجب أن يخرج منها وقد سرت فى عروقه كبرياء هذا الشاعر القديم . وقارىء فكر المعتزلة القراءة نفسها يجب أن يخرج منه إنسانا يعتد بإرادته الحرة ، التى أسبغت عليه كرامة الانسان ، لأنها ألقت كتفيه تبعات الانسان . إن هذا النوع من القراءة الاحيائية لا يحول ، بأية حال فى أن نقف من شعر المتنبى والفكر المعتزلى موقف الناقد البناء الموجه .

ويرى البعض أن احياء التراث ليس عملا تاريخيا يرتبط بالماضى بل هو **عمل يرتبط بالمستقبل . إنه ليس زينة وليس إشادة عاطفية ووفاء للأجداد وإنما هو سلاح للغد . إنه نوع من الإعداد ولون من كسب الثقة بالنفس .**

٢ – **البحث فى التراث** : أى كتابة بحوث عنه وحوله ، ونشرها . لأنه جزء من الفكر الانسانى ويرى البعض أن احياء التراث يظل ضرورة علمية قومية حضارية انسانية لكل أمة تقدر ما يستحق التقدير من تراثها وتحاول أن تفيد منه فى حاضرها ومستقبلها ، وتقدمه للانسانية هدايا تنم عن مقدار مهديها .

٣ – **نقد التراث حتى لا يصبح مثل الآبار المسممة ، بغير علامات تحذر من يشرب منها . أو مثل السير فى حقل ألغام ، بغير خريطة تبين مواقع الألغام ، وسبل تجنبها .**

٤ – **التنسيق بين البلدان العربية حول احياء التراث ونشره** طالما أن التراث ملكا للأمة برمتها ينبغى إذن التنسيق بينها فى نشره . **ولو فى أبسط أشكال التنسيق . ففى معظم البلدان العربية مجالس وجمعيات وهيئات وإدارات تعمل فى مجال إحياء التراث ونشره . هذا إلى جانب الجامعات**

العربية ووزارات الثقافة والإعلام والإرشاد ومراكز البحوث والناشرين فإذا تمكنت الأقطار العربية والاسلامية ممثلة فى منظماتها المتخصصة فى التربية والثقافة والعلوم فى وضع أساس للتعاون وللتنسيق بين هذه الجهات ، لتحققت فائدة كبيرة . إن مجرد إقامة جسور بين هذه الجزر المتفرقة يجعل محصلة الجهد النهائى هى حاصل جمع الجهود الجزئية ، فى حين أن عدم الربط بينها يقلل من جهدها بالتكرار والعشوائية والتخبط .

الكتاب والرقابة :

يمثل الكتاب منذ أقدم العصور الصورة المثلى للصراع بين الفكرة وبين السلطة . ولكل عصر صور الرقابة الخاص به ، تلك الصور التى تبدأ بتحريم تناول موضوعات معينة ، إلى الرقابة الذاتية التى يمارسها عقل وقلب المؤلف فى مناخ القهر بصورة تلقائية ، ولقد شملت الرقابة فى العصور الحديثة التى أعقبت ظهور الطباعة ، انشاء المطابع فى حد ذاتها ، كما ارتبطت حرية انشاء المطابع مع حرية الصحافة مع حرية نشر الكتب برباط واحد ، كانت سلطة الدولة وسلطة الكنيسة تنظران إلى الكتب وإلى الصحف باعتبارها تهديدات لسلطانهما وكان هنرى الثامن فى عام ١٥٢٩م مثلا فى انجلترا يحاول السيطرة على المطابع بقائمة من الكتب الممنوعة . لقد فرضت معظم الحكومات المستبدة فى أوروبا الرقابة على انشاء المطابع فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وكان الصراع حول حرية الصحافة وحرية النشر للكتب سلسلة متصلة الجولات بين المستبدين وأنصار الحرية فى أوروبا بعد اختراع الطباعة . كان النصر الحاسم لأنصار الحرية . بفضل الثورات التى رفعت شعار الحر مثل الثورة الفرنسية ١٧٩٨ . وبفضل الحروب الأهلية مثل الحرب الأهلي البريطانية فيما بين عامى (١٦٤٢ - ١٦٤٩) وبفضل الإصلاح الدينى فى أوروبا ، والتحرر من السلطان الكنسى الخانق ، وتاريخ العلاقة بين الرقا والكتاب فى أوروبا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر يحفل بالنماذ المختلفة للصراع بين الكتاب وسلطان الكنيسة والسلطان الدنيوى ، فكتاب الأمير المشهور لمكيافيلى الذى طبع فى عام ١٥٣٢ بترخيص من البابا

« كليمنتى » وصفه بعض أساقفة الكنيسة بعد ذلك بأنه كتب بأصابع الشيطان ، وفى عام ١٥٥٧ أصدر البابا بولس السابع منشوراً يلصق فيه الكفر لمكيافيلى الذى توفى قبل طبع الكتاب ، وأصبح الكتاب من المحرمات . وطالب « الجزويت » فى اقليم « بافاريا » باحراق الكتاب ، فى القرن السادس عشر ، والواقع أنه فى أثر ظهور الطباعة أصدر كبير أساقفة مدينة « مينز » الألمانية مهد الطباعة الأول مرسوماً فى عام ١٤٨٦ بوجوب مراقبة المطابع حماية للكنيسة . ثم تلت ذلك مراسيم بابوية فى هذا الشأن . وفى عام ١٥٦٣ بدأت الكنيسة الكاثوليكية فى نشر قوائمها بالكتب المحرمة . أما فى جامعة باريس فكانت كلية اللاهوت بها هى المختصة برقابة جميع المؤلفات الدينية منذ عام ١٥٢٦ .

وإذا كانت العلاقة بين الكتاب وبين الرقابة مشكلة عادية فى الكتب العامة فانها مشكلة خاصة فى الكتب التى تتناول أموراً عسكرية . أو تلك التى تتضمن نشر أسرار وخطط ووثائق يحظر نشرها بكل الأعراف الدولية لصالح الدولة . كما يحظر نشر الكتب التى تناف العقائد الدينية وتخالف العادات والتقاليد والقيم الموروثة والتى من شأنها تتفكك أواصر الأمة . وتلك أولى مسئوليات الرقابة على الكتب والمطبوعات فى أى دولة ذات حضارة أن تحمى المبادئ والقيم الخلقية وأن تحافظ على التراث الموروث من العادات والتقاليد ذات السمة الترابطية فى الأسرة والمجتمع .

مكونات الكتاب وأنواعه

الكتاب كما نألفه اليوم ظاهرة حضارية حديثة نسبياً ، فلم يبلغ صورته الحالية إلا عبر سلسلة من التطورات المتلاحقة . المواكبة للظروف الحضارية ، الاقتصادية والاجتماعية والتكنولوجية السائدة في كل عصر . ولا مجال لاستعراض هذه السلسلة المتصلة من التطورات . وما يهمنا في هذا المقام هو

الكتاب كما هو عليه الآن . من حيث مكوناته الأساسية وتعدد أشكاله وتنوع وظائفه . فلا معنى الآن لكلمة « كتاب » ما لم نردفها بكلمة أخرى تساعد في تحديد مدلولها ، فهناك الكتاب التمهيدي ، والكتاب الدراسي والكتاب المرجعي ... إلى آخر ذلك من عناصر التقسيم الوظيفي للكتب . أما من حيث الشكل فلم تعد الطباعة هي السبيل الوحيد لإنتاج الكتب ، فهناك الآن الكتب التي يتم تسجيلها صوتياً تلبية لاحتياجات فئات معينة من المستفيدين ، والكتب التي يتم تسجيلها في شكل قابل للتداول بواسطة الحاسبات الألكترونية تيسيراً لبعض أنماط تداولها واختزانها والإفادة منها . يتركز اهتمامنا على الكتاب في شكله التقليدي المطبوع من أجل القراءة في أي وقت .

مكونـــات الكتـــاب :

الإلمام بالمكونات الأساسية للكتاب ووظيفة كل عنصر في هذه المكونات وعلاقته بالعناصر الأخرى أمر لابد منه لتحقيق أقصى درجات الإفادة من الكتاب . وبصرف النظر عن الإخراج الشكلي للكتاب سواء أكان مغلفاً أو مجلداً ، فإنه عادة ما يتكون من مجموعة من العناصر الاستهلالية التي تشمل صفحة العنوان المختصرة وصفحة العنوان الكاملة ، وبيان الطبعات ، وحقوق الطبع والنشر ، والإهداء ، والتمهيد أو المقدمة ، والشكر ، وقائمة تصويب الأخطاء ، وقائمة المحتويات ، وقائمة الجداول ، وبيان وسائل الإيضاح ، ثم يرد بعد ذلك متن الكتاب متبوعاً ببعض العناصر الإضافية المساعدة كالتذييلات والحواشي والملاحق والوراقيات وقوائم المصطلحات والكشافات وحرد المتن والإعلانات . وقد لا نجد كل هذه العناصر مجتمعة في كل كتاب ، كما أن ترتيبها قد يختلف من كتاب لآخر . هذا بالإضافة إلى خلو معظم الكتب العربية من بعض هذه العناصر المساعدة .

أما عن صفحة العنوان المختصرة فإنها عادة ما ترد بعد الورقة البيضاء التالية لغلاف الكتاب أو جلدته ، كما أنها في حالة عدم وجود مثل هذه الورقة ترد بعد الغلاف مباشرة ، حيث تشتمل على الكلمات الأساسية أو الكلمات المفتاحية

لعنوان الكتاب . ويمكن أن يرد في ظهر هذه الصفحة بيان بالكتب الأخرى لمؤلف الكتاب أو بيان بالكتب الأخرى التي صدرت في نفس السلسلة التي يصنف تحتها الكتاب .

أما صفحة العنوان الكاملة فإنها عادة ماتشتمل على البيانات الأساسية اللازمة للتحقق من نوعية الكتاب ، وهي اسم المؤلف والعنوان الكامل للكتاب والذي قد يتكون بدوره من عنصرين هما العنوان الرئيسي ، والعنوان الفرعي والذي يشرح العنوان الرئيسي ويوضحه ، فضلاً عن بعض البيانات الأخرى كرقم الطبعة وتاريخ النشر واسم الناشر ومكان النشر . ونظراً لأهمية ما تشتمل عليه هذه الصفحة فإنها دائماً ماترد حيثما لا يمكن للبصر أن يخطئها وذلك على الصفحة اليسرى في الكتب العربية والصفحة اليمنى في الكتب الأجنبية . ويكتنف هذه الصفحة بعض مظاهر القصور في كثير من الكتب العربية ، فغالباً مايتجاهل الناشرون تاريخ النشر كلية ، كما أنهم نادراً ما يميزون بين الطبعة والإصدارة أو مجرد إعادة الطبع ، فالطبعة الأولى من أي كتاب هي مجموع النسخ التي يتم نشرها من هذا الكتاب في أي وقت . ولكي يقال أن هناك طبعة جديدة من الكتاب فإن ذلك لابد وأن يكون مقترناً بتغيير في متن الكتاب بالإضافة أو الحذف أو التصحيح أو التجديد أو أي شكل من أشكال التنقيح . ومالم يحدث شيء من ذلك فإن الأمر مجرد إعادة طبع للمتن في شكله الأصلي ، والكلمة المناسبة هنا هي الإصدارة وليست الطبعة ، حيث يمكن للطبعة الواحدة أن تنشر في أكثر من إصدارة واحدة والعكس ليس صحيحاً .

وظهر صفحة العنوان أيضاً من العناصر الرئيسية وخاصة في الكتب الأجنبية ، حيث تشتمل هذه الصفحة على بعض البيانات الهامة مثل اسم الناشر وعنوانه مالم يكونا قد وردا فعلاً في صفحة العنوان كما يمكن أن تشتمل أيضاً على اسم المطبعة وعنوانها . أما البيانات التي عادة مانصادفها على ظهر صفحة العنوان ، فهي بيان الطبعات والإصدارات السابقة للكتاب وتواريخها ، إذا كان الكتاب قد نشر في أكثر من طبعة واحدة أو أعيد إصدار طبعته الأولى . كذلك تشتمل هذه الصفحة على ما يسمى ببيان حقوق الطبع والنشر والذي يشمل

اسم صاحب الحق سواء أكان الناشر أو المؤلف وتاريخ الحصول على هذا الحق ، وفقاً لاتفاقية اليونسكو لعام ١٩٥٢ والخاصة بالحماية الدولية لحقوق الطبع والنشر . وعادة ما يرد هذا البيان الآن مصحوباً بإعلان يحذر من إعادة طبع الكتاب أو أي جزء منه ، أو استنساخه بأي شكل كان ، أو إختزانه في أحد نظم الاسترجاع ... إلى آخر ذلك من أشكال التصرف في المتن دون الحصول على إذن كتابي مسبوق من الناشر أو المؤلف . كذلك تشتمل هذه الصفحة في معظم الكتب الأجنبية الحديثة على بيانات الفهرسة من المنبع أو الفهرسة في أثناء عملية النشر . ولهذا البيان أهميته الخاصة في تيسير مهمة المسئولين عن الفهرسة والتصنيف بالمكتبات وهذا البيان أكثر تفصيلاً في الكتب الأمريكية منه في الكتب البريطانية وأندر مايكون في الكتب العربية.وفي حالة الكتب المترجمة فإن هذه الصفحة يمكن أن تشتمل أيضاً على البيانات الأساسية عن الكتاب المترجم بلغته الأصلية .

والرقم المعياري الدولي للكتاب ISBN من العناصر التي يمكن أن ترد على ظهر صفحة العنوان ، أو في أسفل الغلاف الأيمن في الكتب الأجنبية ، وليس له مكان موحد في الكتب العربية . والهدف من هذا الرقم هو توفير صيغة مختصرة للتعبير عن البيانات الأساسية للكتاب ، حيث يمكن استعمال هذه الصيغة بسهولة في طلب الكتاب . **ويتكون هذا الرقم من أربعة عناصر ، يدل العنصر الأول على اسم الدولة التي صدر فيها الكتاب ، ويدل العنصر الثاني على الناشر ، بينما يدل العنصر الثالث على عنوان الكتاب والعنصر الرابع للمراجعة . وعادة مايرد الرقم مسبوقاً في الكتب الأجنبية بالأحرف الأربعة التي سبقت الإشارة إليها ، وبعبارة الترقيم الدولي ، في الكتب العربية .**

والإهداء من العناصر المألوفة في معظم الكتب . وعادة ، مايكون بسيطاً في شكله . وأنماط الإهداء متنوعة لا حصر لها ، فمن المؤلفين من يهدي كتابه إلى أبنائه أو إلى أسرته ، ومنهم من يهدي إلى أستاذه ، ومنهم من يهدي إلى فئة معينة من القراء .

والتمهيد والمقدمة والتوطئة مصطلحات مترادفة تقريباً حيث يمكن أن تستعمل استعمالاً تبادلياً للدلالة على المدخل الاستهلالي للكتاب . ويمكن أن نضيف إليهم مايعرف بخطبة الكتاب في التراث العربي . والهدف من هذا الاستهلال هو إلقاء الضوء على الكتاب من حيث أهدافه ومنهجه ومحتواه ومستوى المعالجة ... إلى آخر ذلك من عناصر التعريف المبدئي بالكتاب ومايمكن أن نتوقعه منه . ويمكن لمثل هذا التقديم أن لا يكون بقلم المؤلف حيث يتولاه عنه أحد أساتذته أو آخر كالمراجع مثلاً أو أحد العلماء البارزين في المجال .

والشكر والتقدير من العناصر المألوفة في بعض الكتب وخاصة ما يشتمل منها على نتائج بحث معين حيث يسجل المؤلف امتنانه لمن أشرف على البحث ، ومن عاون في إجرائه ، ومن أسدى النصح وقدم المشورة من الأساتذة والزملاء ، ومؤلفي المراجع التي استشهد بها ، ومن هيأ الظروف المواتية للبحث ... إلى آخر هؤلاء ممن يرى المؤلف تسجيل الاعتراف بما لهم من فضل . ويحدث في غالب الأحيان أن يرد هذا الاعتراف بالفضل في المقدمة . كما أنه يمكن أن يرد في صفحة مستقلة في بداية الكتاب أو في نهايته .

وتصويب الأخطاء المطبعية أمر غاية في الأهمية ، إلا أنه قلما يحظى بالاهتمام في الكتب العربية المعاصرة وإن وجد مثل هذا التصويب فإنه عادة ما يرد في شكل جدول يبين الخطأ ومكان وروده بالصفحة ورقم السطر والشكل الصحيح . ويمكن لهذا الجدول أن يرد في بداية الكتاب كما هو الحال في الكتب الأجنبية أو يلحق بنهاية الكتاب كما هو الحال في الكتب العربية . ويحدث في بعض الكتب العربية أن تكون الأخطاء المطبعية من الكثرة بحيث يضطر المؤلف للتنويه ببعضها تاركاً البعض الآخر لفطنة القارىء .

وبيان المحتويات أو قائمة المحتويات مصطلح يفسر نفسه بنفسه ، حيث يهدف لمساعدة القارىء المحتمل في التعرف على محتوى الكتاب . وعادة ماتشتمل قائمة المحتويات على عناوين الفصول في تسلسلها المنطقي بالإضافة إلى

بيان موجز بمحتوى كل فصل ، فضلاً عن أرقام الصفحات . ويتفاوت مدى التفصيل في هذا البيان من كتاب لآخر . وعادة مايرد في بداية الكتب الأجنبية إلا أنه لم يستقر بعد على مكان محدد في الكتب العربية ، فتارة نجده في أول الكتاب وأخرى في آخر الكتاب وأحياناً في صفحة مستقلة مع بداية كل فصل .

ويحدث في بعض الأحيان أن يكون الكتاب مشتملاً على جداول احصائية أو رسوم بيانية أو خرائط أو أشكال توضيحية يتطلب الأمر بيان مواقعها بمتن الكتاب تيسيراً على القارىء . ويمكن لهذا البيان أن يرد في قائمة موحدة ، كما يمكن أن يرد في قوائم مجزأة وفقاً لطبيعة المواد . وعادة ماتشتمل هذه القوائم على عنوان الشكل أو الجدول والرقم التي ورد فيها . وعادة ما يكون هذا البيان هو نهاية العناصر الافتتاحية أو الاستهلالية في الكتب الأجنبية . وأياً كان موضعه فإنه ينبغي أن يكون ملازماً لقائمة المحتويات .

إلى هنا تنتهي العناصر الافتتاحية ليبدأ **أهم عناصر الكتاب على الإطلاق وهو المتن** . وعادة مايرد هذا المتن وفقاً للتسلسل المنطقي الذي اتبعه المؤلف في معالجة موضوع كتابه ، من حيث التقسيم إلى أجزاء أو إلى أبواب والأجزاء أو الأبواب إلى فصول والفصول إلى مباحث ... إلخ . وعادة مانجد في رأس صفحات الكتب الأجنبية مايسمى بالعناوين الجارية ، حيث يرد عنوان الكتاب مختصراً في رأس الصفحة اليسرى بينما يرد عنوان الفصل مختصراً في رأس الصفحة اليمنى . أما في الكتب العربية فإن الأمر عادة مايقتصر على تسجيل عنوان الكتاب مختصراً في ذيل الصفحة الأولى من كل ملزمة مصحوباً برقم الملزمة ، وذلك لمساعدة المسئولين عن تجميع الملازم تمهيداً للتغليف أو التجليد أساساً .

ويحدث في بعض الأحيان أن يرد متن الكتاب متبوعاً ببعض العناصر الإضافية أو المساعدة . وفي الوقت الذي نجد فيه معظم الكتب تهتم بالعناصر الافتتاحية ، فإن عدداً قليلاً فقط من الكتب يشتمل على العناصر الإضافية .

هذا بالإضافة إلى أن هذه العناصر الأخيرة لا ترد بترتيب محدد كما هو الحال في العناصر الافتتاحية .

وتأتي التذييلات في مقدمة العناصر الإضافية أو المساعدة . وعادة ماتشتمل هذه التذييلات على النصوص الكاملة لبعض الوثائق كالقوانين والمعاهدات ... المشار إليها أو المستشهد بها في متن الكتاب . كما يمكن أن تشتمل أيضاً على جداول البيانات والحقائق التي اعتمد عليها المؤلف في معالجة موضوعات الكتاب .

والحواشي هي أقرب المواد المساعدة إلى التذييلات إلا أنها عادة ماتكون أكثر إيجازاً منها . ويحدث في معظم الكتب فعلاً أن يضع المؤلف الحواشي أسفل صفحات الكتاب أو على جانبي المتن بدلاً من إرجائها إلى نهاية الكتاب . وعادة ماتختلط هذه الحواشي بالإشارات المرجعية التي تشتمل على بيانات الوثائق ، من الكتب والمقالات التي اطلع عليها المؤلف أو اعتمد في معالجته لموضوع الكتاب . وعادة ماترتبط كل من الحواشي والإشارات بالمواضع المتصلة بها في النص بالأرقام أو برموز معينة .

أما الملاحق ، وإن اختلطت عند البعض بالتذييلات ، فإنها تتكون أساساً من المواد التي كان من الممكن أن يضعها في المتن لو قدر له الإحاطة بها أثناء الكتابة . وغالباً مانجد مثل هذه الملاحق في الكتب التي نشرت في إصدارات متعددة ، حيث يلجأ المؤلفون لإضافة الملاحق كوسيلة لتجديد ما تشتمل عليه الكتب من معلومات . ويرتبط هذا الأسلوب أساساً بالكتب المرجعية .

والوراقية (ثبت المراجع) من العناصر التي عادة مانصادفها في الصفحات النهائية للكتب . والوراقية ببساطة عبارة عن قائمة بالكتب ، وتعني في هذا السياق قائمة بالكتب وغيرها من الأوعية المتصلة بالموضوعات التي عالجها المؤلف في كتابه ، والتي يمكن للقارىء أن يحصل منها على مزيد من المعلومات ، ويمكن للوراقية الملحقة بالكتاب أن تكون شاملة لكل ماصادفه المؤلف من كتب ووثائق متصلة بموضوع الكتاب ، او إنتقائية

تقتصر على ما أفاد منه المؤلف فعلاً في تأليف الكتاب ، أو ما يعتبره المؤلف من المراجع الأساسية في الموضوع . ويحدث في بعض الأحيان أن ترد مراجع الكتاب موزعة على نهايات الفصول بدلاً من ورودها مجمعة في نهاية الكتاب ، وغالباً ماتكون في هذه الحالة قوائم بالكتب المقترحة للحصول على مزيد من المعلومات حول الموضوعات التي يعالجها كل فصل من فصول الكتاب . كما يحدث في بعض الأحيان أن يجمع المؤلف بين الشكلين (قوائم القراءات الملحقة بالفصول والقائمة الموحدة في نهاية الكتاب) للتعريف بالمصادر التي اطلع عليها أو تأثر بها في تأليف الكتاب فضلاً عن أوعية الإنتاج الفكري الأخرى المتصلة بموضوع الكتاب .

وهناك بعض الكتب التي تشتمل في نهايتها على معجم Glossary بالمصطلحات المتخصصة . وعادة مايرد مثل هذا المعجم في الكتب الشاملة والكتب التمهيدية في أي مجال ، حيث ترد المصطلحات المتصلة بمجال اهتمام الكتاب ، وغالباً ماتكون من المصطلحات التي تعرض لها المؤلف فعلاً ، مصحوبة بتعريفات موجزة بنفس لغتها . أما في الكتب المترجمة فإن هذه المصطلحات عادة ماترد مصحوبة بالمقابلات المقترحة لها باللغة المترجم إليها ، فضلاً عن ترجمة التعريفات بالطبع .

والكشافات Indexes من العناصر الأساسية التي غالباً مانجدها في الكتب الأجنبية وقلما نصادفها في الكتب العربية . وهناك بعض الكتب التي تشتمل على كشاف يشتمل على جميع المداخل الموضوعية من مصطلحات متخصصة وأعلام بشرية وجغرافية فضلاً عن أسماء المؤلفين من الأفراد والهيئات في نسق هجائي واحد . كما يحدث في بعض الأحيان أن يشتمل الكتاب على أكثر من كشاف واحد ، حيث يخصص **كشاف للموضوعات وآخر للمؤلفين وثالث للأعلام مثلاً** . وسواء ورد الكشاف مجزأ أو موحداً فإن المداخل عادة ماتكون مصحوبة بما يدل على أماكن ورود المعلومات المتصلة بها في متن الكتاب كأرقام الصفحات في الكتاب المكون من مجلد واحد ، وأرقام المجلدات مصحوبة بأرقام الصفحات في الكتاب المكون من أكثر من مجلد واحد . ووظيفة مثل هذا

الكشاف الهجائي مكملة لوظيفة قائمة المحتويات ، ففي الوقت الذي تستعرض فيه هذه الأخيرة موضوعات الكتاب وفقاً للتسلسل المنطقي الذي التزمه المؤلف في معالجة هذه الموضوعات وتحديد علاقتها ببعضها البعض ، فإن الكشاف يقدم المصطلحات الخاصة بموضوعات الكتاب في تسلسل هجائي . وهذا التسلسل الهجائي قد يكون هو المدخل العملي المناسب لبعض القراء ، وخاصة من يطلعون منهم بحثاً عن المعلومات المتصلة بقضايا أو موضوعات بعينها ، وقد لا تسعفهم قائمة المحتويات ، وخاصة عند البحث عن معلومات متصلة بموضوعات فرعية دقيقة لم تظهر في بيان المحتويات . والهدف من الكشاف كما هو واضح من تسميته هو الكشف عن أدق تفاصيل الموضوعات التي يعالجها الكتاب .

وأخيراً نأتي إلى نهاية المتن Clophon وهو آخر العناصر المكونة للكتاب في غالب الأحيان . وأصل التسمية في الانجليزية الدلالة على الشكل التوضيحي المستخدم كعلامة تجارية للطابع . أما التسمية العربية فتدل على الهرم المقلوب الذي يرد في نهاية المخطوطة مشتملاً على البيانات الخاصة بنسخ المخطوطة كاسم الناسخ ومكان النسخ وتاريخه فضلاً عن عبارات الحمد . وقد ظل هذا الأسلوب متبعاً في طباعة كتب التراث في المراحل المبكرة لتطور الطباعة . وعادة مايشتمل هذا العنصر إن وجد الآن في الكتب الأجنبية على البيانات الخاصة بالطباعة . أما في الكتب المصرية فإنه يشتمل أيضاً على رقم الإيداع بدار الكتب المصرية فضلاً عن الرقم المعياري الدولي للكتاب كما سبق أن أشرنا .

ويحدث في بعض الأحيان أن ترد بعض الصفحات الإضافية في نهاية الكتاب . وهذه إما أن تترك بيضاء وإما أن يستغلها الناشر في الإعلان عن بعض الكتب التي نشرها .

الفصل الرابع

الناشر ومقتطفـات

من تاريخ النشر وأنواعـه

الفصل الرابع

الناشر ومقتطفات من تاريخ النشر وأنواعه

لكل مهنة أربابها ، ولكل صنعة فنية روادها ، وورواد صناعة الكتاب هم الناشرون لكن إذا تساءلنا من هو الناشر ؟ فلاشك أننا إذا بدأنا الاجابة بالحديث عن الناشر فإن جوهر هذا الحديث هو ما نعنيه بالنشر . **والناشر هو الشخص الحقيقى أو المعنوى الذى يستثمر أمواله فى انتاج الكتب ، فهو يدفع الأموال للمؤلف والمترجم والفنان والمحرر والطابع وتاجر الورق وغيرهم ، لانتاج الكتب وتوزيعها ، كما يدفع الأموال للباعة وللقائمين على الإعلان وغيرهم ممن يعاونونه فى تسويق الكتب وانتشارها توزيعاً ، ثم يسترد أمواله من بائعى الكتب ، وأصحاب المكتبات المحلية والاقليمية ، ممن يشترون منه الكتاب ، ويهدف من ذلك إلى كسب قدر من المال ، أكثر مما أنفق ، حتى يحقق ما استهدفه من ربح مطلوب .**

إن طبيعة عمل الناشر فى أى دولة من الدول الغنية أو النامية أو المتخلفة ، وأياما كانت المرحلة التى بلغتها الدولة من التطور ، ومهما يكن اتجاهها الاقتصادى ... لا تختلف ... فلابد من وجود عناصر أربعة فى صناعة الكتاب وهى .

المؤلف والطابع والبائع ثم الشريك الرئيسى فى صناعة الكتاب وهو الناشر هذا الشريك هو الذى يجمع الشركاء الثلاثة الأخريين معاً ، وهو الذى يأخذ زمام المبادرة فى صناعة الكتاب . وهؤلاء الأربعة لازمون دائماً ، وربما تقوم هيئة أو مؤسسة أو شركة أو يقوم شخص واحد بأكثر من عمل واحد من الأعمال الأربعة لهؤلاء الشركاء . لكن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً ، فثمة أعمال أربعة رئيسية واضحة يتعين آداؤها وهى :**عمل المؤلف وعمل الطابع ، وعمل بائع الكتب ، وعمل الناشر** لابد من وجود هذه الأعمال الأربعة حتى لو قام بها شخص واحد . وقد يكون الناشر هيئة أو مؤسسة تتبع الدولة فى ملكيتها وإدارتها . وقد يكون الناشر شركة تضامن أو توصية أو حزب سياسى

أو جامعة ، أو اتحاد أدباء ، أو جمعية دينية ، أو نادى ثقافى ، وما شابه ذلك ... من خلال هذه النماذج يصبح لدينا تعبير الناشر يشمل صاحب مطبعة ، أو صاحب مكتبة لبيع الكتب ، ويشمل تعبير الناشر أيضا دور النشر ذات السمعة المحلية أو الاقليمية أو العالمية ، جميعهم يستوى فى إالعرف والقانون ، فناشر من العالم الثالث لا ينشر إلا كتابا واحداً أو إثنين فى كل عام ، مثله فى عرف النشر وقوانينه مثل دار هاشيت Hachette الفرنسية التى تملك أكثر من ٣٢٪ من سوق الكتاب وفق احصائيات 1985 حيث بلغت مبيعاتها ٧,٥ مليار فرنك فرنسى . كما أنها تسيطر على ٣٨ دار نشر صغرى بما تملكه من أسهمها . وفى حيازتها كافة المكتبات المحلية الموجودة بمحطات السكك الحديدية فى فرنسا إلى جانب ١٢ ألف كشك توزيع للكتب والصحف والمجلات . وهذه تتساوى عرفاً مع الهيئة العامة للكتاب أو دار المعارف بمصر .

يتضمن النشر إذن ثلاث حلقات متميزة بذاتها هى :

١ - تأليف الكتب

٢ - تصنيع طباعة الكتاب

٣ - تسويق الكتاب وتوزيعه

وتعرف دائرة المعارف البريطانية النشر بمعنى صناعة الكتاب بأنه ذلك النشاط الذى يتضمن اختيار المادة العلمية المراد طباعتها ونشرها ، ومن ثم تجهيزها باحدى وسائل الجمع التصويرى ، وطباعتها على هيئة كتاب أو ما على شاكلته ، لكى تبدأ بعد ذلك فى تسويق تلك المادة المطبوعة . والوظائف الهامة للناشرين تتمثل فى اختيار المادة وتنظيم واعداد تلك المادة المراد نشرها بدءاً من المخطوط وحتى انتاج الكتاب بصورته النهائية من أجل التوزيع ، مع تحمل المسئولية المالية ، وكافة المسئوليات الأخرى المرتبطة بعملية النشر .

وفى تعريف أخر للنشر : النشر هو كيفية إرسال مادة التأليف بكلماتها وصورها ووسائل ايضاحها بعد أن انتجتها عقول المفكرين والمبدعين . على أساس أن مادة التأليف المتمثلة في الكلمة المقروءة هي إحدى أهم

وسائل الاتصال بين الناس والشعوب ... والنشر بهذا المعنى سلسلة مترابطة من حلقات ، لا يمكن أن نطلق على حلقة منفردة فيها اسم النشر ، فعندما يتحول المخطوط إلى كتاب ، ثم يوزع ويباع هذا الكتاب ... هنا يتحقق النشر بمعناه ، لأن نشر الكتاب هو كل تلك العمليات الوسيطة مجتمعة وهى عملية متكاملة سواء قامت بها مؤسسة أو هيئة أو فرد ... إنها الاجراءات الذهنية والعملية المتتالية لترتيب طباعة وتجهيز الكتاب وتنشيط توزيعه من أجل تحقيق أقصى حد للانتفاع به كوسيلة اتصال محلية أو اقليمية أو عالمية .

هذه التعريفات تزداد وضوحها إذا عرفنا الوظائف الأساسية لصناعة الكتاب والتى يمكن تلخيصها فى النقاط التالية :

١ - الوكالات الأدبية فى الدول الغنية والمتقدمة هى التى تمد الناشرين بمخطوطات المؤلفين مجهزة على الألة الكاتبة حتى يسهل جمعها بأى أسلوب من أساليب الطباعة المعاصرة .

٢ - الناشرون بامكانياتهم المختلفة المتمثلة فى عقولهم المستنيرة بكل المراحل الوسيطة لانتاج الكتاب مع افتراض توفر السيولة المالية معهم .

٣ - صناع الكتاب بما فيهم مصففو الحروف ، وحفارو الكليشيهات وكتبة الجمع التصويرى والطابعون والمجلدون والمزخرفون وجهات التزويد بالخامات كالأحبار والورق والأفلام والأسطح الطباعية ومواد التجليد وما إلى ذلك .

٤ - النقاد ، الذين يقدمون عرضا وتلخيصا للكتب الجديدة فى وسائل الاتصال والاعلام المرئية والمسموعة والمقروءة كالصحف أو المجلات التخصصية .

٥ - وكالات الاعلان المتخصصة فى خدمات تنشيط المبيعات .

٦ - مكتبات توزيع الجملة والذين يقومون بالتوزيع على المكتبات وتجار التجزئة أو على كافة المشترين خاصة طلبة الجامعات والمعاهد والمراكز والمدارس والأفراد والهيئات والمصالح .

٧ - مكتبات التجزئة فى المدن والأحياء وداخل أسوار الكليات والمعاهد .

٨ - مشترو حقوق النشر والتوزيع لأنواع معينة من الكتب ومكاتب إعادة الطبع ، والمجلات والنقابات المهنية ومنتجى الأفلام التعليمية والثقافية والترفيهية ، والمذيعين والمعلقين وما شابه ذلك .

هذه الأعمال تمثل ما يقوم به المشتركون فى صناعة وإعداد الكتاب بالترتيب السابق ، أو باختلاف قليل فى هذا الترتيب ، كما يطلق فى بعض الأحيان اصطلاح دور الطباعة والنشر والتوزيع للدلالة تجاوزاً عن صناعة الكتاب ، ولكن تجارة الكتب فى التعبير الدقيق تطلق على توزيع الكتب وحسب ، وقد تعنى بيع الكتب القديمة والمستعملة .

لمحات من تاريخ النشر

وإذا عدنا إلى تاريخ النشر القديم ، نجد أنه يبدأ بمعناه العام فى مصر القديمة ، وفى الدولة البابلية الأشورية بالعراق القديم ، وفى الحضارة الصينية التى ابتدعت صناعة الورق قبل الميلاد بسبعة قرون ، وفى الحضارة اليونانية التى قامت على أساس المنطق العقلى ، تلك هى الحضارات التى عاصرت بعضها والتى كان ينتشر فيها الكتاب حيث يرتبط بالمراكز الدينية والتعليمية كما حدث فى العصور الوسطى .

وينبغى أن نضع فى الاعتبار أن حركة التأليف فى الحضارات القديمة كانت تتمثل فى كتب الكهنة بما تحويه من مدونات دينية ومجموعات من الأمثال ، وقواعد سلوكية وأقوالاً فى السحر والعلاج والفلك والتنجيم . وكانت حركة التأليف فى تلك الحضارات القديمة إلى جانب ذلك تضم شيئا من الأدب الدنيوى ، قصصا وقصائد وأشعار وما شابه ذلك . وينبغى أن نضع ذلك فى الاعتبار لنفرق بين عمل التأليف الدنيوى الذى كان النشر فيه قاصراً مع عدد محدود من النسخ للملك وحاشيته ، وبين كتب دينية تنتشر على نطاق واسع جداً ويكتسب الكهنة من نشر هذه الكتب الربح الكثير .

النشر فى الحضارة المصرية القديمة : بدأ المصريون القدامى تشييد إحدى

أقدم الحضارات فى العالم على ضفاف نهر النيل فى بداية الألف الخامس قبل الميلاد ، ومع بداية عصر الأسرات سنة ٣٤٠٠ ق . م شهدت مصر قفزة حضارية هائلة ، تؤكدها أهرامات الجيزة التى لا تزال احدى عجائب الدنيا السبع . استخدم المصريون الكتابة الهيروغليفية لتدوين علومهم وأفكارهم على أوراق البردى وجدران المعابد ، وقد تطورت هذه الكتابة إلى الهيراطيقية ثم اختزلت إلى الديموطيقية من أجل مزيد من النشر والكسب ،حيث أصبحت لغة الشعب وتدل دراسة الآثار والبرديات واللوحات الجدارية ، أن قدماء المصريين أحرزوا تقدما ملموساً فى علوم الفلك والحساب والطب والعلاج بالأعشاب الطبية ، وغيرها ، كما أنهم مهروا فى الرسم والنحت والعمارة والتحنيط ، وأتقنوا صناعة الحلى والزجاج الملون ، وبرعوا فى التعدين والنجارة والتطعيم بالصدف والعاج ، وكانوا أول من دبغ الجلود ونسج الملابس الكتانية بمهارة .

ويرى كثير من المؤرخين أن قدماء المصريين كانوا أول من عرف الكتابة والكتب يقول جورج سارتون فى كتابة تاريخ العلم « **أعظم ما قام به المصريون الأولون من جهود حضارية هو اختراع الكتابة ، اخترعوها مستقلة عن غيرها ، وينبغى ألا ننسى أن اختراعا كهذا بغض النظر عن موضع ظهوره ، قد وصل إلى مرتبة من الكمال فيما قبل التاريخ ، لأن أقدم كتابة وصلت إلينا ترجع إلى عصر الدولة القديمة** . وقد عرف المصريون الحروف الهجائية منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد ، واقترنت معرفتهم لها باستخدامهم صفحات البردى والمداد والقلم البوص ، وساعدهم ذلك على تهيئة مجتمع متميز ، عما عاصروه من المجتمعات القديمة تيسرت فيه عمل التعلم ، وتناقل المعارف ، وأصبح فيه لأهل الكتابة شأن كبير ، وذلك ه المجتمع الذى صورته المناظر والنقوش والألقاب والتماثيل واللوحات الجداري منذ أوائل عصور الدولة القديمة ، فمنذ ذلك الحين لا تكاد تخلو نقوش مقبرة أو مناظرها من شخصية تتخذ ضمن ألقابها لقب الكاتب أو ما يدور حوله ، وقد يكون صاحب هذا اللقب من الكبراء ، فيكون وزيراً أو حاكم إقليم أو قائداً أو كاهناً عظيماً ، أو رئيساً لبيت المال ، أو طبيباً أو ما شابه ذلك ، كما أنه قد

يكون من أواسط الناس فيكون من المشتغلين بالفنون ، أو من موظفى القصر ، أو من موظفى بيت المال وما سواه من إدارات الحكومة ، أو من المشرفين على الضياع ، أو يكون من صغار الطبقة الوسطى كموظفى الضياع ، وكتبة المعابد ، وكتبة الأسواق .

ومنذ أيام الدولة القديمة ، ظلت أحد الأوضاع الأثيرة لدى الكبراء أن تصنع لهم تماثيل تمثلهم فى سمة الكتاب وفى جلسة التربع التى كانوا يتخذونها ، لأن مدلول الكاتب كان يشرف كبار الشخصيات أن يحتفظوا به دائماً ، حيث كان يرادف فى معناه لقب المثقف والمتعلم ، ويمكن أن نستشهد هنا بما كان للقب « الكاتب » عند العرب من معنى واسع ، لأن الغالب على من كان يعرف الكتابة أنه يمتلك نعمة التعلم والمعرفة ، وكان الكاتب عندهم عزيزاً وفيهم قليلاً .

والواقع على وجه الاجمال أنه ما من شعب قديم ألّه التعلم وأهله ، أو الكتابة والكتاب باكبار وتمجيد أكثر من المصريين القدماء ، فقد جعلوا للكتابة ربة وهى « سشات » الآلهة الكاتبة وتوجوها بزهرة مورقة وبنجمة ذات خمس شعب أو نبع ماء ، وجعلوا للكاتب رائداً سماويا هو « تحوتى » إله العلم والمعرفة . وافترضوا لأربابهم الكبار كتبا وكتبة مقدسين فى السماء ، يعملون فى خدمتهم ، وتمنى فراعنتهم منزلة الكتاب فى أخراهم ، ووصف بعضهم بأنه صاحب الكتاب المقدس ، العارف ، وظهر بعضهم فى صورة من يحمل أدوات الكتابة ، اعترافاً منهم بأهمية الثقافة والمثقفين .

ويعتقد علماء الكتابات الأثرية أن نظام التعليم الاجبارى فى مصر القديمة كان فى كل القرى حول طيبة ، ويستشهدون على ذلك بالأعداد الوفيرة من الكسر واللخاف وقطع البردى التى وجدت فى المعابد ، ولدى مداخل بعض القبور الملكية ، ويعزون استخدام الكسر واللخاف حيث يمكن للتلميذ أن يمسح ما عليها ويكتب سواه لعدة مرات ، وكان نشاط الكتاب والخطاطين والرسامين مزدهراً فى منف والجيزة حيث وجدت لوحات كثيرة من الخشب

عليها تمارس الكتابة والحساب والرسم ويتضح فيها تجويد الخط عن قصد ، مما يؤكد تعهد المعلمين للتلاميذ الناضجين فى هذه الفترة .

النشر فى الصين القديمة : كانت حركة النشر عندهم موازية لما شهدته مصر القديمة والحضارة الأشورية البابلية . بدايتها ظهور الفلاسفة ، نذكر رجلين كان لهما أكبر الأثر فى حياة الصين العقلية هما لاوتس (٦٤٠ ق . م) وكونفوشيوس (٥٥١ - ٤٧٩ ق . م) يرى **لاوتس** فيما نشر عنه من كتب ضرورة استبقاء الشعب فى جهل مطبق ، لكى يظل خاضعاً مطيعاً يقول : افرغوا الرؤوس واملأوا البطون ، وأضعفوا العقول وقووا العظام ، فإن فى تعليم الشعب القضاء على الدولة ، كما كان لاوتس يندد بالحرب ، ويحض على السلام .

أما كونفوشيوس فوجه همه لنشر تعاليمه فى الأخلاق والسياسة والاشادة بالواجب ، يقول : الواجب أهم شيء يعلم ، فهو قانون العقل ، وهو المبدأ الذى يهدينا إلى المطابقة بين أفعالنا وأقوالنا العقلية ، والواجب ثابت وغايته تكميل النفس ، ويؤكد كونفوشيوس على تعليم الشعب مع قصر هذا التعليم على معرفة الواجبات ، وغيرها من الأمور النافعة للشعب بحيث تلقى إليه فى جمل وجيزة دون شرح ولا دليل ، وهو يتفق مع لاوتس فى كراهية الحرب ومحبة السلام ، والأسرة عنده هى الخلية الأولى للمجتمع ، وأن الدولة أو الإمارة أو الامبراطورية ما هى إلا اجتماع الخلايا أو الأسر ، فيجب أن تعيش كأسرة كبرى - وأن يكون بينها مثل ما بين أفراد الأسرة الواحدة من محبة وتعاون وواجب ، وعلى الانسان أن يتجنب الأفراط والتفريط وكلاهما رذيلة ، وأن يتبع طريقا وسطا . وأن يحيا ليومه ، لأن التطلع للمستقبل هم وغم وألم .

ومما يؤكد تأثير تعليمات الفلاسفة فيما نشروه من كتب الكارثة التى الحقها الامبراطور الصينى « **تشى - هوانج - تى** » عام ٢١٣ ق . م بالعلماء وانتاجهم ، وذلك بحرق الكتب وقتل المؤلفين عقابا على أساليب نقدهم وتنديدهم للسياسيين . وفى تاريخ النشر فى الصين القديمة نلمح الكتب من

التقنيات المتقدمة فى ذلك العصر . مثل استخدام الفرشاة والأقلام البوص والألواح الخشبية والحرير الخاص بالكتابة . تلك التقنيات التى مهدت لظهور الطباعة بالألواح الخشبية ثم لاختراع الورق .

وكان اختراع الورق فى الصين عام ١٠٥ ميلادية على أيدى تساى لون Tsi Lun حدثا له آثار واسعة المدى على النشر رغم أنه لم يحقق هذا الأثر إلا بعد قرون حيث أن مكتشفيه أحتفظوا بسريته إلى أن انتزع العرب سر صناعة الورق بعد فتح سمرقند وبخارى وأسر بعض الصناع الصينيين عام ٧٥١ ميلادية فى الانتصار الذى حققه القائد الاسلامى صالح بن زياد . وسرعان ما انتشرت صناعة الورق فى بغداد والكوفة والبصرة ومصر والقيروان وطليطلة حتى دخوله إلى أوربا فى القرن الثالث عشر الميلادى وتقدم فيها مع عصر النهضة تقدما كبيراً ، وانعكس تقدمه على صناعة النشر وتقدم العالم فى العلوم والآداب والفنون .

لمحات عن النشر فى الدولتين اليونانية والرومانية القديمتين : بدايات النشر بالمعنى العام والتى ترجع إلى اليونانين القدماء تمثل مجردا إيماءات لعملية النشر ، تنقصها التفاصيل التى اكتسبتها مهنة وصناعة النشر فيما بعد . ويذكر المؤرخون أنه فى القرن الخامس قبل الميلاد ، كان بعض كبار الكتاب الفلاسفة يسخر عبيده الذين يتقنون الكتابة فى النسخ ، وأن أفلاطون Plato (٤٢٧ – ٣٤٧ ق . م) أشار إلى بيع الكتب فى الأكاديمية . كما تلاحظ أن أفلاطون هو الفيلسوف الوحيد الذى وصلتنا كتاباته كاملة تقريبا . وذلك لأن النشاط الأدبى كان عاملاً هاماً فى حياته الفلسفية ، وقد وصلتنا أيضا معظم كتابات أرسطو Aristotele (٣٨٤ – ٣٢٢ ق . م) وكتابات شيشرون Ciceron (١٠٦ – ٤٣ ق . م) وسينكا Seneca (٦٥ ق . م) وأوريل Aureluis (١٢١ – ١٨٠م) الفيلسوف الرومانى ، وابكتيتيوس Apectetus (٥٠ – ١٣٨م) وأفلوطين Plotunus (٢٠١ – ٢٧٠م) فيلسوف الاسكندرية الشهير المولود بأسيوط . ومن ناحية أخرى نجد أن عدداً كبيراً من الفلاسفة

والكتاب لم يدونوا أراءه ، وكل ما نعرفه عنهم ما نقله عنهم فلاسفة متأخرون من أقوال شفهية ، وعلى العموم فإن معظم الكتب المنسوخة السابقة على سقراط قد فقدت ، ولحسن الحظ ما استنه كتاب اليونان القدامى من سنة سرد الآراء السابقة عليهم ، ثم انتشرت عادة الكتابة والقراءة مع ازدهار المكتبة العامة فى الأسكندرية ، ونشأة عدد من المكتبات العامة والخاصة فى اليونان القديمة ، ومن هنا كانت بدايات النشر وأصبحت مدينة الاسكندرية فى عهد البطالمة ملجأً للعلم ، فقد انشأوا فيها متحفاً علمياً جامعاً تقاطر عليه العلماء من كل جنس ترعاهم الدولة ، وتجزل لهم العطاء ، وخصصت فى هذا المتحف حديقة لدراسة النبات والحيوان ، ومبنى للتشريح ومرصد للفلكيين . كما خصصوا جناحاً لدراسات الأدباء والنحويين والفلاسفة والمؤرخين والعلماء على سائر طوائفهم ، وفى هذه المكتبة وضع اقليدس عام ٢٩٠م كتاب مبادىء الهندسة ورسالة البصريات ، وكان من مشاهير علمائها بطليموس الفلكى الجغرافى وأمين مكتبة الاسكندرية آنذاك ، والذى ظلت جغرافيته تدرس فى أوروبا ١٤ قرناً من الزمان حتى عصر كوبرينق . وعلى الجملة فقد عرفت الاسكندرية فى هذه الفترة نشاطاً علمياً ملحوظاً ظهرت فيه وجوه علمية عديدة من أمثال أبوللونيوس وجالينوس الطبيب وهيرون الذى برع فى الميكانيكا ، ويلاحظ من ناحية أخرى أن الدراسات الفنية والأدبية قد تطورت بفضل رعاية البلاط الملكى البطلمى ، وأصبحت علوماً توفر عليها علماء متخصصون ووراقون ينسخون الكتب لنشرها فى العالم اليونانى . ومترجمون ينقلونها إلى اللغات الأخرى ، بل لقد ترجمت التوارة فى عهدهم إلى اليونانية ، وكما شرح فيلون السكندرى اليهودى التوراة باللغة اليونانية ، وكان قصده من وراء ذلك أن يوضح لليونانيين أن كتاب اليهود المقدس يتضمن فلسفة أسمى وأقدم من فلسفتهم .

وقد ازدهر النشر فى الدولة الرومانية مع ارتقاء حركة الأدب فى روما القديمة خاصة فى عهد شيشرون ، وكان بعض الناشرين من محبى الأدب والقصص والفن والغناء وأشهرهم فى ذلك الزمان بمبوتيس أتيكوس (١٠٦ –

٣٢ ق . م) الذى كانت مكتبته تضم عدداً كبيراً من النساخ المدربين ، وكان الكتاب الواحد ينسخ منه ما بين ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ نسخة ، وكان البردى أو الرق هو مادة الكتابة عندهم . ويؤكد بعض المؤرخين مثل ول ديورانت وجورج سارتون أنه بحلول القرن الأولى الميلادى كانت المكتبة شيئاً هاماً وأساسياً فى البيت الرومانى المسيحى . وورد الكثير فى كتابات المؤرخين من أوصاف لمحلات بيع الكتب وأساليب النسخ باستخدام العبيد المدربين والذين يتقنون الكتابة من كثرة خبرتهم ومزاولتهم لهذا العمل .

ويعد أتيكوس أول ناشر تعرفه دراسات تاريخ النشر والكتب ، نشر كتب حديقة شيشرون وتكفل بنفقات وأجور العبيد الذى ينسخونها . ولكنه لم يكن يدفع شيئا لصديقة . ولم يكن ذلك عائقاً للآخرين لاستنساخ نسخ أخرى من نفس الكتب ، فلم يكن هناك أى تشريع يحمى حقوق التأليف ولم يكن هدف المؤلفين الحصول على أرباح مادية من وراء مؤلفاتهم ، وإنما كانوا يهدفون إلى إهداء نسخ من مؤلفاتهم إلى الملوك والأمراء والأغنياء ومشجعى التعلم ، وهؤلاء الذين يحبون العلم لذاته وهؤلاء هم طبقة السادة .. ومع ذلك فقد تراجع تاريخ النشر فى الدولة الرومانية عند سقوطها وتقهقر إلى الوراء واقتصر على قليل من المراكز الدينية التعليمية ... التى نشطت حيث اشتغل الكثير من الرهبان والقساوسة فى نسخ الكتب بما لهم من حظ وافر من الوقت بتجويد والتحسين تقربا وزلفى للرب فى حياة الأديرة .

النشر فى مرحلة ازدهار الثقافة الاسلامية
الوراقون والمخطوطات :

نتيجة لحركة الترجمة والتأليف التى ظهرت وازدهرت فى العصر العباسى والتى نقلت إلى العرب التراث اليونانى والرومانى كما نقلت الكثير من الحضارات القديمة الفارسية والهندية والصينية والمصرية القديمة وما استتبع ذلك من كثرة المؤلفات وحرص الناس على التعلم وتناقل الكتب ، ونتيجة لخدمه أهل بغداد لصناعة الورق المطلوب للكتابة والتأليف ظهرت صناعة الوراقة التى

تفرغ لها الكثيرون ممن عرفوا باسم الوراقين . وكان يمارسها إلى جانب هؤلاء عدد كبير من العلماء والأدباء المحدثين والمفسرين واللغويين والتجاه والقضاة[1] .

والوراقة عند ابن خلدون هي عملية الاستنساخ والتصميم والتجليد وسائر الأمور المكتبية والدواوين . والوراق هو من يكتب المصاحف وكتب الحديث وغيرها وكانت حوانيت الوراقين تقوم مقام دور النشر فى هذه الأيام بجانب قيامها ببيع مواد الكتابة كالمداد والأقلام والأحبار والورق .

انتشرت هذه الحوانيت فى الأمصار العظيمة العمران مثل بغداد والبصرة والكوفة ومصر ومراكش وغيرها .

ذكر ابن النديم فى الفهرست أن مالك بن دينار (١٣٠ هـ) ، وخالد بن أبي الهياج كانا يكتبان المصاحف فى صدر الاسلام بالأجر وكان الأخير يوصف بحسن الخط وكان كاتباً للشعر والأخبار للوليد بن عبد الملك كما كتب مصحفا لعمر بن عبد العزيز .

وقد ترددت أخبار الوراقة والوراقين بكثرة ابتداء من أواخر القرن الهجرى الثاني فى عصر الرشيد حيث كان علان الشعوبي ناسخا فى بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة وكان له دكان لبيع الكتب ونسخها .

وفي غضون القرن الثالث الهجري كان زكريا بن يحيى وراقاً للجاحـــظ وكان محمد بن الحسن بن دينار وراقا لحنين ابن اسحق الطبيب .

ومع بداية القرن الرابع الهجرى كان أبو موسى الحامضى (متوفى ٣٠٥هـ وراقا يوصف بصبحة الخط وحسن المذهب في الضبط وكان محمد عبدالله الترحانى (متوفى ٣٢٩هـ) وراقاً مليح الخط صحيح النقل ، يرغب الناس فى خطه .

(١) مثل القاضى أبو سعيد السيرافى (ق ٤)هـ كان ينسخ يوميا عشر ورقات يأخذ أجرتها عشرة دراهم تكفى مئونته ثم يخرج إلى مجلس القضاء أو إلى مجلس التدريس . ويرجع

ويفهم من ابن النديم أن جودة الخط وصحة النقل ودقة الضبط كانت شروطا أساسية للنجاح فى صناعة الوراقة .

وكان أهل الأندلس أحذق الناس فى الوراقة والمعروفين بضبط وحسن الخط ، ونستطيع أن نرجع بتحسين الخط وتجويده والتألق فيه إلى عصر المأمون الذى أخذ أصحابه وكتابه بتجويد خطوطهم . فمنذ ذلك العصر أخذت الخطوط تكتسب قيمة جمالية جديدة على أيدى النساخين والوراقين حتى أصبحت بغداد فى القرن الرابع تباهى بمن فيها من الخطاطين والوراقين .

وبلغ من كثرة الوراقين ببغداد أن أصبح لها سوق يعرف سوق الوراقين ، ولم تكن تلك الحوانيت مجرد دور للكتابة والنسخ وإنما كانت مجالس للعلماء والشعراء وملتقى لطبقات المثقفين ومحبى العلم والمعرفة . وفى ذلك دليل على أهمية الدور الذى كانت تلعبه تلك الحوانيت فى مجال الثقافة والمعرفة والبحث العلمى ، ومن أبرز وراق القرن الرابع الهجرى محمد ابن اسحق النديم صاحب كتاب الفهرست الذى صنف من الكتب العربية فى شتى فروع المعرفة الانسانية لكثرة علمه وسعة اطلاعه والمامه العزيز ، ومن أشهرهم أيضا وأوسعهم علما أبو حيان التوحيدى والذى كان يضيق ذرعاً من العمل بالوراقة وامتهانها حتى أنه ترك بغداد ورحل إلى الأندلس إلى الصاحب بن عباد ليتخلص من حرفته . وربما كان ذلك راجعا إلى طبيعة أبى حيان المنفرة .

والراجح أن الوراقة كانت حرفة رابحة وأن الأسعار بطبيعتها كانت تتزايد وترتفع مع الأيام ولم يكن يقبل عليها إلا المشتغلون بالعلم أساتذة وطلابا ، وهؤلاء كانوا عن صناعتهم راضين قانعين ، بل نرى كثيراً من العلماء والفقهاء والمحدثين يعتمدون على الوراقة فى كسب عيشهم كما كانوا يرون فيها مهنة شريفة وموردا للرزق الطيب . وكانت صناعة رائجة وأسواقها نشطة فى القرنين الثالث والرابع الهجرى . وكان يفد عليها جميع المشتغلين بالعلم بقصد الاطلاع أو الاستنساخ . وعلى من يرغب فى اقتناء نسخة من كتاب عليه أن يتفق مع الوراق على السعر والوقت اللازم لعملية النسخ والمراجعة والضبط .

= ذلك إلى زهده وورعه وحبه التكسب من عمل يده .

راجع تاريخ بغداد : ٧ : ٣٤٢ .

وفى مصر كان بعض الوراقين يعملون كموظفين دائمين عند علية القوم وففى دار الوزير أبى الفرج يعقوب بن كلسى (٣١٨ - ٣٨٠هـ) مجموعة يكتبون القرآن الكريم وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب والطب والبعض يشكلون المصاحف وينقطونها . وكان الوزير يدفع أجور من يعملون عنده من العلماء والوراقين والمجلدين .

ومع أن خطوط الوراقين كانت تختلف من فرد إلى آخر إلا أنها كانت تتسم بسمات واحدة تقريبا ومع ذلك فإن أبو بكر الصولى ينقل عن بعض الكتاب أن الخط يوصف بالجودة إذا خرج عن نمط الوراقين .

وكانت سوق الوراقين مركزاً للنشاط العقلى ، وكانت حوانيتهم مستودعاً لكل ما انتجته القريحة العربية فى شتى فروع المعرفة ، مما يعد دليلاً واضحاً مع خصوبة الفكر العربى واهتمام الناس فى ذلك الزمان بكل ما يلقى فى مجالس الاملاء وما يرون فى بطون الكتب من العلوم الدينية والعلوم الدنيوية .

التأليف وكتابة المسودات سلك المؤلفون العرب هذه الطريقة . حيث كان يعكف المؤلف على جمع مادته العلمية بالكتابة والمراجعة والتهذيب والتنقيح والإضافة والحذف والتبديل كما يشاء ، حتى إذا استقامت له الآراء والعبارات بيضها فى صورة نهائية هى التى يخرجها للناس بيده . ويذكر ابن النديم فى كتابة الفهرست ان ابن دريد المتوفى ٣٢١هـ ألف كتابا أسماه أدب الكاتب على مثال كتاب ابن قتيبة المتوفى عام ٢٧٦هـ ويذكر ابن أصيبعة أن الرازى المتوفى ٣١١هـ ألف كتاب الحاوى ولكن الأجل لم يفسح له تبيض ما حرره . ويروى ياقوت فى كتابة معجم الأدباء ان كتاب الأغانى لأبى فرج الاصفهانى المتوفى ٣٥٦هـ أخرج إلى الوراقين ليباع كما كتبه صاحبة بخط التعليق .

ولذلك هناك من المخطوطات التى يغلب عليها اختلاط الأسطر وكثرة الشطب والمحو والإلحاق بالحواشى وبذلك نعرف أنها مسودة الكتاب الأصلى فهى أوثق وأقوم من أى نسخة أخرى مهما بلغت من الاناقة وجمال الخط وحسن الاخراج .

وربما تراءى للمؤلف بعد تبيض كتابه واخراجه للناس أن يضيف إليه جديداً تكشف له بعد التروى والامعان وكثرة التأمل وبعد تمام الكتاب ، وقد تكون هذه الاضافة أسطراً أو بعض فقرات أو قد تكون اضافة كبيرة تستغرق مجلداً آخر . بعضهم كان يؤثر على نفسه الاضافة على نفس المتن الأصلى وإنما يجعل من تلك الاضافات كتابا مستقلاً يحمل فى عنوانه ما يربطه بالأصل . وقد تكون الاضافة يسيره بحيث يمكن للمؤلف أن يلحقها بنسخته وبنسخ تلاميذه المقربين ، أو بما يقع تحت يديه من نسخ الكتاب[١] .

ولعل هذا ما يفسر لنا ما نلاحظه من أن بعض المؤلفين كانوا يتركون أوراقا بيضاء فى أخر كل باب من الأبواب لتكون الفرصةأمامهم لاستلحاق مايظهر من الخواطر ولاقتناص ما شرد من الأفكار .

وكان بعض المؤلفين يعودون إلى كتبهم التى سبق أن ألفوها فيعيدون النظر فيما كتبوه ويرون الاضافة أو الحذف أحيانا . وهى احدى سمات المفكرين حتى وقتنا هذا ، التردد الفكرى فى التعبير بالكلمة المكتوبة . وهذا ما يحدث الآن بالنسبة للكتب المطبوعة التى يعاد طبعها من جديد فى صورة فريدة ومنقحة . ويحدثنا الثعالبى فى مقدمة كتابه **يتيمة الدهر** أنه أصدره للمرة الأولى سنة ٣٨٤هـ ، ثم تجمعت لديه زيادات واضافات جمه حصلها من أفواه الرواه ففكر فى إصداره من جديد على صورة أوفى وأكمل يقول : **فجعلت أبنيه وانقضه وأزيده وانقصه وأمحوه واثبته وانتسخة وأنسخه ثم ... واستمررت فى تحرير نسخة أخيرة** ، بعد أن غيرت ترتيبها وأحكمت تأليفها ، ثم يقرر الثعالبى فى وضوح لالبس فيه أن تلك الاصداره الأخيرة تضم أشياء جديدة لم تذكر فى الاصدارة الأولى وأنها تتضمن ما لم تتضمنه النسخة الأولى .

وربما توفى المؤلف قبل الانتهاء من كتابة مؤلفه ، فيكمل التلاميذ ما بدأه ، ويرتبونه وينشروه بين الناس بالاستنساخ ، فمعجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدى أكمله تلميذه الليث بن رافع ، وكتاب المسائل لحنين بن اسحق

(١) مثل كتاب نهج البلاغة للشريف الرضى .

جمعه مؤلفه فى مسودات بيض فيها البعض ثم أكمل حبيشى بن الحسن تلميذه وابن أخته ذلك الكتاب وزاد فيه من عنده ، ولذلك يوجد هذا الكتاب معنوناً باسم المسائل لحنين بزيادات حبيشى .

والشيء نفسه حدث لصحاح الجوهرى ، فقد توفى مؤلفه قبل أن يتم تبيضه ، فبيضه ابراهيم بين صالح الوراق إلا أنه غلط فيه فى عدة مواضع ذكرها ياقوت فى معجم الأدباء .

ويتصل بهذه النقطة موضوع رواية الكتب واختلاف نصوص الكتاب الواحد من مخطوطة لأخرى تبعا لاختلاف رواياته . وقد تجلت هذه الظاهرة فى أوضح صورها فى كتب الحديث ودواوين الشعر . ويرجع ذلك إلى الرواة والإملاء ، وإن كانت الرواية ليست المسئول الوحيد عما نجده من اختلافات بين النسخ المخطوطة للكتاب الواحد ، وإنما كان الوراقون والنساخون الكتبة يشاركون بنصيبهم أيضا ، فقد كانوا يتزيدون ويضيفون إلى الكتب ما ليس فيها ، حتى اشتهر بعض الوراقين بالكذب والاختلاف ، ومن الكتب التى لم تسلم من عبثهم معجم العين الذى زادوا فيه حتى أختل .

أما ظاهرة الاختلاف نتيجة الاملاء فى مجالس الحواضر الاسلامية خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين فقد كانت ، حتى ليخيل للمرء أن طريقة الاملاء هى الأسلوب الغالب فى التأليف خلال هذه الفترة . رغم أنه لم يكن يتصدى للإملاء إلا من وثق بنفسه ووثق الناس به ، وشهدوا له بالعلم والفقه وحسن تجويد الخط ، فقد كانت الإملاء أعلى وظائف أهل اللغة والحديث يقول السيوطى : إن الحفاظ من أهل الحديث أعظم وظائفهم الاملاء .

وكانت مجالس الاملاء قد بدأت تنتشر وتصبح ظاهرة عامة مع بداية القرن الثالث الهجرى وتمركزت فى بغداد مقرا لخلافة ومركز الحركة العلمية ومقصد العلماء والأدباء والفقهاء والفلاسفة من شتى بقاع العالم العربى والإسلامى ففى عصر المأمون أملى الفراء المتوفى عام ٢٠٧هـ كتاب المعانى ، واجتمع خلق كثير لم يمكن حصرهم وقيل أنهم بلغوا ثمانين قاضيا . وأن ما أملى عليهم

يحمل على أجمال . ومن أجل هذا ظهرت فئة جديدة تعرف بالمستملين وهم الذين يرددون كلمات الفقيه العالم وراءه حتى يسمع كتبة الاملاء .

وكان عدد هؤلاء المستملين يكثر حينما يكثر عدد الحاضرين وتبعد المسافة بين الكتبه والفقيه وقد اجمعت كل آراء المؤرخين أن تلك المجالس كانت تتسم بالأمانة العلمية المنقطعة النظير ، وتلك أرق وأروع مظاهر الخلق العلمى الأصيل . ومع ذلك فقد كان أكثر العلماء يملون مؤلفاتهم دون أن يعودوا لمراجعتها ، فكان الكتاب الواحد يتعرض للزيادة والنقصان إذا تكرر القاؤه فى أكثر من مجلس ، وكان الوراقون يقومون بما تقوم به المطابع ودور النشر فى هذه الأيام من اصدار النسخ اللازمة للسوق من كل كتاب ، وكان عدد النسخ يختلف باختلاف اقبال الناس على الكتاب الواحد وحاجتهم إليه كثرة أو قلة أو ما بينهما .

لمحات من النشر فى العصر الوسيط

فى تاريخ الانسانية نهضات كثيرة مختلفة الألوان متباينة المظاهر غير أنه ليس هناك شك فى أن النهضة الأوروبية فى العصر الوسيط كانت من أوسعها مجالاً واعظمها أثراً . يعد بترارك Petrarque (١٣٠٤ – ١٣٧٥) م أول أساتذة الأدب الذين وضعوا الحجر الأساسى فى بناء النهضة ورفع الصوت جهرة مناديا بالتجديد والاصلاح ، فنادى بتعلم اليونانية والعربية وبعض اللغات الشرقية الأخرى ونشر مع بعض من زملائه مثال دانتى Dante (١٢٦٥ – ١٣٢١) بعض المخلفات الرومانية النفيسة أمثال رسائل شيشرون وسينيكا وترجموا الكثير من الكتب اليونانية التى امتازت بجمالها وروعتها مثل الألياذة والأديسة ومحاورات افلاطون وفى ثنايا الأدب أخذوا يدرسون كل شىء من سياسة واجتماع وعلم وفن وفلسفة ودين ، كان نسخ ونشر الكتب الأدبية هو نقطة البدء ومبعث النهضة . وقد صاحب هذه النهضة الأدبية نهضة فنية تمثلت فى الفن الصامت النحت والنقش والتصوير وجعلوه بعيداً عن التعقيد وتجنبوا الخيال المفرط ، واقتربوا فيه من الواقع الحقيقى قدر الامكان ، وفى مقدمة

الفنانين الذين كان لهم السبق ثلاثه متعاصرين حظيت بهم أوروبا وهم ليوناردو فلشى Leonardo devinci (١٤٢٥ - ١٥١٩) ورفائيل Raphael (١٤٨٣ - ١٥٢٠) وميكائيل انجلو Michel Anglo (١٤٧٥ - ١٥٦٤) الذين خلفوا أروع التحف الفنية وأقومها ، ولم تكن النهضة الأدبية والفنية بمعزل عن نهضة أخرى علمية وأصبحت الطبيعة شغل الأديب والعالم والفنان على حد سواء - كل يريد التعبير عنها وتحديد معالمها - وكان من نتائج هذا ظهور فيسال عالم تشريح الأعضاء (١٥١٤ - ١٥٦٤) Vesale وهارفى Harvey (١٥٧٨ - ١٦٥٨) مكتشف الدورة الدموية الصغرى . وظهر كوبرنيق Coperincus (١٤٧٣ - ١٥٤٣) الذى أكد أن الأرض أحد كواكب المجموعة الشمسية وكشف جاليلو Galilio (١٥٦٤ - ١٦٤٢) قوانين سقوط الأجسام وبرهن على حركة الأرض واخترع التلسكوب ، واهتدى كيلر Kepler (١٥٧١ - ١٦٣٠) إلى قوانين حركة الكواكب ولاشك أن ظهور هؤلاء جميعها نشط حركة استنساخ الكتب والبحوث .

ومع نشأة الجامعات الأوروبية فى أواخر القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر الميلادى بدأ نشر الكتب فى أوروبا يحتل قاعدة واسعة . واستقلت بمرور الوقت الجامعات الأوروبية عن الكنيسة ، مما زاد الطلب على الكتب . ومما أدى إلى قيام طبقة جديدة من تجار الكتب ، والأقلام ، وورق الكتابة . إلى جانب تجار الكتب المتجولين . وكانت الطبقة الجديدة من تجار الكتب ولوازم الكتابة تقوم بامداد طلاب الجامعات بالمخطوطات . ثم بتقدم القرون الوسطى تزايد انتاج الكتب الدنيوية . وبحلول النهضة ، حدثت تغيرات فى النشر إذا أصبحت العواصم الأوروبية ، وبخاصة برلين وباريس ، مراكز هامة للنشر ، وذلك قبل اختراع الطباعة . وتزايد عدد النساخين وأصبح من المألوف أن يوظف الناشر ٥٠ ناسخا مرة واحدة ، وكان بعض الناشرين يطلق على مكان النسخ والتجليد مصنع الكتب .

ولما جاءت المطبعة حدثت القفزة الباهرة فى عالم النشر . فقبل اختراع الطباعة مباشرة كان عدد الكتب المخطوطة فى أوروبا عشرات الألوف . فلما

حل عام ١٥٠٠ أى بعد نصف قرن تقريبا من الطباعة كان عدد الكتب فى أوروبا ٩ ملايين كتاب . وهذا الفرق بين الرقمين يبين لنا القفزة الباهرة للنشر بفضل الطباعة .

وكان أغلب هواة الكتب فى بداية عصر الطباعة من المعادين عداوة صريحة للكتاب المطبوع . إلى حد أنهم لم يطيقوا أبدا اقتناءه فى مكتباتهم . ولكن التطور فرض نفسه ، فما لبثت أقدام الكتاب المطبوع أن رسخت ، ومن ثم تحول عدد من الخطاطين والرسامين القدماء إلى طابعين ناشرين أو إلى حفارين على الخشب .

وتلى التطور السريع للطباعة منافسة متزايدة بين الطابعين الناشرين وتجلى ذلك فى صورة تخفيض أسعار بيع الكتب ، وهذا هو السبب فى ظهور مؤلفات شعبية مثل كتب الخرافات والوعظ والمغامرات . وبرغم ذلك فإن جمهور الكتب لم يكن كبيرا ولا قادرا على امتصاص ذلك التيار الجارف من الكتب . وكان ذلك دافعا لتجوال الطابعين الناشرين بمطابعهم من مدينة إلى أخرى . والمعروف أنه حتى سنة ١٥٠٠م كان عدد الكتب المطبوعة قد بلغ ثلاثين ألف كتاب ثلثها فى المانيا وحدها . وبرغم أن عدد النسخ المطبوعة من كل كتاب لم يتراوح فى أغلب الأحيان من مائة إلى ألف نسخة إلا أنه كان انتاجا ضخما فى ذلك الوقت . ولم يحقق ربحا يذكر من الطابعين والناشرين سوى الكبار ممن استطاعوا افتتاح الحوانيت على نفقتهم ، بالمدن التجارية الكبرى فى أوروبا ، وكانت تتم بعض عمليات النشر باشتراك طابع وحفار على الخشب وممول ، وبخاصة فى الكتب الكبيرة كما حدث عام ١٨٤٢ عندما نشر كتاب تاريخ العالم لمؤلفه « شدل » باللغتين الألمانية واللاتينية . وكان الربح يقسم بين المشتركين بما فيهم المؤلف والمترجم . وكان بعض طابعى عصر النهضة على قدر كبير من الثقافة . كما كان يخدم المطابع الهامة بعض العلماء كناشرين ومراجعين . وتحولت المراكز التجارية الكبرى فى أوروبا إلى مراكز للنشر بعد انتشار الطباعة فيها .

النشر الحديث

تنتسب مهنة النشر بمعناها المعاصر إلى القرن التاسع عشر الميلادى ، ذلك المعنى الدال على مفاهيم المهنة وعلى التخصص فى وظائف مهنة النشر حيث كانت الحدود قبل ذلك غير فاصلة بين عمل المؤلف وعمل الطابع وعمل موزع الكتب .

معظم الناشرين المعاصرين يشترون خدمات التجهيز الفنى الطباعى من السوق المفتوح حيث يقومون بإعداد مادة التأليف بأسلوب الجمع التصويرى وتصويرها أفلاما واظهار هذه الأفلام على ألواح حساسة تمهيداً للطبع حسب الكميات المرغوب فى طباعتها وتجهيزها بعد ذلك من حيث التطبيق كملازم ثم التجميع والتجليد بالأسلوب اليدوى أو الميكانيكى . لكى يبدأ الناشر بعد ذلك فى توزيع انتاجه على مكتبات البيع ومواقع التسويق للجمهور وكذا أكشاك الأحياء وقد يقوم بتصدير كمية إلى البلاد المحيطة أو المجاورة .

ولاشك أن الناشر هو حجر الزاوية فى صناعة الكتاب وتوزيعه . وهو الذى يسعى إلى المؤلفين للحصول على مخطوطات الكتب ويتعاقد مع المؤلفين نظير منحهم حق التأليف ولكى يكون له حق النشر والتوزيع . وهو الذى يدفع بالمخطوط إلى جهات الاعداد والتجهيز الفنى للإعداد الطباعى ، ثم هو الذى يقوم بتحديد الكميات التى توزع على المكتبات الفرعية ... الخ أى أنه محور عملية النشر برمتها ولن تقوم صناعة الكتاب إلا بوجوده .

وفى تاريخ الكتاب كان الناشر كاهنا كما كان هو الحال فى مصر القديمة ، ثم مؤلفـاً أو أديباً أو وراقا أو خطاطاً وناسخاً كما فى عصور ازدهار الثقافة الاسلامية ، ثم بائعا للكتب مع بداية العصر الحديث فى أوروبا ، حتى جاء القرن التاسع عشر ، فأصبح الناشر صاحب مهنة مستقلة ، ففى تاريخ الحضارة العربية كان كثير من الوراقين يقومون بأعمال النشر ، فكانوا يصنعون الورق لتقليل التكلفة ، ثم يقومون بنسخ الكتب بأسلوب الإملاء الجماعى ، ثم يحرصون على تجميع الكتب وتجليدها وزخرفتها وتزويقها ، وقبل كل ذلك

كانوا يحرصون على اختيار أشهر الكتب لأشهر المؤلفين لكى يكون العائد عليهم من بيع هذه الكتب أفضل من غيرها ، وكانوا أحيانا يقومون بتسفير الكتب النادرة من مكان لآخر مثلما كان يحدث فى كتب المشرق والمغرب .

وفى أوروبا خلال المائة العام الأولى من عمر الطباعة ، كان الطابعون اصحاب المطابع هم الناشرون ، لقد سيطر صاحب ماكينة الطباعة بصورة أساسية على صناعة الكتاب وتجارته وتوزيعه بهذه الحرفة الجديدة . فكان سابك الحروف من الرصاص والنيكل والانتيمون هو الطابع وربما يكون أيضا المحرر ومخرج الكتاب ، وهو البائع الموزع ، أى الناشر ولم يكن يقع خارج وظائفه غير المؤلف وصانع الورق . ومن المعروف تاريخيا أن سابك الحروف مهنته الأساسية هى صياغة المعادن والحلى والجواهر . وخبرته فى مجال صياغة وصهر المعادن النفيسبة هى التى دفعته إلى الصنعة الجديدة وحيث كان الأمل فى أن تكون مربحة نتيجة تهافت الناس على شراء الكتب المطبوعة . وإذا كان النشر المعاصر ينتسب إلى القرن التاسع عشر الميلادى ، فإن ذلك لا ينفى عن النشر تاريخه ، وأن النشر عمل قديم قام فى الحضارات القديمة ، وما يزال مستمراً ومتطوراً كما نرى ، ويتميز تاريخ النشر بالتفاعل بين التطور التكنولوجى ، وبين التغير والتطور الاجتماعى ، وكلاهما يعزز الآخر . ولقد اعتمد تاريخ النشر على ثلاثة اختراعات أساسية هى :

اختراع الكتابة ، واختراع الورق ، واختراع الطباعة

كما اعتمد تاريخ النشر على مظهر رئيسى من مظاهر التطور الاجتماعى هو انتشار التعليم ، فقبل اختراع الكتابة . كانت المعلومات تنتشر مشافهة بين الناس ، ثم بعد نشأة الكتابة وتطورها ، شاركت الحضارات فى تسجيل وتدوين العلوم والفنون على البردى والرق وعلى ألواح الطين والحجارة وعلى العظام والجلد وما شابه ذلك ، كما استخدمت الكتابة فى المراسلات بين الحكام وفى عقود البيع والشراء . كما دونت الاتفاقيات والعهود والبروتو كولات ذات الأهمية الخاصة . ويشير مؤرخو النشر إلى احتكار الكهنة ورجال الدين فى

الحضارات القديمة لعملية النشر ، وأن انتاج الكتب كان مرتبطا بالمعابد الدينية وأن كتاب الموتى الفرعونى فى رأى المؤرخين هو أقدم كتاب عرفته البشرية من تأليف الكهنة وهو بمثابة شهادة وفاة باسم الميت حيث يكتب اسمه فى المكان الخالى . وكان يحلى بالرسوم البارعة والألوان الحمراء والخضراء للموتى الأغنياء وبالرسوم البسيطة وبدون ألوان للموتى الفقراء بطبيعة الحال .

وتعطينا العصور الوسطى صورة مشابهة لسيطرة الكهنة والقساوسة على عملية النشر واستثماره تجاريا ، فقد طبع رجال الكنيسة فى برشلونه بأسبانيا فى عام ١٤٩٨م ثمانية عشر ألف صك غفران أيام بدعة صكوك الغفران التى ابتدعتها الكنيسة فى ذلك الزمن . وإن كنا لا ننسى أن مصلحى عصر النهضة فى أغلبهم كانوا قساوسة ورهبانا شجعهم التجديد ، مع مناقشة المسائل الدينية فى حرية وطلاقة ، وقد تزعم هذه الحركة الاصلاحية الراهب الألمانى مارتن لوثر الذى ثار ضد صكوك الغفران وبيعها ، وحمل على الكنيسة وسلطانها ، ونادى بحرية الفرد واستقلاله وقدرته على أن يتصل بربه مباشرة دون حاجة إلى وساطة ،اهب أو قسيس ، خصوصا والانجيل بعد طباعته ونشرة باللغات الأوروبية ا ... ـبح فى متناول الجميع . ولم تلبث حركته أن امتدت إلى كثير من بلدان أوروبا والتف حوله جماعة البروتستانتين أو المحتجين نتيجة كثرة طباعة ونشر الكتاب المقدس وبيعه بأسعار زهيدة فى ألمانيا وسويسرا والسويد والنرويج وانجلترا وهولنده .

وإذا كانت الطباعة قد مدت وضاعفت عدد النسخ المطبوعة من الكتب ، فإن حرية التعبير التى حصلت عليها معظم الدول الأوروبية فى القرن الثامن عشر بعد كفاح مرير من أجلها هى التى وسعت حدود الكتب ، بل وكافة المواد المطبوعة المتداولة . وتسابق التقدم الطباعى مع انتشار التعليم ، حتى وصلت صناعة النشر فى القرن العشرين إلى القوة المؤثرة على عقول البشر ، فى الكرة الأرضية ، برغم التفاوت الكبير بين الدول المتقدمة والدول النامية المتخلفة .

وفى القرن العشرين يذكر « ادوين اميرى » ان مجال نشر الكتب يعد قزما

بين عمالقة الصناعة الأمريكية . ولكن هذا الوصف لمجال نشر الكتب فى أمريكا بأنه قزم يبدو أمامنا فى العالم الثالث شيئا آخر . فالمتوسط السنوى – كما يذكر ادوين – لانتاج الكتب فى الولايات المتحدة الأمريكية يبلغ بليونا و ٢٠٠ مليون نسخة . ويبلغ ٢٠ ألف عنوان جديد يقوم بانتاجها أكثر من ١٥٠٠ دار نشر .

وفى عالمنا العربى المعاصر يرتبط تاريخ النشر المعاصر بدخول المطبعة إلى أقاليم الوطن العربى فى ظروف مختلفة . ولنا أن نتجاوز عن المطبعة التى دخلت دير « قزحيا » بلبنان عام ١٦١٠ ، والتى طبع فيها « المزامير » باللغة السريانية . ثم المطابع التى نشأت فى القرن الثامن عشر فى ظل الأديرة ورجال الكنيسة اللبنانية . لأن أثرها فى مجال النشر كان قاصرا على الكتب الدينية . كذلك لنا أن نتجاوز مطبعة الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ ، التى جاءت مع الحملة ثم رحلت معها عام ١٨٠١ ، فلم يكن لهم فى مجال النشر أثر يذكر . ونقف بعد ذلك مع المطبعة التى أنشأها محمد على والى مصر عام ١٨٢٠ فى بولاق ، لنبدأ تاريخ النشر العربى المعاصر . كانت المطبعة حكومية بطبيعة الحال ، وكان ما تنشره من كتب اما حكوميا ، واما على نفقة ملتزم طبع ونشر ، يدفع التكاليف للمطبعة . وكانت الكتب المطبوعة على نفقة الحكومة تخدم ديوان المدارس الذى تنسب المطبعة اليه ، وتخدم أغراض الجيش ، وحركة التوسع فى الجيش والتعليم معا . ثم كانت الكتب التى تطبع على نفقة ملتزم الطبع والنشر ، وكانت الشكوى من التعسف فى حساب نفقات الطباعة . وكان ذلك من العوامل التى شجعت وساعدت على انشاء مطابع أهلية فيما بعد . ومع بداية القرن العشرين كان عدد من المصريين قد امتهنوا مهنة النشر . بعضهم كان صاحب مكتبة ، وبعضهم كان من عمال الطباعة الطموحين الذين شعروا بأهمية الطباعة وكسبها وبعضهم من الأدباء المؤلفين الذين أرادوا أن يخوضوا بأنفسهم تجربة نشر انتاجهم . وهكذا كان الحال فى معظم أقاليم الوطن العربى بصور قليلة الاختلاف والتفاوت .

فى العراق كانت أول مطبعة حجرية قامت بطبع كتاب « دوحة الوزراء فى

تاريخ وقائع الزوراء » فى سنة ١٨٣٠ وانتشرت المطابع فى العاصمة العراقية انتشاراً سريعاً وفى حوالى سنة ١٩٢٥ أنشأت الحكومة مطبعة المساحة وزودتها بأحدث الآلات آنذاك .

وفى الأردن أنشئت أول مطبعة عام ١٩٢٢ وفى سنة ١٩٢٦ ظهرت المطبعة الوطنية ثم تلتها فى سنة ١٩٣٢ مطبعة الاستقلال العربى . وفى الأردن اليوم مطابع كبرى بها أحدث أنواع ماكينات الطباعة الانجليزية والامريكية .

وفى المملكة العربية السعودية أسست أول مطبعة عام ١٨٨٢ باسم مطبعة ولاية الحجاز وفى سنة ١٩١٩ أسست مطبعة أم القرى كمطبعة للحكومة وفى عام ١٩٥٢ أنشئت مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر ، وهى من أكبر دور النشر والطباعة فى العالم العربى .

فى الكويت أنشئت أول دار طباعة عام ١٩٤٧ ثم أقيمت دار المطبوعات فى الستينات على أحدث طراز عالمى فى هذا المجال .

وكانت حلب أول مدينة سورية عرفت الطباعة الحجرية العربية ٢م ١٧٠٦ أما مطابع الحروف فقد عرفت عام ١٨٥٥ ولم تعرف دمشق فن الحفر (الزنكغراف) إلا فى أوائل القرن العشرين .

أنواع النشر :

نقصد بأنواع النشر ، المواد المطبوعة ، بطبيعة الحال ، وإذا صنفنا المواد المطبوعة التى تمخضت عنها التجربة البشرية عبر القرون ، نجدها تنحصر فى ثلاثة أنواع رئيسية .

النوع الأول : الدوريات ، وهى المواد التى تصدر فى فترات منتظمة بصورة من الصور . والصحافة هى الدوريات . وهى تنقسم إلى قسمين رئيسيين أيضا هما : الجريدة (اليومية) ، والمجلة (الاسبوعية – نصف الشهرية – والشهرية – والفصلية ... الخ) .

الدوريات

المطبوع الدورى ببساطة هو المطبوع الذى يصدر بعنوان مميز ، على فترات منتظمة ، فى أعداد أو أجزاء متتابعة يحكمها ترقيم مسلسل متصل ، يشتمل كل منها على أسهامات لأكثر من فرد واحد ، وقد قصد بهذا المطبوع الصدور إلى ما لا نهاية ، بمعنى أننا لا يمكن أن نعرف مسبقا متى يتوقف عن الصدور . وينضوى تحت مظلة هذا التعريف الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية ونصف الشهرية والفصلية والنصف سنوية والحوليات والكتب السنوية / على اختلاف مستوياتها وتنوع مجالات اهتمامها / وعادة ما ترتبط المجلات فى ذهن القارىء العام بالقراءة الخفيفة لأغراض التسلية أوقات الفراغ ، بينما ترتبط فى ذهن الباحث المتخصص بالقراءة الجادة لأغراض الحصول على المعلومات ، والملاحقة المتجددة للاحاطة بأحدث المعلومات فى مجال تخصصه . وإن دل هذا الاختلاف فى نمط الاهتمام على شيء فانما يدل على تنوع الدوريات فبالاضافة إلى الصحف ، بتركيزها على الجوانب الاخبارية الجارية ، هناك المجلات العامة التى تخاطب قطاعات عريضة من القراء ، ومجلات المرأة والأسرة ، ومجلات الشباب ، ومجلات الأطفال ، وهذه كلها تجمعها التغطية الشاملة والمعالجة السطحية الخفيفة . وأخيرا نجد المجلات العلمية أو الأكاديمية المتخصصة . ويمكن القول بعبارة أخرى أن هناك فئتين أساسيتين من الدوريات ، دوريات عامة ودوريات متخصصة .

وليس هذا فى الواقع هو التقسيم الوحيد للدوريات ، ويكفى القول بأن المكتبيين عادة ما يميلون لتقسيم الدوريات وفقا لجهات إصدارها إلى **ثلاث فئات أساسية** ، الدوريات التى يصدرها الناشرون التجاريون ، والدوريات التى تصدرها الهيئات الأكاديمية ومراكز البحوث والاتحادات والجمعيات العلمية ، والدوريات المحلية التى تصدرها الشركات . ولكل واحدة من هذه الفئات الثلاث سماتها المميزة ، فالدوريات التى يصدرها الناشرون التجاريون ، وعادة ما تسمى بالدوريات التجارية ، لابد وأن يكون تحقيق الربح المادى من

بين أهدافها . ومن ثم فانها عادة ما تحرص على اتساع قاعدة من تخاطبهم من القراء . وتدخل ضمن هذه الفئة جميع الدوريات الخفيفة التى تقرأ لأغراض المتعة والتسلية ، بالاضافة إلى قطاع كبير من الدوريات الجادة / كما تدخل الصحف أيضا ضمن هذه الفئة . أما دوريات الهيئات العلمية فانها لا تهدف إلى تحقيق ربح مادى وإنما خدمة أهداف البحث والاتصال العلمى فى مجالها . وعادة ما توزع دوريات الاتحادات والجمعيات العلمية على أعضائها ، كما يمكن لغير الأعضاء الحصول عليها بالاشتراك . أما الدوريات المحلية والتى تشكل أصغر الفئات فهى الدوريات التى تصدرها الشركات لتلبية الاحتياجات الاعلامية للعاملين فيها أو لأغراض الترويج والدعاية أو لبث الأخبار المحلية للشركة . ومن ثم فانها عادة ما تتفاوت تفاوتا ملحوظا فى محتواها ، فبعضها لا يشتمل على ما هو أكثر من مجرد الاخبار الاجتماعية للعاملين بالشركة ، بينما يشتمل البعض الآخر على المقالات العلمية الجادة ذات المستوى الرفيع والتى يمكن الافادة منها على أوسع نطاق . وخير الأمثلة لهذه الدوريات المجلات التى تصدرها الهيئات المتخصصة مثل مجلة القوات المسلحة ومجلة الاقتصادى والمجلات التى تصدرها شعب النقابات المهنية مثل نقابة المهندسين ونقابة الأطباء ونقابة المعلمين ونقابة التجاريين ... الخ .

وتشكل الدوريات العمود الفقرى لمجموعات معظم المكتبات المتخصصة . هذا بالاضافة إلى أن محتويات معظم الكتب فى العلوم والتكنولوجيا تعتمد أساسا على ما ينشر بالدوريات من معلومات . وتمثل الدوريات أحد المنافذ الرئيسية لبث الأفكار وتبادل الخبرات ونشر المعلومات الحديثة . وتتيح الدوريات بطبيعتها فرصة تتبع تطور الأفكار ونموها ، وخاصة تلك الأفكار التى لا يستغرق التعبير عنها نصا مطولا يمكن نشره فى شكل كتاب ، والأفكار التى تبلغ حدا من التخصص لا يمكن معه نشرها فى شكل كتاب .

وعادة ما يقال أن رصيد المعلومات المتاح فى أى مجال يتكون من المعلومات التى تضمها الكتب بالاضافة إلى ما تشتمل عليه مقالات الدوريات التى نشرت بعد تأليف أحدث كتاب فى المجال . ولا غرابة إذا علمنا أن هناك الكثير من

الموضوعات التى لم تنشر فيها معلومات فى شكل كتاب على الاطلاق . وكثير من هذه الموضوعات من التخصصات الجديدة . ومن الممكن للدوريات بحكم طبيعتها أن تنهض بعدد من الوظائف الاضافية التى لا يمكن للكتاب النهوض بها ، فقد أتاح انتظام الدوريات وسرعة نشرها القدرة على الاضطلاع بوظيفة اجتماعية بالاضافة إلى وظائفها العلمية ، وتتمثل هذه الوظيفة الاجتماعية فى دعم ادعاءات السبق العلمى ، لأن قصب السبق فى النشاط العلمى عادة ما يكون من نصيب من ينشر أولا ، لا من نصيب من يتوصل إلى الكشف قبل غيره . وقد أدى هذا إلى القول بأن أهمية الدوريات فى تلبية احتياجات الباحثين إلى منافذ للنشر لا تقل بحال عن أهميتها فى تلبية احتياجاتهم إلى المعلومات .

وعادة ما تشتمل الدوريات ، وخاصة المتخصصة منها ، على أبواب خاصة بالمراسلات ذات الأهمية القصوى والتى تكفل فرصة تبادل وجهات النظر حول موضوعات اهتمامها ، والتعليق على ما ينشر بها من مقالات . كذلك تنشر بعض الدوريات المتخصصة مقالات عرض الكتب فصلا عن مستخلصات الانتاج الفكرى الجديث ، بالاضافة إلى المواد الأخبارية والاكتشافات المهنية والاعلانات . ولا يفوتنا هنا أن نؤكد أن الأهمية النسبية للدوريات ، كمنفذ لنشر المعلومات وكمصدر للحصول على المعلومات ، تتفاوت من مجال لآخر ، حيث تبلغ ذروتها فى العلوم والتكنولوجيا ، ثم تتضاءل قليلا فى العلوم الاجتماعية ، لتصل إلى أدنى مستوياتها فى الفنون والانسانيات .

والافادة من الدوريات أصعب بكثير من الافادة من الكتب نظرا لتشتت مفردات المعلومات فى المقالات الموزعة على الأعداد المتفرقة . ومن ثم فان الافادة الفعالة من كنوز ما تشتمل عليه الدوريات من معلومات تتطلب نوعا من الخدمات الارشادية . وتتمثل هذه الخدمات الارشادية فى كشافات الدوريات ونشرات المستخلصات التى تتضمنها الدوريات خلال فترة زمنية معينة .

النوع الثانى : المطبوعات غير الدورية ، ويقصد بها الكتب ، إذ تشكل

الكتب إلى حد بعيد أكثر أنواعها ، وهى أقدم أنواع المواد المنشورة فى تاريخ البشرية وهى الوعاء الرئيسى للتراث الانسانى .

النوع الثالث : مطبوعات الأهداف المباشرة . وهى المطبوعات التى لا يمكن اعتبارها كتبا ولا يمكن اعتبارها صحفا . وان كانت شروط النشر تنطبق عليها أو على معظمها . وتشمل المطبوعات ذات الأهداف المباشرة ، كالخرائط ، والصور والرسوم والنوتات الموسيقية . كما تشمل التقاويم السنوية ، والمفكرات اليومية والجداول الخاصة بالطائرات والقطارات والسفن وحتى امساكية رمضان وفوارق التوقيت بين العواصم العالمية . وتشمل أيضا المنشورات الحزبية والدينية وحتى قوائم الطعام والتسعيرة وتذاكر السفر .... ألخ .

ان هذه المطبوعات تندرج من استنساخ لوحات الفن الرفيع للفنانين العالميين إلى قوائم التسعيرة للفنادق والمطاعم . كما تتفاوت من احتياجات الاستخدام الترف والذوق الرفيع إلى تلبية الاحتياجات الحياتية اليومية . ولكنها فى جملتها ذات طبيعة مشتركة . هى أن لها أهدافا مباشرة . وهذا هو العنصر الرئيسى الذى يميزها عن الكتب ، وعن الصحف .

أنواع نشر الكتب :

يعنينا ونحن نبحث فى صناعة الكتاب ونشره أن نحدد بشكل عام أنواع نشر الكتب . والحقائق الأولى التى تواجهنا عند الحديث عن أنواع نشر الكتب يمكن ايجازها فيما يلى :-

١ - يفيد التعرف على أنــواع الكتب فى ترشيد الافادة من كل نوع . والأساس المتبع فى تقسيم الكتب إلى أنواع فى هذا السياق أساس وظيفى يراعى الهدف من تأليف الكتاب ، والجمهور المستهدف ، ومستوى المعالجة الموضوعية ، ومدى الشمول وأنماط الانتقاء فى تناول الموضوعات . ولسنا بحاجة لأن ننبه إلى ما يمكن أن يكون هناك بين فئات هذا التقسيم من تداخل .

وبصرف النظر عن الكتب المنزلة والكتب المقدسة ، تنقسم الكتب التى نتداولها أساسا إلى فئتين وفقا للطريقة المتبعة فى تسجيل الخبرات البشرية وتصورنا للعالم المحيط بنا . فمن الممكن لنفس الظاهرة ، طبيعية كانت أو اجتماعية أن يلحظها شخصان أحدهما مسلح بالخيال الخصب والقدرة على التصوير اللفظى وجمال الأسلوب والثراء اللغوى ... إلى آخر ذلك من مقومات القدرة على التأثير فى القارىء ، والآخر مسلح بالقدرة على الملاحظة الدقيقة والقدرة على التحليل والربط والاستنتاج ، وربما كان مزودا أيضا ببعض أدوات الملاحظة والقياس المتطورة . فهل يمكن لكلا الشخصين تسجيل خبرتهما فى ملاحظة هذه الظاهرة بنفس الطريقة ؟ والاجابة على هذا السؤال بالنفى طبعا ، حيث تتحكم الامكانات والمواقف والاتجاهات والاهتمامات فى الناتج النهائى . وربما كان الناتج النهائى لخبرة الشخص الأول قصيدة شعرية أو قصة قصيرة أو رواية ... إلى آخر ذلك من أشكال الأدب البحت أو العمل الأدبى الخيالى Ficition الذى يخاطب عواطف القراء قبل عقولهم ، فى حين يمكن للناتج النهائى لخبرة الشخص الآخر أن يكون تقريرا علميا يهتم بأدق تفصيلات الظاهرة ويخاطب العقل فى المقام الأول ، ويسمى بالأدب الموضوعى Non-ficition ، حيث يدخل ضمن الانتاج الفكرى لموضوع معين . وللموضوع هنا معنيان الأول متصل بالمنهج ، بمعنى استبعاد جميع العوامل الشخصية أو الذاتية فى دراسة الظاهرة ، والثانى متصل بالتخصص فى مجال معين .

ولما كان موضوع نشر الكتب هو محور الاهتمام فى هذا الكتاب فان اهتمامنا يتركز فى الأساس على الفئة الأولى وهى الكتب التى تتناول الخبرات البشرية الموضوعية ، ونترك ما دونها جانبا ، بما فى ذلك الفئة المتأرجحة بين النوعين وهى القصص العلمية أو أدب الخيال العلمى ، لأنها بطبيعتها أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع الموضوعى .

هذا وتنقسم كتب المعالجة الموضوعية للخبرات البشرية بدورها إلى فئتين فرعيتين : كتب مرجعية وأخرى غير مرجعية ، كتب لا يمكن أن تقرأ

من أولها إلى آخرها وانما يرجع اليها عند الحاجة وكتب يمكن قراءتها من أولها إلى آخرها لأغراض الدراسة أو التثقيف الذاتى مثلا . ونهتم هنا بالكتب غير المرجعية ، **ومن الممكن تقسيم الكتب غير المرجعية ، إلى ست فئات هى الكتب الدراسية ، والكتب التمهيدية ، والكتب أحادية الموضوع ، والتراجم ، والأعمال التجميعية والمطبوعات الرسمية .**

٢ - أن الفصل بين أنواع من الكتب عن غيرها وليد التطور العالمى فى صناعة النشر الذى شهده القرن العشرون الميلادى .

٣ - أن الحدود ليست قاطعة بين أنواع الكتب ، ولكن الحدود واضحة بين أنواع النشر ، فالكتاب الجامعي غير كتب الأطفال غير الكتب الدينية ... وهكذا .

٤ - أن دور النشر الكبرى تخصص ادارات لأنواع النشر المختلفة ، وتخصص سلاسل لمنشوراتها سواء فى النشر العام أو فى النشر المتخصص ، فتصبح السلاسل داخل النشر المتخصص أكثر تخصصا .

٥ - أن الأنواع المختلفة لنشر الكتب تشبه إلى حد ما التخصص فى الإعلام بصفة عامة . فكما نشأت صحافة الأطفال ، أو إذاعة الشباب ، أو السينما التسجيلية ، نشأت السمات الخاصة بالنشر الجامعى ، أو كتب الأطفال ، أو الكتب الدينية . وأن ظاهرة التخصص فى الإعلام تعكس اتساع نطاق المعرفة وتميز جمهور المتلقين ، وتحديد اهتمامات هذا الجمهور . وعلى حد تعبير الاقتصاديون أنه إذا أريد للكتب أن تكون نافعة حقا ، فينبغى أن تلبى الحاجات الحقيقية للقراء واهتماماتهم . ولذا فإنهم يصنفون أنواع نشر الكتب كالآتى :

١ - **نشر كتب التراث** : هذا النوع من النشر عرفه العالم فى مختلف ثقافاته ، وبخاصة أوروبا عند ظهور الطباعة . وهو فى عالمنا العربى المعاصر قضية ثقافية وموضع حوار . ولقد حاولت معظم البلدان العربية التى نمت فيها صناعة نشر الكتب أن تدلى بدلوها فى نشر التراث . لذلك طالعتنا عناوين عديدة تحت أسماء مختلفة لمدلول واحد ، مثل سلسلة التراث ، والمكتبة التراثية ، ومن

تراثنا ، وما شابه ذلك . والتراث من حيث النشر يشتمل على جانبين أولهما وأهمهما : تحقيق التراث ، وثانيهما وأقلهما علاقة مباشرة بالنشر المتخصص فى التراث هو الكتابة عن التراث أو حول التراث .

وتحقيق التراث هو الاصطلاح المعاصر الذى يقصد به بذل عناية خاصة بالمخطوطات حتى يمكن التثبت من استيفائها لشرائط معينة . فالكتاب المحقق هو الذى صح عنوانه ، واسم مؤلفه ، ونسبة الكتاب اليه ، وكان متنه أقرب ما يكون إلى الصورة التى تركها مؤلفه . وعلى ذلك فان الجهود التى تبذل فى كل مخطوط يجب أن نتناول البحث فى الزوايا الآتية :

١ – تحقيق عنوان الكتاب .
٢ – تحقيق اسم المؤلف .
٣ – تحقيق متن الكتاب حتى يظهر بقدر الامكان مقاربا لنص مؤلفه .
٤ – تحقيق نسبة الكتاب إلى مؤلفه .

هذه الجوانب تتعلق باجراءات نشر المخطوطات أو تحقيق التراث . ولكن قبل ذلك لابد أن يطرح السؤال : ماذا ننشر من التراث ؟ لاشك أن الاختيار من التراث يسبق هذه الجوانب التى تتعلق باجراءات النشر . وليس هناك خلاف حول استبقاء الصالح من التراث واهمال التافه أو عديم القيمة . ولكن المشكلة هى الاختلاف فى التقييم . حيث يرى البعض أن التوسع فى نشر التراث احياء للحضارة العربية . فى حين يرى البعض أنه لا ينبغى لنا أن ننشر من التراث الا ما يخدم حاضرنا الثقافى وذاتيتنا الثقافية وما يفيد مستقبلنا . وانه ينبغى أن نستفيد من التراث لخدمة المستقبل الحضارى والثقافى ، لا لمجرد البكاء على الاطلال ، أو لمجرد النعرة القومية . ويذهب البعض إلى ما هو أبعد من ذلك ، قائلين بأن العودة إلى الماضى أو الجذور هى العودة إلى الابداع ، وليس العودة إلى الأشكال التى أبدعت . ان العودة إلى الماضى الشعرى العربى ، بتعبير آخر ، لا تعنى الاقامة فى هذا الماضى ، وانما تعنى على العكس تجاوزه .

إن واجبنا أن نميز بين جوانب ثلاث فى تحقيق التراث هى « طبع التراث »

« وتحقيق التراث » و« إحياء التراث » ونؤكد أن أهم الجوانب عندنا جميعا أو ما ينبغي أن يكون هو إحياء التراث ، إذ بدونه لن يكتسب تاريخ الحضارة الاسلامية معنى ومغزى جديدين . ومن الطبيعي أننا لن نقوم بإحياء التراث إلا إذا سبقنا ذلك بتحقيق التراث . وأود أن انبه أن الموازنة بين تراث العرب ، وتراث الغربيين لا يستقيم بغير أن نكون على بينة من أن التراث العربي المقصود ، هو الذى كان فى المشرق والمغرب العربيين فى عصر الاسلام الذهبى – الذى امتد من منتصف القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر لميلاد المسيح ، أى فى الفترة التى حمل فيها العرب وحدهم مشعل النور والحضارة فى العالم كله . فى هذه الفترة لم تكن العلوم الطبيعية قد استقلت عن فروع المعرفة التى استغرفت اهتمام المشتغلين بالعلم من العرب ، ولهذا ينصب الحديث دوماً عن تراث العرب بقصد الاحاطة الموسوعية للمعرفة العلمية بأوسع معانيها .

أما تراث الغربيين فى هذا الصدد ، فيراد به ما كان فى أوروبا خاصة إبان العصور الحديثة التى بدأت بالقرن السابع عشر لميلاد المسيح ، وهو القرن الذى وضعت فى مطلعه أصول المنهج التجريبى الذى استقل على أساسه العلم الطبيعى من الدراسة الفلسفية .

وغنى عن القول أننا فى هذه الموازنة لا نسقط من حسابنا تماماً ذلك الفارق الزمنى – وهو حد كبير – ولا نغفل عن أن الموازنة تندعن المعقول إذا أدخلنا فى حسابنا عشرات السنين الأخيرة التى وثب فيها الغرب إلى عصر الفضاء ، بفضل ما أحرزوه من تقدم علمى تكنولوجى تجاوز حدود التصور سرعة وضخامة .

٢ – **نشر كتب الأطفال** : بدأت مؤسسات النشر الكبرى فى أوروبا وأمريكا منذ عام ١٩٢٠ تخصيص فروع لنشر كتب الأطفال . وتبعتها معظم دور النشر بسبب لنجاح التجربة . وأصبحت سلاسل كتب الأطفال تحتل موقعا متفوقا فى دور النشر ، فى مختلف بقاع العالم . ومن أطرف ما لاحظه المختصون فى نشر كتب الأطفال ان ظروف الحرب العالمية الثانية وما صاحبها من نقص لعب الأطفال أدت إلى زيادة بيع كتب الأطفال . وبعد الحرب مباشرة نقصت

مبيعات كتب الأطفال عما كانت عليه خلال الحرب ، ثم عادت للزيادة التدريجية والمستمرة حتى حققت معدلات باهرة فى الربع الأخير من القرن العشرين . وأهم السمات الخاصة بكتب الأطفال هى التوسع فى الصور والرسوم والألوان ، ثم الاعتماد على الخطوط ، ثم الاهتمام بالأسلوب الواضح المناسب للأطفال .

ويجد ناشر كتب الأطفال نفسه يعد مادة لأكثر القراء ايجابية وشغفا . وبرغم كل ما يقال عن مشاكل النشر فى كتب الأطفال فان الحقيقة المؤكدة أن أعداد القراء من الأطفال فى زيادة إطرادية . وان هناك أعداداً كبيرة من الأطفال الصغار الذين لم يتعلموا القراءة بعد إلا أنهم دائما يقولون لذويهم « عايز قصة » . والأطفال بصفة عامة من أكثر القراء التهاما للكتب . وتتسع وتتباين اهتمامات الأطفال بقدر تباين الأطفال أنفسهم . ولكى يخدم الناشر هؤلاء القراء عليه أن ينشر كتبا تتناول كافة زوايا اهتماماتهم . خاصة عالم الحيوان والقصص والحكايات فإن كتب الأطفال هى العالم بأسره ، وفيها كل شيء . وهى معرفة وتحد وبهجة . وهى باقية وتزداد بامتداد وجود الأطفال ، واتساع المعرفة .

ولاشك أن كتب الأطفال المصورة بالألوان الطبيعية هى خير الطرق التربوية لجذب انتباه الأطفال وتحبيبهم فى تصفح هذه الكتب والتعود عليها والارتباط بها ، كما أنها موصل جيد للمعلومات التى ينبغى للطفل أن يتزود بها فى سنوات عمره الأولى مع بداية الادراك والاحساس والتعلم بكل ما يحيط به .

٣ - **نشر الكتب الدراسية** : تشمل الكتب التعليمية أنواعا من الكتب أهمها كتب التلاميذ . أما كتب الأساتذة التى توجههم لتدريس المقرر ، وكتب الملخصات والتدريبات والاجابة عن أسئلة الأعوام السابقة ، كلاهما ليسا الكتب الدراسية التى نقصدها وإن كانت تمثل نسبة لا يستهان بها . وإذا كانت كتب الأساتذة كمادة حكومية ، وكتب الملخصات والتدريبات الاجابة النموذجية ينتجها القطاع الخاص غالبا ، فان ذلك لا ينفى عنها البعد

عن الكتب الدراسية . ويمكن أن يشملها مفهوم الكتب التعليمية ، ذلك المفهوم الأوسع .

والكتب الدراسية هى الكتب الموجهة لخدمة مقررات أو مناهج دراسية معينة ، حيث تشتمل هذه الكتب على الحقائق الأساسية التى استقرت فى مجالاتها لتكون ما يسمى برصيد المعرفة فى هذه المجالات ، والتى ينبغى أن يلم بها كل من يهتم بأى مجال . والهدف من هذه الكتب تعليمى فى المقام الأول . ومن ثم فانها بالاضافة إلى تفاوت مستويات المعالجة فيها بما يتناسب ومستويات الدارسين تتسم أيضا بالانتقاء بحيث يركز كل كتاب على وحدات موضوعية معينة يغطيها منهج دراسى بعينه . وبالاضافة إلى المحتوى العلمى عادة ما يشتمل الكتاب الدراسى على بعض العناصر التى تخدم أغراض التعليم والتعلم ، كالارشادات والتعليمات الخاصة بطرق تدريس وحدات معينة ، وأساليب التدريب العملى واجراءاته فضلا عن أسئلة المراجعة التى يمكن بها قياس مدى التحصيل .

وتمثل حركة نشر الكتب الدراسية فى بلدان العالم الثالث نسبا تتراوح بين ٩٥٪ إلى ٨٠٪ من اجمالى حركة نشر الكتب بصفة عامة . وفى مصر بلغت ٨٥٪ فى عام ١٩٨٥ . وهذه النسبة التى تبرز ابتلاع الكتب الدراسية للنسبة الكبرى من حركة النشر فى البلدان النامية من سمات التخلف وفى البلدان المتقدمة يحدث العكس ، فالكتب الدراسية فيها لا تزيد عن ٢٥٪ من إجمالى حركة نشر الكتب .

وتعانى بعض الدول النامية التى فقدت لغتها الوطنية وأصبح التعليم فيها بلغة المستعمر أزمة حادة بسبب استيراد الكتب الدراسية من بلد المستعمر ، بعد الاستقلال ، وتحاول مثل هذه البلدان وبخاصة فى أفريقيا ان تلبى احتياجات تلاميذها من الكتاب المدرسى فلا تستطيع بسبب اعتمادها على الاستيراد ، وقلة موارد العملات الصعبة . وفى الوقت نفسه لا تستطيع نشر الكتب الدراسية التى تحتاجها بسبب ضعف صناعة النشر فيها وكثرة المشاكل التى تقابلها . ولقد حاولت دول افريقية انتاج الكتب الدراسية باللغات المحلية وبخاصة فى

المناطق التى لم يتعلم أهلها لغة المستعمر ، ولكن التجربة لم يتحقق لها النجاح . وتراجع الكتاب المدرسى فى هذه التجربة الفاشلة من حيث المحتوى تراجعا خطيرا . بل وبرزت مشكلة عدم وجود المؤلف الذى يستطيع الكتابة باللغة المحلية ، لأن ذوى التعليم الذى يمكنهم من الكتابة تنتمى ثقافتهم وتعليمهم إلى لغة المستعمر . ولاحظ خبراء « اليونسكو » وهم يقيمون هذه التجربة انه كلما ارتفع مستوى الكاتب كلما ضعف ميله إلى الكتابة باللغة المحلية . والمشكلة الرئيسية فى الكتاب الدراسى المستورد هى أنه لا يلبى الاحتياجات الأساسية للتعليم المحلى . والكتاب الدراسى الناجح هو الذى يتناسب مع منهج الدراسة .

وفى معظم دول العالم تتولى الحكومة نشر الكتب الدراسية . وإذا كانت مطابع الحكومة لا تفى بطباعة الكتب الدراسية فان الحكومة تستأجر خدمات المطابع ولكنها تظل هى الناشر . وغالبا ما توزع كتب المدارس الابتدائية والاعدادية والثانوية بالمجان على الطلبة أو بأسعار رمزية .

أما فى الولايات المتحدة الأمريكية فيتولى القطاع الخاص نشر الكتب الدراسية ، ويعتمد على المنافسة . ولكن فى نطاق الظروف التعليمية لكل ولاية من الولايات .

٤ – **نشر الكتب المترجمة** : كيف تعارف الناس مع اختلاف ألسنتهم ؟ لم يكن لتعارفهم من سبيل غير الترجمة . ومن هذا المعنى العظيم لدور الترجمة فى تاريخ البشرية تبرز أهمية نشر الكتب المترجمة بين البشر . وخلال أعمال المترجمين من الحضارات القديمة إلى العقدين الأخيرين من القرن العشرين الميلادى اكتسبت أعمال ترجمة الكتب رصيدا ممتازا من الخبرات والتجارب .

وفى معرض هذا القول يقول د . زكى نجيب محمود : لقد بح صوتى مدى العمر الطويل فى التنبيه إلى أن الترجمة الحرفية ليست هى المطلوبة . وانما اعادة عرض المادة الفكرية الموجودة فى الأصل بحيث يأتى النص العربى متفقا مع

أسلوب اللغة العربية . لأن الذى يهمنا أن نعرض أفكارا جديدة أما النقل الحرفى فكثيرا جدا ما يؤدى إلى غرابة التفكير . وبالتالى إلى كثير من الفوضى فى المعنى المقصود .... وهذا يتطلب مترجما نأمن ثقافته ، بحيث يجيد فهم الأصل ، كما يجيد استخدام اللغة العربية التى تستوعب الفكر المنقول ... ولسوء الحظ أصبح من نثق فى إجادتهم للغة أجنبية قليلين .

ثم يتحدث عن حركة الترجمة المعاصرة فى مصر فيقول : « ويخيل إلى أن حركة الترجمة الحديثة كلها لم تتجه الاتجاه الصحيح ، لأنها لم تخلق فينا مصدرا جديدا نستطيع أن نعتمد فيه على أنفسنا ، وأعنى بذلك أنها لم تتجه إلى ترجمة الأصول وجنحت إلى ترجمة المؤلفات المشتقة عن المراجع الأساسية . وبذلك جعلنا أنفسنا عبيدا لفهم غيرنا ، ولم يعد أمامنا فرصة المشاركة فى فهم جديد ... ولو كنا قد بذلنا الجهد فى نقل الأصول لأصبح بين يدى الدارس العربى المصدر الغزير .

وكثيراً مايثار جدل حول طبيعة الترجمة ، وقصورها عن أداء ما يشتمل عليه النص من أفكار ودلالات وجمال لفظى . ويتطرق الجدل -... ما تنطوى عليه الترجمة من ابداع . ويختلف المعقبون فى ذلك ، فمنهم من يرى أن المترجم هو الذى يقوم بتفهم الأفكار والأقوال فى النصوص الأصلية ونقلها ، وحينئذ يعد من الفنانيين المبدعين . وهناك من يعتقد أن عملية نقل أثر أدبى من لغة إلى لغة أخرى تنطوى على درجة الابداع والايحاء نفسها التى ينطوى عليها هذا الأثر .

ولكن من الناحية الأخرى يذهب البعض إلى أن الترجمة ما هى فى الأصل إلا مهارة من المهارات التى يمكن اكتسابها وصقلها وتطويرها . وأنها تصل إلى أعلى ذرا الكمال عند أولئك الأشخاص الذين يفصحون عن احساس مرهف فى أسلوبهم عندما يمتلكون تلك المهارة . وأنه إذا ما أراد المترجم أن يدلل على أصالته الفنية وجب عليه أن يأتى بالنص الأصلى للعمل الفنى . ولاشك أن بوسع المترجم الملهم اعادة خلق عمل فنى باسلوب يجعله يبدو وكأنه عمل جديد .

ان الترجمة الخلاقة للمعنى والروح لا للكلم والحروف . فمن البديهيات الأدبية استحالة الفصل بين الشكل والمضمون . وتشترط فيها الأمانة المتناهية للنص . وهذا ما ذهب إليه الأستاذ « آريرى » الذى قام بترجمة معانى القرآن الكريم فى منتصف الخمسينات من هذا القرن .

وينبغى أن تتوافر فى المترجم الأمانة والتفانى فى عمله واتقانه للغتين . فما الاتقان الا ركيزة واحدة فقط من ركائز الترجمة الناجحة . فنظرا لاختلاف هندسة الجملة من لغة لأخرى يضطر المترجم إلى التقديم والتأخير وإلى عمليات تنظيمية لتتناسق ترجمته مع المنهج المألوف فى اللغة المترجم اليها . واعطاء الكلمة حجمها الطبيعى ، كل ذلك يجعل من عملية الترجمة عملا فعالا خلاقا ، مثيرا ومثمرا ، داحضا العلل التى يتذرع بها البعض من أن الترجمة مهارة وحسب . وتتجدد الترجمة مع تجدد الأجيال ، واتساع المعارف وتطور اللغة مما يوجب فى بعض الأحيان اعادة ترجمة كتب قديمة ، لتصبح أكثر قربا للعصر ولغته وثقافته .

ففى الربع الأخير من القرن العشرين أصدر أستاذ اللغات الأوروبية القديمة الأمريكى « ريتشموند لاتيمور » ترجمة جديدة للانجيل بالانجليزية ، وهو متخصص فى تاريخ اللاهوت . ومنهجه فى الترجمة الجديدة ، هو تتبع النص اليونانى القديم (المعتمد) كلمة كلمة واخضاع تركيب الجملة الانجليزية للتركيب اللغوى فى النص القديم ، بما يكفل توضيح المعانى التى فاتت على الترجمات السابقة . مستخدما فى ذلك أحدث مناهج علوم اللغويات ، والكشوف اللغوية الحديثة .

ومنذ القرن التاسع عشر أخذ المترجمون الأمريكيون على عاتقهم اعادة ترجمة الأصول الدينية والثقافية التى قامت عليها الثقافة الغربية . فترجموا التراث اليونانى واللاتينى فى الشعر والدراما والفلسفة واللاهوت والتاريخ والفلك والطب ، ترجمات جديدة تتوافق مع النصوص القديمة من ناحية ، ولكن بتعبير أكثر عصرية ودقة ، وفى نفس الوقت تحافظ على الارتباط بالترجمات القديمة

التى تمت منذ عصر النهضة والقرون التالية فى أوروبا ، وتعد هذه العملية جزءا هاما من عملية التجدد المستمر للتراث . وجعله مستوعبا على الدوام فى الذاكرة الحية للثقافة ، ومرتبطا بمراحل تطوره واتجاهاته السابقة .

لعلنا نقول أن حركة الترجمة تتخذ اتجاها متدفقا من الدول المتقدمة إلى الدول النامية ، واتجاها ضحلا جدا من الدول النامية إلى العالم المتقدم . ولقد أحصت « ن . توميس » فى كتابها عن تاريخ الأدب المصرى الانتاج الأدبى الذى ترجم من العربية إلى بعض اللغات الأوروبية ، فقالت انه فى الفترة من عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٦٨ لم يترجم سوى ١١٦ عملا أدبيا عربيا إلى الفرنسية و٩٧ إلى الالمانية و٧٨ إلى الانجليزية .

وتبين هذه الاحصائية صورة المشكلة التى ينبغى ان تعالجها حركة النشر فى العالم الثالث . وهى ترجمة مختارات من الانتاج المحلى إلى اللغات العالمية ، والنشر على نطاق عالمى .

٥ - **نشر الكتب الدينية** : أن نشر الكتاب الديني هو أقدم أنواع النشر بصفة عامة ، لقد كشفت لنا جوانب تاريخ النشر قصة « كتاب الموتى » . الفرعونى . كما كشفت لنا اشتغال الرهبان فى الأديرة بالنسخ . ثم جاءت المطبعة فكان أول ما فعلته هو طباعة التوراة (العهد القديم) . واهتمام المسلمين الأوائل بكتابة القرآن الكريم يعد أشهر أمثلة الاهتمام فى العناية وشدة المحافظة للنشر . وما يزال طبع المصحف فى كافة البلدان الاسلامية يلقى عناية خاصة تفوق أى طبع وأى نشر . ولم تكن ظاهرة الكتاب الدينى فى تاريخ النشر قاصرة على العصور القديمة أو الوسطى ، ولكنها كانت مضطردة فى كل العصور وفى مختلف البيئات .

وتختلف مفاهيم الكتب الدينية من دين إلى دين ، ومن عصر إلى عصر ، ومن مجتمع إلى مجتمع . ويختلف ناشر الكتب الدينية فهو الحكومة أحيانا ، وهو مؤسسة دينية فى أحيان أخرى ، وهو ناشر عادى ، سواء فى نطاق القطاع

العام ، أو الخاص ، وهو ناشر غير متخصص ينشر ضمن ما ينشره فى كل عام كتابا أو أكثر من الكتب الدينية ، وهو ناشر متخصص فى الكتب الدينية فى بعض الأحيان . وقد دلت التجربة ان الاقبال مضطرد على الكتاب الدينى الجيد . وان الاهتمام به يتزايد مع تزايد التعليم وزيادة الوعى الثقافى والحضارى فى المجتمع .

٦ – **أنواع النشر العام** : يكاد مصطلح النشر العام أن يعبر عن مفهوم الأدب العام أو الثقافة العامة ، وهو تعبير يعني الإنجازات الفكرية العامة ، بل أن مصطلح النشر العام يكاد يوازي تعريف العرب الأقدمين للأدب بأنه الأخذ من كل شيء بطرف .

والنشر العام أساس النشر ، وهو العمود الفقرى فى صناعة الكتاب . وهو يوازى الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية العامة فى صناعة الصحافة . أو البرنامج العام فى الراديو . أو القنوات الرئيسية فى التليفزيون . أو الفيلم الروائى فى صناعة السينما .

وفى نطاق النشر العام ظهرت كتب « الجيب » الصغيرة الحجم ، والواسعة الانتشار . كما ظهرت الطبعات الشعبية التى اقتربت أسعار النسخة منها من ثمن المجلة . كما ظهرت الموسوعات ودوائر المعارف . سواء على الشكل التقليدى عندما أنشأ « ديدرو » و« ودالمبير » وأصدقاؤهما فى فرنسا دائرة المعارف الفرنسية (١٧٥١ – ١٧٧٢) . أو على الشكل المتطور المعاصر عندما انتجت دار « هيدلاند أوربيس » عام ١٩٨٣ موسوعتين للأحداث العالمية فى مجالات السياسة والاقتصاد والثقافة ومختلف الجوانب العالمية ، خلال العقدين السادس والسابع من القرن العشرين ، مرتبة تاريخيا ، ومصورة ، ومسجلة صوتيا فى كثير من جوانبها . فقد زودت كل موسوعة بنظام من الأسطوانات يتيح للقارىء أن يستمع إلى الحديث صوتيا . فعندما يقرأ زيارة رئيس دولة لبلد ما يستطيع أن يستمع إلى خطابه بصوته وإلى استقباله فى المطار وغير ذلك .

ان النشر العام هو النهر الذى تتفرع منه روافد النشر الخاص مهما كثرت

ومهما تضخمت . ومن أهم أنواع النشر العام عند المكتبيين الكتب التمهيدية ، والكتب أحادية الموضوع ، والتراجم ، والأعمال الجماعية والمطبوعات الرسمية .

الكتب التمهيدية :

والكتاب التمهيدى هو الكتاب الذى يهدف إلى ارساء أسس ومبادىء موضوع معين بشكل منهجى متكامل ، كتمهيد لما يلى هذه الأسس والمبادىء من دراسات أكثر تقدما أو أدق تفصيلا أو أعمق تخصصا . وهذه الفئة أقرب ما تكون لخدمة الأهداف الدراسية ، إلا أن ذلك لا يعنى أنها للطلبة دون سواهم ، حيث يمكن أن يفيد منها المهتمون بالجوانب التطبيقية لبعض المجالات كالهندسة أو الصيدلة مثلا . كما يمكن أن يفيد من هذه المقدمات أيضا الباحثون المتخصصون فى مجالاتها للاطلاع على وجهات النظر المختلفة فى تقسيم كل مجال والمنطق الذى يحكم مختلف وحداته وعناصره . كذلك يمكن أن يفيد منها المتخصصون فى مجالات أخرى ممن يريدون التعرف على المجالات المجاورة لما لذلك من أثر فى توسيع آفاقهم . ولكى يكون الكتاب التمهيدى قادرا على خدمة كل هذه الأنماط فانه ينبغى أن يغطى مجال اهتمامه تغطية شاملة تعطى تصوراً منطقيا متكاملا للمجال فضلا عن بيان علاقته بالمجالات المحيطة به . والشمول والتفصيل خاصتان لا تجتمعان بسهولة أو بشكل عملى على الأقل . ومن ثم فان مؤلف مقدمة المجال أو المدخل إلى المجال عادة ما يستعيض عن التفصيل بتناول أهم مصادر المعلومات فى المجال ، فضلا عن اهتمامه فى بعض الأحيان بالهيئات الأكاديمية والجمعيات العلمية والمنظمات الاقليمية والدولية المهتمة بالبحث فى المجال ورعاية تطوره . ولذلك فإنه يقال ان المدخل إلى المجال لا يهدف إلى تقديم معلومات عن موضوعات المجال بقدر ما يهدف إلى بيان حدوده الموضوعية والمنهجية والتنظيمية . ولا يأتى تأليف مقدمة للمجال إلا فى مرحلة متقدمة من تطوره وهى المرحلة التى تتضح فيها معالمه وتستقر فيها مناهجه وتتحدد فيها مواصفات المتخصصين فيه ومتطلبات تأهيلهم ، ومقومات الاسهامات العلمية فيه . ويدل ذلك بالطبع على وجود بعض المجالات التى لازالت تفتقر إلى

المدخل أو المقدمة الشاملة ، وهى المجالات الناشئة ، وأقرب أمثلتها علم المعلومات وهو العلم المعاصر المتزايد فى مادته الغزيرة المتشعبة ، وحيث تتدفق آلاف المصطلحات العلمية الجديدة فى كل فروع العلم التخصصية الدقيقة بعد ظهور الحاسبات الآلية .

الكتب أحادية الموضوع :

الكتاب أحادى الموضوع Monograph هو الكتاب الذى يهتم بدراسة قضية معينة أو موضوع معين دراسة موضوعية وافية تحيط بجميع الجوانب والأبعاد والارتباطات . وعلى عكس ما قد توحى به تسميته فان الكتاب أحادى الموضوع عادة ما يهتم بالموضوعات والقضايا المتشابكة أو المتعددة الارتباطات كالموارد المائية فى منطقة معينة مثلا حيث تحتاج دراسة هذا الموضوع دراسة وافية إلى معلومات تتعلق بالجوانب الجيولوجية للمنطقة فضلا عن الجوانب المناخية ... وكذلك الحال بالنسبة لموضوع الثروة الحيوانية فى منطقة ما ، وتوطين البدو بما له من ارتباطات اجتماعية واقتصادية وعمرانية . وعادة ما يستبعد الكتاب أحادى الموضوع المعلومات الأولية والمقدمات الأساسية ، كما أنه لا يهتم كثيرا بالمواد التاريخية . وهذا النوع من الكتب موجه أساسا للمتخصصين والمسئولين عن اتخاذ القرارات فى بعض المجالات الحيوية وخاصة ما يتصل منها بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية والطاقة . ومن ثم فان من أبرز الملامح المميزة للكتاب أحادى الموضوع التركيز على المعلومات الحديثة . ونظرا لطبيعته الموضوعية المتشابكة فان الكتاب أحادى الموضوع غالبا ما يكون نتيجة نشاط أكثر من باحث واحد تتضافر جهودهم فى تهيئة المعلومات المتصلة بموضوع الكتاب وصهرها فى بوتقة واحدة .

التراجم :

وتراجم الأعلام سواء أكانت تراجم ذاتية أو بأقلام آخرين من أقرب فئات الكتب إلى الكتب أحادية الموضوع نظرا لأن المترجم له وان كان فردا فان

تناول حياته ونشاطه وجهوده ، لابد وأن يتم فى اطار المناخ الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والثقافى السائد فى عصره .

الأعمال التجميعية :

ويقصد بالأعمال التجميعية أو الجماعية Collective works تلك الكتب التى تشتمل على عدد من البحوث لمؤلف واحد أو لمجموعة من المؤلفين . وهذه الكتب التى عادة ما تصدر تحت عنوان « دراسات فى ... » على الرغم من تجميع محتوياتها بحيث تجمعها وحدة موضوعية معينة وفقا لاطار منطقى معين فانها لا يمكن أن تغطى الموضوع تغطية متكاملة أو شاملة ، وانما يمكن أن تمس بعض جوانبه فقط . وهذه الفئة أكثر ما تكون ارتباطا بكتب الدراسة الجامعية ، كما أنها أكثر ما تكون شيوعا فى المجالات الناشئة التى لم تتحدد معالمها ولم تتضح حدودها . وبعض هذه الأعمال يقوم مقام المداخل والمقدمات بالنسبة لمثل هذه المجالات .

المطبوعات الرسمية :

وهى المطبوعات التى تصدر عن هيئة أو مؤسسة حكومية ، وتشتمل على معلومات تتصل اتصالا مباشرا بنشاطهاأو ناتجة عن ممارسة الهيئة أو المؤسسة لنشاطها . وهناك نوعيات كثيرة من هذه المطبوعات ، يدخل معظمها فى مجالات اهتمام المتخصصين فى العلوم الاجتماعية ، كالتقارير الادارية والاحصائية ، وتقارير اللجان والبعثات ، ونتائج البحوث والاستقصاءات ، واللوائح والقوانين والدساتير ومضابط جلسات المجالس النيابية والتشريعية ... الخ ، كما أن هناك أيضا من بين هذه المطبوعات ما يدخل فى مجالات اهتمام المتخصصين فى العلوم والتكنولوجيا كالتقارير العلمية والفنية والمخططات والتعليمات والارشادات الصناعية والهندسية .

وفى ختام الحديث عن أنواع النشر لابد من تأكيد أنه ينبغى ألا يتبادر إلى الذهن بأن أنواع النشر تعنى تصنيف العلوم أو تصنيف الكتب . كذلك ينبغى

أن ندرك أن مجالات التخصص ، وتفريعات العلوم والفنون غير متناهية . وأن حدودها هى حدود الابداع الانسانى الذى زوده خالقه سبحانه وتعالى بقدرات متجددة الأفكار تتجاوز القديم دائما إلى الجديد والمستحدث . والأمثلة أكثر من الحصر . ففى مجال الفنون الجميلة نجد الفن القديم الكلاسيكى والفن البيزنطى وفن العصور الوسطى وفن عصر النهضة والفن المعاصر والفن الشرق والفنون الاسلامية ، ثم نجد لكل دولة أو وطن فنه . وإذا قسمنا الفنون الجميلة إلى أقسامها المعروفة ، فاننا نجد أنفسنا أمام بحر زاخر من التقسيمات والتفريعات . ويكفى أن نضرب مثلا بالموسيقى . ولو ضربنا بعلم الاجتماع أو بعلم اللغة أو بعلم الزراعة أو بعلم السياسة أمثلة لأصبحنا فى محيط زاخر من المعرفة .

كما لو ضربنا مثلاً ببعض علوم المكتبات ، لذكرنا التصنيف ونظم الفهرسة الموضوعية والمراجع المتخصصة وتاريخ المكتبات والمخطوطات ، والاجراءات المكتبية ، والتزويد والتسجيل ، ومصادر التراث ، والدوريات ، والتوثيق ، والتكنولوجيا الحديثة فى المكتبات .... ألخ .

دور النشـر :

دار المعارف : تمثل دار المعارف الاجابة عن سؤالين جوهريين فى صناعة الكتاب فى العالم الثالث هما : هل يمكن أن يعتمد النشر فى بلد مثل مصر على أسس اقتصادية عادية ؟ وكيف يمكن أن تحقق دار نشر فى العالم الثالث نجاحا مستمرا سواء فى نطاق القطاع الخاص أو فى نطاق القطاع العام ؟

لقد كانت الاجابة التى قدمتها التجربة التاريخية لدار المغارف بسيطة وواضحة ، بل شديدة البساطة والوضوح . فقد أعتمدت منذ انشائها على أسلوب التاجر المستنير . فعاملت الكتاب وفق القواعد الاقتصادية السليمة ، بغير تعسف فى طلب الربح أو المغالاة فى المكسب . وجودت فى السلعة (الكتاب) تجويدا كثيرا . وحرصت على الموالاة . واثبتت التجربة أن الفلسفة الاقتصادية

(قطاع خاص ، أو قطاع عام) ليست فى حد ذاتها مشكلة النشر فى العالم الثالث . وانما الوعى المستنير والفهم السليم لطبيعة النشر هو مفتاح النجاح .

فقد أنشأ « نجيب مترى » مطبعة المعارف ومكتبتها فى القاهرة عام ١٨٩٠ ، وبدأت نشاطها في الطباعة والنشر بحروف الجمع اليدوى ، ولكن بمحاولة جادة فى الاتقان ، خطت فى سلم التطور والتوسع درجة بعد درجة . وفى عام ١٩٤٤ تحول اسمها من مطبعة المعارف ومكتبتها إلى دار المعارف بمصر . وخطت خطوة باهرة فى عام ١٩٥٠ حيث انتقلت من الفجالة إلى دارها الحالية على كورنيش النيل كما انتقلت الأهرام من شارع مظلوم إلى شارع الجلاء فى عام ١٩٦٨ انتقالا مكانيا ونوعياً فى الوقت نفسه ، وفى عام ١٩٥٠ اضافت المعارف إلى فرعها فى الاسكندرية الذى افتتحته عام ١٩٤١ فرعين فى شبرا ، وفى السيدة زينب ، كما أنشأت فرعا لها فى بيروت . وظلت تتقدم .

ثم تغير شكل ملكيتها عام ١٩٦٣ ، ولكن لم يتغير نظام العمل فيها ، حيث فرضت عليها الحراسة ودخلت القطاع العام ، والحقت بمؤسسة الأهرام ، وكانت ادارة الأهرام فى ذلك الوقت على قدر كبير من الدراية الادارية ، وحسن التصرف ، فأبقت دار المعارف على حال نجاحها . ولم تفرض عليها سلطة بيروقراطية تعوقها ، أو تجعل منها متاعا وظيفيا . كما يحدث فى كثير من تلك الأحوال المشابهة فى العالم الثالث .

مؤسسة الأهرام :

لقد حرصت مؤسسة الأهرام . خلال سنوات عمرها التي جاوزت المائة عام على أن تساهم بدورها في هذا المجال الحيوي الهام ، ألا وهو مجال الطباعة والنشر والتوزيع على المستوى المحلي والخارجي ، وحيث تقوم بتدعيم وتطوير أجهزتها المتخصصة حتى تقدم كل جديد للقراء والباحثين على اختلاف أعمارهم ومستويات تعليمهم من مختلف الكتب والموسوعات العلمية التي تغطي معظم مجالات المعرفة المختلفة .

في مجال الترجمة والنشر : يقوم مركز الأهرام للترجمة والنشر كما يتضح من اسمه بالعمل في مجالين أساسيين .

(أ) **الترجمة** : وذلك بتقديم الترجمات العلمية الدقيقة من وإلى ثلاث عشرة لغة عالمية هي : الإنجليزية ، الفرنسية ، الروسية ، الألمانية ، العربية ، الأسبانية ، النرويجية ، المجرية ، التشيكية ، البلغارية ، الرومانية ، السويدية ، الإيطالية ... وغيرها .

حيث يتعاون المركز مع أكثر من ٤٠٠ أستاذ متخصص في الجامعات ومراكز البحوث العلمية لإنجاز ومراجعة عمليات الترجمة التي بلغت ما يجاوز $\frac{٣}{٤}$ مليون صفحة ضمت مايزيد عن ٢٠٠ كتاب ، وذلك في إطار برامج طويلة الأجل تم التعاقد عليها مع العديد من دور النشر العالمية .

(ب) **النشر** : وفيه يقوم المركز بإصدار الكتب والمؤلفات التي تلبي حاجة القارىء على نطاق الوطن العربي كله ، معلماً ودارساً وممارساً وراغباً في الإطلاع ، من الكتب والموسوعات والقواميس في شتى مجالات الآداب والفنون والعلوم .

وينشر المركز أعمال كبار الكتاب والمؤلفين العرب والأجانب التي تتسم بقيمة فكرية وحضارية بارزة ،وتلبي احتياجات التقدم والرقي – وفي هذا يولي مكانة بارزة لكتب الأطفال والشباب .

كما تقدم أجهزة **التوزيع** بمؤسسة الأهرام ، بالتعامل المباشر مع أكثر من ٢٥٠٠ وحدة بيع ، بخلاف منافذ البيع المباشر للجمهور عن طريق المكتبات وذلك بهدف توفير الصحف والمجلات والمطبوعات الدورية لكل قارىء في أنحاء الجمهورية سواء الصادرة عن مؤسسة الأهرام أو المؤسسات الصحفية الأخرى مثل دار مايو للنشر ، ودار المعارف ودار أكتوبر ، ودار التعاون ، ودار الهلال وغيرها من دور النشر الأخرى بالإضافة إلى جميع الصحف والمجلات العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والأمريكية وغيرها .

كما تقوم أجهزة وكالة الأهرام للتوزيع بخدمات متكاملة ومنظورة لتوفير كافة الكتب والمطبوعات التي يحتاجها الأفراد والمدارس والجامعات والهيئات والوزارات ودور النشر والتوزيع المحلية والأجنبية ويمكن إيجاز الأنشطة المختلفة لها فيما يلي :

١ - استيراد أحدث الكتب والمطبوعات الدراسية والمراجع والدوريات العلمية والأجنبية من مختلف الناشرين في الدولة المتقدمة . وتوفيرها للدارسين والباحثين والهيئات والجامعات في مقارهم .

٢ - استيراد الكتب الثقافية العامة في كافة مجالات المعرفة ولمختلف مستويات الأعمار . خاصة كتب الأطفال والوسائل التعليمية والقواميس .

٣ - توزيع جميع هذه المطبوعات وتوفيرها للراغبين فيها عن طريق منافذ التوزيع والمعارض ومكتبات الكليات والمعاهد .

٤ - تصدير كافة احتياجات الجامعات والهيئات والمكتبات العربية من الكتب والمطبوعات والدوريات العربية المتوفرة في مصر .

٥ - إقامة معارض الكتاب والمشاركة في جميع المعارض الدولية والإقليمية بأحدث الإنتاج الثقافي المصري .

٦ - تنشيط تسويق الكتاب العربي وارتياد أسواق جديدة وإجراء الاتصالات مع المهتمين بالثقافة والحضارة والكتاب لتبادل الاستشارات والخدمات المتعلقة بإنشاء وتنظيم المكتبات من أجل تنمية حقل الثقافة والمعرفة العربية في الداخل والخارج على السواء .

وظائف النشر :

دور الكتاب فى حد ذاته فى حياة الانسان أوسع من الحصر . ولكننا فى هذا المجال ننظر إلى وظائف النشر باعتباره ظاهرة اجتماعية معاصرة . ونحقق وظائف

النشر باعتبارها الاطار العام لعملية النشر . وعلى هذا الأساس نستطيع تقسيم الوظائف الرئيسية للنشر إلى ثلاثة وظائف هى : الوظيفة الاقتصادية ، ثم الوظيفة المهنية ، ثم الوظيفة الفكرية التنموية هذه الوظائف تدور فى محيط اجتماعى . فالنشر لا يتم إلا فى نطاق مجتمع .

١ - **الوظيفة الاقتصادية** : النشر نشاط اقتصادى يدخل فى مجال اقتصاديات الاعلام ، وبمعنى أوسع اقتصاديات المعرفة . والكتاب باعتباره وسيلة إعلام يؤدى دوراً مباشراً فى التنمية . ولكن الذى يعنينا فى الوظيفة الاقتصادية للنشر الجانب الأول ، وهو النشر باعتبارها نشاطا اقتصاديا .

وعماد الوظيفة الاقتصادية للنشر هو تكلفة نشر الكتاب . فكلما كان الكتاب بالثمن المعقول نسبيا كانت تأدية الناشر لوظيفته الاقتصادية محققة لأهدافها . ولكن السؤال الذى يثير شغف أطراف العمل فى صناعة الكتاب بل ويثير شغف القراء أيضا هو : كيف تحسب تكاليف الكتاب ؟

إذا استثنينا الكتب الدراسية ذات الاعداد الضخمة ، والكتب التى يعاد طبعها بكميات وفيرة ، وقصرنا حديثنا على الكتاب الذى يتراوح طبع النسخ منه ما بين ٢٠٠٠ و ٤٠٠٠ نسخة فانه يمكن تقسيم تكلفة نشره إلى ثلاثة أجزاء رئيسية هى :

١ - التكلفة الفعلية لتصنيع الكتاب من ورق وطباعة وتجليد .
٢ - تكاليف التوزيع وتشمل الخصم لبائعى الكتب ، ونفقات الشحن فى الداخل والخارج .
٣ - تكاليف الاعلانات وحق التأليف ومصروفات النشر وأرباح الناشر .

ولا يتشابه كتابان فى توزيع النفقات ، بل تتفاوت النسب فى الظروف المختلفة تفاوتا كبيرا . ففى نشر التراث مثلا لا توجد مكافأة للمؤلف . وفى كتاب لمؤلف مشهور تتضاعف أتعاب التأليف . ونسبة الخصم تختلف بين

أنواع الكتب اختلافا كبيرا . وبرغم اختلاف الأسعار من بلد إلى بلد آخر ومن عصر إلى عصر بل من عام إلى عام فان العلاقة صحيحة ومضطردة بين تكلفة النسخة وعدد النسخ المطبوعة . فكلما زاد عدد النسخ المطبوعة قلت تكلفة النسخة الواحدة ، وأصبح سعر الكتاب رخيصا . وخير الأمثلة على ذلك : إذا كانت تكلفة الجمع التصويرى فى الكتاب ٨٠٠ جنيه تصبح تكلفة الجمع كالآتى :

٨٠ جنيها للنسخة الواحد فى حالة طبع ١٠ نسخ .

٨ جنيهات للنسخة الواحدة فى حالة طبع ١٠٠ نسخة .

٨٠ قرشا للنسخة الواحدة فى حالة طبع ألف نسخة .

٨ قروش للنسخة الواحدة فى حالة طبع عشرة آلاف نسخة .

٨ مليمات للنسخة الواحدة فى حالة طبع مائة ألف نسخة .

وهكذا نستطيع أن نتبين بصفة عامة انه كلما اتسع حجم سوق الكتاب كلما أمكن خفض سعره .

٢ - الوظيفة المهنية

الناشر يبحث عن المؤلف ، ويطلب من مؤلف معين الكتابة فى موضوع معين ، حيث النقطة الأولى فى الوظيفة المهنية للناشر هى توقع أنواع الكتب التى يمكن أن تجد سوقا لها فى الأشهر القادمة . وهذه النقطة تمثل العمود الفقرى فى الوظيفة المهنية للنشر . ويقوم بها المحررون فى دور النشر العصرية . وعمل المحرر فى دار النشر العصرية يشمل تصحيح الأخطاء الاملائية والنحوية وتصحيح الأسلوب ، بل ويشمل التفاوض لتعديل العنوان إذا كان ذلك ضروريا لتسويق الكتاب . وكلما كان الكتاب أقرب إلى الابداع كالشعر مثلا كلما كان عمل المحرر فى أضيق الحدود وكلما كان أقرب إلى التجميع كان عمل المحرر أوسع . وحقيقة عمل المحرر تقوم على الاتصال بالمؤلف واقامة جسر من التفاهم والتعاون معه وثيقا وقويا وإذا كان التحرير هو **الركن الأول**

للوظيفة المهنية للنشر فان **الركن الثانى** هو تقدير الوقت اللازم لانجاز الكتاب وعرضه فى السوق . هل يمكن للناشر تقدير الوقت اللازم لكافة اجراءات صناعة الكتاب ؟ هذه الاجراءات هى :

١ - **الفحص والتقديرات** : أى الوقت اللازم لفحص المخطوط ، ثم الموافقة على نشره . والوقت اللازم لتقدير ملازم الكتاب وحجمه . ألخ .

٢ - **التحرير والتصميم** : أى الوقت اللازم للصياغة وتصميم الغلاف وخطوط العناوين . ألخ .

٣ - **الجمع** : أى الوقت اللازم للجمع سواء كان جمعا تصويريا أو آليا أو يدويا .

٤ - **مراجعة المؤلف للبروفات** : أى الوقت اللازم لمراجعة المؤلف للبروفات .

٥ - **مراجعة الطابع « للفورمه »** : وهذه غالبا ما تكون فى أقصر وقت .

٦ - **الطبع** : أى الوقت اللازم فى الطبع لانجاز نسخ الكتاب .

٧ - **التجليد** : أى الوقت اللازم لتجميع الأفرخ بعد طباعتها ، ويسمى التطبيق ، ثم التجليد والقص .

٨ - **الوقت الضائع فى نقل الورق والطبع** أى حساب الوقت البينى خلال انتاج الكتاب . مراحل إنتاجه من البداية إلى النهاية

٩ - **وقت للطوارىء** : ويعنى اضافة وقت احتياطى لأى طارىء خلال أيام انتاج الكتاب .

وبطبيعة الحال فان الوقت اللازم لخروج الكتاب إلى البيع منذ تسلم الناشر للمخطوط ، أى أصول الكتاب ، يختلف حسب حجم الكتاب وعدد النسخ المطبوعة ، وحسب خطة الناشر لتوقيت النشر المناسب ، ومدى انجاز الرقابة فى البلدان التى تراقب فيها الكتب قبل طبعها لمهمتها فى وقت قريب ، وحالة المطابع هل هى قديمة أم حديثة ؟ وكفاءة العمال ... وغير ذلك من العوامل .

والركن الثالث : من أركان الوظيفة المهنية للنشر هو الركن الخاص باتصالات التوزيع . وهو يعتمد أساسا على التواجد فى السوق العام للكتاب داخليا وخارجيا . واجراء الاتصالات اللازمة لذلك . وقبل أن يبدأ انتاج الكتاب بوقت طويل يجرى العمل فى خطط توزيعه . إذ يدرس قسم المبيعات الأسواق الممكنة وينسق مع موظفى الاعلان والتنشيط والدعاية ، ويستدعى الوكلاء المتجولين الذين يزودون حوانيت الكتب فى طول البلاد وعرضها . ويرسل بالبريد أنباء الكتاب الجديد ، ويرسل نسخا إلى عارضى الكتب فى وسائل الاعلام . والمهم أن المسئولية الرئيسية فى هذا الصدد هى إشاعة المناخ الملائم لقبول العنوان الجديد بمختلف الوسائل الممكنة .

أما الركن الرابع من أركان الوظيفة المهنية للنشر فهو الركن المتصل بالقانون . فالناشر وفق تعريف القانون المصرى ٢٠ لسنة ١٩٣٦ هو الشخص الذى يتولى تمويل عملية النشر وادارتها . وقد بين القانون شروط الحصول على رخصة مطبعة ، وكيفية قيد اسم بائع المطبوعات . كما نص القانون فى مادته الرابعة على وجوب ذكر اسم الطابع وعنوانه واسم الناشر وعنوانه ، إذا كان غير الطابع ، وتاريخ النشر بأول صفحة من أى مطبوع أو بآخر صفحة منه ، ويستثنى من ذلك المطبوعات ذات الصفة الخاصة أو التجارية مثل دفاتر الحسابات والأعمال المصرفية والصناعية . وكانت المادة الخامسة من القانون رقم ٢٠ لسنة ١٩٣٦ تقضى بإيداع أربع نسخ من كل مطبوع فى المحافظة أو المديرية التى يقع النشر فى دائرتها . ثم عدلت هذه المادة بالقانون رقم ٣٧٥ لسنة ١٩٥٦ بزيادة النسخ التى تودع فى المحافظة أو المديرية التى يقع الاصدار فى دائرتها إلى عشر نسخ بدلا من أربع . مع ملاحظة ان القانون ٣٥٤ لسنة ١٩٥٤ كان ينص على ايداع خمس نسخ ثم عدل عام ١٩٦٨ ليصبح عشر نسخ . وجاء فى المادة العاشرة من القانون ٢٠ لسنة ٣٦ أنه يجوز لمجلس الوزراء أن يمنع من التداول – فى مصر – المطبوعات المثيرة للشهوات ، وكذلك المطبوعات التى تتعرض للأديان تعرضا من شأنه تكدير السلم العام .

وعلى الناشر بطبيعة الحال ان يلتزم بالدستور فيما يتعلق بالنشر بصفة عامة . وأهم ما تشير اليه مواد الدستور المصرى فى هذا المجال ان للمجتمع المصرى مقوماته الأساسية . فأساسه التضامن الاجتماعى . ومن ثم فإن من يحرض على بعض طائفة من الناس يكون قد أخل بهذا التضامن المتمثل فى تحالف قوى الشعب العاملة . والأسرة أساس المجتمع قوامها الدين والأخلاق والوطنية وهو مجتمع له قيمه الأخلاقية الجديدة . ويجب ألا يتناول النشر ما يحط من قدر الانسان واعتباره . والحق فى المحافظة على الكرامة والسمعة ليس مجرد حق فردى بل انه فى النهاية يرتد إلى الجماعة .

كذلك على الناشر أن يراعى فيما ينشره ألا يقع تحت طائلة جرائم النشر التى أوردها قانون العقوبات المصرى ، وأهمها جرائم العدوان على الاعتبار . وتندرج تحت جرائم القذف والسب والإهانة ، وكذلك جرائم التحريض التى تندرج تحتها جرائم التحريض على ارتكاب جرائم وتحسينها وعلى عدم الانقياد للقوانين ، والتحريض على نظم الدولة ، والتحريض على النظم الاجتماعية ، وعلى بغض طائفة من الناس ، وانتهاك حرمة الآداب . ولطالما يثار سؤال حول الفروق بين القذف والسب . والفرق الجوهرى بينهما هو أن القذف يعنى الاسناد علانية لواقعة محددة تستوجب عقاب من اسندت إليه أو احتقاره ، كأن تقذف موظفا معينا باختلاس مبلغ معين أو واقعة رشوة محددة . أما السب فيضمن خدش الشرف دون تحديد واقعة معينة ، كأن تتهم موظفا بأنه مختلس أو لص .

٣ – **الوظيفة الفكرية التنموية** : ليس الناشر مجرد تاجر ، وانما هو إلى جانب ذلك صاحب مهنة ، هذه المهنة جانب رئيسى منها فكرى . اذن الناشر صاحب وجهة نظر ، أيا كانت هذه « الوجهة نظر » فيما حوله من قضايا المجتمع وأموره .

ولعل ما قاله أحد الأدباء الأوربيين عن كبار الناشرين « بأنهم وزراء آداب ومعارف ولا يعقل أن يكونوا بغير صلاحيات مما يتزود به عادة رجال الدولة » ،

يفسر لنا جانبا من الوظيفة الفكرية للنشر . تلك الوظيفة التى تتفاوت بين ناشر وناشر تفاوتا كبيرا من حيث الثقافة والإلمام بالظروف التنمويه لبلده والاحتياجات الضرورية لتثقيف كل قطاعات المجتمع .

هذه هى وظائف النشر التى لا تتطابق بين بلد وآخر ، ولا تتشابه بين تأدية ناشر وتأدية آخر . ولكن على حد الرؤية المنطقية يستطيع الناشر فى أى بلد أن يدرس خبرة نشر الكتب ، وطرقها الراهنة فى المناطق الأخرى ، وفى وسعه أن يزيد ويرجح ويناظر ويفاضل ويقارن بينها جميعا ، ثم يقرر الأخذ منها ما يصلح للتطبيق فى بلده ، مع شيء من التعديل السليم والتكيف المناسب .

– كان التفوق فى الانتاج الفكرى فى الفترة من ١٩٠٠ وحتى ١٩٥٢ للأدب ثم التاريخ ثم العلوم الاجتماعية . ويأتى بعد هذه المجالات الدين والعلوم التطبيقية واللغات والعلوم البحتة على التوالى . وكانت هناك مجالات تخلو من التأليف فيها كالفلسفة وعلم النفس والفنون الجميلة والمعارف العامة .

– فى الفترة ١٩٥٣ – ١٩٦٩ بقيت السيادة للمجالات الأربعة : العلوم الاجتماعية – الآداب – التاريخ والجغرافيا – الديانات . وحدث تطور كبير اقتضته ظروف العصر فبرزت العلوم التطبيقية والعلوم البحتة إلى المرتبتين الخامسة والسادسة على التوالى وهبطت المعارف العامة إلى المرتبة التاسعة ، وهو أمر طبيعى . وجاءت الفنون الجميلة على حالها فى المرتبة العاشرة من الانتاج الفكرى . وارتفع الانتاج فى اللغات من المرتبة العاشرة إلى السابعة . وانخفض الانتاج فى الفلسفة وعلم النفس من المرتبة السادسة إلى المرتبة الثامنة .

– تشير كل الدلائل إلى أن السيادة والتفوق فى الانتاج الفكرى سيستمران للانسانيات ، وبصفة خاصة العلوم الاجتماعية والآداب وهما معا يمثلان حوالى ٤٥٪ من مجموع الانتاج . كما تشير كل المؤشرات إلى استمرار الزيادة فى العلوم التطبيقية والبحتة وهما معا يمثلان حوالى ١٨٪ من مجموع الانتاج ، وهى ظاهرة صحية . وتشير المؤشرات إلى أن الانتاج فى مجالات المعارف العامة والفنون باق على حاله من الثبات .

١ - القطاع العام ناشرا :

ترجع قصة النشر فى مصر كما سبق القول إلى عصر محمد على ، وإلى مطبعة بولاق فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . وكان النشر آنذاك محصورا فى صورتين . أولاهما : طبع الكتب ونشرها على نفقة الحكومة . وثانيهما : طبع كتب على نفقة ملتزم للطبع والنشر . وكلمة ملتزم فى هذا المقام تعادل كلمة ناشر . ثم تطور النشر فى مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بإنشاء مطابع خاصة لبعض ملتزمى طبع ونشر الكتب .

وقد ظل النشر بصفة عامة فى مصر يعتمد على القطاع الخاص ، إلى جانب ما تنشره الحكومة بصفتها الرسمية ، أو وزاراتها بما يرتبط بتأديتها أعمالها ، حتى بدأ التحول فى هيكل الاقتصاد المصرى عام ١٩٦١ . وعقب ذلك تم تأميم عدد من دور النشر الكبرى ، وانتقلت من الملكية الخاصة إلى القطاع العام وظهرت النتائج التالية :

١ - للناشر فى مصر ظاهرة خاصة وهى أنه يجمع بين وظائف الناشر والطابع وبائع الكتب جميعا (وقد يضيف إلى هذه الوظائف وظائف أخرى مثل بيع الأدوات المكتبية) . وتلك الظاهرة ثمرة من ثمرات التطور التاريخى لحركة النشر فى مصر .

٢ - القيمة الاقتصادية للنشر فى مصر ضئيلة جدا فى الاقتصاد المصرى .

٣ - يتركز الناشرون فى مدينتى القاهرة والاسكندرية وفى القاهرة يوجد أكثر من ثلث الناشرين فى منطقتى الفجالة والأزهر . ويوجد عدد كبير منهم فى منطقة وسط القاهرة وعدد ، لا بأس به فى منطقة باب اللوق . وفى الاسكندرية يتركزون حول الجامعة .

٤ - تتصدر حركة النشر فى مصر ثلاث دور نشر تابعة للقطاع العام وهى : هيئة الكتاب - دار المعارف - دار الشعب - وقد دخلت دور النشر

الثلاثة فى القطاع العام فى وقت واحد تقريبا : هيئة الكتاب (هيئة التأليف والنشر بتسمياتها المختلفة) سنة ١٩٦٢ ، دار المعارف ١٩٦٣ ، مؤسسة دار الشعب سنة ١٩٦٠ ، وجميعها لم تنشأ من عدم ، ولكن قامت على دعائم دور سابقة ، فتاريخها يمتد إلى تاريخ أطول من هذه التواريخ التى اصطبغت فيها بصبغة القطاع العام . فدار المعارف انشئت كمؤسسة خاصة سنة ١٨٩٠ ، وهيئة التأليف والنشر تضرب جذورها إلى سنة ١٩٤٨ ، ومؤسسة دار الشعب ترجع إلى عام ١٩٦٠ .

٥ – لا توجد أى صلة – بين الدور الثلاث .

٦ – ان مهمة الكتاب هى خلق مناخ فكرى وذوقى مستنير . ولن يتم ذلك إلا بالتخطيط الواعى لحركة الترجمة والتأليف والنشر أساسا . ولا يعنى التخطيط ان يكون كل شىء خاضعا للخطة العامة بل أن يقتصر مداه على أمهات الكتب وروائع التراث الانسانى .

وخلاصة القول تساؤل هل نجح القطاع العام فى مجال النشر أم لا ؟ والحقيقة أن دور القطاع العام فى مجال النشر المصرى انعكاس للظروف الاقتصادية والاجتماعية المصرية الراهنة . ولكنه انعكاس غير دقيق بسبب غياب التخطيط من جانب ، والتخبط الادارى من جانب آخر . ولكن القطاع العام فى مجال النشر فى بلدان العالم الثالث بصفة عامة يمثل حلا صحيا لمشكلة النشر فى تلك البلدان ، بشرط أن يتحلى عن عدم التخطيط وعن التخبط الادارى ، وأن يساعد القطاع الخاص .

أزمات النشر عند العرب فى العصر الحديث

١ - أزمة الترجمـــة :

تمثل أزمة الترجمة بشقيها ترجمة الكتب العالمية إلى العربية ، وترجمة مختارات من الانتاج العربى إلى اللغات العالمية نموذجا لغيبة التخطيط فى النشر المصرى ، فحول أزمة الترجمة فى مصر تحدث عدد من كبار المهتمين للأهرام فى أبريل عام ١٩٧٩ ، واقترح كل منهم ما يراه من حل لأزمة الترجمة . قال ابراهيم زكى خورشيد : فى عام ١٩٦٦ انتزعت قرارا من مجلس الأمة باعتبار دعم الكتاب مثل دعم الغذاء ، وبعدها أصدرت سلسلة كتب المكتبة الثقافية وأعلام العرب وتراث الانسانية ، وكان سعر الكتاب يتراوح ما بين قرشين و ٢٠ قرشا مثل تراث الانسانية ، وأنا أتساءل لمصلحة من تتراجع الدولة عن هذا ؟ ان الدولة تنفق مئات الملايين لدعم الخبز والغذاء ، فلماذا لا تخصص مليونا واحداً لدعم الكتاب ؟ هذا عن الحلول العامة أما الخاصة والنوعية فلا سبيل إلا برفع مكافآت المترجمين ، والأهتمام بمعاهد الترجمة والاعتراف برسائل الدراسات العليا فى الترجمة . وقال د . زكى نجيب محمود : يجب إعادة تخطيط حركة الترجمة ، ويضاف إلى ذلك الأهتمام باللغات الأجنبية وبالترجمة فى الجامعات ، كما يجب احياء المشروعات الثقافية الرائدة مثل مشروع الألف كتاب وترجمة الموسوعات ودوائر المعارف . على أن يضطلع بهذه المهام لجنة الترجمة بالمجلس القومى للثقافة . وقالت هناء جبر : ان قانون العرض والطلب ينبغى أن يكون فى صالح الترجمة ، ان المترجم إذا ما أشعرناه بأن قيمة عملة توازى الوقت والتعب المبذولين لانجازه سيقبل بحماس على الترجمة . وقال د . حسين نصار : يجب خلق مناخ عام للأهتمام بحركة الترجمة فى بلادنا . يكفى أن نكون على وعى بأنه بدون اتصال ونقل بين الحضارات لا يمكن أن تقوم حضارة . وهذا لا يتأتى إلا بالترجمة ، لأن القراءة باللغات لا يتمكن منها إلا القلة التى لا يمكن أن تؤثر فى المجتمع تأثيرا واسعا . كما ينبغى الاهتمام السريع بترجمة العلوم لأنها تتحرك حركة سريعة جدا ، يجب ألا نتأخر يوما واحدا فى النقل أو الترجمة ،

ولذا ينبغى أن نحذو حذو الدول المتقدمة ، بإنشاء منظمات خارجية تابعة لنا كمصريين ، أو كعرب عموما ، من خلال المنظمات العربية . أما د . مجدى وهبة فقال يجب أن نعترف أولا بأن الترجمة فن وأن المترجم يستحق أن يتقاضى ثلاثة أضعاف ما يتقاضاه اليوم . وأحد مظاهر أزمة الترجمة الآن أن البعض يتظاهر بأنه يؤلف وهو فى حقيقته مقتبس . يحدث هذا فى المسرح والسينما والسبب اقتصادى . الهروب من أسعار الترجمة البخسة . ثم دعى إلى ضرورة الاهتمام بدور النشر فى القطاع العام لإشباع جهود الشباب المبدعة وبإصدار المجلات الثقافية والدوريات ، وقد كانت فيما سبق حافلة بالموضوعات المترجمة . كانت هذه الأراء أهم ما ورد بالحوار الذى أثاره الأهرام إلى جانب اقتراحين هامين أولهما أن حركة الترجمة بدأت تنحسر فى العالم الثالث وتتجه إلى العالم الصناعى المتطور هناك مراكز للاستشراق فى الخارج ، وبالجامعات الأجنبية محاولات لترجمة الأدب العربى الحديث إلى الأنجليزية والفرنسية ، وثمة تركيز على ترجمة ما يتعلق بالأفكار العامة الدينية والسياسية أكثر مما يختص بالأدب الروائى . لذلك يجب أن نقدم بأنفسنا ترجمة لأنتاجنا إلى العالم . والاقتراح الثانى يتعلق بانعدام الهيئة التى تقترح ما ينبغى ترجمته ، وما توصى به وتتولاه وترعاه ، وبحيث تحقق التنسيق بين ترجمة الكتاب وحاجة الجمهور اليه . لذلك يجب أن يعهد إلى هيئة بالتخطيط للترجمة ، ويجب أن تقوم هذه الهيئة بالتنسيق مع كافة الجهات المتصلة بالترجمة .

وفى يناير ١٩٨٢ تعود أخبار اليوم لمناقشة أزمة الترجمة . فتحدث د . رشاد رشدى عن دور الجامعات فى الترجمة قائلا : « ان كل جامعة من الجامعات يجب أن تضع نسبة معينة من ميزانيتها لكتب-تترجم ، وهذا النظام موجود فى أمريكا فجامعة « بيل » مثلا تصدر سنويا أكثر من كتاب مترجم إلى اللغة الانجليزية ، وعندنا الآن أربعة عشر جامعة تقريبا ، ورغم هذا فالجامعة مقصرة تماما فى نهضة حركة الترجمة ، فالترجمة لا وجود لها اطلاقا فى جامعاتنا مع أننا كبلد له دور فى تاريخ الحضارة . والعالم كله يتطور فى كل شىء . وهذا ما فعلته بلدان كثيرة بدأت أولى خطوات نهضتها معنا كاليابان مثلا ، التى

أستطاعت أن تلحق بركب الحضارة ، ففى الحقيقة أن اليابان تهتم بالترجمة إلى أقصى الحدود منذ أن بدأت نهضتها وحتى الآن » وأشار إلى تقصير هيئة الكتاب فى الاهتمام بحركة الترجمة وأنه يجب على هيئة الكتاب أن تصدر نسبة كبيرة من الانتاج السنوى تكون ترجمة منتقاة . وتحدث د . عنانى فربط بين القراءة بصفة عامة وأزمة الترجمة . قائلا أن أزمة القراءة أحد أسباب أزمة الترجمة . وقد أثر ذلك على اهتمام القارىء بالأدب عامة وبالأدب العالمى خاصة . ويجب أن نذكر أن الأجهزة التى كان منوطا بها تقديم الأعمال المترجمة للجمهور قصرت فى وظيفتها على مدى العشرين عاما الماضية ، وهذه الأجهزة هى ادارة الترجمة بوزارة التربية والتعليم التى كانت قد أخرجت مشروع الألف كتاب وأكثرها كتب مترجمة . حدث هذا فى الستينات ، ووزارة الثقافة التى بها لجنة ترجمة تواجه مشكلات كبيرة فى حركة الترجمة ، والجهات الثقافية المستقلة مثل الجامعات والمعاهد ، والجهات المشتركة فى محافل دولية مثل « اليونسكو » أو الأمم المتحدة ... تلك الجهات قد قصرت فى حركة الترجمة بحجة واهية وهى ضعف الميزانية وفى الحقيقة أنه ليس عيب الميزانية وانما هو عيب الروتين والتعقيد الادارى . وهذا التعقيد يتمثل فى أننا نجد هناك أمام كلّ مترجم عشرين موظفا فى حين أنه من المفروض أن يكون هناك عشرون مترجما أمام موظف واحد . كذلك فوجود أزمة فى عدد المترجمين يتسبب بلا شك فى تعقيد الحلول أمام الترجمة فى مصر . فقد امتصت الهيئات الدولية المترجمين الأكفاء وأصبحت تدفع لهم ببذخ . فلماذا يترك المترجم هذه الميزات المادية التى يجدها هناك ويأتى إلى مصر ليترجم مقابل مبالغ ضئيلة جدا ، إذا قيست بالمبالغ التى يتقاضاها فى الخارج . والحلول ازاء أزمة الترجمة هى أن تتولى لجنة الترجمة مسئوليتها كاملة بأن تتاح لها الميزانية الكافية لتخطيط برنامج للترجمة قد يشبه برنامج الألف كتاب ، وليته يكون مشروع العشرة آلاف كتاب على مدى عشر سنوات مثلا . ولابد أن نذلل الصعاب

عندما نطلب النقود من وزارة المالية ، لأن الترجمة ينبغى أن يعاد النظر اليها

باعتبارها غذاء ثقافيا جوهريا ، لا يختلف عن أهمية الخبز . ويجب أن يكون هناك هيئة مشتركة بين هيئة الكتاب والمجلس الأعلى للجامعات لنقل الأبحاث المصرية والآداب المصرية إلى اللغات الأجنبية على حساب الدولة لكى تكون مرآة لحياتنا الثقافية . ثم تحدث الدكتور عبد العزيز حمودة قائلا : فى رأيى أن الحلول الواجب اتخاذها تجاه هذه الأزمة .

أولا لابد من عودة النظرة الجادة لأهمية الترجمة أو النقل فى جميع فروع المعرفة .

ثم لابد أن تنظر الهيئات المختصة إلى الآداب المترجمة على انها خدمة ثقافية ، وليست سلعة تجارية . فما المانع مثلا من أن تباع المسرحية المترجمة بعشرة قروش لتكون فى متناول أى مستوى ، وبذلك ترفع من المستوى الثقافى عند أبنائنا ، أى لابد من خفض التكاليف ، فالشاب المصرى شغوف جدا بالقراءة ، وهذه حقيقة لدرجة انه يتلهف على شراء الكتب وبخاصة المترجمة تلك الكتب التى تأتى من الكويت والدول العربية الأخرى ، وفى رأيى أنه لو تكاتفت جهود الجامعة مع هيئة الكتاب للنهوض بالترجمة لأثمر ذلك نتائج جديدة جيدة .

وفى فبراير ١٩٨٣ تتناول مجلة آخر ساعة الموضوع مرة أخرى فيقول د . نبيل راغب لا يوجد تخطيط بالمرة بالنسبة للجنة الترجمة ، فلا أحد يسافر إلى الخارج ليطل على الجديد فى الفكر الذى يجب ترجمته ، حتى لا تتخلف مصر (حضاريا) ، وكل الجهود المبذولة فى هذا المجال مجهودات فردية ، مثل ترجمة وصف مصر لزهير الشايب وغيره .

كما أن كثيرا من اللجان فى مصر موجودة لاعاقة العمل . فمثلا منذ عام لم تجتمع لجنة الترجمة . والاعتمادات المخصصة لها ضعيفة ولا تكفى لترجمة ٤ كتب فى العام .

ولم تكن رغبة المثقفين المصريين فى نشر انتاجهم الفكرى والأدبى على وجه الخصوص عالميا غالبة عن جهودهم قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ . يروى د . مرسى

سعد الدين[1] جانبا من هذه الجهود منذ عام ١٩٤٥ قائلا : ان الدكتور طه حسين حين كان وزيرا للمعارف أنشأ المعهد المصرى فى لندن ، وكان لى حظ العمل سكرتيرا لذلك المعهد من عام ١٩٤٥ إلى آخر ١٩٥٦ . وكانت مهمة المعهد عكس صورة مصر الحضارية والثقافية للعالم ، وكان فعلا النواة التى ازدهرت بعد ذلك فى عدد كبير من المراكز الثقافية ، وكان من أهم واجبات المعهد نشر ترجمات للأدب المصرى باللغة الانجليزية ، وفعلا قمت بالاتصال بعدد من دور النشر الهامة فى لندن لمناقشة هذه الفكرة ، وكان العرض الذى تقدمنا به لهذه الدور ضمان شراء الحكومة المصرية لعدد من النسخ تكفى لتغطية نفقات النشر ، على أن تقوم الحكومة المصرية أيضا بدفع نفقات الترجمة . وكانت ردود جميع دور النشر هى انه إذا اقتنعت بالكتاب وبصلاحيته للقارىء الانجليزى فانها ستنشره دون أية حاجة لضمانات من جانبنا . ويعطى ذلك لنا مؤشرا عن طبيعة النشر . فدار النشر لا تريد أن تنشر أى شيء يضمن لها ربح . بل ان لها شروطا معينة ومستويات خاصة لا أقول أنها مستويات مرتفعة أو منخفضة وإنما ذات طابع خاص لما تنشره . وفعلا قمت شخصيا فى ذلك الوقت بترجمة مجموعة من قصص كتابنا محمود تيمور وطه حسين وتوفيق الحكيم وسعيد عبده وصلاح ذهنى . وتمكنت من نشر هذه المجموعة فى عام ١٩٤٨ ، وفى هذا المضمار أود أن أذكر نشرة يصدرها نادى القلم الدولى بالاشتراك مع « اليونسكو » واسمها نشرة الترجمة . وقد كنت ضمن لجنة تحريرها حين كنت فى لندن ، كما عمل فيها أيضا على حسن عبد القادر ، وكان إذ ذاك مدير المركز الاسلامى فى لندن ، كانت تلك النشرة – ولا تزال – تصدر باللغات الانجليزية والفرنسية والأسبانية والألمانية . ومهمتها نشر ملخصات لأهم ما صدر باللغات غير العالمية . وقد أرسلت لها فعلا عددا من الملخصات عن الأدب المصرى نشرتها ، وكانت نتيجتها ترجمة بعض الأعمال الأدبية المصرية فيما بعد . وأذكر أيضا مشروعا قدمته للمجلس الأعلى للفنون والأداب لترجمة الكتب الكلاسيكية فى الأدب المصرى الحديث .

(١) مرسى سعد الدين : تصدير الأدب المصرى الأهرام بتاريخ ١٩٧٩/٤/٣٠ .

ووافق المجلس وبدأنا مشروعا كبيرا لترجمة أكثر من اثنى عشر كتابا إلى اللغتين الانجليزية والفرنسية . ووزعت الكتب على عدد من كبار أساتذة اللغات فى مصر ، وفعلا تمت الترجمة ولم نستطع أن نجد لها ناشرا فى الخارج على الرغم من استعدادنا لضمان تغطية النفقات . وبدأنا هيئة الكتاب فى اصدار هذه الترجمات ، وفعلا ظهر منها عدد لا بأس به . العملية اذن تتوقف تماما على مزاج الكاتب الذى يريد الترجمة . وأذكر على سبيل المثال قيام « دزموند ستيوارت » بترجمة الرواية الأولى لمؤلف شاب هو عصام دراز . فقد قرأت هذه الرواية واقتنعت بها تمام الاقتناع ، وتحدثت عنها إلى « دزموند » الذى قام بدوره بقراءتها ونشر عنها مقالا مطولا فى احدى المجلات الانجليزية . فكان ان طلب منه أحد الناشرين ترجمتها . بل أن أحد المخرجين السينمائيين عرض اخراج فيلم منها . هذا لا يعنى تحيزا أو محسوبية ، وانما هى ظروف وذوق خاص ، أريد أن أخرج من هذا باقتراح وهو أن تقوم لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للفنون والآداب باختيار مجموعة من الأعمال الأدبية ، وتكلف بها من يترجمها كما حدث من قبل ، ثم تقوم الدولة بنشر هذه الترجمة وتوزيعها فى الخارج ، أما عن طريق مكاتبنا الثقافية والأعلامية أو عن طريق موزعين عالميين .

ومما يؤكد العلاقة بين غيبة التخطيط وأزمة الترجمة النموذج الذى يجسد هذه العلاقة ، وهو ترجمة كتاب وصف مصر . لقد أعلنت هيئة الكتاب عام ١٩٨٣ أنها تعتزم ترجمة كتاب وصف مصر الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ . وأثار ذلك عددا من الكتاب والصحفيين . فقد ترجم الأديب والمترجم الراحل « زهير الشايب » عددا من فصول هذا الكتاب ترجمة وصفت بأنها بالغة الجودة من الدقة والجمال والموهبة . وقد حصل المترجم الراحل بها على جائزة الدولة التشجيعية فى الترجمة . وقال بعض الكتاب أنه يبدو أن صاحب فكرة ترجمة كتاب وصف مصر لا يعلم أن العمل قد ترجم منه جزء كبير بكفاءة بالغة . وخشى بعض آخر أن نكتشف مستقبلا بأن هذا المبلغ المقترح قد تم توزيعه على عدد من الأفراد ممن يكلفون بإعادة الترجمة دون أن يقدموا جديدا فى هذا الموضوع ، أو يقدموا شيئا « كسد

خانة » ، ولو نقلا من ترجمة زهير نفسها ، مع تغيير بسيط فى الألفاظ وانتهت المشكلة بتجميد المشروع . هذا إلى جانب ترجمة الكتاب الواحد أكثر من مرة ، فى حين توجد أمهات من الكتب لم تترجم على الأطلاق .

٢ – أزمة تزوير الكتب :

يواجه الكتاب المصرى ، ومن ثم النشر فى مصر بصفة عامة ، ظاهرة شاذة تقع له خارج مصر . وعلى وجه التحديد فى بيروت ، وفى قليل من العواصم الأخرى بأثر محدود . تلك الظاهرة هى أزمة تزوير طبع ونشر الكتاب المصرى . ويبدو أن ظاهرة تزوير الكتب ظاهرة قديمة[1] ، وأنه يعود إلى القرن التالى مباشرة لاختراع الطباعة ، وأن التزوير صار فى القرن السادس عشر منتشرا ، بحيث قامت محاولة لحماية كل كتاب بإقامة حق امتياز له . وأقدم حق امتياز يرجع إلى القرن السادس عشر فى المانيا ، وكان يحرم بمقتضاه اعادة طبع الكتاب دون إذن مؤلفه . وفى حالة منح صاحب الكتاب امتيازا امبراطوريا فمعنى ذلك أن قرار الحظر يشمل كل المانيا ، وكان هذا الحق يسرى لمدة سنة أو لبضع سنين . ولهذا الغرض كان أمر الامتياز لصاحب الكتاب يطبع غالبا فى أول الكتاب . أما عقوبة المخالفة لهذا القرار ، فكانت توجب دفع غرامة تتفاوت قلة وكثرة . ومع هذا فقد بقى التزوير على الرغم من كل هذه اللوائح . وكثيرا ما شوة المزورون الكتاب الأصلى . كما كان يحدث أن يضيفوا اليه ملاحق لم يكن لها أدنى صلة بالطبعة الأصلية للكتاب . ولكن تزوير الكتاب المصرى فى النصف الثانى من القرن العشرين تعود إلى ثلاثة أسباب مختلفة . **السبب الأول** هو تطور الطباعة مما جعل الطبع بتصوير الصفحات سهلا بل وأقل تكلفة . **والسبب الثانى** هو رغبة بعض الناشرين المزورين فى

---

(١) نوقشت نفس القضية فى الندوة التى عقدتها الشركة الوطنية للنشر والتوزيع فى الفترة من ٢ – ٥ مايو ١٩٧٤ بالمكتبة الوطنية للجزائر . وكان عنوان الندوة حول مشاكل الكتاب فى البلدان العربية .

الربح الحرام . **والسبب الثالث** هو مساعدة ظروف معوقات تصدير الكتاب المصرى . ثم المقاطعة العربية أخيرا ، للسببين السابقين .

وقد طالب رجاء النقاش عام ١٩٨١ وزراء الثقافة العرب بالتصدى لهذه الظاهرة التى أعتبرها تهدد الأمن الثقافى العربى ، بعد أن أصبح لهذا التزوير مؤسسات كاملة تقوم به فى بيروت وغير بيروت ، دون أن يصدر قانون عربى واحد يعاقب مؤسسات التزوير هذه على ما ترتكبه من جرائم فى حق العقل العربى والثقافة العربية . ان مؤسسات تزوير الكتب تصدر كل يوم آلاف النسخ المزورة ، لمختلف الكتب الحديثة والقديمة ، ورغم أن هذه المؤسسات قد بدأت وانتشرت فى الوطن العربى ، إلا أن أحدا لم ينهض حتى الآن لوضع حد لهذه الجريمة التى يتم ارتكابها كل يوم بأعصاب هادئة باردة ، وهى جريمة أصبحت مألوفة ومعروفة ، وأصبح الذين يرتكبونها يشعرون بالأمان الكامل ، ويفتحون لها مكاتب علنية ويضعون عليها اللافتات البراقة ، بغير خجل أو حياء ، ويجمعون الثروات الطائلة من وراء عملية تزوير الكتب هذه جهارا نهارا ، دون أن يجدوا من يحاسبهم ، أو يطالبهم بالتزام الحدود الأخلاقية والقوانين المشروعة لعملية نشر الكتب واصدارها . بل لقد تجاوزت ظاهرة تزوير الكتب سرقة الحقوق المادية للكتاب ، وامتدت إلى سرقة الحقوق الأدبية . ويقول رجاء النقاش(١) : « أمامى نموذج حى لهذه السرقة . وأعتقد أن هذا النموذج ينبغى أن يدفع جميع المسئولين عن الثقافة فى الوطن العربى إلى اتخاذ موقف حازم ضد هذا النوع من التزوير والسرقة ، لأن الضرر هنا يمتد ويتسع ليصبح تشويها كاملا للثقافة العربية المعاصرة . والنموذج الذى اتحدث عنه هو نموذج يتمثل فى مجموعة قصص قصيرة مترجمة من الأدب العالمى بعنوان « صديق الشدة وقصص أخرى » وهذه المجموعة كما ظهرت فى الطبعة البيروتية المزورة قد امتلأت بأخطاء فادحة .

وأنيس منصور يروى قصته مع تزوير كتابه الأول قائلا(١) :

---

(١) أنيس منصور : جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٨٢/٧/٥ .

صدر كتابى الأول سنة ١٩٤٩ (وحدى مع الآخرين) فى بيروت ، فوجئت به فى أسواق دمشق . ثم فوجئت بطبعته العشرين فى تل أبيب . أما الطبعة الأولى فلا أعرف كيف جمع الناشر مقالاتى ثم وضعها فى كتاب دون إذن منى . ثم أعيد طبع هذا الكتاب ، وكتب أخرى ، دون علمى فى بيروت ودمشق وطهران . وهذه هى قضية السطو على الفكر المصرى » .

وفى شهر مايو عام ١٩٨٣ اهتمت الدوائر المعنية فى القاهرة بتزوير الكتاب المصرى . وتقرر وضع اجراءات رادعة لمواجهة ظاهرة تزوير الكتب المصرية وبيعها فى المعارض الدولية . وفى أسواق الكتب العربية . ومن بين هذه الاجراءات حرمان الناشر الذى يثبت قيامه بعمليات تزوير الكتب من دخول الأراضى المصرية . ومصادرة أى كتب معروضة له داخل البلاد ، وابلاغ حكومة الدولة التي يتبعها الناشر بتهم التزوير الموجهة اليه ، وكذلك اتحاد الناشرين فى بلده ، وتوزيع كتاب دورى إلى كافة الوزارات والهيئات الحكومية فى كافة الأقطار العربية والإسلامية وإدارات معارض الكتب التى تقام فى هذه الأقطار بعدم التعامل مع الناشر ، وكشف جرائم تزويره ، وقد شكل وزير الثقافة لجنة عليا من المسئولين بوزارة الثقافة وممثلين عن دور النشر الكبرى فى القاهرة لوضع تصوراتها لوقف هذه الظاهرة الخطيرة التى استشرت بصورة فادحة فى السنوات الأخيرة ، وبعد أن اكتشفت الوزارة ان دار نشر واحدة فى المعرض الدولى للكتاب المقام فى بغداد وهى « دار أمية » قامت بتزوير ٨٦ كتابا للمؤلفين المصريين ، وقد خولت اللجنة الهيئة العامة للكتاب للقيام نيابة عنها بكل عمليات التعقب الملاحقة للمزورين ، وتحديد الأسواق والمجالات التى تنفذ اليها كتب المزورين كمعارض الكتب التى تقام سنويا على مستوى الوطن العربى ، والوزارات والهيئات الحكومية التى تقتنى كميات كبيرة من الكتب ، وكذلك تحديد الكتب المزورة المتداولة فى الأسواق . ودور النشر التي أصدرتها والاتصال المباشر بأصحاب دور النشر التي تعمل في مجالات التزوير لتصفية الكتب المزورة لديها وطلب كافة الحقوق المادية للمؤلفين المصريين عن الطبعات المزورة .

وقد رأى الدكتور سيد أبو النجا أن هذه الاجراءات لا يمكن أن تتم عمليا إلا من خلال احياء اتحاد الناشرين . فلو كان هذا الاتحاد موجودا اليوم لاتصل باتحاد الناشرين فى لبنان وتعاونا معا لايقاف التزوير ، واتصل بالسلطات ليدافع عن حقوق الناشرين ، وبذل جهدا فى رفع الرسوم الجمركية على تصدير الكتب وأزاح عن الناشرين سطوة الاستمارة التى توجب بيع الكتب نقدا ودون أجل . ويقول الدكتور أبو النجا : « لقد توليت اتحاد الناشرين عند انشائه منذ ١٥ عاما وبذلت جهدى فى سبيل اقناع وزارة الثقافة التى أنشأته لكى تعترف به ، ولكن لم أنجح ، فتقدمت باستقالة مسببة للوزارة قلت فيها اننى استقيل من شيء لا عمل له ، وأنا لا أحب أن أكون رئيسا شرفيا لأية هيئة أو جمعية ، وأحب أن أكون رئيسا عاملا وأردت بذلك أن أسمع صوتى للناشرين ، ولكنهم لم يتحركوا أيضا فنام الكتاب وتعرض لعمليات التزوير المستمرة فى لبنان وايران على وجه الخصوص ، ولم يتقدم أحد لانقاذه ، ولم يدافع عنه اتحاد الناشرين الموجود الآن فقط على الورق ، وعندما اخترت رئيسا للجنة النشر بالمجلس الأعلى للثقافة لم أستطع أيضا أن أفعل شيئا ، حيث أجرت اللجنة تعديلا فى قانون الاتحاد يتمشى مع الظروف الحاضرة ، ولكن أحدا لم يلتفت إلى هذه التعديلات وإلى الاتحاد نفسه ، وانتهت لجنة النشر كما انتهى الاتحاد ، ومن هنا تكون دعوتى لوزير الثقافة إذا أراد أن ينجح فى مهمته الشاقة فى وقت عمليات تزوير الفكر المصرى أن يبدأ انطلاقته من أحياء الناشرين باعتباره القوة الحقيقية التى يستطيع من خلالها حماية الفكر المصرى والمفكرين المصريين من سطوة الناشرين المزورين الذين أصبحت جرائمهم لا تقف عند حد » .

وقد تأخر احياء اتحاد الناشرين بسبب اجراءات تعديل قانونه ، والتى تتجه إلى قصر مزاولة مهنة النشر على المصريين ، حتى لو كان الناشر شخصا اعتباريا . وان يكون رأس المال مملوكا بالكامل للمصريين . وذلك مع مراعاة أحكام المعاهدات الثقافية التى تبرم بين مصر وأى دولة أخرى تبيح لمواطن هذه الدولة مزاولة مهنة النشر فى مصر . كما تتجه التعديلات إلى زيادة الحد الأدنى لرأس المال إلى عشرة آلاف جنيه بدلا من الفين . كما تتجه التعديلات إلى

تشكيل مجلس إدارة اتحاد الناشرين بالانتخاب من الجمعية العمومية . بشرط أن تتوافر فى المرشح لعضوية مجلس الادارة أن يكون سنه ٣٠ سنة على الأقل ، وان يكون قد مضى على قيده بسجل الناشرين عامان على الأقل . وأن يضم مجلس الادارة إلى جانب الأعضاء المنتجين ممثلين عن المجلس الأعلى للثقافة ، والهيئة العامة للكتاب ، والجهاز المركزى للكتب الجامعية .

٣ - أزمة النشر من المواقف الصعبة التي تواجه المؤلف في مصر والدول النامية ، موقف كيفية طبع الكتاب الذي يرغب المؤلف في نشره على أي نطاق ، أياً كان موضوع الكتاب ، ولعل الأزمة التي يواجهها أساتذة الجامعات لطبع مؤلفاتهم ، تجعلهم يقبلون بما يفرضه عليهم الناشرون من تضييق نطاق التوزيع والنشر والاقتصار على طلاب الجامعة الدراسين للكتاب .

وعدم محاولة توزيع الكتاب في المجالات الأخرى خارج حدود الجامعة وخارج حدود نطاق المدينة أو الدولة .. رغم أن أغلب هذه المؤلفات تخدم العلم وطلابه وتقدم إليهم أحدث ما وصلت إليه المعرفة البشرية في مجال التخصص .

كما يصعب على أي شاعر أو أديب أن ينشر أعماله الأدبية في دواوين وقصص وروايات تحمل أفكاره وتصوراته ، إما لكونه لا يملك المال الذي تتطلبه العملية الطباعية بجانب المال لقنوات التوزيع والنشر على طلاب الأدب والمعرفة . كما أن هيئات النشر الحكومية لا تستطيع بإمكانياتها الكبيرة إلى حد ما من القيام بهذا الواجب الإنساني الذي يتطلب الوقت والمال والتكنولوجيا مع وجود أجهزة متخصصة لمراجعة المؤلفات ثم الآختيار والانتقاء مع وضع الأولويات لنشر المجموعات الدورية في كل مجال . ولذا فإن ماينشر لا يتعدى أسماء معدودة لها من الشهرة والتقييم على جميع المستويات المحلية والإقليمية ، بجانب نشر القليل من كتب التراث .

٤ – أزمة التكنولوجيا الطباعية

من الظواهر غير المقبولة في مجال النشر في مصر ، أن نكون على أبواب القرن الحادي والعشرين ، ومازالت لدينا مطابع ماكيناتها من إنتاج القرن التاسع عشر ، تعمل وتنتج الكثير من الكتب الجامعية والعامة في العلوم والآداب والفنون بمستوى طباعي أقل من مستوى الكتب التي طبعت مع بداية هذا القرن . وعند المقارنة بين الكتب المطبوعة في أمريكا أو أي دول أوروبية مثلاً ، وبين الكتب المطبوعة في مصر ، فإنه يصعب وصف المقارنة سواء في نوعية الورق أو الألوان الطباعية أو مستوى التجليد والتغليف وهنا يرجع إلى أن عملية النشر ذات طبيعة خاصة من الاتصال والترابط ، بدءاً من المؤلف وكتابة المخطوط ومروراً بالناسخ والمراجع وانتهاءاً بالناشر المالك للمال صاحب المقدرة على تكلفة عمليات الجمع التصويري والطباعة والتجميع والتغليف والتوزيع ، لكي يتحقق غرض النشر ، هذا بجانب اختيار أجود أنواع الورق الصالح لطباعة الكتب بأنواعها ، مع استخدام الأساليب التكنولوجية المعاصرة في كل المراحل ... وهنا الصعوبة حيث قد يستخدم الناشر أسلوب الجمع التصويري ، وفي المرحلة التالية يستخدم أسلوب طباعي لا يظهر المستوى الفني العالي لوضوح الكتابة والصور والرسومات الإيضاحية ، وبالتالي فإن مستوى الإنتاج يختلف باختلاف المراحل التكنولوجية المستخدمة في إخراج الكتاب وطباعته ، مما يستلزم بالضرورة النظر إليها باعتبارها عملية ذات طبيعة خاصة ، بحيث لا يجب أن يستخدم الناشر وسيلة تكنولوجية معاصرة في إحدى المراحل ، ثم وسيلة ليست من نفس المستوى التكنولوجي . مما يؤثر على شكل الكتاب كناتج نهائي . ولا يعني ذلك عدم وجود مطابع تستخدم أحدث الأساليب التكنولوجية المعاصرة . إلا أنها قليلة ولا تغطي سوى نسبة ضئيلة من كم النشر الإجمالي .

٥ - أزمة دعم الدولة للكتاب :

مع بداية الستينات كانت حركة النشر في مصر في أوجها ، يرجع ذلك إلى الدعم الذي كانت تقدمه الدولة لنشر الكتاب وتوزيعه ، ومساهمتها المالية للهيئة العامة للكتاب ولدار المعارف وللأهرام ولمؤسسة دار الشعب وغيرها ولعلنا نذكر كتب المجموعات الثقافية مثل أعلام العرب ، والمكتبة الثقافية ومجموعة إقرأ (بدايتها من الأربعينات) ومجموعة الألف كتاب ومجموعات كتب التراث والكتب الدينية . ولا شك أن سر كثرة توزيع وانتشار هذه الكتب يرجع إلى أسعارها الرخيصة المدعومة من الدولة مما ساعد وساهم في تنشيط الحركة الثقافية . أما الآن فإن الظروف المالية للدولة لا تسمح بهذا الدعم نظراً لارتفاع أسعار الورق والطباعة والتوزيع مما لا تحتمله ميزانيتها .

الفصل الخامس

الورق والطباعة
في
العصر الحديث

صناعة الورق في الصين القديمة

إن الورق ليس مجرد مادة بسيطة نستخدمها ، إذ الواقع أن حياتنا اليومية الحديثة تعتمد إلى حد بعيد على وجود الورق . فلولا الورق لما وجدت الصحف أو الكتب المطبوعة ، ولخلت حياتنا من ورق اللف بمختلف أنواعه ، وورق الكتابة والكراريس والكتب والمجلات والصحف بأنواعها ، ولما عرفنا صناديق الورق المقوى وكل مواد التعبئة والتغليف في الورق والكرتون وأوراق النقد والشيكات وغير ذلك كثير لا يحصيه عد . وباختصار ، فإن عالمنا بصورته الراهنة لم يكن ليوجد لولا ظهور الورق .

وإذا رجعنا عبر التاريخ ثمانية قرون فقط لوجدنا أوروبا بأسرها لا تعرف الورق . وكان المادة الوحيدة التي تشبه الورق ، والتي يمكن الحصول عليها بسهولة هناك نوعاً رديئاً يعرف بالرق وهو عبارة عن قطع مربعة أو مستطيلة من معدة الحيوانات المجترة مثل الخراف والماعز والبقر والجمال وغيرها . ولكن لم يكن أحد يعرف شيئاً عن طريقة صنعه ، وكان معظم الكتبة لا يحبون استخدامه . فلم يكن سهل التمزق فحسب ، بل أن أية محاولة لمحو غلطة ما بحك سطحه كان من المحتمل أن تثقب مكانها . وقد دخلت هذه المادة أسواق أوروبا من شرق البحر المتوسط ، حيث أقام العرب في مدينة دمشق عدة مصانع للورق . غير أن أنواع الورق التي أنتجها العرب هناك من القطن والبوص وبعض النباتات كانت أقل جودة بكثير من الأنواع المتعددة التي أنتجها الصينيون من الألياف النباتية .

ولكن كيف أمكن لسر صناعة الورق الذي أحكم كتمانه أن يتسرب من الصين ويرتحل إلى العالم عبر عدة مراحل بطيئة ؟ إن ذلك في حد ذاته قصة طويلة . وقبل أن نمضي في سردها فلنستعرض طريقة الصينيين في الكتابة .

لقد بدأت الكتابة الصينية كغيرها من الكتابات القديمة على شكل صور .

ولكن بمرور الزمن أخذت الصور التي تعبر عن أفكار معينة والتي رسمت على هيئة رمزية . ولم تكن هذه الرسوم تمثل حروفاً هجائية ، فكل رمز أو شكل منها كان يعبر عن كلمة من اللغة أو مقطع من كلمة ، سواء أكان الشكل مكوناً من خط واحد أم من عشرين خطاً . وكان هناك أربعة آلاف من هذه الرسوم أو الرموز ينبغي حفظها عن ظهر قلب لمن يرغب أن يتعلم القراءة والكتابة .



تطور الرموز الكتابية الصينية من الرسوم الأولى

لم تكن للصين في فجر تاريخها أية علاقة بغيرها من دول العالم القديم . ولذا لم يكن أهلها يعلمون بوجود مواد تستخدم للكتابة عليها مثل ألواح الطين أو البردى أو الألواح الخشبية المغطاة بالشمع في بلاد أخرى بعيدة . وكذلك فإن تجار فينيقيا القديمة لو عرفوا المادة التي كان الصينيون يستخدمونها في الكتابة لأخذهم العجب . فقد كان الكتبة في الشرق الأقصى يكتبون في معظم الأحوال على شرائح ضيقة تتخذ من سيقان نبات البوص (البامبو) المجوفة . ولقد كان ضيق الشرائح نتيجة لازمة لتجوف السيقان التي تتخذ منها . فكان

غرض كل شريحة لايكاد يتسع من رمز كتابي واحد ، وطولها لايكاد يتجاوز عشرين سنتيمتراً . ولذا كان الكاتب يكتب من أعلى إلى أسفل ، مدوناً كل رمز تحت سابقه .

وهذا مثال آخر على تأثر طريقة الكتابة بطبيعة المادة التي يكتب عليها . غير أن طريقة الصينيين في الكتابة ظلت منذ اتخذوها دون تغيير . وحتى اختراع الورق لم يؤثر فيها ، فظل الصينيون يكتبون من أعلى إلى أسفل في أعمدة ضيقة .

وبالطبع كان عدد الرموز التي يستطيع الكاتب أن يحشدها في شريحة واحدة – بقلمه المبري من البوص – محدوداً . ومن هنا كان النص الطويل يحتاج لأكثر من شريحة . ولكي يحفظ الكاتب تتابع هذه الشرائح فإنه كان ينظمها في خيط واحد . لذا كان في كل شريحة من أعلاها ثقب صغير لهذا الغرض .

ومثل هذا الكتاب الذي يتكون من حزّمة من الصفحات الطويلة الضيقة كان عسير التناول وإن كان خفيف الحجم . ومع ذلك فإن مجموعة كتب من هذا القبيل كان يمكن أن تشكل حملاً ثقيلاً . ويروي أن أحد أباطرة الصين القدماء وجد ذات يوم أن ماكان عليه أن يفحصه من وثائق الدولة الرسمية بلغ نحو مائة وعشرين رطلاً من شرائح البوص ، ولذا كان واضحاً أن الحاجة تدعو إلى البحث عن مادة جديدة أفضل من هذه الشرائح للكتابة عليها .

وكان الحرير من المواد التي عرفتها الصين منذ زمن بعيد . فقد كان الصينيون يربون دود الحرير وينسجون خيوطه من قبل ذلك الوقت بنحو ألفي عام . وقد حاول بعض كتبة قصور الأباطرة بالفعل أن يكتبوا على نسيج الحرير بأقلامهم المتخذة من البوص ، ولكن هذه الأقلام كانت غير طيعة وأصلب من أن تصلح لهذا الغرض . وبدلاً من أن يفكر هؤلاء الكتبة في أداة أخرى للكتابة بها غير هذه الأقلام ، استمروا يستخدمونها على شرائح البوص .

ولا يعرف أحد بالضبط كيف خطرت لبعض الصينيين فكرة استخدام فرشاة مصنوعة من شعر ذيل حيوان السمور أو الحصان – أو الكلاب للكتابة

بها على الحرير . إنها في الواقع فكرة بسيطة ، وإن كانت هذه الفرشاة لم تخترع إلا في أثناء القرن الثالث قبل الميلاد . ومنذ ذلك الوقت بدأ استخدامها في تدوين الكتب على شرائح طويلة من نسيج الحرير ، تطوى بعد ذلك على شكل لفائف .

وكان ذلك بلا شك يمثل تقدماً كبيراً . ولكن الحرير لم يكن كافياً لسد حاجة الصين إلى استخدام مادة أفضل من البوص للكتابة ، فقد كان مرتفع الثمن إلى حد كبير .

ولذلك أخذ عدد من الرجال في مختلف بقاع الصين يعملون سراً ، مؤملين أن ينجحوا في الوصول إلى اكتشاف مادة علمية تصلح للكتابة . فقاموا بعدة تجارب على الحشائش وأفرع الأشجار وسيقان البوص المهشمة ولحاء شجر التوت ، لتحويلها إلى المادة المطلوبة . وأخيراً تمكن أحد هؤلاء الباحثين من إنتاج مايمكن أن نطلق عليه « شبيه الورق » ، وقد أنتجت هذه المادة من ألياف الحرير الخام والألياف النباتية . غير أن الحرير في أي شكل من أشكاله كان يرفع تكاليف ما يصنع منه إلى حد كبير . ولذلك واصل الباحثون تجاربهم حتى عام ١٠٥ ميلادية عندما أبلغ أحد رجال القصر الامبراطور بأنه اكتشف طريقة لصنع الورق من « لحاء الشجر وبعض الحشائش ، والخرق ، وشباك الصيد القديمة » ، وكان هذا الرجل يدعى « تساي لون » (Ts' ai Lun) .

ويقول أحد كتّاب الصين في القرن الخامس الميلادي ان تساي لون « نال جائزة قيّمة على براعته » . ولكن القصة لا تنتهي بذلك ، فيقال أن تساي لون اشترك في بعض المؤامرات السياسية مع نساء القصر الامبراطوري واكتُشِف أمره . وبدلاً من أن يمثل أمام القضاة ، « ذهب إلى منزله واغتسل ، ثم مشط شعره وارتدى أفخر ثيابه ، وشرب كأساً من السم » . وهكذا انتهت حياة مخترعنا الكبير تلك النهاية غير المتوقعة ولكن ظهور الاختراع الذي ينسب إليه يعتبر بداية تغيير تكنولوجي حضاري في حياة الإنسان . ومع ذلك فلم يدرك هذه الحقيقة وقتئذ إلا القليلون . والواقع أن الأوروبيين بالذات لم يصل إلى

علمهم أدنى خبر عن أن شيئاً اسمه الورق قد ظهر إلى الوجود . حيث كانت أوروبا غارقة في ظلمات الظلم والجهل .

انتقال صناعة الورق من سمرقند إلى بغداد

لم يكن أحد يستطيع أن يكتشف من أي شيء صنعت قطعة من ورق الكتابة . فليس من الممكن التوصل إلى كنه هذه المادة الجديدة ، بلمسها أو بتمزيقها أو بفحصها في الضوء ولم يكن التحليل الكيميائي معروفاً ولم يكن الميكروسكوب قد اخترع بعد . ولذلك استطاعت الصين أن تحتفظ لنفسها بأسرار صنعها للورق أكثر من سبعة قرون . وفي خلال تلك الفترة كانت الصين تشحن حزم الورق مع الشاي واللؤلؤ والحرير وغيرها في قوافل الجمال إلى أواسط آسيا ، دون أن تخشى المنافسة .

ثم حدث ذات يوم من أيام الصيف ، وبصورة أبعد ما تكون عن التوقع ، أن انهارت الأسوار القوية التي أحاطت بها الصين سر صناعة الورق ، فتحطم بذلك احتكارها لهذه الصناعة . ذلك أن النزاع كان على أشده بين الصين وجيرانها المسلمين الذين يتاخمونها غرباً ، وعندما استولى العرب على ما يعرف الآن بجمهورية تركستان السوفيتية ، أصبحت سمرقند وبخاري ، المدن الرئيسية على طريق القوافل القديم إلى البحر المتوسط ، في قبضتهم . ونتيجة لذلك اندلعت الحرب بينهم وبين الصين . وفي شهر يوليو من عام ٧٥١م عبرت القوات الصينية حدود بلادها متجهة إلى مدينة سمرقند .

ولكن العرب بحسن استعدادهم أثبتوا أنهم أكثر من ند للغزاة الصينيين . وفي المعركة الحامية التي دارت بين الفريقين قتل وأسر عدد كبير من جيش الصين ، وفر الباقون عائدين أدراجهم عبر الحدود .

ويسجل التاريخ على لسان المؤرخين تلك الفترة أن « زياد بن صالح ، هو القائد العربي الذي انتصر في هذه المعركة ، واستطاع أن يأسر عدداً كبيراً من الصينيين ، وكان من بينهم بعض صناع الورق » يقال أن عددهم سبعة أفراد

وربما لم يزد هذا العدد على اثنين . وعلى أية حال ، فعندما وعد أولئك الأسرى بأنهم سوف يطلعون العرب على أسرار صناعة الورق أمنت حياتهم ، ثم نقلوا إلى سمرقند حيث بدءوا على الفور عملهم .

ولابد أن الدهشة انتابت العرب وهم يرقبون خطوة بخطوة كيف تتحول الخرق البالية إلى أفرخ من الورق ناصع البياض . وكانت المعدات التي استخدمها الصينيون في غاية البساطة . فقد طلبوا بعض الخشب ، وقدراً كبيراً من قدور الطهو التي تعلق فوق النار ، ومطرقتين خشبيتين لكل منهما ذراع طويلة ، وكتل مسطحة من الحجر ، وكمية كبيرة من الرماد المتخلف عن حريق الخشب .

واستطاع الصناع الصينيون الأسرى أن يعدوا بأنفسهم مصفاة مناسبة . وقد استعاضوا عن شرائح البوص التي اعتادوا استخدامها في صنع المصافي بشرائح رقيقة من الخشب ثبتوها متقاطعة على إطار خشبي كحافات الصندوق ، وتركوا بينها مسافات بالغة الضيق .

وكان العمل يبدأ بوضع الخرق البالية في القدور ومعها محلول قوي من الماء ساخن المستخلص من رماد الخشب . وبعد أن يغلى الخليط بشدة تغسل لخرق جيداً ثم تدق بالمطرقة فوق كتلة الحجر حتى تتحول إلى عجينة طرية . وبعد ذلك تضاف كمية كافية من الماء إلى العجينة حتى يخف قوامها وتصير أشبه بسائل لزج ثم يصب هذا السائل في المصفاة ، فيسقط مابه من ماء ويتبقى منه فوق المصفاة طبقة منبسطة من ألياف متماسكة ، هي فرخ الورق المطلوب . وكان الأمر يحتاج إلى دقة كبيرة لنزع هذا الفرخ الرطب من المصفاة ونشره فوق لوح مسطح لتجففه حرارة الشمس .

وهكذا كشف الستار عن سر صناعة الورق . ولكن لم يكن معنى ذلك أن ينتشر بسرعة في شتى أنحاء العالم العربي ، فقد حرص تجار سمرقند على إخفاء السر أطول فترة زمنية ممكنة ، إذ وجدوا أن بيع الورق يعود عليهم بأرباح

طائلة . واستطاع هؤلاء التجار الذين يتجولون بين مختلف المدن أن يخلقوا بدعايتهم طلباً متزايداً على الورق « المصنوع في سمرقند » .

وكان الناس في بغداد العاصمة الأولى للخلافة الإسلامية – والتي كانت في ذلك الوقت مركزاً ثقافياً كبيراً – يعارضون بشدة في الأسعار المرتفعة التي يطلبها التجار ثمناً لذلك الورق « المستورد » ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يغيروا من ذلك شيئاً . ولم يكن أمامهم ، إذا شاءوا ، إلا أن يستخدموا البردى بدلاً من الورق . وكانت مصر مازالت تنتج البردى ، ولو أن معظم أهل الكتابة من أبناء وادي النيل قد أصبحوا يفضلون استخدام ورق سمرقند .

وهكذا مضت الأمور بمسلمي بغداد قرابة خمسين عاماً ، حاولوا في أثنائها دون جدوى نقل أسرار صناعة الورق . وأخيراً تمكنوا في عام ٧٩٣ ميلادية في عهد الخليفة هارون الرشيد (٧٧٦ – ٨٠٩) من إنشاء أول مصنع للورق في بغداد العاصمة العظيمة ، وذلك بعد أن تمكنوا من استيطان بعض صناع الورق من الصين .

وطيلة هذا الوقت كان أهل أوروبا مازالوا يكتبون على ألواح الخشب المغطاة بالشمع وعلى البردى والرق . ولم يقدر لمعظم الأوروبيين أن يروا قصاصة ورق ، حتى بعد أن مر قرن من الزمن ، وبدأت مصر تنتج الورق لنفسها ، وكثر إنتاجه لدرجة أن الباعة في القاهرة كانوا يلفون به الخضر والتوابل . ولم يزد ما قد يكون رآه بعض الأوروبيين حينئذ من الورق على قطعة صغيرة متغضنة أحضرها معه أحد التجار من الشرق على سبيل الطرافة .

أما أول مصنع للورق يقام على أرض الأندلس الإسلامية ، فقد افتتحه عرب طليطلة عام ١١٥٠ . وما لبثت كل من إيطاليا وفرنسا بعد سنوات قليلة أن استوردت ورق العرب . وعلى أية حال فلم يلق الورق رواجاً في أوروبا ، لقلة عدد من يعرفون الكتابة ، حتى اكتشف بعضهم ذات يوم أن الورق المقوى إذا شبع بالزيت أمكن استخدامه في فتحات النوافذ بدلاً من ألواح الزجاج ، التي لم يكن الحصول عليها يسيراً . وقد أمكن بهذه الألواح

الورقية شبه الشفافة وقاية حجرات المنازل من المطر والبرد على السواء . ولم يعد بالناس حاجة إلى اغلاق النوافذ الخشبية وإظلام الحجرات لاتقاء الطقس البارد . وسرعان ما أصبحت تلك النوافذ الورقية المصقولة شيئاً عادياً في حياة الناس .

صناعة الورق الحديثة

Modern Paper Manifacture

أينما سرت في أيامنا تلك ، ترى الورق متداولاً بكثرة عظيمة جداً في جميع مرافق الحياة تقريباً تستيقظ في الصباح كل يوم ، فيكون أول ما تقوم به تصفح جرائد الصباح ، وهي مصنوعة من الورق . وقد تشعل لفافة من التبغ فإذا بها ملفوفة في قطعة من الورق ،والسجائر* ذاتها محفوظة في صندوق من الورق ، والثقاب الذي تشعل به اللفافة قد يكون قطعة من الورق المقوى مثبتاً في غلاف من الورق . ثم تذهب إلى محل عملك فتستخدم الورق جزءاً طويلاً من النهار وقد ترسل خطاباً لعميل أو صديق لك فتكتبه على صحيفة من الورق وتلصق عليه طابعاً من الورق . ثم تذهب لشراء بعض حاجياتك فتعطي البائع جنيهاً – وهو قطعة من الورق – ويعطيك لوازمك في غلاف من الورق . وتطالع الكتب أو المجلات في المساء فإذا بها أيضاً مطبوعة على الورق . وهكذا بل لقد اعتاد الناس في كل أنحاء العالم المتحضر وفي أغلب الدول النامية يستخدمون صحوناً وكؤوساً وملاعق ومناشف من الورق بحيث يمكن الاستغناء عنها وحفظها بعيداً بعد استعمالها مرة واحدة ، وفي ذلك ما فيه من توفير أسباب النظافة والصحة وتيسير الأمور لربات المنازل وأصحاب المطاعم وما إليهما . ومن طريف ما قيل في شأن انتشار الورق ، أن الأزمة وكساد التجارة ذاتهما يؤديان إلى كثرة استعمال الورق والإقبال عليه ، لأنه كلما اشتدت الأزمة اضطر التجار إلى الإعلان عن سلعهم وإرسال النشرات وأوراق الدعاية . وقد دل البحث على أنه في أوقات الأزمات تكثر الصفحات المعدة للدعاية والإعلان في الجرائد والمجلات .

* السجائر ضارة للصحة وتسبب مرض السرطان الرئوي .

تركيب الورق :

يتركب الورق العادي من ألياف نباتية متراكبة رقيقة تشبه الشعر ، وهذه الألياف متداخلة بعضها ببعض كالحصير ، وملتصقة التصاقاً كاملاً بحيث تكون سطحاً متصلاً ناعماً . ويمكنك أن ترى هذه الألياف بالميكروسكوب العادي إذا مزقت قطعة من الورق ، فتشاهد ألیافاً صغيرة تشبه الشعر بارزة من حرف الورقة . والمصدر الأول للألياف التي يتكون منها الورق بجميع أنواعه هو المملكة النباتية . فهناك لب الخشب أو جذوع الأشجار وهو المادة الأساسية الأولى التي تدخل في صناعة الورق . وهناك مجموعة نباتات الألياف مثل القنب والكتان والقطن وسيقان النباتات النجيلية مثل سيقان الشعير والقمح ، وأوراق الغاب والحلفا ، وبعض أنواع الحشائش ، وحطب القطن ، وكثير غيرها من الحاصلات الزراعية يمكن استخدامها أيضاً في هذه الصناعة . والحقيقة أن إدخال الخشب ولبه في صناعة الورق كان نصراً عظيماً للكيمياء والكيميائيين . ولكي نفهم تماماً الدور الذي لعبته الكيمياء حديثاً في هذه الصناعة ، يجمل بنا أن نلم بعض الشيء بتاريخ صناعته في العصور الوسطى. يؤخذ النبات وتمزق (تهرس) أليافه بين قطعتين من الحجر ، ثم توضع كتلة الألياف في حوض به كمية كبيرة من الماء وتغمس الشبكة في الحوض وترج جيداً عند إخراجها ، فينفذ الماء من ثقوب الشبكة ، وتشتبك الألياف بعضها مع بعض وتكون نسيجاً رخواً متصلاً من الورق . وقد بطل عمل الورق بالأيدي واستخدمت الآلات في صناعته منذ فجر القرن التاسع عشر ، وابتدأ أيضاً في ذلك الحين استخدام المواد الكيميائية لتطرية الألياف وفصلها من أجزاء النبات الأخرى ، واستعمال المكابس الأسطوانية التي تساعد على إزالة الماء من الألياف والتحامها بعضها ببعض ، واسطوانات التجفيف الساخنة التي تصقل الورق وتجففه .

بعد إدخال الطرق الكيميائية والآلات المتقدمة في صناعة الورق تحسن نوع الورق كثيراً ، وسهلت صناعته ، وزادت كمية الإنتاج منه زيادة عظيمة وبذلك أصبح الورق في متناول جميع الناس بعد أن كان استعماله قاصراً على

طبقات معينة . وكانت الخامات التي تعتمد عليها مصانع الورق في العصور القديمة وحتى نهاية العصر الوسيط هي الخرق البالية لمنسوجات القطن والكتان ، أي أن صناعة الورق كانت تعتمد على صناعة أخرى للحصول على خاماتها ولكن زيادة الطلب على الورق وسهولة تطرية الألياف بالمواد الكيميائية جعلتا مصانع الورق تتجه إلى المملكة النباتية لاستخلاص تلك الألياف في صناعة مختلف أنواع الورق .

الأليـــاف النبـــاتية :.

قلنا توجد الألياف اللازمة لصناعة الورق في أغلب النباتات والأشجار ويختلف الجزء الذي تؤخذ منه الألياف باختلاف النبات . ففي شجيرات القطن مثلاً ، توجد الألياف الصالحة لعمل الورق في الثمرة ، وهي شعيرات القطن ذاته . وتوجد في اللحاء الداخلي لساق نبات الكتان . وفي نباتات أخرى مثل الحلفا والغاب والبوص وسيقان القمح والشعير توجد الألياف في جميع الساق . وفي الأشجار تكون الألياف هي نفس الخلايا التي يتركب منها النخاع الخشبي للساق . وعلى ذلك تتطلب صناعة الورق طرقاً مختلفة لاستخلاص الألياف من هذه النباتات .

وتتركب جميع هذه الألياف من مادة شديدة المقاومة تعرف بالسليلوز ، وهو مركب من ثلاثة عناصر وهي الكربون والأيدروجين والأكسجين (ك يد أ) ن ، وتعد ألياف القطن أنقى الصور التي يوجد عليها السليلوز في الطبيعة ، وأهم المواد الأولية التي تؤخذ منها الألياف السليلوزية الصالحة لعمل الورق ما يأتي :

١ – **لب الخشب** وهو أهم المواد الأولية على الإطلاق وأصلحها لعمل مختلف أنواع الورق وتنتج الولايات المتحدة وكندا والسويد والنرويج وفنلندا حوالي ٩٠٪ من ورق العالم .

٢ – **القش** مثل قش القمح وقش الشعير وقش الأرز وقش مصاصة القصب ولأن القش يحتوي دائماً على السليلوز بالإضافة إلى كمية من السليكا

فهو يحتاج إلى معالجة خاصة لإزالة هذا المركب . ويستخدم القش عادة في صناعة الورق الخشن وورق اللف وأنواع الورق الرخيص ويعتبر قش الأرز مادة أساسية لصناعة الورق في مصر والهند وبلدان العالم الثالث . ويلزم تقطيعه وتنقيته من الشوائب والمواد الغريبة ثم معالجته بالمواد الكيميائية وطبخه وتحويله إلى عجينة مادة السليلوز وتنتج كل ٥ أطنان من قش الأرز طناً واحداً من الورق . وتصلح عجينة قش الأرز لإنتاج ورق الكتابة والطباعة . كما تصلح كل أنواع القش لنفس الغرض بنسب تتفاوت فيما بينهما .

٣ - **نبات القنب hemp ونبات الكتان** : ويتعذر تبييض الورق المصنوع من هذه الألياف ولذا تستخدم في عمل أنواع الورق الرخيص .

٤ - **خرق المنسوجات القطنية والكتانية البالية** : وأصلها طبعاً ألياف نباتية . وهي تصلح لعمل بعض أنواع الورق الجيد ، لأن الشوائب التي مع السيليلوز تزال عند صناعة هذه المنسوجات ويحضر من هذه الخرق لب سليلوزي يصلح لأنواع الورق الفاخر التي تستخدم في كتابة الوثائق والمعاهدات والشهادات الدراسية والبنكنوت نظراً لأن الورق المحضر من الخرق يكون أكثر تماسكاً من غيره ويكون خالياً من الشوائب وأكثر مقاومة للعوامل الجوية وحتى عام ١٨٦٦ كان جميع الورق المستعمل في العالم يصنع من الخرق البالية .

٥ - **فضلات الورق الدشت وقصاصات المطابع** والمرتجع من الصحف والمجلات والكتب والمطبوعات التجارية . وهي تمثل نسبة عالية من مكونات العجينة لصناعة الورق في الدول النامية .

١ - اللب الميكانيكي واللب الكيميائي :

ابتدأ استخدام لب الخشب في صناعة الورق في منتصف القرن التاسع عشر ، ومنذ ذلك التاريخ وجد صناع الورق تحت أيديهم كميات عظيمة من

الألياف الطبيعية كما أدخلت بعض التعديلات على آلة صنع الورق ، فساعد ذلك على إنتاجه بكميات هائلة . كما أن ازدهار كثير من الصناعات وتقدم وسائل الانتقال والمواصلات عملاً على انتشار استخدام الورق وكثرة الطلب عليه .

ومعظم الورق المتداول في التجارة العالمية في الوقت الحاضر مصنوع من لب الخشب ، وهذا يدل على أهمية هذه المادة ومقدار ملاءمتها لهذه الصناعة . وتوجد طريقتان لاستخلاص اللب من الأشجار ، تعرف إحداهما بالطريقة الميكانيكية ، وهي طريقة عامة يمكن بها تحضير اللب من كثير من الأشجار والنباتات .

ففي الطريقة الميكانيكية يؤخذ جزء من ساق الشجرة – بعد نزع لحائه وتجرى عليه عملية السحق أو الهرس Pounding بواسطة مكابس اسطوانية من الحجر تدور في الماء ، فتتمزق أوصال الخشب ويتحول إلى أجزاء صغيرة جداً بعضها ليفي وبعضها غير ليفي ، ويعرف مجموعها باللب الميكانيكي Mec. pulp وتعرف الأجزاء غير الليفية من الخشب باللجنين Lignin وهي تبلى بعد مدة إذا تعرضت للهواء ولذا فإن الورق المصنوع من اللب الميكانيكي لا يتحمل الاستعمال ولا يدوم مدة طويلة مثل الورق المصنوع من اللب الكيميائي ، ومن أجل ذلك يصنع منه ورق الجرائد وورق اللف الرخيص . ولأن هذا اللب أليافه قصيرة ولا يسهل جدلها واشتباكها interlacing تضاف إليه دائماً كمية من اللب الكيميائي حتى يكون الورق قوياً صالحاً للاستعمال في التعبئة والتغليف . وفي الطريقة الكيميائية chemical يعالج الخشب ببعض المواد الكيميائية التي سيأتي ذكرها ، وتعمل هذه المواد على تطرية الألياف وإذابة الأجزاء غير الليفية من الخشب أو النبات ، وتنقية الألياف السيليلوزية مما بها من الشوائب . وتوجد في الوقت الحاضر ثلاث طرق كيميائية لتحضير العجينة اللازمة لصنع الورق ، تعرف الأولى منها بطريقة الكبريتيت ، والثانية بطريقة الصودا ، والثالثة بطريقة الكبريتات ويعرف اللب المحضر بأحد هذه

الطرق الثلاث باللب الكيميائي chemical pulp ويتوقف اختيار هذه الطريقة على نوع الخشب الموجود وعلى الورق المراد تحضيره

٢ - طريقة الكبريتيت :

أكثر الطرق انتشاراً لتحضير عجينة الورق ، وهي تصلح على الأخص لمعالجة أخشاب الصنوبر والبلسم والتنوب fir-tree والأبيز spruce والشوكران (hemlock) وفي هذه الطريقة تؤخذ كتل الخشب وينزع لحاؤها وتقطع إلى كِسَرْ صغيرة ، ثم تغلى مدة من الزمن مع محلول لتحضير اللب من أشجار الصنوبر وبعض الأشجار الراتنجية التي تنمو في جنوب أوروبا . ويمتاز الورق المصنع بهذه الطريقة بمتانته الشديدة ولذا تصنع منه الأكياس لتعبئة الأسمنت والسماد وغير ذلك وعادة يكون أصفر اللون . (كرافت) .

وتستخدم هذه الطرق الثلاثة أيضاً لتحضير اللب من المواد السيليلوزية الأخرى غير الخشب مثل الحلفا والقش والخرق ، وعلى كل حال يجري التفاعل تحت شروط خاصة من الضغط ودرجة الحرارة ، تبعاً لنوع الورق المراد تحضيره والخامات المستعملة في صناعته . وقد تستخدم مواد كيميائية غير التي تقدمت لتجهيز اللب من خاماته الأولية ، ففي حالة الخرق يمكن استخدام محلول الجير بدلاً من ايدروكسيد الصوديوم عند تحضير بعض الأصناف الرخيصة من الورق . وفي تحضير الورق الجيد من القش يعالج الأخير بغاز الكلور للتأكد من إزالة جميع أجزاء المادة النباتية غير الألياف . وتتوقف جميع العمليات المذكورة على أن السيليلوز مادة شديدة المقاومة ، لا تتأثر بالمواد الكيميائية ، فالقلويات والأحماض المستعملة تذيب الأجزاء غير الليفية من الخشب أو النبات ، وبذلك تنقى الألياف السليلوزية مما بها من الشوائب . غير أن هناك حداً لمقاومة هذه الألياف ، فإن زادت مدة الغليان عن وقت معين ، أو زادت درجة تركيز المحلول الكيميائي عن قوة محدودة فإن ذلك يؤثر في الألياف تأثيراً سيئاً فتقل جودتها وصلاحيتها لعمل الورق ، وتقل في الوقت نفسه كمية العجينة التي يحصل عليها من مقدار معين من الخشب . وفي الواقع

أصبحت صناعة الورق في العصر الحديث من العمليات التي تحتاج إلى تكنولوجيا كيميائية دقيقة . ولأن المواد الكيميائية ثمنها كبير ، يراعى عادة الاقتصاد التام في استعمال هذه المواد . ففي المصانع التي تستخدم أيدروكسيد الصوديوم في تحضير الورق ، يؤخذ المحلول القلوي المتخلف بعد معالجة الخشب ، ويركز ويحرق . ثم يستخدم الرماد الناتج لتحضير محلول قلوي تعالج به كمية جديدة من الخشب . كما أن الجزء المتخلف من الخشب يستخدم وقوداً في هذه العملية . وفي طريقة الكبريتيت ، يحرق (كلوروهيبو كلوريت الكالسيوم كا أكل$_2$) الذي يتفاعل مع الماء المعلق فيه المسحوق مولداً غاز الأكسجين ، ويتحد هذا الأخير مع الشوائب التي في الألياف مكوناً مواد يسهل إزالتها بالماء .

ويتضح مما تقدم أن مصانع الورق يجب أن يقام فيها مصانع أخرى لتحضير المواد الكيميائية مثل أيدروكسيد الصوديوم وغاز ثاني أكسيد الكبريت وغاز الكلور ومسحوق التبييض وغيرها من المركبات المستخدمة في هذه الصناعة .

٣ – عملية الرض أو الضرب Beating :

ويجب رض الألياف وضربها ضرباً جيداً لتطرية أطرافها وتقطيعها إلى حجوم منتظمة متناسبة ، تمهيداً لوضعها على أسلاك الحاجز الشبكي (Wire-Screen) ، وتجرى هذه العملية غالباً بطريقة ميكانيكية ، وذلك بواسطة أنصال حادة ، تعمل على تمزيق الألياف وفصلها عن بعضها البعض . ولتحويل الألواح السيليلوزية إلى ألياف قصيرة متماثلة .

٤ – عمليات الحشو والتجهيز Loading & Sizing :

وبعد رض الألياف تعالج بالمواد الكيميائية الملونة ، إذا أريد صبغها ، وببعض المركبات الأخرى ، مثل كبريتات الكالسيوم والباريوم وسيلكات الألمونيوم والمغنسيوم ، والغرض منها حشو الورق وزيادة وزنه (Loading)

وإكسابه بعض الخواص المعينة . كما أن جميع أنواع الورق تقريباً ، تحتوي على بعض النشا ، لأنه يساعد على لصق الألياف والتحام بعضها ببعض .

وإذا أريد عمل ورق الكتابة ، تجب معالجة الألياف بطريقة خاصة لمنع انتشار الحبر على الورق وتتلخص هذه الطريقة في تغطية الألياف بطبقة رقيقة من مادة راتنجية مثل القلفونية . فتصهر هذه المادة الأخيرة وتعالج بمحلول الشبه ويضاف مزيجها إلى اللب أثناء عملية الضرب ، فتتفاعل هاتان المادتان ويرسب منها ملح راتنجات الألومنيوم على سطح الورق .

٥ - تحويل العجينة إلى ورق :

تمزج العجينة بكمية مناسبة من الماء وتطرح على منخل أو شبك مستطيل من السلك Wire-screen يتحرك بمعدل معين (حول ٦٠ متراً في الدقيقة) ويرج جيداً أثناء حركته . فتشتبك الألياف بعضها ببعض ويتكون منها صحيفة متصلة ، أما الماء فينفذ من ثقوب الشبكة .

٦ - كبس الورق :

ثم يمرر الورق بين اسطوانات كابسة لإزالة الماء منه ، وفي الوقت نفسه يساعد الكبس على اندماج الألياف ، والتحام بعضها ببعض .

٧ - عمليـة التجفيف :

ثم ينقل الورق إلى اسطوانات التجفيف ، وهي اسطوانات مجوفة من الحديد الزهر تسخن بالبخار المضغوط .

٨ - عمليـة الصقـل :

ثم يمرر الورق على سلسلة من الاسطوانات الناعمة المسخنة (rollers) لصقله وكبسه مرة أخرى ، وتعرف هذه العملية بالجندرة (Calendering) أو الكوي .

عملية الإضافة في صناعة الورق :

تتم عملية الإضافة للمواد الكيماوية بترتيب خاص لتكسب الورق صفات تتطلبها صناعة الورق وتتم الإضافة إما في السواقي في حالة التشغيل بالشحنة أو في أحواض الخلط أو في أحواض إضافة خاصة وأهم المواد التي تضاف للعجينة هي :

١ – مواد قلفنة وهي الشبّة والقلفونية .
٢ – مواد ملونة وهي صبغات ملونة مختلفة .
٣ – مواد مالئة مثل بودرة التلك والصلصال الصيني (الكاولين) .
٤ – مواد مساعدة مثل البرويتول والفيراميل .

أولاً : إضافة القلفونية :

تضاف القلفونية إلى العجينة بعد عملية العجن لاكتساب الورق مناعة ضد التشرب للمحاليل وتضاف القلفونية للعجينة على هيئة محلول صابوني يتم تحضيره بطبخ القلفونية (حمض الأبياتيك Abiatic acid) . مع الصودا أو كربونات الصوديوم ثم تخفيفها بالماء لتكون محلول الرجينة ، وبإضافة الرجينة للعجينة ، يلاحظ زيادة حجم العجينة وذلك لأن الرجينة لها شحنة سالبة مثل الشحنة السالبة التي توجد على ألياف السليلوز ومعنى ذلك أن الرجينة تتنافر مع الألياف وتحتاج إلى مادة مثبتة لتثبيتها على الألياف ويقوم بعملية الربط هذه الشبّة (كبريتات الألومنيوم) وتضاف إلى العجينة على هيئة محلول بعد إضافة الرجينة ومزجها بها جيداً ويمكن تفسير عملية التثبيت بأن شق الألمونيوم Al^{+++} موجب التكهرب يجذب كلا من ألياف السليلوز ويلاحظ أن عدم إضافة الشبّة إلى العجينة بعد الرجينة لا يحدث ربطاً بين الألياف وتتسرب الرجينة مع المياه المصفاة خلال الشبك المعدني وتضاف الرجينة بنسبة ٥ر٠ – ٣٪ من وزن اللب الجاف أما الشبّة فتضاف إلى العجينة بنسبة ٢ – ٦٪ من وزن اللب الجاف .

ثانيــاً : إضــافة الألـوان :

تضاف الألوان بإذابتها في الماء البارد أو الساخن حسب نوع المادة الملونة وقابليتها للذوبان وتصفى، قبل إضافتها لفصل الحبيبات الدقيقة التي لم تذب لتخفيف حدوث أي بقع في الورق المنتج وتتم الإضافة مع الملاحظات الآتية :

١ - ألا تكون المحاليل ساخنة جداً .

٢ - أن تضاف الألوان الأقل قابلية للسيليلوز ثم الأكثر قابلية .

٣ - لا يضاف لون ثان إلا بعد امتزاج اللون الأول بالعجينة جيداً .

بعد خلط الألوان جيداً بالعجينة تضاف الرجينة لأنها تعتبر أيضاً مثبتاً للألوان ، وتخلط جيداً ثم يضاف محلول الشبة الذي يعمل على تثبيت اللون وترسب الرجينة على الألياف في نفس الوقت .

المواد الملونة للورق :

مثل ملح الألترامين وأزرق البروسو وغيرهم Prussian blue, ultramin salt, كذلك صبغة البلانفكس والاسبداج والكاولين والجير وأبيض التيتانيوم لإضفاء اللون الأبيض بدرجاته ، ويستخدم الرهج الأصفر أو أكسيد الحديديك للون الأصفر ، والمغرة الحمراء أو الهيماتيت لإضفاء اللون الأحمر وغيرها .

إضــافة مـواد أخــرى :

تضاف المواد الأخرى حسب نوع الورق المنتج ويلاحظ أن كل مادة لها ظروف إضافة خاصة يجب اتباعها مثل ترتيب ومكان إضافتها ومقدار التصنيع منها المواد المختلفة الآتية :

مواد مالئة وطاردة للماء Sizing and water repelling materials مثل الروزين Rosin القلافونية التي هي حمض الأبياتيك Abiatic acid وكذلك النشا والدكسترين والغراء أو بعض الأصماغ Synthetic Resing لتحسين خواص الورق ليصبح صالحاً للكتابة والطباعة عليه ولتثبيت المواد المالئة في

الورق يضاف كبريتات الألومنيوم Aluminium Sulfate كما تزيد هذه المادة ثبات واحتفاظ الورق بالألوان المضافة إليه وتثبيتها كما أنه قد يستعمل الجيلاتين والغراء كمواد مالئة أو مضافاً إليها الروزين في صناعة الورق الجيد . كما أن هناك مواد مالئة غير عضوية مثل الصلصال الصيني China Clay وكذلك كبريتات الكالسيوم وأكسيد الزنك Calcium Sulfate and Zinc oxide .

أهـم أنـواع الـورق

توجد أنواع كثيرة من الورق تتفق طبيعتها من حيث الاستخدام بصوره المختلفة ، وتزداد هذه الأنواع زيادة مطردة ، مع الأيام بزيادة تقدم الأمم ورقيها ونذكر منها على وجه العموم بعض الأصناف التي اتفق أهل الصنعة على مسمياتها وأساليب استخدامها وتتوقف ظروف عملية الطبخ والتبييض للألياف ونوعية المواد المضافة على طبيعة الورق المراد تصنيعه ، حيث يجب مراعاة ذلك عند تحضير عجينة اللب اللازم لتصنيع كل نوع من الأنواع الآتي ذكرها .

١ – ورق الطبـاعة والكتـابة :

يحضر ورق الطباعة الرخيص (مثل ورق الجرائد) غالباً من اللب الميكانيكي (٨٠٪) ومن كمية قليلة من اللب الكيميائي (٢٠٪) – وإضافة اللب الميكانيكي بكمية كبيرة يزيد قابلية الورق لعملية الطباعة نتيجة لوجود اللجنين بكمية كبيرة (أي زيادة العتامية) – كذلك وجود اللب الميكانيكي الرخيص الثمن ، حيث طريقة تحضيره ميكانيكية فقط لا تحتاج إلى كيماويات ، يقلل من تكاليف تصنيعه .

أما ورق الطباعة الجيد وكذلك ورق الكتابة فيحضر من لب كيميائي مبيض مضافاً إليه مواد مالئة ، ويكون خالياً من الشوائب والعيوب والتموجات ، ومستوى السطح متجانس السمك ، صالحاً للاستخدام في

مجالات الطباعة بالأحبار ، كما يصلح للكتابة العادية ، وتوجد أنواع مختلفة من ورق الكتابة تبعاً لوزن المتر المربع حيث يتراوح وزن المتر المربع من ١٠ إلى ١٨٠ جرام لكل متر مربع - وفي ورق الطباعة الأوفست يجب أن يكون سطح الورق ناعماً ومصقولاً وصالحاً للطباعة الليثوجرافية وأن يكون السطح معالجاً بالجيلاتين الحيواني النقي .

وجدير بالذكر أن بعض أوراق الطباعة قد تكون مبطنة بالكتان أو بالقطن ووزن المتر المربع يتراوح بين ١٨٠ إلى ٦٠٠ جرام للمتر المربع وهي مايطلق عليها اصطلاحاً الكرتون . كما يوجد ورق طباعة مطلي الوجهين ومصقول صقلاً تاماً وناعماً وخالياً من العيوب والتموجات يسمى **بورق الكوشيه** ويشمل نوعين من الورق تبعاً لوزن المتر المربع (٩٠ ، ٨٠ جم/متر مربع) فإذا كان مصقولاً من الوجهين يعرف باسم الورق الكوشيه أما إذا كان مصقولاً من ناحية واحدة فيعرف باسم **الورق الكرومو** . أما ورق الكتابة العادي فإنه يجب أن يتميز بدرجة بياض عالية . لذا يلزم الاهتمام بتكثيف عملية التبييض . كذا الاهتمام بإضافة بعض المواد التي تكسبه النعومة واللمعان مثل بودرة التلك أو الكاولين الصيني أو النشا أو كربونات الكالسيوم النقية .

٢ - الـورق المقـوى :

والمعروف بين أهل الصنعة بكرتون التجليد ويتراوح وزن المتر المربع من بين ٤٥٠ - ٦٥٠ جم ولونه رمادي عادة . وتحضر الأنواع الجيدة من الورق المقوى بلصق صفحات رقيقة من الورق عقب تحضيره مباشرة ، أي ورق مبلل قبل تجفيفه ، بواسطة مكابس قوية . أما الأنواع الرخيصة فتحضر بآلات خاصة توضع عليها طبقات سميكة من عجينة اللب ، ثم يضغط اللب بـ تصفية الماء بمكابس قوية لتصفية الماء الزائد ، ثم تجفف في الهواء أو الشمس والاستخدام الشائع له في تصنيع عبوات متينة مثل صناديق الأحذية كما يستخدم في التجليد .

٣ - ورق اللف « الكرافت » :

وهو يحضر من بعض الخامات الرخيصة مثل المخلفات الزراعية (قش القمح ، الشعير ، سيقان نبات القنب) أو من الدشت مع إضافة كمية قليلة من مواد الحشو والتجهيز ، ويعرف بالورق الكرافت ، ولايلزم لهذا النوع من الورق إجراء عملية التبييض . بل يجب الاهتمام بإضافة بعض المواد الكيميائية التي تساعد على تحسين الخواص الميكانيكية لهذا النوع من الورق ، مثل مقاومة الشد والطي والانفجار . ويكون ذلك بإضافة بعض النشويات والأصماغ النباتية . ويمثل هذا النوع الكم الأكبر من الإنتاج العالمي ، لكثرة استخدامه في تعبئة وتغليف الأسمنت وصناعة الكرتون المضلع .

٤ - ورق الغلاف أو البريستول :

وهو عبارة عن ورق ناعم نظيف ناصع البياض مصقولاً من الوجهين وخالياً من الشوائب صالحاً للكتابة والطبع عليه ويستخدم هذا النوع من الورق لعمل البطاقات ووزن المتر المربع من ١١٠ جرام إلى ٦٠٠ جرام للمتر المربع . كما قد تضاف للعجينة مواد ملونة لتصنيع بريستول ملون . لاستخدامه في تصنيع وطباعة الملفات والأغلفة على نطاق واسع .

٥ - ورق المانيـــلا :

هذا النوع من الورق يستخدم في عمل أغلفة الكراسات المدرسية والملفات والدوسيهات ويكون الورق ناعماً ونظيفاً وخالياً من الشوائب والعيوب ويتحمل الطي ويتراوح وزن المتر المربع من ١٢٥ إلى ٣٠٠ جرام للمتر المربع ومنه ألوان كثيرة مثل الأخضر الفاتح والأزرق والوردي .

٦ - ورق طبـــع العقـــود :

والمعروف باسم ورق العرضحالات المدموغة . يصنع هذا النوع من الورق ، من ٥٠٪ خرق ألياف القطن أو التيل ، والباقي من لب خشبي كيميائي . هذا النوع من الورق معتم لسطح غير لامع وبعلامة مائية ومعالجاً

بالجيلاتين النقي وصالح للطباعة الليثوجرافية على الوجهين ويكون خالياً من الألياف الغير مبيضة ومن اللب الميكانيكي ووزن المتر المربع منه يكون حوالي ١٣٠ جرام . كما يستخدم في طباعة الأسهم والسندات والشهادات الدراسية العالية .

٧ – ورق الخرائــط :

يصنع من بقايا القماش أو الخرق المصنعة من القطن أو التيل بنسبة ١٠٠٪ ، لكي يكون الورق متيناً صالحاً صلاحية تامة للطباعة الليثوجرافية والعمل لمدة طويلة ، ويكون السطح نظيفاً خالياً من جميع الشوائب والعيوب ، ويعالج بالجيلاتين الحيواني النقي ، ويكون أيضاً صالحاً للكتابة عليه بالحبر الشيني ، ويتحمل المحو بدون ترك وبرة ، ووزن المتر المربع من هذا النوع حوالي ٢٠٠ جرام . يكثر استخدامه في طباعة الخرائط المساحية التي يطول عمرها الافتراضي عن خمسون عاماً .

٨ – ورق الرسم : والمعروف باسم الورق الفبريانو :

وزن المتر المربع من هذا النوع يتراوح بين ١٠٠ جرام إلى ٣٠٠ جرام ، ويكون السطح متيناً خشناً غير مصقول يتحمل المحو بدون ترك أثر ظاهر ، ويصنع غالباً من لب خشبي كيميائي . وغالبية استخدامه في النواحي التعليمية لطلاب المدارس والمعاهد والكليات الفنية لإعداد اللوحات والمشاريع .

٩ – ورق التصــــوير :

ويعرف بورق البروميد **Bromide Paper** ، هذا النوع من الورق يصنع بتغطية الورق الجيد بخليط من هاليد الفضة مع الجيلاتين لكي يكتسب حساسيته للضوء ، وهذا الورق تقدمت صناعته في أمريكا لكثرة الاستخدام والاستهلاك العالمي في مجالات التصوير . وهو مغطى من أحد وجهيه بهاليد الفضة أو بروميد الفضة وذلك لارتفاع حساسية هذه المواد ، ولقصر الوقت الذي يستغرقه التعريض للضوء .

١٠ – الورق المعـدني Metal Paper :

يصنع هذا النوع بتغطية الورق بمسحوق بعض المعادن كالألمونيوم والزنك أو القصدير مع بعض المواد اللاصقة ، ويستخدم هذا الورق في الديكور كما يستخدم مع غيره من أنواع الورق أو مع البوليثلين لتعبئة السوائل والعصائر والمواد الغذائية ويعرف عادة باسم الرقائق المرنة Flexopacking كما يستخدم في تعبئة الأدوية وبعض الصناعات الغذائية والكيميائية .

١١ – ورق الحـائط :

يجهز هذا النوع بإضافة بعض المواد البلاستيكية إلى اللب قبل تجهيزه إلى ورق ، أو بتغطية الورق الجاهز بمحلول البلاستيك لاكتسابه مقاومة للماء حيث يمكن غسله بالماء ومن أشهر المواد البلاستيكية المستخدمة هي مادة البولي فينيل . ويكثر استخدامه مطبوعاً بزخارف نباتية وزهرية لتزيين الحوائط والجدران في المنازل والمكاتب .

١٢ – ورق البرشمان Parchment Paper :

يحضر هذا النوع من الورق بغمس الورق الأبيض في حامض الكبريتيك المركز لبضع ثوان ، ثم غسله جيداً بمحلول مخفف من النشادر ، وفي هذه العملية يتحول بعض السيليلوز إلى سيليلوز مائي Hydrocellulose ويكون طبقة هلامية على سطح الورق ، حيث تكسبه درجة لمعان نصف شفافة ، وتزيد هذه أيضاً من متانة الورق – ويحضر أيضاً بطريقة أخرى وذلك بغمس الورق في الجيلاتين الحيواني النقي ثم يجفف في الهواء .

١٣ – ورق الاستنسل Duplicating Stencil :

هذا الورق يجب أن يكون صالحاً للكتابة عليه بحروف الماكينة الكاتبة وأن يحتفظ بصلاحيته لمدة عام على الأقل من تاريخ إنتاجه . وهو ورق ذو تركيب خاص مشرب أو مكسو بمادة تيسر نسخ صور من النصوص والأشكال التي

تنقش عليه بكيفية تسمح بمرور الحبر المناسب وأحياناً يتم النقش عليه باليد باستخدام ابرة خاصة أو بعملية ضوء كهربائية .

ويصنع هذا النوع من الألياف المبيضة والخالية من اللب الميكانيكي ، ويغطى بنوع معين من الشمع بنسبة لا تقل عن ٥٠٪ من الوزن الكلي – وعند الكتابة بالماكينة على هذا الورق يزول الشمع أو يختفي وتظهر حروف الكتابة على الورق مفرغة . لإمكان استخدامه في الاستنساخ .

١٤ – ورق الكربـــون Carbon Paper :

وهو ورق مغطى من وجه واحد في أكثر الأحيان ، ومن الوجهين نادراً بطبقة تقبل الانفصال عنه ، بتأثير الضغط ، يستخدم هذا الورق في عمل نسخ من الكتابة خاصة استعمال الماكينة الكاتبة ويصنع بتغطية الورق الخفيف بطبقة من خليط الشمع المنصهر على السناج الأسود . أو أي أصباغ أخرى ، ويستعمل في كل الهيئات والشركات والمصالح والجامعات للحصول على نسخ من أصل واحد . وكما يستخدم في طباعة تذاكر الطائرات والمطبوعات التجارية المستخدمة في البنوك العالمية وفي الفنادق والشركات . وقد ارتقت صناعته عالمياً لشيوع استخدامه في طباعة تذاكر السفر بالطائرات والبواخر .

١٥ – ورق شف الرسم أو الكالك :

يكون سطح الورق غير زيتي وصالحاً للرسم الدقيق بالحبر الشيني ووزن المتر المربع منه ٧٥ جراماً ودرجة العتامة فيه لا تزيد عن ٣٠٪ ويصنع بإضافة مصهور الشمع إلى لب الورق المضروب جيداً ، وجدير بالذكر أن السبب في ظهور الورق شفافاً أن فرق معامل انكسار الضوء بين الشمع والسيليلوز قليل .

١٦ – ورق الزبـــدة Butter Paper :

أو الورق غير المنفذ للماء : Grease Proof or water proof يصنع هذا

النوع من الورق بغمس الورق الجاهز في مادة غروية ، ثم يمرر في محلول الفورمالدهايد ، ثم يجفف ويستحسن أن يكون المحلول الغروي ساخناً محتوياً على جزء من الغراء الحيواني إلى عشرة أجزاء من الماء ، أما محلول الفورمالد هايد فيضاف إلى خمسة أجزاء من الماء ولا تزيد مدة تعريض الورق للمحلول الأخير أكثر من بضع ثوان . أيضاً يمكن تصنيع هذا الورق بغمس الورق الجاهز في مصهور الشمع ويستعمل في تغليف الزبد والدهن ووزن المتر المربع منه عادة ٣٠ - ٤٠ جراماً والمادة الشمعية تزيده امتناعاً على إنفاذ المواد الدهنية .

١٧ - ورق النقود أو البنكنوت Currency Paper :

يصنع هذا النوع من الورق أساساً من خرق القماش مع نسبة قليلة من لب الخشب ، ومن الخصائص المطلوبة في هذا النوع من الورق أن يقبل الثني ، أي قوة الثني عالية حيث التداول بين أيدي ملايين الناس ، لذا يعالج معالجة خاصة لتساعده على مقاومة التمزق والشد لكثرة الاستعمال وبافتراض طول مدة التداول . وفي الدول الكبرى تصنع عجينته من ألياف الكتان والقطن بنسب خاصة يحتفظ بها في غاية السرية . وانجلترا هي أولى دول العالم إنتاجاً لهذا النوع .

١٨ - الورق الغير قابل للاحتراق Fire-Proof Paper :

لعمل ورق غير قابل للاحتراق يوضع اللب بعد تجهيزه في مرجل به محلول ساخن من كبريتات وفوسفات الأمونيوم مع تقليب المزيج ، ثم يحضر منه الورق بالأسلوب العادي . ثم يغمس في محلول يتركب من ٨ أجزاء بالوزن من كبريتات الأمونيوم ، ٣ أجزاء من حمض البوريك ، وجزئين من البوراكس ، ١٠٠ جزء من الماء ، ويفضل أن تكون درجة المحلول حوالي ٦٠°م لأن ذلك يساعد على امتصاص المواد المذكورة داخل مادة الورق .

١٩ - ورق الجيـــــل Bible Paper :

وهو ورق خفيف ، متين ، غير شفاف ، يستعمل كثيراً في طبع الكتاب

المقدس ، وأحياناً في المعاجم . يتفاوت وزن المتر المربع منه بين ٢٠ - ٤٠ جراماً . يجب أن تكون خامته من عجينة طويلة الألياف لرفع درجة متانته ، كما يضاف إلى العجينة ثاني أكسيد التيتانيوم وكبريتات الباريوم لمنع الشفافية . وتطبع عليه الموسوعات العلمية مثل الموسوعة الأمريكية . وذلك لتقليل التكلفة وتصغير حجم الكتب المطبوعة .

٢٠ - ورق بارافيني Paraffin :

وهو ورق معالج بشمع البرافين لجعله مقاوماً للرطوبة . وحيث يستخدم كمادة عازلة ويستخدم في تغليف لفات الورق عند تصديره على هيئة بالات خشية الرطوبة والأمطار . كما يستخدم في تغليف كل المواد التي يخشى عليها من نفاذية الماء .

٢١ - ورق بالقمـــاش Papyroline Paper :

وهو ورق مقوى أو مدعم بقماش . يلصق القماش على أحد وجهي فرخ الورق ، أو على الوجهين معاً ، أو يلصق بين فرخين للحصول على فرخ واحد مدعم ، حيث يستخدم في كتابة الوثائق والعهود والمعاهدات التاريخية .

٢٢ - ورق بريد جوي Airmail Paper :

وهو ورق خفيف الوزن ، صالح للكتابة بالحبر ، لا يزيد وزن المتر المربع منه على ٣٠ جراماً وأحسن أنواعه ما كان غير شفاف . وله أفضلية في الاستخدام لخفة وزنه عند نقل البريد بالطائرات .

٢٣ - ورق بني مقطرن Tarred brown Paper :

ورق لف له بعض المقاومة للماء . يتكون من فرخ من الورق مغطى أو مشرب بالقطران (من الفحم أو الخشب) أو البيتومين ، أو يتكون من عدد من هذه الأفرخ ملتصقة معاً . ويستخدم كمواد عازلة في أسطح المنازل لعدم تسرب ماء المطر .

٢٤ – ورق تجفيف الأيدي Crepe Paper :

ورق مسامي خفيف الوزن ، مغضن السطح ، تصنع منه المناشف والمناديل الورقية فيطبع بالزخرف والألوان وقد يرد في هيئة بكرات عرضها نحو عشرة سنتيمترات ، شاع استخدامه في كل أنحاء العالم منذ بداية الستينات .

٢٥ – ورق جلاسين Glassine Paper :

ورق يتم الحصول عليه من لب مضروب ضرباً قوياً ، ثم يصقل صقلاً ممتازاً . يكون هذا الورق نصف شفاف ، كما قد يكون ملوناً أو معتماً . وفي جميع الأحوال يكون غير منفذ للدهون ، وجانباه شديدا النعومة واللمعان . ويعرف عن أهل صنعة الطباعة باسم جلاسيه . ويستخدم بكثرة في طباعة النشرات ومواد الدعاية والإعلان .

٢٦ – ورق حريري Tissue Paper :

ورق رقيق وَاق ، خفيف الوزن ، ناعم الملمس ، يستعمل أساساً في تغليف المنتجات الدقيقة . يزن المتر المربع منه بين ١٢ إلى ٢٥ جرام مربع . يطلق المصطلح أيضاً على الورق الناعم النسيجي الملمس الذي يستخدم في الأغراض الصحية للترشيح وللمناخل .

٢٧ – ورق سجلات Ledger Paper أو الورق اللازوريه الأزرق :

وهو ورق لطبع السجلات والوثائق المالية ، مثل دفاتر القيد في اليومية ودفاتر الأستاذ . نظراً لأهمية الاحتفاظ بالسجلات لمدد طويلة ، فمن اللازم أن تكون من ورق ذي جودة عالية قابل للتعمير ، وأن لا يتأثر بالمؤثرات الجوية المحيطة . وهذا الورق لم يكن يصنع فيما مضى إلا من الخرق ، ولكنه يصنع الآن من لب (عجينة) كيميائي ، وقد يضاف إلى بعض أنواعه الفاخرة نسبة من الخرق . وهو مصمت لكي تنسد مسامه ولا يتشرب السوائل . وتتخذ من أوزانه الثقيلة الأسهم والسندات ، ومن أوزانه المتوسطة السجلات ودفاتر الحسابات ومن أوزانه الخفيفة الخطابات والاستمارات .

تتفاوت أوزانه بين ٧٠ و ١٢٠ جراماً للمتر المربع . وقد يضاف إلى عجينته لون أزرق خفيف فيسمى « ريجستر مزهر » أو « لازوريه » .

٢٨ – ورق صامد للقلويات Alkaliproof Paper :

ورق له مقدرة كبيرة على مقاومة المواد القلوية . يستعمل في تغليف الأشياء التي تحتوي على مواد قلوية ، مثل الصابون والمواد اللاصقة وما إليهما . يصنع هذا الورق من أنواع مختلفة من العجائن ، أكثرها استعمالاً العجينة المبيضة نصف تبييض . كما تستعمل العجينة المبيضة تبييضاً كيميائياً كاملاً .

٢٩ – ورق عالي التقويم Hard Sized Paper :

مصطلح نسبي يطلق على الورق الذي يحتوي على أعلى نسبة من المواد الغروية التي تقاوم نفاذ الحبر أو أي محلول مائي فيه . ويسمى الورق الأقل احتواء على المواد الغروية بتسميات يدل كل منها على نسبة المواد الغروية فيه ، كأن يقال ورق متوسط التقويم ، أو ورق ربع تقويم ، أو ورق ضعيف التقويم .

٣٠ – ورق عالي الصقل Superealendered Paper. :

ورق تم صقله عالياً بماكينة الصقل العالي ، وذلك للحصول على سطح أنعم ولمعان أكبر من الورق المجهز بالماكينات العادية لكي يستخدم في الطباعة الفاخرة . ويكثر استخدامه في طباعة المصحف الشريف بالألوان .

٣١ – ورق قـــديم Old Paper :

ورق تالف بسبب تخزينه لمدد طويلة أو بسبب تخزينه لمدد قصيرة نسبياً . من أمثلة هذا التلف نقص محتوى الرطوبة في الورق ، فيقال أن الورق (محروق) يتقصف أو يتسبب في متاعب أثناء الطبع ، نتيجة لتكون شحنات

كهربائية استاتيكية . وقد يصبح الورق مهلهلاً (شايطاً) من أطرافه فيتطلب قصه إلى مقاس أصغر . وفي بعض الحالات قد تتماسك أفرخ الورق معاً ، وكأنها كتلة واحدة متحجرة ، وخاصة الورق المطلي (الكوشيه) لتماسك الطبقات الكاسية له بعضها مع بعض بالتفاعل الكيميائي ولتأثره بالمؤثرات الجوية طوال مدة التخزين .

٣٢ - ورق كبريتيت (سلفيت) **Sulphite Paper** :

ورق مصنع تماماً من لب الكبريتيت ، أو بنسبة عالية من هذا اللب ، وهذا الورق يستخدم في تغليف الشاي لأنه لا ينفذ الرائحة . وهو أصفر أو برتقالي اللون (٦٠–٧٠ جم/م مربع) تنتجه شركة الورق الأهلية بالإسكندرية .

٣٣ - ورق كرافت **Kraft Paper** شديد الاحتمال :

ورق ذو قوة ميكانيكية عالية ، صنع بأكمله من لب كبريتات غير مبيض من الخشب الطري . ويستخدم للتغليف الخارجي في شكاير الأسمنت ولصنع الكراتين المضلعة . وقد يكون ورق كرافت مبيض أي صنع من كرافت مبيض ويستخدم أيضاً في تصنيع صناديق تعبئة الفاكهة والخضراوات عند التصدير .

٣٤ - ورق كرتون مغطى **Cardboard Paper** :

اصطلاح شائع لأنواع متعددة من الورق إذا زادت ثخانته على ١٥٪ . من المليمتر ومال قوامه إلى الصلابة . كثيراً ما تضاف إلى كلمة « كرتون » كلمة أخرى تحدد المقصود منه ، فيقال على سبيل المثال : كرتون رمادي ، كرتون مانيلا ، كرتون كوشيه ، كرتون دوبلكس ، كرتون كرومو ، كرتون بنداكوت ، كرتون بريستول . وهكذا ... ولسنا بصدد الحديث عنه تفصيلاً ، لكوننا نهتم بأنواع الورق التي يمكن استخدامها في طباعة الكتاب وتجهيزه .

الطباعـــة

على قوالب الخشب المحفور :

قال ماركوبولو في كتاب رحلته إلى الصين : « لن أتجاوز الحقيقة إذا قلت : « إن حكومة الامبراطور كانت تصنع من لحاء شجر التوت نوعاً من الورق أسود اللون يقطع إلى أحجام مختلفة . وبعد أن تختم هذه الأوراق بخاتم خاص يغمس في حبر لونه قرمزي ، تصدر للتداول وقد اكتسبت صفة رسمية وقيمة كبيرة كما لو كانت من الذهب أو الفضة الخالصين ... وكان الامبراطور يأمر كل عام بإعداد كمية كبيرة من هذا الورق المصنوع من ألياف نبات البوص والتي لا تكاد تكلفه شيئاً ، ولكنها من الوفرة بحيث تساوي في قيمتها كل أموال العالم .. ولا يجرؤ إنسان في كل البلاد المجاورة والمحيطة بالصين أن يرفض التعامل بهذا الورق كعملة .

أما بالنسبة لأبناء الصين أنفسهم ، فقد كان لهذا الورق عندهم تاريخ قديم . وكذلك فإن عملية استخدام خاتم يدوي يحبر لطبع علامة أو تيع تعود بدورها إلى عدة قرون .

ومن المؤكد أن كهنة الصين القديمة لم يكونوا يعرفون الشمع الأحمر ، غير أنهم صنعوا تعاويذ كبيرة من الفخار لحماية المسافرين من أخطار النمور والذئاب ، ولوقايتهم من الأمراض .

وكانت الطلاسم أو الكلمات التي يعتقد أن قوة السحر تكمن فيها تحفر أولاً على أختام من الخشب . وبهذه الأختام كان يمكن نقل أشكال الطلاسم إا عدد كبير جداً من قطع الفخار الطري في وقت قصير . ولم يكن أي كاتد يستطيع مطلقاً أن يجاري هذا العمل في سرعته ، إذا استخدم قلمه في كتا التعاويذ على الفخار .

ومن المحتمل أن السهولة التي كانت يتم بها طبع التعاويذ على قطع من الفخا أوحت إلى البعض بفكرة استخدام الأختام اليدوية لطبع بعض الرسوم بالحبر على قطع النسيج . وعلى أية حال ، فقد كانت النقلة بعد ذلك قصيرة بين الطب

على القماش والطبع على الورق بالطريقة نفسها ، وبعد أن أتقن الصينيون فن الطبع باستخدام الأحتام والقوالب الخشبية المحفورة ، أنتجوا أول كتب مطبوعة عرفها العالم .

ولكن ، كيف كان الصينيون يطبعون الكتب من تلك القوالب الخشبية ؟ لقد كان السطح الطابع الذي يحمل الحبر من هذه القوالب يتمثل فى الخطوط البارزة التى تحدد معالم الأشكال والكلمات . أما كل ما حول هذه الخطوط فكان يعمق بالحفر حتى لا يصل إليه الحبر . وكان كل ما يضمه السطح الطابع فى وضع معكوس حتى يظهر معتدلاً عند الطبع . ولم تكن لذلك أهمية كبيرة بالنسبة للصور ، أما بالنسبة للكلمات فلاشك أن الأمر مختلف .

وكان إعداد السطح الطابع يبدأ بكتابة النص ورسم الأشكال بالحبر على ورق رقيق . ثم يوضع وجه الورق فوق لوحة من الخشب المصقول جيداً ويضغط عليه برفق ، فتنتقل الكلمات والأشكال إلى سطح الخشب ، ويأتى بعد هذا دور الحفار الذي يعمق بالأزميل مالم يلحقه الحبر من أجزاء سطح الخشب ، فتبرز نتيجة لذلك الأجزاء التى تمثل الكلمات والأشكال ، ويصبح سطح القالب بهذا معداً للطبع بعد تحبيره وضغطه بخفة فوق الورق .

وأقدم كتاب مطبوع يوجد الآن هو كتاب دينى فى الحكم والأمثال يسمى « درة البوذية » (Diamond Sutra) ويعتبر جزءاً من الكتاب المقدس للبوذيين . وقد وجد هذا الكتاب فى مطلع القرن الحالى فى حجرة صغيرة مسدودة داخل أحد الكهوف ، ولا يقع هذا الكهف داخل أراضى الصين نفسها ، ولكنه واحد من سلسلة الكهوف التي نقبت من أجيال بعيدة فى صخرة واحدة كبيرة بجبال تركستان ، والتى يطلق عليها « كهوف الألف بوذى » . وهذه الكهوف من المزارات المقدسة التى اعتاد البوذيون أن يحجوا إليها كل عام ليطوفوا بجدرانها ويتعبدوا فى حرمها . ولكن لم يخطر ببال أحد منهم يوماً أن النقوش التى كانت تزين أحد الجدران تخفى مدخل حجرة سرية .

لقد كشف وجود هذه الحجرة أحد الكهنة . ولم يتحقق ذلك لأنه كان يبحث عنها بالذات ، وانما عثر عليها بمحض الصدفة عندما كان يقوم بتجديد بعض نقوش الجدران . فقد لاحظ أن الملاط فى أحد المواضع متشقق بشكل ملحوظ ، ولذلك قرر ازالته ليرمم الحائط قبل أن يمضى فى عملية تجديد النقوش وشد ما كانت دهشة الكاهن ، عندما أزال الملاط القديم فوجد تحته حائطاً من الطوب بدلاً من جدار الكهف الصخرى .

وما لبث حين أزال هذا الحائط ، أن تكشفت أمامه حجرة صغيرة مربعة طول ضلعها نحو ثلاثة أمتار ، تحتوى على كومة هائلة من صرر القماش ترتفع ثلاثة أمتار أخرى . وقد تبين أنها تبلغ أكثر من ألف صرة تضم كل منها نحو عشرة كتب مخطوطة على لفائف من الورق ، وبين كل هذا الحشد من الكتب وجدت نسخة واحدة من كتاب « درة البوذية » مطبوعة من قوالب خشبية ، وتحمل تاريخ عام ٨٦٨ م ، عليها اسم طابعها الصينى « وانج تشيه » .

وكانت هذه النسخة ، بعد أن جف حبرها بأكثر من [illegible] تحتفظ برونقها وجدتها ، اذ أن الهواء حبيس الكهف كان يخلو من الرطوبة .

جوتنبرج الطابع المخترع

تبدأ الاختراعات الهامة عادة فى صورة بسيطة ، فنحن اذا رجعنا الى نشأة الطباعة فى أوروبا مثلاً ، وجدنا أنها بدأت بتلك القوالب الخشبية المحفورة .

ونحن نلاحظ أن تطور الطباعة سار جنباً إلى جنب مع نمو وتطور صناعة الورق ، منذ خرج الصينيون باختراعهم الذى خلقوا به مادة جديدة للكتابة ذات فائدة عظمى . ولما كان على أوروبا أن تستورد كل ما تحتاج إليه من الورق ، فقد كانت تفضل التمسك بما اعتادت استخدامه من مواد تنسخ عليها الكتب بخط اليد . ولقد كانت (الأندلس) أسبانيا أول دولة أدخلت صناعة الورق فى أوروبا ، وتلتها ايطاليا ثم فرنسا وألمانيا ، وعندئذ أصبح الورق من المواد الشائعة الاستخدام فى هذه القارة ، وما أن أشرقت شمس القرن الخامس عشر الميلادى ، حتى كانت أسواق أوروبا تمتلىء بورق الكتابة ودفاتر الحسابات ، والورق الذى يستخدم فى النوافذ .

وفى ذلك الوقت بالذات كانت صناعة جديدة تزدهر فى أوروبا ، وهى حفر قوالب الخشب لطبع المنسوجات وكتب الصور ، وترتبت على ذلك ظاهرة لم تعرفها أوروبا من قبل . وهى طبع كميات كبيرة من صور القديسين ومناظر قصص الكتاب المقدس ، وبيعها بأسعار تقل بكثير عن أسعار الصور المرسومة باليد .

وصحيح أن هذه الصور كانت تطبع باللون الأسود وحده ، وأنها كذلك لم تكن متقنة لأن حفارى القوالب كانوا يفتقرون الى المهارة والخبرة . ولكن كان من الممكن دائماً لمن يقتنى هذه الصور أن يجرى لها من التحسينات ما يشاء بواسطة الأصباغ المائية . خاصة هؤلاء الذين يجيدون الرسم .

وينسب الى يوهان جوتنبرج Johann Gutenberg اختراع حروف الطباعة التى تسبك من المعدن . ونحن لا نعلم إلا القليل جداً عن طفولته ، فلا

يعرف مثلاً تاريخ مولده بالضبط ، وان كان يذكر دائماً على أنه « حوالى عام ١٤٠٠ » . وعلى أية حال فان ما أمكن استخلاصه من السجلات هو أن والده كان يدعى جنزفليش Gens fleisch ، ولكن الصبى يوهان فضل أن يتخذ لقب أسرة والدته (جوتنبرج) . ولم يكن هذا أمراً غير مألوف فى مدينة ماينز بألمانيا ، مسقط رأس الصبى .

وكانت أسرة جنزفليش ميسورة الحال ، فتلقى الصبى فى طفولته تعليماً طيباً . ولكن حدث فى حوالى عام ١٤٢٠ أن أبعدت الأسرة من مدينة ماينز ، لأسباب سياسية على ما يبدو ، فلجأت الى مدينة ستراسبورج .

والمفروض أن صبياً كيوهان له اهتمام كبير بالقراءة وانتاج الكتب ، يبدأ حياته العملية بالتلمذة على يد طابع للكتب من القوالب الخشبية . ولكننا على خلاف ذلك ، نجد أنه بدأ حياته بالعمل فى مصنع للمناظير . ولكنه ، بعد أن أصبح يمتلك مع زميلين له مصنعاً من هذا النوع ، أخذ يعمل سراً فى مشروع آخر . فقد أخذ يفكر دون أن يطلع أحد على فكرته ، فى اختراع سوف يحدث اذا نجح ثورة فى حقل الطباعة . لقد كان يبحث عن طريقة عملية لصنع حروف طباعة متفرقة تسبك من المعدن .

ان ذلك عندما يتحقق سوف يمثل قفزة ضخمة من الطريقة المتبعة فى طبع الكتب من قوالب خشبية بحجم الصفحات ، تحتاج الى جهد كبير فى حفر الكلمات عليها معكوسة حرفاً حرفاً ، وبعد الطبع تصبح هذه القوالب غير ذات فائدة على الاطلاق .

لقد تبين الصينيون من قبل متاعب الطبع من القوالب الخشبية ، فقاموا بعدة تجارب لعمل حروف طباعة متفرقة يمكن تجميعها بأى ترتيب . وبالفعل تمكنوا من صنع هذه الحروف المتفرقة بحفر أشكال الحروف أولاً على قالب خشبى ، ثم قطعها واحداً واحداً بالمنشار . وكذلك جربوا عمل حروف مماثلة من الفخار والصفيح ، يحمل كل منها شكلاً واحداً من أشكال حروف الكتابة ومقاطعها .



صورة من قالب خشبي محفورة للقديس كريستوفر ، عام ١٤٢٣

ولم يكن جوتنبرج يستطيع بأية وسيلة أن يعلم شيئاً عن هذه التطورات التى ابتكرها الصينيون ، ولكن من المحتمل جداً من ناحية أخرى ، أنه علم أن مواطناً هولندياً يدعى كوستر Coster قام بنحت عدد من حروف الطباعة الخشبية بواسطة سكين صغيرة . وعلى أية حال فان جوتنبرج كان خليقاً بأن يدرك دون أن يخبره أحد أن الحروف التى تنحت باليد لا تكون مستوية ، وأن الخشب مادة أضعف من أن تتحمل ضغط الطبعات الكثيرة ، وأن ما كان هو يفكر فيه أبعد من هذا طموحاً ، فقد كان يبحث عن طريقة سهلة وسريعة لسبك حروف طباعة من المعدن بكميات كبيرة .

ولكن الأمر كان يقتضى أكثر من مجرد تصميم شكل الحروف ثم سبكها من قوالب تعد لها . لقد هدته التجارب التى قام بها إلى أن سبيكة الحروف يجب أن

تتكون من خليط ملائم من المعادن ، بحيث لا تنكمش اذا بردت(1) . وكذلك أدرك أن جسم الحرف يجب أن يكون قائم الزاوية . وأن يكون الضلعان الجانبيان متساويين فى كل الحروف ، بحيث يتلاصق الحرف عند جمعه تماماً مع ما قبله وما بعده من الحروف فى السطر الواحد . وفوق هذا تيقن أن أجسام الحروف ينبغى أن تكون ذات ارتفاع موحد ، بحيث لا يعلو حرف أو ينخفض عن الآخر ولو بمقدار سمك شعرة واحدة ، وإلا خرجت الصفحة المطبوعة خليطاً غير منتظم من حروف ثقيلة وخفيفة .

وكذلك كانت هناك حاجة إلى صنع حبر من نوع جديد . فالحبر المائى الذى كان يستعمل فى الطبع من القوالب الخشبية لا يصلح ، لأنه لا يثبت على سطح المعدن ، ثم كان على جوتنبرج بعد ذلك أن يهيىء آلة طابعة يمكن أن تكون مثل المعصرة التى يستخدمها الانسان فى استخلاص عصير القصب .

وهكذا كانت هناك عدة مشكلات تستوجب حلها ، ولابد أنه مرت بجوتنبرج عدة أيام كان من العسير عليه فيها أن يركز ذهنه فى صناعة المناظير وبيعها ، ومن المحتمل أنه كذلك كان كثير التغيب عن عمل . وأياً كان السبب ، فان شريكيه فى العمل ساورتهما الشكوك فى أن صاحبهما يدبر لنفسه أمراً . وعندما حاصراه بأسئلتهما طالبين أن يعلل لهما شروده واضطرابه لم يخف عنهما شيئاً ، ولم يكتف جوتنبرج بأن يوضح لهما بالضبط ما يسعى فى تحقيقه ، وانما أطلعهما كذلك على مدى ما حققه من تقدم فى سبيل غايته .

ولاشك أن ما سمعه الرجلان منه هزهما من الأعماق . فقد سارعا باتخاذ

(1) تتكون سبيكة حروف الطباعة عادة من ثلاثة معادن أهمها وأكبرها نسبة الرصاص ، اذ يمثل نحو ثلثى السبيكة ، ويليه الأنتيمون فالقصدير ، والرصاص سهل الانصهار ، غير أنه سريع الأنكماش عند انخفاض درجة حرارته . ولذا أضيف الأنتيمون لأنه يتأثر بالحرارة تأثراً عكسياً فيتمدد عند انخفاضها وينكمش عند ارتفاعها ، وبهذا يتوازن تأثيره مع تأثير الرصاص ، وكذلك يتميز الأنتيمون بالصلابة التى تعادل ليون الرصاص . فتساعد على احتفاظ الحرف بحدة خطوطه . أما القصدير فانه جيد الامتزاج بكل من الرصاص والأنتيمون ، كما أنه يقى السبيكة من الأكسدة .



صورة تخيلية ليوحنا جوتنبرج رائد الطباعة الحديثة ، والمولود فى مدينة ميتز بألمانيا عام ١٤٠٠ ميلادية .

الخطوات التى تضمن أن يكون لهما نصيب من الربح عندما يحين الوقت الذى يجنى فيه جوتنبرج ثمار اختراعه . غير أن جوتنبرج – كما أثبتت الأيام فيما بعد – لم تكن له عقلية رجل الأعمال . انه لم يكن يحسن رعاية مصالحه الخاصة ، ولذا فانه طيلة حياته كان يتورط فى مشاكل مادية تلو أخرى .

وفى عام ١٤٣٨ وقع جوتنبرج عقداً وافق فيه على أن يطلع شريكيه على « كل ما لديه من فنون الصنعة وما توصل اليه من مخترعات ، وعلى ألا يخفى عنهما كل ما قد يكتسبه من معرفة أو حلول للمشكلات فى المستقبل » ولكن ، ما الذى حصل عليه فى مقابل هذا ؟ انه مبلغ لم يزد على خمسمائة « فلورين »(١) كما أنه أعطى مهلة معينة لأكمال تجاربه .

وقد تضمن هذا العقد فقرة معينة ربما لم يلتفت جوتنبرج الى أهميتها فى ذلك الوقت . وتنص هذه الفقرة على أنه اذا توفى أحد الشركاء قبل عام ١٤٤٣ – وهو موعد انتهاء العمل بالعقد – فان كل الأدوات والأجهزة والمعدات والوثائق ، وكذلك كل ما تم انجازه من أعمال ، يصبح من نصيب الشريكين الآخرين . وفى مقابل ذلك يتحتم على هذين الشريكين أن يدفعا مبلغ مائة فلورين الى ورثة شريكهما المتوفى .

---

(١) عملة ذهبية كانت متداولة فى ألمانيا وهولندا .

وتلت ذلك مرحلة من العمل الشاق لجوتنبرج ، فأدخل عدة تحسينات على الآلة الطابعة التى كان يقوم باعدادها . وأكمل تجاربه على نوع من الحبر اللزج المصنوع من زيت بذرة الكتان والورنيش ، مع مادة السناج السوداء ، ولكن أهم من هذا كله انه استطاع عن طريق التجربة والخطأ أن يحدد الخليط المعدنى الصحيح الذى تسبك منه الحروف . ونحن لا نعرف كيف كان جوتنبرج يعد قوالب الحروف (الأمهات) ثم يسبكها عليها ، وان كان قد حدث يوماً أنه خشى أن تتسرب أسرار اختراعه ، إذ توفى أحد شريكيه . وطالب ورثته بأن يحلوا محله . ولكن جوتنبرج لم يكن راغباً في أن يشرك أحداً آخر في « كل فنون الصنعة وما توصل إليه من اختراعات » . ولذا أرسل خادمه على الفور إلى منزل الشريك المتوفي ، حيث كانت تقوم إحدى الآلات الطابعات التي صنعها . وكانت لدى الخادم تعليمات « بأن يفك ذلك الشيء عن طريق إدارة لولبين معينين » ، إذ بهذا « سوف تنفصل أجزاؤه وتتبعثر » . وكلف جوتنبرج الخادم كذلك بأن يحضر معه « قطعاً معينة » منها ، حتى لا يعلم أحد بوجودها .

وفى أثناء نظر القضية التى استتبعت هذه الواقعة ذاعت تفصيلاتها مع تفصيلات أخرى تتصل بعملية « سبك معدن على قوالب من الرمل » ويبدو أن نتيجة هذه المعركة القضائية كانت غير مرضية لكل الأطراف المعنية . ومالبث جوتنبرج أن غادر ستراسبورج عائداً الى ماينز .

وهناك قصة هامة تروى عن صائغ فضة ظهر فى ذلك الوقت تقريباً فى مدينة افينيون (Avignon) بفرنسا ، ومعه عدة صناديق من حروف الطباعة المعدنية . وتقول الرواية أن هذا الصائغ أدهش أهل مدينته بما عرضه عليهم من نماذج « لحروف الكتابة الصناعية » . ومن المحتمل أن هذا الرجل كان قد حصل بوسيلة ما على كمية من حروف الطباعة التى صنعها جوتنبرج . ولم تكن ثمة قوانين لتسجيل المخترعات وحماية حقوق الملكية الصناعية فى تلك الأيام ، فأسرار أية صناعة كانت نهباً مشاعاً لكل من يستطيع الحصول عليها .

كان جوتنبرج مازال يعانى من سوء حالته المالية ، فاضطر لكى يواصل عمله أن يستدين ، وفى هذه المرة كان دائنه مرابياً محترفاً من مدينة ماينز ، وهو صائغ ذهب يدعى يوهان فوست (Johan Fust) .

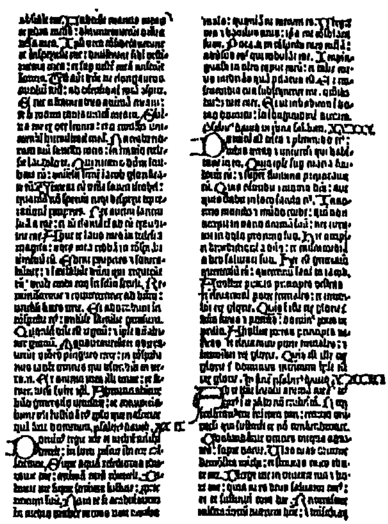
ولم تكن بصك الدين الجديد أية ثغرات ، فقد كان ينص على أن الدائن يقتضى فوائد دينه مقدماً . وأكثر من هذا ، كان من حق الدائن أن يطلع على كل أسرار صنعة ومخترعات مدينه ، مثله فى ذلك مثل شريكيه السابقين صانعى المناظير فى مدينة ستراسبورج . والظاهر أن جوتنبرج لم يكن يستطيع تغيير شروط هذا الدين . فقد كان يحتاج إلى مكان ومواد وآلات طابعة ومساعدين .

وكان العمال الذين يساعدون جوتنبرج فى الطباعة يقسمون له على ألا يبوحوا بسر ، كما كان هو يحرص على أن يبقى باب غرفة المطبعة ونوافذها مغلقة دائماً . ولم يكن غريباً ازاء مثل هذه الاحتياطات المشددة أن تثور الأقاويل . فقد اشتد حب الاستطلاع لدى كل جيرانه ، ولم يمض وقت طويل حتى انتشرت شائعة تقول أن يوهان جوتنبرج ويوهان فوست كانا يعرفان الكيمياء السحرية .. وانهما كانا مشغولين باجراء بعض تجارب السحر لتحويل الرصاص إلى ذهب .

ولم يكن جوتنبرج ممن يحسنون تنظيم شئونهم المالية ، ولذا أخذ يغرق فى الدين شيئاً فشيئاً . واستمر دائنه الصائغ فى تزويده بالمال ، لدفع أجور العمال وشراء المعادن والآلات والورق والرق . حتى أصبح كل مافى المطبعة مرهوناً لحساب الصائغ إلا أن جوتنبرج كان منهمكاً فى مشروعه المحبب الى نفسه ، لدرجة أعمته عن تبين خطورة الموقف . لقد كان كل اهتمامه هو أن ينجز طبعة من الكتاب المقدس ، ليكون أول كتاب كبير كامل يطبعه بحروفه المعدنية المتفرقة . وكان جوتنبرج يأمل كذلك أن يجىء الكتاب عملاً فنياً جميلاً ، ولذا حرص عند تصميمه لأشكال الحروف أن يحاكى أجمل الخطوط اليدوية الموجودة ، حتى تبدو الصفحة المطبوعة من الكتاب كأنها من انتاج كاتب على درجة عالية من اجادة الخط .

وفى عام ١٤٥٤ تمكن الصائغ فوست من وقف العمل فى مطبعة جوتنبرج ، فقد طالبه بسداد دينه وعجز جوتنبرج عن الدفع ، فأقام عليه دعوى حكم فيها لصالحه . ولا يعرف بالضبط مدى الشوط الذى كان جوتنبرج قد قطعه فى طبع الكتاب المقدس حتى ذلك الوقت ، ولا عدد النسخ التى كان قد أتم طبعها منه .

وبمقتضى ذلك الحكم القضائى استولى فوست على مافى مطبعة جوتنبرج من حروف الطباعة والآلات وكل ما كان تحت الطبع من أصول ، ونقله الى محل عمله . وهناك استطاع ذلك الصائغ أن يواصل العمل فى المطبعة بمعونة ابن زوجته ، وهو شاب يدعى بيتر شوفر (Peter Schoeffer) كان جوتنبرج قد دربه على أعمال الطباعة .



صفحة مصغرة من الكتاب المقدس الذى طبعه جوتنبرج

ومن الجائز ان فوست سمح لجوتنبرج بان يتم العمل فى حو مائتى نسخة من الكتاب المقدس ، الذى بلغت صفحاته ١٢٨٠ صفحة ، قبل ان يستولى على مطبعته • وكان عدد قليل من هذه النسخ مطبوعا على الرق ،والباقى على الورق • وعلى أية حال ، فسواء أكان جوتنبرج هو الذى اتم هذا العمل • ام ان

ومن الجائز أن فوست سمح لجوتنبرج بأن يتم العمل فى نحو مائتى نسخة من الكتاب المقدس ، الذى بلغت صفحاته ١٢٨٠ صفحة ، قبل أن يستولى على مطبعته . وكان عدد قليل من هذه النسخ مطبوعاً على الرق ، والباقى على الورق . وعلى أية حال ، فسواء أكان جوتنبرج هو الذى أتم هذا العمل ، أم أن فوست والصبى شوفر هما اللذان تكفلا به ، فان هذا أمر غير ذى بال . المهم أن هذا الكتاب طبع من حروف معدنية اخترعها وصممها جوتنبرج ، وأن الفضل فى خروج هذا العمل الى النور يعود إلى ذلك الرجل واصراره ومثابرته وتفانيه فى سبيل تحقيق فكرته .

ولاشك أن اختراع جوتنبرج يعتبر نقطة تحول واضحة فى تقدم المعرفة فى حياة الجنس البشرى . ولا تزال طبعة الكتاب المقدس التى أنتجها هى أثمن ما طبع من بين ملايين الكتب التى أخرجتها المطابع ، منذ ظهر اختراع جوتنبرج الى الوجود(١) .

والمعروف أن ما يوجد الآن من هذا الكتاب هو ست وأربعون نسخة . ومن هذه النسخ ثلاث فقط كاملة وفى حالة جيدة ، وهى مطبوعة على الرق . واحدى هذه النسخ الثلاث فى المتحف البريطانى ، والثانية فى فرنسا ، أما الثالثة ففى مكتبة الكونجرس الأمريكى .

وتقع نسخة مكتبة الكونجرس – على خلاف النسخ الأخرى – فى ثلاثة أجزاء ، كل منها مجلد بغلاف من جلد الخنزير من القرن السادس عشر . والمجلدات الثلاثة محفوظة متجاورة فى صندوق خاص ، المجلدان الجانبيان منها مفتوحان لتظهر صفحاتهما ، والمجلد الثالث مغلق وسطهما ليظهر غلافه الثمين . ويتضح من هذه النسخة أنها طبعت بالحبر الأسود ، وان كانت بعض الأسطر قد طبعت بالحبر الأحمر . وكذلك طبعت حروف البدء الكبيرة والعناوين باللون الأحمر ، وأضيف اليه الأزرق بخط اليد .

---

(١) هذه الطبعة باللغة اللاتينية . والصفحة فيها مقسمة الى نهرين يحتوى كل منهما على ٤٢ سطراً .

ومن المحتمل جداً أن تلوين حروف البدء الكبيرة والعناوين قد قام به فى براعة بعض رهبان طائفة البندكتيين . فقد ظلت هذه النسخة فى حوزة الرهبان ما يقرب من خمسة قرون ، قبل أن يمكن الحصول عليها من رئيس دير قابع فى جبال الألب فى اقليم كارينثيا (Carinthia) بالنمسا .

وكان مشترى هذه النسخة مواطناً ألمانياً من هواة جمع الكتب النادرة . وقد دفع فى أجزائها الثلاثة ثمناً يقرب من ثلث مليون دولار . وفى عام ١٩٣٠ وافق الكونجرس على شراء مجموعة من الكتب التى طبعت فى القرن الخامس عشر بمليون ونصف مليون من الدولارات . وكان بينها هذه النسخة من الكتاب المقدس التى لا تقدر بثمن ، والتى طبعت فى مدينة ماينز لتعرض الآن فى المكتبة الأمريكية الشهيرة التى تقوم فوق تل الكابيتول .

حروف الطباعة

كتب أحد الأدباء المتحمسين لاختراع الطباعة فى رسالة له عام ١٤٧٠ : « لقد اكتشفوا فى ألمانيا طريقة جديدة رائعة لانتاج الكتب ، وقد تلقى أرباب هذه الصناعة أسرارها فى مدينة ماينز ، ومنهم ستنتشر فى شتى أنحاء العالم » .

ولكن لم يكن كل الناس من رأى هذا الأديب الكاتب . فقد كتب أحد معاصريه ناعياً على الاختراع الجديد أنه سيجعل من المستطاع « نقل أكثر الأفكار حماقة الى صفحات ألف كتاب فى لحظات » .

وسارت الأمور ومرت الأيام . كثيرون يشيدون بالاتجاه الجديد فى نشر الكتب ، وآخرون يصرخون « تسقط الطباعة » . أما بالنسبة للنساخين المحترفين ، فقد كانوا ضد استخدام حروف الطباعة المعدنية ، لأنهم أدركوا أن ذلك يعنى نهاية عهد نسخ الكتب باليد . ونتيجة لهذا فسوف يفقدون ، وسوف يضيق مهنتهم مجال نشاطهم فلا يتعدى كتابة الرسائل وتدوين الحسابات .

ولكن لم يكن هناك ما يمكن أن يحول دون انتشار اختراع جوتنبرج ، فعندما وصلت انباؤه الى شارل السابع ملك فرنسا أبدى اهتماماً كبيراً بالأمر . وتقول احدى الوثائق التاريخية انه : « فى اليوم الثالث من أكتوبر عام ١٤٥٨ ، علم الملك أن السيد « جوتنبرج » رجل من مدينة ماينز برع فى حفر قوالب الطباعة وصناعة حروفها ، وانه استطاع أن يخرج الى الوجود اختراعاً للطبع بواسطة حروف معدنية منفصلة . فأمر أحد رجاله بأن يذهب للحصول على سر هذا الاختراع » .

ولم يكن هناك من يصلح لهذه المهمة الدقيقة أكثر من نيقولاى ينسون (N.Jenson) مدير دار سك النقود . فلما كان هو نفسه متخصصاً فى صنه القوالب التى تسبك منها قطع النقود ، فانه لن يجد أية صعوبة فى فهم كل ما يتعلق بعملية الحفر وصناعة القوالب التى تسبك منها الحروف .

وفى هذه الأثناء كان جوتنبرج قد عاد الى العمل ، وربما كان قد عثر على ممول آخر يسنده . ومن الجائز كذلك أن ينسون قد أجزل له العطاء لكى يقف على أسرار الصنعة والاختراع .

ومهما يكن من أمر ، فقد عاد ينسون من ماينز ليجد أن الملك مريض الى درجة لا تسمح له بالنظر فى تقرير من أى نوع . ولذا مضى ينسون فى العمل لحسابه ، يعد آلات الطباعة ويصمم حروفها . وقد حسب ينسون أنه سيحظى بتشجيع الملك الجديد لويس الحادى عشر الذى خلف والده ، ولكنه اخطأ الحساب .

لم يكن للويس أدنى اهتمام بالأفكار الجديدة ، وقد أثبتت الكتب المنسوخة باليد جدواها على مدى أجيال طويلة فلماذا — بالله — يغير هذه الطريقة التقليدية بطريقة أخرى للكتابة الصناعية ؟ ولذلك شد ينسون رحاله الى فنيتسيا فى عام ١٤٧٠ لكى يصبح طابعاً وناشراً له مكانته .

وعلى العكس من جوتنبرج ، لم يجد ينسون داعياً لتقليد خط النساخين .

وبدلاً من ذلك صمم مجموعة حروف رومانية صغيرة ، بلغ من جودتها ودقتها أنها مازالت حتى اليوم نموذجاً فى الجمال والاتساق .

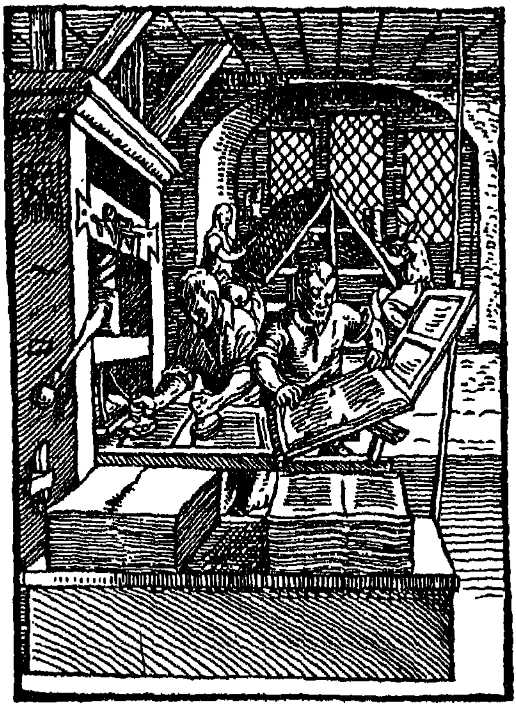
وشهدت فنيتسيا علماً آخر فى حقل الطباعة والنشر تابع خطوات ينسون بعد وفاته عام ١٤٨٠ ، هو ألدوس مانوتيوس (Aldus Manutius) . وكان مانوتيوس فى الأصل رجلاً بحاثة ، وجه همة بصفة خاصة إلى نشر كتب فى قواعد اللغة اليونانية وشرح مفرداتها ، ولكنه فى الوقت ذاته فكر فى مشروع استأثر بعنايته واهتمامه ، وهو اخراج طبعات من أفضل الكتب المعروفة تكون رخيصة وسهلة التناول معاً . وكانت فكرته أن تصغير حجم الكتاب سوف يؤدى إلى تخفيض ثمنه .

وعلى ذلك أخرج مانوتيوس أول مجموعة من « كتب الجيب » عرفها العالم . وقد طبعت هذه الكتب بحروف صغيرة مزدحمة تبدو للأعين أبعد ما تكون عن سهولة القراءة . وقاعدة هذه الحروف مستقاة من الخط اليدوى المائل الذى شاع استخدامه فى ذلك الوقت والمعروف بالايتالك[1] . وكانت هذه الكتب مجلدة بأغلفة من ورق سميك مغطى بالرق . وقد سمح صغر حجم هذه الكتب بأن يحمل بائع الكتب المتجول معه عدداً كبيراً منها كلما خرج فى رحلة بيع .

وهكذا تلمع أسماء ثلاثة فى عالم الكتب ابان القرن الخامس عشر : جوتنبرج من ألمانيا ، وينسون من فرنسا ، ومانوتيوس من ايطاليا . وينبغى أن يضاف إلى أسماء هؤلاء الأعلام اسم رابع ، هو كاكستون (Caxton) من انجلترا .

كان ويليام كاكستون تاجر أقمشة ناجحاً ، وقد اقتضته عدة أسباب تتصل بمهنته أن يمضى وقتاً طويلاً خارج بلاده . ولما كان كاكستون من النوع

(١) يطلق على حروف الطباعة المائلة هذه كلمة Italic ، وهى صفة تدل على انتمائها إلى ايطاليا القديمة .



الطابعون الأوربيون الأوائل

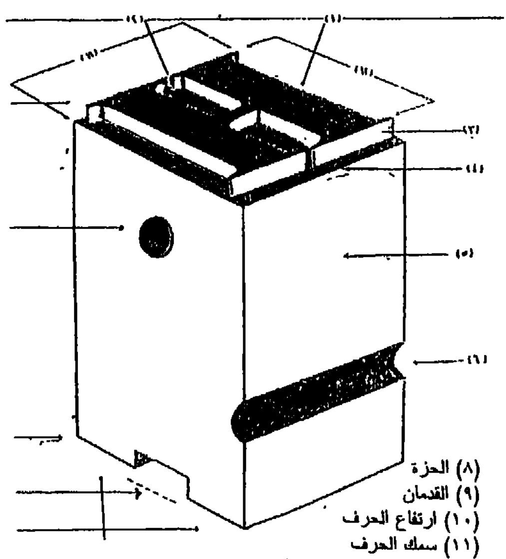
الدءوب المثابر على العمل ، ولم تكن لديه مشاغل عمل كثيرة ، فقد خصص عدداً من الساعات كل أسبوع ينفقها فى ترجمة كتاب من الفرنسية الى الانجليزية . وقد فعل ذلك كما قال ، لكى « يتجنب الكسل والخمول ، ويشغل نفسه بعمل صالح » .

غير أن كاكستون ، الذى كان قد بلغ الخمسين من عمره فى ذلك الوقت ، لم يكن معتاداً الكتابة لعدة ساعات متصلة ، ولذا تعبت يده ، « وضعف بصره من كثرة ما أنعم النظر فى الورق الأبيض » . ولم يلبث أن ترك جانباً على مضض أصول كتابه دون أن يتمها .

وبعد ما يقرب من عامين ، سمع كاكستون عن طابع شاب ممن تعلموا مهنة

الطباعة فى مدينة ماينز ، وكان قد افتتح لنفسه مطبعة فى مدينة كولونى ، وقد أذهل كاكستون كل ما قيل له عن فن الطباعة الجديد ، ولكنه وجد من العسير عليه أن يصدق أن أى طابع يستطيع أن ينتج فى يوم واحد قدر ما يستطيع أن يكتبه نساخ فى بضعة أشهر .

وفى أول رحلة لكاكستون الى مدينة كولونى ذهب لزيارة تلك المطبعة . وفى ذهنه موضوع كتابه الذى لم يتم . وكانت هذه الزيارة نقطة تحول فى حياة تاجر الأقمشة . لقد تأثر بما شهده من اختراع حروف الطباعة الى الحد الذى جعله يقرر أن يتلقى دروساً فى صف الحروف وطبعها . وكان السبب الوحيد لذلك كما قال ، هو أن يتعلم ويتدرب لكى ينتج عدة نسخ من كتابه المترجم يوزعها على أصدقائه .



(١) وجه الحرف
(٢) تجويف الحرف
(٣) ذقن الحرف
(٤) كتف الحرف
(٥) كرسي الحرف
(٦) الحزة
(٧) الختم
(٨) الحزة
(٩) القدمان
(١٠) ارتفاع الحرف
(١١) سمك الحرف
(١٢) حجم الحرف (جسمه)

حرف الطباعة وأجزاؤه

طرق السبك ، عام ١٥٦٨

ومهما يكن السبب الذى دعا كاكستون الى الاهتمام بأمر الطباعة ، فانه بعد بضع سنوات عاد الى انجلترا ، وكان ذلك عام ١٤٧٦ ، ومعه كل المعدات اللازمة لانشاء مطبعة كاملة . وبالفعل افتتح هذه المطبعة قرب كاتدرائية وستمنستر ، التى كانت فى ذلك الوقت تقع على أطراف لندن . وفى العام التالى نشر كاكستون أول كتاب يطبع فى بلاد الانجليز ، وهو كتاب « أقوال الفلاسفة »[١] . وهكذا لم يعد تاجر الأقمشة القديمة فى حاجة الى أن يخلق لنفسه عملاً « يجنبه الكسل » . فلابد أنه غدا من أكثر الناس مشغولية فى لندن ، بعد أن أصبح مترجماً وطابعاً وناشراً وبائع كتب فى وقت واحد .

ولاريب أن كاكستون كان يعمل لديه عدد كبير من عمال الطباعة وصبيانهم لتشغيل آلات الطباعة ، التى بلغت ستاً أو أكثر . فقد كانت الطابعة تدار باليد ، ولم يكن من السهل جذب الذراع التى تدير اللولب فيدفع الكابسة (وهى لوحة مسطحة من المعدن) إلى أسفل نحو الفرشة[٢] ، لتضغط فوق الورق المندى على سطح الحروف المحبر ، فيلتقط الطبعة .

وكان على الطابع الذى يريد أن تتزود مطبعته باستمرار بالحروف ، أن يحتفظ لنفسه بركن تطل عليه نافذة . وكان عمله فى هذا الركن شاقاً لايفتر . فقد كان عليه أن يعيش مع عملية انتاج الحروف خطوة خطوة . وكان العمل يبدأ برسم الحرف معكوس الوضع على نهاية قضيب صغير من النحاس الأصفر ، ثم حفر ما حوله لابرازه ، وكان لابد من اعداد هذا القضيب لكل حرف من حروف الهجاء ولكل رقم وعلامة ترقيم ، ثم لكل حجم يراد استخدامه فى المطبعة ، مما يحتاج الى المهارة والصبر جميعاً ، وبهذا القضيب أو « الأب » يضغط فوق قطعة من النحاس الأحمر فيرتسم عليها شكل الحرف

(١) كان اسم الكتاب بالجليزية القرن الخامس عشر :

"The Dietes or Sayings of the Philosophers,"

(٢) هى القاعدة المسطحة التى يوضع فوقها الاطار الذى يضم حروف الطباعة المصفوفة . ويطلق عليها عمال الطباعة العربية أحياناً اسم النحاسة ، رغم أنها مصنوعة من الحديد

غائراً معتدل الوضع ، ويتحول بذلك الى قالب أو « أم » يصب عليها المعدن المصهور ، فتتشكل سبيكة الحرف معكوسة الوضع مرة أخرى ، ليبدو بعد الطبع معتدلاً على الورق . وبعد السبك كان لابد من فحص كل حرف بعدسة مكبرة لاكتشاف ما يمكن أن يشوبه من عيوب ، ثم ينظف الحرف ويصقل ، وكل هذا كان يستغرق وقتاً طويلاً ، ويستنفد جهداً كبيراً .

ومن الكتب التى نشرها كاكستون « قصص كانتوبري » لتشوسر ، و « موت آرثر » لمالورى . وقد كتب بنفسه مقدمة للكتاب الثانى أيد فيها الرأى الشعبى السائد بأن شخصية الملك آرثر كانت حقيقية .

وفى أقل من خمسة وثلاثين عاماً (١٤٥٤ – ١٤٨٧) كانت الطريقة الجديدة فى انتاج الكتب قد انتشرت فى كل ربوع أوروبا . ومع ذلك فلم تكن الكتب وفيرة ولا رخيصة ، وما كان يمكن أن تكون ، مادام الورق كان يصنع باليد فرخاً فرخاً . وعلى سبيل المثال ، فان كاكستون اضطر أن يستورد الورق اللازم لمطبعته من أسبانيا وايطاليا ، اذ لم يكن بانجلترا أى مصنع للورق حتى نهاية القرن الخامس عشر .

وهذه الكتب الأولى التى طبعت عندما كان سبك الحروف يتم بطريقة بدائية ، تمثل طائفة قائمة بذاتها ، يطلق عليها اسم خاص . فالكتب التى طبعت قبل عام ١٥٠٠ تسمى كتب مرحلة مهد الطباعة[1] . وكانت هذه الكتب فى الغالب كبيرة الحجم سميكة ، مجلدة بأغلفة من الخشب الرقيق المغطى بجلد العجول .

وزينت كثير من هذه الكتب بحروف استهلال كبيرة تكتب باليد فى بداية الفصول ، وبالزخارف على حواف الصفحات . ولكن لم يكن للكتاب صفحة عنوان تتصدره ، وانما كان الطابع يترك مساحة بيضاء فى أعلى أولى صفحات

---

(١) أطلق عليها كلمة "incunabula" اللاتينية ، وهى تعنى « المهد » .

الكتاب ، ليكتب فيها أحد الخطاطين العنوان ، بالحبر الأحمر عادة . وكان هذا العنوان يتضمن اسم الكتاب واسم المؤلف ، مع كلمة incipit اللاتينية ومعناها « هنا يبدأ الكتاب » .

وينتهي الكتاب بعبارة ختام ، تتضمن كلمات قليلة تشير الى مكان طبع الكتاب وتاريخه واسم الطابع .

ومثل هذه الكتب كانت أثمانها فوق قدرة الشخص العادى . غير أن أى طالب علم يعيش قرب مكتبة كنيسة أو كلية ، كان يستطيع أن يقرأ من كتبها ما يرضى نهمه ، وان لم يكن مسموحاً له بأن يستعير منها أى كتاب ليقرأه فى بيته . وفى معظم المكتبات كان على القارىء أن يقف الى منضدة خاصة للمطالعة تواجه رفوف الكتب ، وقد ثبت فى كل منضدة عدد من حلقات الحديد التى تتدلى منها سلاسل قوية طول كل منها نحو مترين . وينتهى طرف كل سلسلة بحلقة أخرى مثبتة على غلاف أحد الكتب على الرف .

ومع أن هذه الطريقة ليست مما يشجع كثيراً على القراءة ، فانها على أية حال حالت دون ضياع الكتب .

طبع الخرائط والرسوم والصور

أننا لا نستطيع أن نتصور وجود كتب فى الجغرافيا بدون خرائط ، أو معاجم تخلو من الرسوم البيانية والصور . فقراءة وصف لطائر أو حيوان غريب أو زهرة غير مألوفة شىء ، وتكوين صورة ذهنية صحيحة من هذا الذى نقرؤه وحده شىء آخر .

ومع ذلك فمنذ نحو خمسة قرون ، قبل أن يعرف الأوربيون الطباعة من القوالب الخشبية ، لم يكن لديهم طريقة لعرض الرسوم فى الكتب سوى رسمها باليد فى كل نسخة بالحبر أو الألوان المائية ، وكانت هذه الرسوم أقرب الى تزيين الكتب منها الى شرح جزء معين من النص أو توضيحه . وكان النساخون

يبذلون أقصى جهدهم فى رسم الصور التشريحية التى تتطلبها كتب الطب . ولكن لم تكن اجادة نسخ الكتب تعنى بالضرورة اجادة الرسم أيضاً . وفضلاً عن ذلك فقد كانت الرسوم التى ينقل عنها النساخ غير متقنة بدورها ، اذ رسمها من قبل بالطريقة نفسها نساخ آخر .

ولم تكن الخرائط التى رسمت باليد فى ذلك الوقت أحسن حالاً . فكانت أشكال القارات فيها غير دقيقة ، والأنهار والبحار ترسم فى غير أماكنها الحقيقية ، ومساحات كبيرة منها يشار اليها على أنها « أرض مجهولة » .

وعندما أخذ كريستوفر كولومبس يستعد لتنفيذ مشروع رحلته التى ستقوده عبر البحار المجهولة ، كان ينفق الساعات الطوال فى المكتبات يقلب صفحات الكتب ، منقباً عن معلومات تفيده . ولقد ألهب أحد هذه الكتب خياله ، وهو كتاب « رحلات ماركوبولو » . ولم يكن هذا الكتاب بالطبع يتضمن أية صور أو خرائط ، ولكنه وصف بشيء من التفصيل رحلة العودة بطريق البحر من الصين الى بلاد فارس .

وكان كولومبس مقتنعاً بفكرة أنه يستطيع الوصول الى الهند ، اذا أبحر غرباً عبر المحيط الأطلنطى . وعلى خلاف معظم معاصريه ، كان يعتقد أن الأرض كروية . غير أن كل الخرائط التى رسمت للأرض فى ذلك الوقت كان تصورها مربعة الشكل ، وكان رساموها يعتقدون أنهم على صواب . ولم لا ؟ ألا يتحدث الكتاب المقدس عن « أربعة أركان للمعمورة » ؟ .

لقد اشتهر الرومان فى العصور القديمة ببراعتهم فى رسم الخرائط . وكانوا يعتمدون فى رسمها أساساً على المعلومات المباشرة التى يحصلون عليها من البحارة والحجاج والتجار ، بدلاً من أن يلجأوا الى الحدس والتخيل . ولكن هذه الخرائط كانت جميعها محدودة النطاق .

والواقع أن الفضل يعود إلى كولومبس فى رسم أول خريطة للعالم تقوم على أساس غير التخمين . فقد قام أحد الرجال الذين صحبوا كولومبس فى رحلته

برسم خريطة تضمنت ما تم كشفه من نصف الكرة الغربى . ولكن حدث بعد عدة سنوات عندما قام أحد رسامي الخرائط المهرة بحفر القوالب الخشبية لأحدث خرائط العالم وقتئذ أن أطلق على القارة الجديدة اسم « أمريكا » ، ولم يكن ذلك غريباً ، فقد كانت الألسنة وقتئذ تلهج بذكر أمريجو فسبوتشي (Amerigo Vespucci) باعتباره أول أوروبى تطأ قدماه أرض هذه القارة التى تحتل النصف الغربى من الكرة الأرضية . ولم يتزعزع هذا الادعاء إلا بعد ذلك بمدة ، بسبب البيانات غير الدقيقة التى وردت فيما دونه فسبوتشى .

والحق أن ما سجل من بيانات فى ذلك العصر قد جنبنا الوقوع فى أخطاء كثيرة ، كان من الممكن أن تظل سائدة عبر القرون .

قبل أن يبدأ كولومبس رحلته الأولى بوقت قصير ، كان فن طباعة « الكلمات » قد فتح المجال لظهور فن جديد ومثير ، هو فن طباعة الصور ، الذى يعتبر تطويراً كبيراً لعملية الطبع من القوالب الخشبية ، وهى العملية البدائية التى كانت شائعة قبل ذلك . فقد توصل بعض الطابعين الى طريقة حفر خطوط الشكل على النحاس الأحمر والخشب .

ولكن ماهو الفرق بين طريقة حفر (أو نحت) القوالب الخشبية القديمة ، وطريقة الحفر الجديدة على الخشب ؟ لقد كانت القوالب الخشبية تعد من شرائح طولية من الخشب بوساطة سكين تقطع فى اتجاه خطوط النسيج الخشبى ، ويحركها الحفار الى ناحيته . أما طريقة الحفر الجديدة فكان يستخدم فيها شرائح عرضية من خشب مصقول شديد الصلابة ، يتم حفره بوساطة ازميل حاد يحركه الحفار الى الأمام .

والطريقة القديمة كانت تستهدف « ابراز » خطوط الشكل وتفريغ ما حولها . أما الطريقة الجديدة فستهدف « حفر » خطوط غائرة تحدد ملامح الشكل بدلاً من ابرازها . وقد أدى استخدام هذه الطريقة الى انتاج صور جميلة دقيقة التفاصيل .



الطبع من السطح البارز

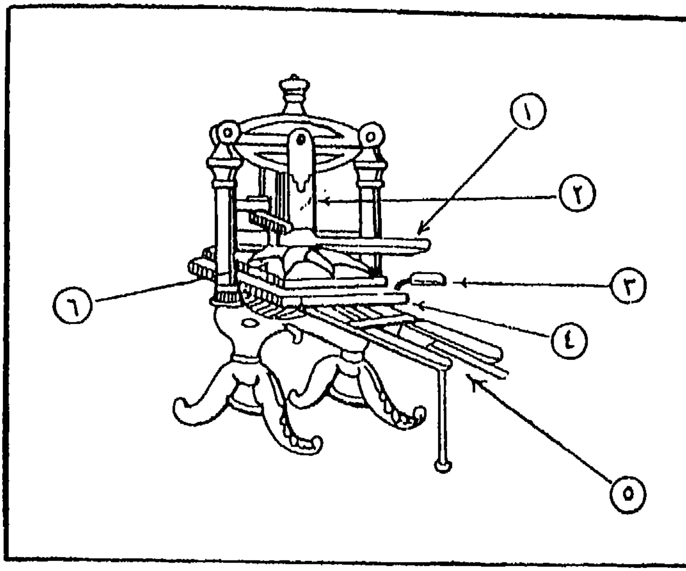


الطبع من السطح الغائر

ويلاحظ أنه عند الطبع من القوالب الخشبية أو الحروف ، فان الحبر يعلق بالسطح البارز لخطوط الصورة أو الحرف . أما عند الطبع من لوحة محفورة من النحاس أو الخشب حيث الخطوط غائرة عن السطح ، فان الطابع يحبر وجه اللوحة كله ثم يمسحه ، فيزول الحبر من سطح اللوحة ولكنه يبقى فى الفجوات المحفورة التى تمثل خطوط الشكل . وعندما يضغط بعد ذلك فرخاً من الورق مندى بالماء بقوة فوق سطح اللوحة ، فان الصفحة تنتقل اليه بالتقاطه الحبر من الفجوات .

وهكذا أمكن لأول مرة فى التاريخ تزويد الكتب برسوم دقيقة مطبوعة من لوحات محفورة من الخشب والنحاس الأحمر . وقد فتحت هذه الطريقة باباً جديداً للرزق أمام الرسامين ، فلم يكن الأمر يتطلب أكثر من أن يقوم الرسام باعداد رسوم خاصة للطبع تلائم حجم صفحة الكتاب المطلوب ، وتكون ذات خطوط يسهل نقلها بالورق الشفاف الى سطح الخشب أو النحاس . وبعد ذلك يتولى الحفّار إكمال المهمة ، وعلى رأس قائمة الرسامين المشهورين الذين كانوا يعدون هذه الرسوم يأتى اسم « البريخت دورر – Albrecht Dürer » (١٤٧١ – ١٥٢٨) .

وكانت أسرة دورر تعيش فى مدينة نورمبرج بألمانيا ، وهى مدينة اشتهرت بفنونها وصناعاتها ، ولما كان ألبريخت هو الابن الأكبر للأسرة ، فقد كان من المفروض أن يتعلم مهنة والده ، أى أن يصبح صائغاً للذهب . ولذلك فبعد بضع سنوات من التعلم بالمدرسة ، ألحق الصبى بحانوت والده ، وكان واضحاً منذ البداية أن ألبريخت رساماً موهوباً . ففضلاً عن أنه استطاع أن يستعمل



شكل رقم (١) آلة يدوية لطبع التجارب

(١) اليد التى يحدث جذبها الضغط (٢) عامود الماكينة .
(٣) اليد المحركة للنحاسة . (٤) النحاسة .
(٥) المجارى التى تتحرك فوقها النحاسة . (٦) الكابسة .

أزميل الحفر الدقيق بمهارة مذهلة ، فقد تكشف كذلك عن موهبة نادرة فى ابتكار تصميمات جميلة .

غير أن اهتمام ألبريخت الحقيقى كان يسير فى اتجاه آخر . فقد كان يميل قبل كل شىء إلى رسم الأشخاص ، وذات يوم ، بينما كان جالساً أمام المرآة ، رسم لنفسه صورة بلغت من الدقة والاتقان حداً جعل من العسير أن يصدق من يراها أنها من عمل صبى فى الرابعة عشرة ، وبعد عدة سنوات كتب ألبريخت فى ركن الصورة العلوى الأيمن : « لقد قمت بعمل هذه النسخة المقلدة لشخصى من المرآة فى عام ١٤٨٤ ، عندما كنت ما أزال طفلاً » .

وعقد والد ألبريخت العزم على أن يتيح لولده كل الفرص التى تمكنه من تنمية موهبته والافادة منها الى أقصى حد . ولم تكن هناك مدارس للفنون فى

تلك الأيام ، ومن ثم فقد تتلمذ الصبى الموهوب على فنان مشهور يملك مرسماً فى نورمبرج . ولما أتم ألبريخت ثلاث سنوات فى صحبة هذا الفنان ، رغب فى القيام برحلة كبيرة يجوب فيها أنحاء ألمانيا ، فقد كانت مثل هذه الرحلة تقليداً مألوفاً لطلاب الفنون الذين يريدون اكمال تعليمهم .

وهكذا بدأ ألبريخت رحلة على ظهر جواد ، تشيعه دعوات والده . وبعد أن زار المدن الكبرى فى طريقه وصل أخيراً إلى بغيته الحقيقية ، وهى مدينة كولمار (Colmar) ، فقد سيطرت على تفكيره منذ البداية رغبة قوية فى أن يتتلمذ على حفار اللوحات الخشبية المشهور مارتن شونجاور (Martin Schongauer) .



جزء تفصيلى من لوحة خشبية محفورة من عمل ألبريخت دورر عام ١٤٩٨ ، ويلاحظ توقيعه بالحرفين الأولين من اسمه أسفل اللوحة

وعندما وصل الى منزل شونجاور فى مدنية كولمار علم لأسفه الشديد أن هذا الفنان قد توفى منذ عام . غير أنه كان هناك لحسن حظ ألبريخت فنانون آخرون فى المدينة لديهم خبرة طويلة فى المجال نفسه ، استطاع أن يتتلمذ عليهم ، وسرعان ما أصبح متمكناً من هذا الفن الجديد . وكان أول انتاج للفنان الشاب ، قد نفذه لحساب أحد الناشرين و يقال أنه كان عملاً ممتازاً من الدرجة الأولى . هذا العمل المشهور هو حفر على الخشب للقديس جيروم (St. Jerome) . وقد توجد هذه اللوحة الآن فى أحد المتاحف الألمانية ، وعلى ظهرها توقيع الفنان ، ومؤرخة عام ١٤٩٢ .

وفى ذلك الوقت كان فى المدينة عدد من الطابعين الذين تخصصوا فى انتاج الكتب الفاخرة المحلاة بالصور . وسرعان ما انهالت العروض على ألبريخت ، ولكنه بدلاً من أن يستقر ويحقق لنفسه دخلاً منتظماً أدار ظهره لهذا اللون من « الفن التجارى » كما سماه واستأنف رحلته مرة أخرى . لقد كان مغرماً بالرسم بالألوان ، وكان ميالاً بالذات الى رسم الصور الشخصية والمناظر الدينية ، مفضلاً أن يظل حراً ينتقل بفنه من مكان إلى مكان . ومع ذلك فقد خصص جزءاً كبيراً من وقته للعمل فى الحقل الطباعى . والحق أن ألبريخت دورر كان أول رسام عظيم فى هذا الميدان . وما زالت الصور التى رسمها ، وكثيراً ما كان يحفرها بنفسه ، أجمل ماعرف من نوعها حتى الآن .

المطبعة فى المستعمرات الأمريكية

نحن فى عام ١٦٣٨ م ، ولم يكن يوجد فى أى مكان بالولايات الأمريكية كتاب ، أو حتى قصاصة ورق ، لم يستورد عبر البحار . أما الآن ، ففى قاع احدى السفن القادمة من انجلترا إلى بوسطن ، ترقد آلة طباعة جديدة ، قد غلفت وحزمت جيداً لوقايتها فى أثناء الرحلة الطويلة .

وكان الأب جلوفر Glover سعيداً بهذه الآلة الطباعية الكبيرة التى اشتراها

من ماله الخاص . أما حروف الطباعة وسائر المعدات اللازمة لاقامة أول مطبعة فى الأراضى الأمريكية فقد اشتريت من تبرعات بعض المواطنين الذين يعملون للصالح العام . وهؤلاء المتبرعون هم أنفسهم الذين فكروا ذات يوم من قبل فى انشاء أول كلية على الأرض الأمريكية ، بمدينة كيمبريدج بولاية ماساشوستس[1] .

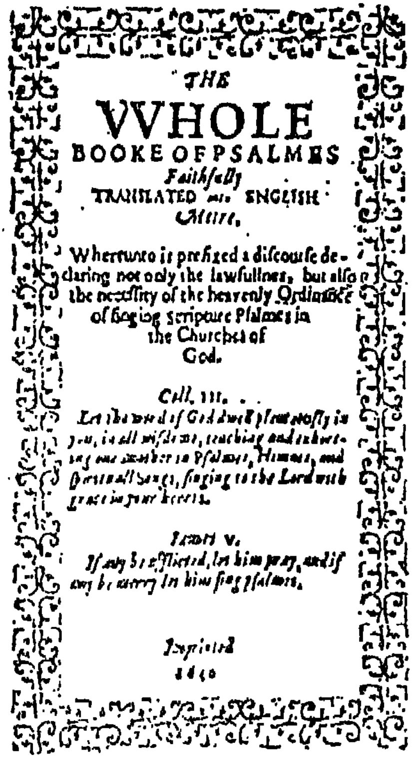
وكان يرافق الأب جلوفر على السفينة ستيفن داى (Steven Day) ، وهو الرجل الذى تعاقد معه على اقامة المطبعة ، ولم يكن هذا الرجل طابعاً ، وإنما كان صانع أقفال ، غير أنه صحب معه ولديه اللذين سبق أن تتلمذا على أحد الطابعين . وكان الأب واثقاً أنهم ثلاثتهم سوف يتمكنون من اقامة المطبعة وتشغيلها .

وبعد رحلة طويلة وعاصفة ألقت السفينة الصغيرة مراسيها فى ميناء بوسطون ، غير أن أهم ركابها كان قد مات فى أثناء الرحلة ، اذ وافت الأب جلوفر منيته قبل وصول السفينة وطوت مياه المحيط جثته .

وبدلاً من أن تتخلى مسز جلوفر عن مشروع زوجها لغيره ، أخذت على عاتقها أن تتم ما بدأه . ونجد فى احدى اليوميات المدونة فى ذلك العصر هذه الفقرة : « أقيمت مطبعة فى كيمبريدج يديرها رجل يدعى داى لحساب مستر جلوفر ، الذى توفى فى البحر قبلئذ » .

وبعد ستة أشهر من البدء فى اقامة المطبعة الجديدة كانت مستعدة لاصدار أول انتاجها ، وهو كتاب اسمه « قسم الرجل الحر Freeman's Oath » وكان ضعيف المستوى خشن المظهر مطبوعاً على صفحات صغيرة الحجم . ثم بدأت المطبعة مشروعاً آخر أكثر طموحاً ، فقد أصدر داى بمساعدة ولديه ما يمكن اعتباره أول كتاب مطبوع فيما يعرف الآن بالولايات المتحدة الأمريكية ، وهو كتاب فى المزامير عنوانه "Bay Psalms" ، ولكن هذا

(١) هى نواة جامعة هارفارد المعروفة ، أقدم الجامعات الأمريكية ، وقد انشئت عام ١٦٣٦ .



THE

VVHOLE

BOOKE OF PSALMES

Faithfully

TRANSLATED into ENGLISH

Metre.

Whereunto is prefixed a discourse declaring not only the lawfullnes, but also the necessity of the heavenly Ordinance of singing scripture Psalmes in the Churches of God.

Coll. III.

Let the word of God dwell plenteously in you, in all wisdome, teaching and exhorting one another in Psalmes, Himnes, and spirituall Songs, singing to the Lord with grace in your hearts.

James V.

If any be afflicted, let him pray, and if any be merry let him sing psalmes.

Imprinted

1640

صفحة العنوان من أول كتاب طبع

الكتاب الصغير يعتبر متواضعاً جداً اذا قيس بانجيل جوتنبرج ، أول الكتب المطبوعة فى أوروبا .

وكان ارتفاع أسعار الورق المستورد يمثل فى الحقيقة عقبة أساسية فى وجه الطباعة الأمريكية . ولم يكن بين كل المهاجرين الذين عبروا المحيط ليجربوا حظهم فى العالم الجديد واحد فقط من صناع الورق . ثم حدث فى عام ١٦٨٢ أن هبط مدينة فيلادلفيا شاب انجليزى من جماعة الكويكرز[١] يسمى ويليام

(١) تسمى هذه الجماعة كذلك جمعية الأصدقاء "Society of Friends" وهى جماعة دينية مسيحية ذات مبادىء تطهر انسانية ، ولها تنظيماتها الخاصة . أسسها

برادفورد W.Bradford . وكان لابد أن ينجح برادفورد فى مشروعه بانشاء أول دار طباعية فى المدينة ، لأن مهنته هى الطباعة . ولم تكن الحاجة ماسة إلى مثل هذه المطبعة فحسب ، بل أنها حظيت أيضاً بتشجيع جماعة الكويكرز . ومع ذلك فقد وجد برادفورد نفسه يقع فى بعض المشكلات بعد أن طبع أول كتبه ، وهو تقويم لعام ١٦٨٦ . اذ أنه أشار فى هذا التقويم الى ويليام بن W.Penn وهو من الكويكرز ، على أنه « لورد » بن . وكان هذا فى نظر أعضاء الجماعة غلطة لا تغتفر . اذ أن الألقاب البريطانية كانت فى ذلك الوقت ذات حساسية معينة للأمريكيين ولجماعة الكويكرز بصفة خاصة .

وبدأ الموقف الطباعى فى فيلادلفيا يتحسن بوصول ويليام ريتنهاوس W.Rittenhouse صانع الورق ، الذى بنى مصنعاً له فى ضواحى المدينة . وعلى ذلك فقد أصبح فى وسع برادفورد أن يطمئن الى أنه سوف يزود مطبعته بما تحتاج اليه من الورق بصفة منتظمة ، وبأسعار معقولة . وبالرغم من ذلك فمطبوعاته كانت خاضعة للرقابة . وعندما أساء الى بعض أولى الأمر قبض عليه وقدم الى المحاكمة بتهمة القذف واثارة الفتن . ومع أن هيئة المحلفين رأت عدم ادانته ، فقد صودرت مطبعته ومطبوعاته .

وكانت هذه هى القشة التى قصمت ظهر البعير ، فانتقل برادفورد الى مدينة نيويورك ، حيث يبدو أن الطابع كان يستطيع أن ينشر ما يريد دون أن يصطدم بأحد القوانين المحلية . وهناك أيضاً لم يكن لبرادفورد منافس ، لأن مطبعته كانت الأولى والوحيدة فى تلك المدينة التى تمت بسرعة على طرف جزيرة مانهاتن .

وخلال السنوات التى شهد فيها برادفورد أحسن أيامه ، كان الغلام الذى قدر له أن يصبح أعظم طابع فى أمريكا ، يتلقى تدريبه فى مدينة بوسطون .

= جورج فوكس فى انجلترا عام ١٦٤٧ ، ثم أخذت مبادئها تنتشر فى أمريكا على يد دعاتها من عام ١٦٥٦ . وكان لهذه الجماعة أثر كبير فى الحياة السياسية والاجتماعية لكل من البلدين .

ومنذ البداية كان هذا الصبي النابه مزهواً بمهارته فى جمع حروف الطباعة ، ولم تستطع الأيام أن تنال من زهوه هذا ، وصحبه ذلك الشعور طول حياته . وخلال المستقبل الطويل الممتاز الذى امتد أمام هذا الصبى ، تنوعت اهتماماته وتعددت ، فقد أنشأ شركة للمطافىء ، وكون قوة للشرطة ، وأسس مكتبة ، وكذلك اشتهر فيما بعد عالماً ممتازاً وسياسياً بارزاً . ولكنه عندما كتب وصيته الأخيرة قبيل وفاته اعتبر نفسه طابعاً ، اذ استهل الوصية بقوله : « أقر أنا الموقع على هذا بنجامين فرانكلين ، الطابع ... » .

وقد بدأ فرانكلين تدوين مذكراته فى عام ١٧٧١ عندما كان فى انجلترا . ولم يكن يعتزم نشر هذه المذكرات ، وانما كتبها لتكون سجلاً عائلياً يصل ما بينه وبين ولده ويليام ، الذى كان يشغل فى ذلك الوقت منصب حاكم ولاية نيوجيرسى . ومن حسن الحظ أن قصة حياة فرانكلين الشائقة التى تضمنتها هذه المذكرات قد طبعت منذ أكثر من مائة عام .

ويقول فرانكلين فى هذه المذكرات : « منذ الطفولة كنت مغرماً بالقراءة ، وكان كل ما يصل إلى يدى من نقود قليلة أنفقه فى شراء الكتب » .

ومن هنا نفهم لماذا شعر هذا الصبي المحب للاطلاع بالتعاسة ، عندما أخرج من المدرسة وهو بعد فى العاشرة ليتعلم صناعة أبيه ، وهى عمل الشموع . لقد كان بنجامين الصغير يكره رائحة الشحم المصهور ، ويشعر بالملل من رتابة العمل فى قطع الفتيل وصب قوالب الشمع .

وفى الوقت نفسه عاد أخوه غير الشقيق جيمس من انجلترا ، حيث كان يتعلم مهنة الطباعة . وقد أحضر جيمس معه طابعة وكل ما يلزم لفتح مطبعة فى مدينة بوسطون . وفكر والدهما فى أن الطباعة قد تكون أنسب لبنجامين من عمل الشموع ، ولكن الصبى لم يرحب بفكرة والده .

ويمضى بنجامين فى مذكراته قائلاً : « لقد تملكنى حب البحر ، ولكن والدى أعلن عدم رضاه عن ذلك » .

وكان والد بنجامين متلهفاً على أن يقيده بالعمل مع أخيه ، خشية أن « يغلبه حب البحر » فيذهب للعمل على ظهر احدى السفن .

ويقول بنجامين : « لقد قاومت رغبة والدى بعض الوقت ، ولكنى فى النهاية اقتنعت ووقعت عقد العمل مع أخى ، وكانت سنى عندئذ أثنى عشر عاماً . وكان على بمقتضى هذا العقد أن أعمل مساعداً (صبياً) له حتى أبلغ الواحدة والعشرين ، وألا أتقاضى أجر عامل كامل إلا فى الشهر الأخير » .

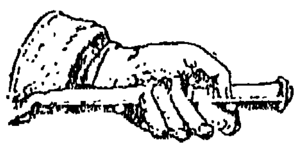
كانت أصابع الصبى الرشيقة وعقله المتفتح من أهم عوامل نجاحه فى مهنته الجديدة . فقد كان المبتدىء فى هذه المهنة فى حاجة الى استخدام كل مواهبه ، وهو يقف أمام المنضدة التى تحمل صندوق جمع الحروف . وهذا الصندوق غير العميق مكون من جزئين ، أو بالأحرى من صندوقين منفصلين : العلوى Upper case ، والسفلى Lower case والجزء السفلى قريب من يد العامل ، أما العلوى فيرتفع فوق السفلى فى وضع مائل .

وينقسم كل من الصندوقين الى عدد من العيون غير متساوية الحجم ، وتضم كل عين مجموعة متماثلة لحرف أو رقم أو علامة ترقيم أو غير ذلك . والصندوق العلوى مخصص لحروف التاج Capitals وعلامات الكسور وما اليها . أما الصندوق السفلى فيحتوى على الحروف فى شكلها العادى Small ولا ترتب الحروف فى أى من الصندوقين حسب الترتيب الهجائى ، وانما هى تخضع فى ذلك لكثرة استخدامها أو قلته . فالعين المخصصة للحرف مثلاً تقع فى وسط السطر الأول من الصندوق السفلى ، وحجمها كذلك يتسع لعدد كبير من هذا الحرف لأنه أشيع الحروف استخداماً . هذا بينما العيون التى تضم الحروف % و x و q صغيرة الحجم وتقع فى الركن الأيسر من الصف الأخير ، لأن هذه الحروف أقل استخداماً من غيرها .

ولما كانت أوجه حروف الطباعة معكوسة الوضع ، حتى تظهر معتدلة عند الطبع ، فليس من السهل تمييزها فى أثناء الجمع . هذا فضلاً عن أنها لابد أن تصف بعكس اتجاه قراءاتها . وكذلك ينبغى الفصل بين الكلمات بأجسام معدنية تماثل حروف الطباعة ، ولكنها تخلو من الوجوه وتختلف فيما بينها فى

السمك ، لتحدث عند طبعها مسافات بيضاء . وكل هذا يستلزم من عامل الجمع قدرة على التركيز وقوة ملاحظة ودقة فى التقدير ، وهذه كلها صفات كان بنجامين الصغير يتمتع بنصيب غير عادى منها .

وكان العمل فى صف الحروف يحتاج كذلك الى مهارة العامل وحذقه فى استعمال كلتا يديه . فأداته مصف من الحديد على شكل مسطرتين متعامدتين ، ينزلق على السفلى منهما محبس . وعليه أن يمسك هذا المصف بيده اليسرى مستخدماً ابهامه فى حفظ الحروف مكانها . وهو يلتقط بأصابع يده اليمنى حروف الجمع من الصندوق واحداً واحداً ، ويضعها بالمصف حتى تكون سطراً فيفرغه بعناية فوق المنضدة . وفى الوقت نفسه فان عليه ألا يغفل عن الأصل الخطى الذى يتابعه ببصره ليحول مادته الى حروف معدنية ، والمثبت أمامه فوق صندوق الجمع العلوى .



مصف يدوى من عام ١٦٨٣

ولم يذكر فرانكلين شيئاً عن الشكوى من طول ساعات العمل . ومع ذلك فقد كان الطابعون ومساعدوهم يستمرون فى عملهم من السادسة صباحاً حتى الثامنة مساء فى الصيف ، ومن السابعة حتى التاسعة فى الشتاء .

وان المرء ليعجب كيف كان هؤلاء العمال يستطيعون رؤية ما يجمعونه من حروف فى الساعات المظلمة من أول النهار وآخره فى أيام الشتاء . فالاضاءة الصناعية فى تلك الأيام كانت ما تزال بدائية لا تفضل فى الحقيقة ما كانت عليه فى أيام الرومان الأولى .

غير أن الحياة بالنسبة لبنجامين لم تكن كلها فى قتامة حبر المطبعة . فسرعان ما عقد صداقة مع عدد من الأولاد الذين كانوا يعملون صبياناً فى بيع الكتب . واتفق بنجامين مع هؤلاء الأصدقاء أن يعيروه للقراءة كتباً من مخازنهم ، بعد أن أقنعهم بأنه شخص يمكن الوثوق بما وعد به من اعادة ما يستعير من الكتب بسرعة ، ودون أن تتأثر جدتها .

ويقول فرانكلين فى مذكراته : « لقد كنت أقضى الشطر الأكبر من الليل مستيقظاً فى غرفتى أقرأ ، حتى أستطيع أن أعيد الكتاب المستعار فى الصباح ، خشية أن يفتقده أصحابه أو يكونوا فى حاجة إليه » .

وقد اتسعت دائرة الكتب التى كان يقرؤها الصبى بنجامين ، وتنوعت موضوعاتها فشملت التاريخ والسير والرياضيات والملاحة والنحو والنثر والشعر وغيرها ، وكلها كتب مستوردة من خارج أمريكا .

وفى غضون ذلك كان أخوه جيمس يعانى من بعض الصعوبات . وكان قد فاتح أصدقاءه فى موضوع انشاء صحيفة ، ولكنهم لم يحبذوا فكرته . وقال له الأصدقاء انه سوف يدخل بذلك فى منافسة مع صحيفة « بوسطن نيوزلتر » Boston News letter صحيفة أمريكا الأولى والوحيدة فى ذلك الوقت . ولكن جيمس لم يقتنع بكلامهم ، وقرر أن يمضى فى تنفيذ مشروع الصحيفة . ولم يخطر على باله أن أخاه وصبيه الصغير يمكن أن يقدم له أى عون فى هذا المشروع ، أكثر مما اعتاد أن يقوم به من صف الحروف وادارة آلة الطباعة اليدوية .

ولكن الصبى الطموح لم يكتف بأن يصف الحروف ويطبع صفحات الصحيفة ، ثم يقوم بتوزيعها على المشتركين بعد ساعات العمل فى المطبعة . لقد كان يريد كذلك أن يشترك فى تحرير هذه الصحيفة التى سموها « نيوانجلند كورانت » New England Courant .

ويصف فرانكلين هذا الموقف فى مذكراته فيقول : « ولما كنت ما زلت صغيراً ، وأخشى أن يعترض أخى على نشر شىء من كتاباتى فى صحيفته اذا

علم أننى أنا الذى أكتبها ، فقد احتلت على تجنب ذلك بتغيير خطى ، وكتبت مقالة دون توقيع ووضعتها تحت باب المطبعة . وعثر أخى على المقالة فى الصباح ثم عرضها على أصدقائه الذين يستشيرهم فيما ينشر عندما حضروا اليه كالمعتاد . وقرأ أصدقاؤه المقالة وأخذوا يعلقون عليها ، وأنا أسمع ما يقولون . وكان سرورى عظيماً وأنا أسمع أنها نالت استحسانهم ، وأنهم عندما أخذوا يخمنون اسم كاتبها ذكروا عدة أسماء عرف أصحابها بالعلم والذكاء » .

« وتشجعت ، فكتبت عدة مقالات أخرى وأرسلتها بالطريقة نفسها ، ونالت كذلك استحسانهم . واستطعت أن أحفظ سرى حتى نفد رصيدى الضئيل من القدرة على ضبط المشاعر والتظاهر بغير الحقيقة ... » .

وهكذا انفجر الصبى فجأة ، فأعلن فى زهو أنه كاتب تلك المقالات ، غير أن أخاه الجاحد ، بدلاً من أن يشكره ويمتدح ما فعله ، أظهر له استياءه واستنكاره .

لقد كان عدم الوفاق مستحكماً بين الأخوين منذ البداية ، فكثيراً ما كان جيمس الحادالطبع يضرب أخاه الصغير . والآن وبعد خمس سنوات متصلة من التعاسة ، طلب نجامين من أخيه أن يحله من الارتباط به ، حتى يستطيع أن يجد عملاً فى مكان آخر من بوسطون ، وقد وافق جيمس على ذلك مغيظاً محنقاً ، ولكنه من ناحية أخرى بادر باغلاق أبواب العمل أمام بنجامين ، اذ اتصل بالطابعين الآخرين فى المدينة ، وطلب منهم عدم تشغيل الفتى لديهم .

واجه بنجامين الموقف بشجاعة ، فباع بعض كتبه ليدفع أجر سفره على احدى السفن الصغيرة المتجهة الى نيويورك ، وما لبث أن انحدر فى هدوء الى ظهر السفينة .

وبعد أسبوعين ظهر فى صحيفة « نيوانجلند كورانت » اعلان يقول : « يعلن جيمس فرانكلين الطابع بشارع الملكة عن حاجته الى صبى للعمل معه تحت التمرين » . ولم يعلم جيمس أو سائر أفراد الأسرة شيئاً عما صار اليه أمر الصبى الهارب .

الطباعة في العالم العربي والإسلامي

نشأة الطباعة فى تركيا

عرفت تركيا الطباعة فى الربع الأخير من القرن الخامس عشر . فقد نزل بالأستانة آنذاك أحد علماء اليهود ، ويدعى « اسحق جرسون » ، وأحضر معه مطبعة وحروفاً عبرية لينشر بها كتب الديانة الموسوية . وخشى السلطان « بايزيد الثانى » أن يستفيد رعاياه المسلمون من الاختراع الجديد ، فأصدر أمراً فى سنة ١٤٨٥ م يحرم على غير اليهود استخدام فن جوتنبرج . ولما جلس السلطان « سليم الأول » على عرش آل عثمان رأى أن يجدد فى سنة ١٥١٥ م أمر والده الخاص بالمطبعة .

أما المطبعة العربية ، فقد عرفتها البلاد العثمانية بفضل مسعى « سعيد أفندى » ابن سفير تركيا بباريس . فقد أصدر السلطان فرمان الموافقة ، بعد أن أفتى شيخ الاسلام عبد الله أفندى ، فى سنة ١٧١٦ م ، بجواز استخدام الطباعة فى نشر كتب الحكمة واللغة والتاريخ والطب والهيئة وسائر الفنون . وأول كتاب أخرجته هذه المطبعة كان ترجمة « قاموس وانقولى » (١٧٢٨) الى اللغة التركية .

نشأة الطباعة فى لبنان وأسبقية تطورها

وعرف لبنان الطباعة فى سنة ١٦١٠ ، بفضل رهبان دير قزحيا ، وطبعت مطبعة الدير كتاب « المزامير » بالسريانية والكرشونية ، ثم توقفت عن العمل .

وكانت مطبعة دير مار يوحنا الصايغ أول مطبعة تطبع بالحروف العربية فى لبنان . وقد أسسها الشماس عبد الله زاخر ، وطبع فيها كتاب « ميزان الزمان » فى سنة ١٧٣٤[1] . وقد توقفت عن العمل من سنة ١٧٩٧ الى سنة ١٨٠٢ .

(١) كان كتاب « صلاة السواعى » أول كتاب عربى طبع فى أوربا . فقد طبعه فى سنة ١٥١٤ الطابع البندق « غريغوريوس دى غريغوريوس » فى مدينة « فانو » من أعمال ايطاليا .

وأول مطبعة عرفتها بيروت كان مقرها دير القديس جاورجيوس . وقد أسسها الشيخ يونس نقولا الجبيلي ، الملقب بأبي عسكر ، سنة ١٧٥١ . وأول كتاب خرج من هذه المطبعة هو كتاب « المزامير » . وعلى الرغم من الجهود التي بذلها منشئها فقد توقفت عن العمل بعد تأسيسها بمدة وجيزة . وظلت عاصمة لبنان دون مطبعة الى أن جلب المبشرون الأمريكيون مطبعتهم في سنة ١٨٣٤ .

أما دير قزحيا فان أحد رهبانه قد أحضر معه من روما مطبعة في سنة ١٧٨٢ ، وكان معظم انتاجها كتباً دينية .

والمطبعة الأمريكية ببيروت هي ثانية المطابع التي أنشئت بهذه المدينة ، ورابعة المطابع التي عرفها لبنان . وقد كانت في « مالطا » ثم نقلت إلى أزمير ، واستقر بها المقام آخر الأمر في بيروت سنة ١٨٣٤ . ولم يكن نشاط المطبعة في أول الأمر متصلاً ، فقد توقفت سنة ١٨٣٥ لعدم وجود الفنيين ، وتعطلت مرة أخرى بين سنة ١٨٣٩ وسنة ١٨٤١ بسبب الاضطرابات التي وقعت في بيروت في أواخر عهد الحكم المصري لتلك البلاد . واستمرت المطبعة الأمريكية في نشاطها بعد ذلك فزودت لبنان وسوريا بالكتب المدرسية والعلمية والدينية حتى الثلث الثاني من القرن التاسع عشر . وأخذت تزود المطابع بالحروف التي كانت تصنعها في مسابكها . والى هذه المطبعة يعود فضل طبع « الكتاب المقدس » طبعاً أنيقاً خالياً من الأخطاء . وقد صدرت الطبعة الأولى في سنة ١٨٦٥ . وساهمت المطبعة الأمريكية في نشر الصحف والمجلات . وأول صحيفة مصورة طبعت في الشرق العربي هي « أخبار عن انتشار الانجيل » التي صدر عددها الأول في سنة ١٨٦٣ .

وأنشأ الرهبان اليسوعيون في بيروت مطبعة حجرية صغيرة بدأت نشاطها في أواخر سنة ١٨٤٨ . غير أنها مالبثت أن توقفت عن العمل . ثم تبرع أحد أغنياء الفرنسيين بثمن مطبعة كاملة المعدات . وهكذا تم لهؤلاء الرهبان انشاء مطبعة كبيرة . وكان أول مطبوع أخرجته كتاب « الاقتداء بالمسيح » في سنة ١٨٥٤ . واستخدمت مطبعة الرهبان اليسوعيين ، أو المطبعة الكاثوليكية ،

حروفاً عربية مسبوكة فى باريس ، ولكن سرعان ما تبين عدم صلاحيتها ، فاستبدلت بها حروف مسبك المطبعة الأمريكية سنة ١٨٦٨ . وانتشرت بعد ذلك المطابع فى بيروت ، فتأسست فى سنة ١٨٥٧ المطبعة السورية ، وهى أول مطبعة لبنانية يملكها فرد . وجاءت بعدها بسنة المطبعة الشرقية .

وفى سنة ١٨٦٣ قرر داود باشا أن يؤسس مطبعة رسمية فى بيت الدين . وهكذا ، وشيئاً فشيئاً ، انتشرت المطابع فى بيروت وخارجها بفضل الحركة الفكرية التى أخذت تنشط فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وبفضل انتشار المدارس فى بيروت وقرى لبنان .

ولكن بعد سنة ١٨٧٠ بدأت الحركة المطبعية تنتقل رويداً رويداً من الجبل الى بيروت ، ومن بيروت الى الاسكندرية والقاهرة وبورسعيد ، وذلك بسبب الكساد الذى حل فى لبنان ، وبسبب تضييق الحكومة العثمانية على رجال الفكر . ولكن على الرغم من هذه العقبات ، تمكنت المطابع الكبرى من جلب المحركات البخارية والآلات السريعة فتضاعف انتاجها .

واستطاعت المطبعة الكاثوليكية والمطبعة الأدبية صنع قاعدتين جديدتين للحروف العربية . وكانت مطابع القاهرة والاسكندرية تستورد حروفها من المسابك اللبنانية . ولكن الحكومة التركية منعت تصدير الحروف من بيروت فى سنة ١٨٩٤ . وظل لبنان سيد الطباعة فى الشرق العربى حتى أواخر القرن التاسع عشر ، اذا بدا له منافس خطير فى مطابع مصر .

أما خارج بيروت فان حال الطباعة لم يكن على مايرام ابتداء من الثلث الأخير من القرن التاسع عشر . وعرفت مدينة طرابلس فن الطباعة فى سنة ١٨٩٣ ، وكانت بها مطبعة تدار بالبخار ، وتأسس فى بيروت قبيل الحرب العالمية الأولى عدد من المطابع الصغيرة . وكان لتلك الحرب أسوأ الأثر على الطباعة فى لبنان ، فقد توقف عدد كبير من المطابع ، وصادرت الحكومة العثمانية بعضها .

وكان لهجرة الأرمن الى لبنان بعد الحرب الأولى أثر كبير على الطباعة .

وبادرت المطابع الكبرى الى استيراد الآلات الطباعية الحديثة من أوروبا وأمريكا ، كما اشترت المحركات التي تدار بالبترول ثم استبدلت بمحركات كهربائية . وعرف لبنان أول آلة « لينوتيب » لتنضيد الحروف بفضل المطبعة الأمريكية ، فقد اشترتها فى سنة ١٩٢٢ . ومما يجدر ذكره أن جميع المطابع التى أسست بعد سنة ١٩٢٠ كانت مزودة بالحروف الأفرنجية بخلاف المطابع التى أنشئت قبل سنة ١٩١٤ والتى كانت حروفها أغلبها عربية . وكان « فريد مدور » أول من فكر فى انشاء مدرسة لتعليم الفن المطبعي فى لبنان ، وظلت هذه المدرسة تعمل بهمة ونشاط الى سنة ١٩٣٣ .

ويلاحظ على الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين أن الطباعة فيها تقدمت بخطى واسعة من حيث فن تنضيد الحروف وتوضيب الصفحات . وكان للمهاجرين اللبنانيين بعض الفضل على تقدم هذا الفن ، فقد أخذوا يرسلون الى ذويهم طابعات حديثة وآلات لتنضيد الحروف ساهمت فى تقدم الطباعة فى وطنهم الأصلى .

ولم تقف الحرب العالمية الثانية حائلاً دون تقدم الفن المطبعى فى لبنان ، كما حدث فعلاً فى الحرب العالمية الأولى . وفى لبنان اليوم مطابع بلغ انتاجها الغاية فى الجودة . وحيث تمثل أعلى مستوى فنى للطباعة فى الشرق .

نشأة الطباعة فى سوريا

كانت حلب أول مدينة سورية عرفت الطباعة العربية . فقد جلب لها البطريرك « أثناسيوس دباس » مطبعة من رومانيا . وظلت هذه المطبعة تعمل من سنة ١٧٠٦ الى سنة ١٧١١ ، ثم توقفت عن العمل حتى ١٨٤١ ، حين أنشأ أجنبى من جزيرة « سردنيا » يدعى « بلفنطى » مطبعة حجرية ، وهى أول مطبعة علمانية أنشئت فى سورية .

وعرفت دمشق الطباعة خلال احتلال جيوش ابراهيم باشا الأراضى السورية ، ولكنها كانت طباعة حجرية . أما مطابع الحروف فقد عرفت سنة ١٨٥٥ على يد « حنا الرومانى » .

وفى حلب أنشأت الطائفة المارونية مطبعة حروف سنة ١٨٥٧ . وأنشأت الحكومة العثمانية فى دمشق عام ١٨٦٤ مطبعة رسمية لتطبع عليها جريدة « سورية » باللغتين العربية والتركية . وأسس جودت باشا ، والى حلب ، مطبعة فى سنة ١٨٦٧ لطبع صحيفة « الفرات » . وتأسست فى حلب سنة ١٨٧٧ المطبعة العزيزية لتطبع جريدة « الشهباء » الأسبوعية ، ولكن مالبث الوالى أن أمر باغلاق الجريدة وبالحجز على المطبعة . وفى سنة ١٨٨٠ أنشئت فى دمشق المطبعة الخيرية ، وقد عرفت بعد ذلك باسم مطبعة مجلس المعارف . ولم يكن فى دمشق سنة ١٨٨٣ سوى مطبعة الولاية ، ومطبعة حجرية ، ومطبعة مجلس المعارف ، ومطبعة حبيب أفندى خالد .

وظل عدد مطابع دمشق على حاله حتى سنة ١٨٩٣ حين أنشئت مطبعة روضة الشام . وفى حلب تأسست فى سنة ١٨٩٧ مطبعة الفوائد التى كانت تصدر مجلة « الشذور » . وفى دمشق أنشئت المطبعة الحميدية فى سنة ١٨٩٨ ، وكذلك المطبعة العلمية التى عرفت بعد ذلك باسم مطبعة الفيحاء .

وهكذا نجد الطباعة تسير فى سورية سيراً وئيداً ، ذلك أن أصحاب السلطان لم يكونوا يؤمنون بالحرية .

وتأثرت أحوال الطباعة فى سورية بعوامل سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية . وضيقت الحكومة العثمانية على المطابع السورية خوفاً من أن تنشر الأفكار التحررية . وهكذا ظل عدد المطابع فى دمشق لا يتجاوز الأربع فى بداية الحرب العالمية الأولى . وكانت هذه الحرب سبباً فى تأخر الطباعة فى البلاد السورية لانقطاع ورود الورق وتشدد الحكام مع أصحاب المطابع .

وحال قيام الثورة السورية بعد الحرب العالمية الأولى دون تقدم الطباعة ، ولم يتقدم الفن المطبعى أى تقدم ، وانتقلت الحركة المطبعية كلها الى بيروت .

ولم تعرف دمشق فن الحفر (الزنكوغراف) إلا فى أوائل القرن العشرين بفضل أحد أبنائها . وبعد الحرب العالمية الأولى أنشئت ورشة ثانية للحفر . ويمكن أن يقال أن الفن المطبعى تقدم بعض الشىء فى سورية بعد الحرب العالمية

الدولى ، إلا أن الجهود التى بدت فى هذا المضمار ظلت فردية . أما الحكومة فلم تفعل شيئاً .

وتأثرت بعض المطابع السورية بالحرب العالمية الثانية ، وخاصة بعد انهيار فرنسا . إلا أن هذه الحال لم تدم طويلاً .

وفى دمشق وحلب واللاذقية وحمص مطابع لا بأس بها ، يهتم أكثرها بطبع المطبوعات التجارية للمصارف والشركات والبيوت التجارية المختلفة .

نشأة الطباعة فى مصــر

عرفت مصر الطباعة عندما احتلها الفرنسيون بين سنة ١٧٩٨ وسنة ١٨٠١ ، فقد زود « بونابرت » حملته بمطابع جهزها بحروف فرنسية وعربية ويونانية . وجاء مع بونابرت طابع فرنسى يدعى « مارك أوريل » حمل معه مطبعة وحروفاً فرنسية ، وقام بطبع صحيفة لوكورييه دى ليجبت Courrier de L'Egypte ومجلة العشرية المصرية La Décade Egyptienne وهى مجلة المجمع العلمى الفرنسى ، غير أن رداءة فن هذا الطابع الفرنسى جعلت أولى الأمر ينصرفون عنه ، فاضطر الى بيع مطبعته وحروفها الى الحملة والرحيل الى فرنسا ، ولم يستفد المصريون من هذه المطابع ، ولم يحاول المحتل أن يعلم هذا الفن لأبناء البلاد .

ولما رحلت الحملة أخذت معها المطابع والحروف ، وظلت مصر دون مطابع حتي سنة ١٨١٩ ، حين أسس محمد علي والى مصر مطبعة بولاق ، وكان قد بعث الى ايطاليا بشاب يدعى « نيقولا مسابكى » لدراسة الفنون المطبعية ، فلما عاد أولاه أمر المطبعة ، فطبعت أول ما طبعت « قاموس عزلى ايطالى » . وفى سنة ١٨٢٨ طبعت الوقائع المصرية . ولم تكن مطبعة بولاق المطبعة الوحيدة فى مصر خلال الفترة الواقعة بين سنة ١٨١٩ وسنة ١٨٤١ ، فقد تأسس بعدها عدد من المطابع الصغيرة ، ألحق بعضها بالمدارس والآخر بالديوان ، نذكر منها مطبعة مدرسة الطب بأبى زعبل ، ومطبعة الطوبجية

بطرة ، ومطبعة ديوان الجهادية ، ومطبعة ديوان الخديوى ، ومطبعة القلعة ، ومطبعة رأس التين بالاسكندرية ، ومطبعة مكتب الموسيقى ، ومطبعة جزيرة كريد .

أما الأجانب فقد أنشأوا مطبعة فى الاسكندرية حوالى سنة ١٨٢٤ ، ولم ينشىء المصريون مطابع قبل سنة ١٨٣٧ ، ذلك أن حالة مصر الثقافية والاجتماعية لم تكن لتشجع الناس على جلب المطابع والاتجار بالمطبوعات . وهكذا ظلت الطباعة فى مصر حتى سنة ١٨٤٠ معتمدة كل الاعتماد على الحكومة ، ذلك أن الشعب نفسه لم يكن قد وصل بعد الى درجة من الرقى تجعله يشعر بفائدة هذا الاختراع .

ومرت مطبعة بولاق فى أواخر حكم محمد علي فى فترة من الركود ظلت ملازمة لها إلى ما بعد سنة ١٨٦٣ . فقد تعطلت من يوليو سنة ١٨٦١ الى أغسطس سنة ١٨٦٢ . وفى ٧ أكتوبر سنة ١٨٦٢ أهداها سعيد باشا لعبد الرحمن رشدى بك الذى استعان بأحد الطابعين الفرنسيين فى تجديد المطبعة وآلاتها .

ولما تولى اسماعيل حكم مصر ، اشتراها من صاحبها فى ١٢ فبراير سنة ١٨٦٥ لحساب الدائرة السنية ، وجلب لها محركاً بخارياً ، وهو أول محرك بخارى يستخدم فى مطبعة مصرية ، كما أضيفت لها طابعة للطبع بالألوان . وقامت فى تلك الفترة بطبع الطوابع الأولى للبريد المصرى . واستحقت مطبوعات بولاق الميدالية الفضية فى معرض باريس الذى أقيم فى سنة ١٨٦٧ . وفى سنة ١٨٧٤ تم طبع أول كتاب باللغة الايطالية بمطبعة بولاق وهو « النخبة الترجمانية فى اللغة التليانية »[١]. وفى ٢٠ من يونيه سنة ١٨٨٠ انتقلت ملكية المطبعة من الدائرة السنية الى الحكومة المصرية .

وفى سنة ١٨٦٨ أنشأ على باشا مبارك مطبعة لديوان المدارس . وطبعت هذه المطبعة عدداً كبيراً من الكتب المدرسية ومجلة روضة المدارس . وأنشىء بالقلعة سنة ١٨٧٢ مطبعة أركان حرب الجهادية . وكانت تقوم بطبع الكتب

والخرائط ونوتات الموسيقى العسكرية ، ولما لم تستطع أن تعيش على ايراداتها الخاصة فقد ضمت الى مطبعة بولاق فى ١٠ مايو ١٨٨١ . وكانت هناك مطبعة أخرى تسمى مطبعة المدارس الحربية . وفى ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٠ تأسست مطبعة الداخلية الجليلة لتقوم بطبع الوقائع المصرية .

وعرفت القاهرة أول مطبعة افرنجية سنة ١٨٤٢ وهي « مطبعة ميلونى » . وكان بالقاهرة فى سنة ١٨٤٤ « مطبعة كاستللى » . وأول مطبعة كبيرة أنشئت بالاسكندرية هي مطبعة « فانسان بناسون » التى تأسست فى سنة ١٨٥٧ . وفى حوالى سنة ١٨٦٠ أسس « أنطون موريس » بالاسكندرية مطبعة جلب لها طابعة أوتوماتيكية هى أول طابعة من نوعها عرفتها مصر . وفى سنة ١٨٧٥ أسس « موريس » المطبعة الفرنسية ببورسعيد .

وعرفت مصر المطابع الحجرية متأخرة بعض الشيء بفضل المطابع لتي ألحقتها الحكومة المصرية بمدارسها العسكرية وغير العسكرية . أما مطابع الأجانب فقد عرفتها فى سنة ١٨٦٧ حين أسس « بناسون » بالاسكندرية أول مطبعة حجرية فنية أجنبية . وقد طبعت المجموعة الثانية من طوابع البريد المصرية . وفى الاسكندرية أيضاً تأسست المطبعة الأميركانية لطبع الكتب الدينية حسب المذهب البروتستانتى . وعرفت القاهرة المطابع الحجرية الفنية الأجنبية بعد الاسكندرية بوقت طويل . ويلاحظ أن مطابع الأجانب فى تلك الحقبة – أى حتى الثورة العرابية – كانت فى تقدم مستمر .

وانتشرت مطابع المصريين خلال حكم سعيد للبلاد . ويرجح أن تكون المطبعة الميمنية قد تأسست فى سنة ١٨٥٦ ، ثم تلتها بعد ذلك بسنتين مطبعة محمود محمد بخان الخليلى . كما أنشأ محمد عثمان الزناتى مطبعة حجرية . أما أول مطبعة حروف أنشئت فى ذلك العهد فهي المطبعة الأهلية القبطية . ولم تبدأ هذ المطبعة عملها فعلاً إلا فى سنة ١٨٧٠ . ومن الملاحظ أن عدد المطابع الأهلية المصرية بالقاهرة لم يكن قليلاً خلال حكم الوالى سعيد بالنسبة الى الحالة السيئة التى كانت عليها البلاد فى تلك الحقبة من تاريخها . وفى سنة ١٨٦٨ أسس

محمد باشا عارف (جمعية المعارف لنشر الكتب النافعة) . وانتهز ابراهيم المويلحي الفرصة لينشيء مطبعة باسم الجمعية . وأسس حسن شرف فى سنة ١٨٧٣ المطبعة الشرفية بالقاهرة . بيد أن مطابع المصريين فى ذلك العهد لم تكن فى مستوى مطابع الأجانب .

وكانت الصحف المصرية فى أول الأمر تطبع فى المطابع العادية . وأول مطبعة أنشئت لطبع صحيفة هي مطبعة وادى النيل ، وكان ذلك فى سنة ١٨٦٦ . وكانت المطبعة تطبع كذلك نشرة أركان حرب الجيش المصرى ومجلة روض المدارس وروضة الأخبار . واهتمت هذه المطبعة بالمكفوفين فطبعت لهم كتاب « القراءة والكتابة للعميان » . وهو أول كتاب من نوعه يصدر فى مصر والبلاد العربية .

وفى سنة ١٨٧٢ تأسست مطبعة جريدة « كايرون » اليونانية . أما جريدة الأهرام فقد أنشئت مطابعها بالاسكندرية سنة ١٨٧٥ ، وكانت تطبع الى جانب ذلك الكتب الأدبية والأوراق التجارية . وفى سنة ١٨٨١ أسس فرنسى يدعى « جاك سرير » صحيفة البوسفور اجبسيان بمدينة بورسعيد . ومن الملاحظ على مطابع الصحف فى تلك الحقبة أنها لم تكن تتميز عن سائر المطابع إلا فى كثرة عدد عمالها ، ذلك أن عدد النسخ المطبوعة من الصحف كان صغيراً .

وبعد الاحتلال الانجليزى زاد عدد الأجانب فى مصر ، لاسيما العمال الذين عمل عدد كبير منهم فى مطبعة بولاق . واعتباراً من سنة ١٨٨٤ أدرجت مطبعة بولاق فى ميزانية الحكومة العامة . وفى سنة ١٨٨٥ عين « ادمون بانجيه » مديراً للمطبعة ، وهو أول مدير أجنبى يعين فى مطبعة بولاق . وأطلق على المطبعة اسم « المطبعة الأهلية » . وأدخلت طباعة القوالب المصبوبة « الاستريوتيب » والطلاء بالكهرباء (الالكتروتيب) والحفر على الزنك . وفى سنة ١٨٨٨ نقلت مطبعة نظارة المالية الى المطبعة الأهلية ببولاق . وتولى « شيلو بك » ادارة المطبعة فى سنة ١٨٩٤ . وقد أمر بهدم القاعات القديمة وبناء قاعات جديدة بدلاً منها ، وأدخل آلات الطباعة الحديثة السريعة

وآلات جمع الحروف المعروفة بالمونوتيب . ووضعت قاعدة جديدة للحروف العربية طبع بها العدد ١٢٤ من الوقائع المصرية الصادر فى ٣ نوفمبر سنة ١٩٠٦ .

وبلغت سرعة بعض طابعات بولاق قبيل الحرب العالمية الأولى أربعة آلاف دورة فى الساعة . وكان بين آلاتها طابعة تدور ستة آلاف دورة فى الساعة . وخلال الفترة الواقعة بين سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٢٤ ألحق بالمطبعة مدرسة لتعليم فن الطباعة علمياً وعملياً . ولكن المدرسة لم تلبث أن أغلقت ووزع تلاميذها على مختلف ورش المطبعة .

— وقد أنشأت الحكومة فى تلك الفترة مطبعة مدرسة الفنون والصنائع ، وهى مطبعة حجرية بدأت نشاطها بعد سنة ١٨٨٢ بقليل . وفى سنة ١٨٨٤ تأسست مطبعة نظارة المالية . ولم تعش هذه المطبعة طويلاً ، فقد تقرر ضمها الى مطبعة بولاق فى سنة ١٨٨٨ . أما مطبعة ديوان الأوقاف فقد أنشئت فى حوالى سنة ١٨٨١ . وقرب ذلك التاريخ أنشئت مطابع سكك حديد الحكومة المصرية .

وعندما أنشئت مصلحة المساحة فى سنة ١٨٩٨ لم تكن مطبعتها تطبع إلا الخرائط الخاصة بالمصلحة . وقد تم إنشاء قسم التصوير الفوتوغرافى فى سنة ١٩٠٧ . وبدأت المطبعة فى سنة ١٩٠٩ تطبع بأربعة ألوان . ومن المعروف أن مطبعة المساحة كانت أول مطبعة فى مصر تقتنى طابعة أوفست ، وقد اشترتها من مصانع « مان » سنة ١٩١٢ . واستطاعت هذه المطبعة فى سنة ١٩٢٣ أن تطبع أول طابع بريد ، وكان يحمل صورة الملك فؤاد مرسومة رسماً خطياً . وفى سنة ١٩٢١ أنشئت مطبعة دار الكتب المصرية لطبع المؤلفات العلمية والأدبية .

ويمكن اعتبار هذه الحقبة العصر الذهبى بالنسبة لمطابع الأجانب . فقد نمت هذه المطابع وازدهرت بفضل زيادة عدد الأجانب وهدوء الحال بالنسبة لهم بعد اخماد الثورة العرابية . والمطبعة العمومية هى أول مطبعة أجنبية فى مصر

جلبت آلات تنضيد الحروف (لينوتيب) ، وكان ذلك فى سنة ١٩٠٨ .
وكان « لاجوداكيس » أول طابع يقوم بانتاج البطاقات والأغلفة التى تلصق على علب السجاير . وقد أنشئت عدة مطابع فى ذلك العهد نخص منها بالذكر مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية التى بدأت نشاطها فى سنة ١٨٩٨ . وهى أول مطبعة فى مصر استخدمت الحروف أو الأشكال الهيروغليفية . وتأسست بالاسكندرية فى السنة نفسها مطبعة مدرسة الفرير للفنون والصنائع . وكان الغرض من انشاء هذه المؤسسة تعليم الفن المطبعى وفن التجليد لكل من يرغب فى ذلك ، وطبع مطبوعات مدارس الفرير المنتشرة فى مصر .

ونشطت مطابع المصريين نشاطاً ملحوظاً بعد ١٨٨٢ ، فقد تأسست مطابع جديدة ، واتسعت معظم المطابع القديمة بفضل انتشار التعليم وازدياد عدد الصحف والمجلات والانتعاش الاقتصادى . ومن المطابع التى أنشئت فى ذلك العهد مطبعة محمد درى باشا ، فقد قامت بطبع الكتب الطبية وبعض الكتب التاريخية . وفى سنة ١٨٩٠ أنشأ نجيب مترى « مطبعة المعارف ومكتبتها » ، وكان يتردد عليها عدد كبير من الكتاب والأدباء والشعراء . وكان من نتيجة ازدياد عدد المطابع اشتداد المنافسة بينها فانخفضت أسعار الطبع . ولكن بعض المطابع الصغيرة اضطرت الى التوقف بسبب هذه المنافسة . ومن المطابع الهامة التى تأسست فى تلك الحقبة مطبعة الرغائب التى تخصصت فى طبع اعلانات الحائط الضخمة . وبلغ عدد المطابع فى مصر سنة ١٩٠٩ اثنتين وستين مطبعة فى القاهرة ، وستاً وأربعين بالاسكندرية ، واثنتين بأسيوط ، وواحدة فى كل من بنها وبنى سويف ودمنهور والفيوم والمنيا وميت غمر والسويس ، وأربعاً فى كل من المنصورة وطنطا وبورسعيد ، واثنتين فى الزقازيق .

وتقدمت مطابع الصحف تقدماً ملحوظاً فى تلك الفترة من التاريخ . فقد أدخلت مطابع الصحف الأفرنجية آلات اللينوتيب وجلبت المحركات الكهربائية . ومن المطابع الكبرى التى أنشئت فى ذلك العهد مطبعة المقتطف والمقطم . وأنشأ الشيخ على يوسف صحيفة المؤيد فى سنة ١٨٨٩ ، وكانت

مطبعتها صغيرة تدار باليد . ورأى صاحبها فى سنة ١٩٠٦ أن يشترى لجريدته طابعة دائرية (روتاتيف) هى أول مطبعة من نوعها فى مصر وفى الشرق العربى . وفى سنة ١٨٩١ أنشأ جورجي زيدان – بالاشتراك مع نجيب مترى – مطبعة التأليف ، وبعد سنة انفضت الشركة واحتفظ جورجي زيدان بالمطبعة وأسماها الهلال . وكانت مطبعة الهلال أول دار صحفية أدخلت طباعة الروتوجرافير . وفى سنة ١٩٢٤ صدر العدد الأول من مجلة المصور مطبوعاً بالروتوجرافير .

وتأسست مطبعة جريدة مصر فى سنة ١٨٩٧ . وفى السنة نفسها تأسست بالاسكندرية مطبعة صحيفة البصير . وأنشأ الزعيم مصطفى كامل مطبعة ليطبع عليها جريدة اللواء فى سنة ١٩٠٠ ثم استورد لها طابعة روتاتيف تطبع فى الساعة الواحدة ١٢ ألف نسخة ، كما استورد لها آلتى لينوتيب . وكانت مطبعة اللواء أكبر مطبعة مصرية فى سنة ١٩١٠ . وتأسست فى أواخر القرن التاسع عشر مطبعة « البورص اجبسيين » . وشهد مطلع القرن العشرين تأسيس عدد من مطابع الصحف العربية والأفرنجية . وازداد عدد مطابع الصحف زيادة كبيرة فى الفترة الواقعة بين سنة ١٨٨٢ وسنة ١٩٢٤ بفضل ظهور الأحزاب التى أخذ كل منها يصدر صحيفة تعبر عن آرائه .

وقد تأثرت الطباعة كثيراً فى مصر خلال الحرب العالمية الأولى ، اذ شح الورق وانقطع ورود أدوات الطباعة . ومن المطابع التى لمع اسمها أثناء الثورة المصرية التى قامت بعد الحرب الأولى مطبعة محمد عجينة بزفتى ، التى قامت بطبع المنشورات الثورية وتوزيعها على الوطنيين . وفى تلك الفترة تأسست المطبعة العصرية وتخصصت فى طبع المعجمات اللغوية . وفى سنة ١٩٢٢ تأسست شركة مطبعة مصر لتقوم بطبع مطبوعات بنك مصر وشركاته .

وفى الفترة الواقعة بين سنة ١٩٢٤ وسنة ١٩٣٩ زودت مطبعة بولاق آلاتها كلها بمحركات كهربائية ، واستحضرت لها آلات المونوتيب للجمع الأفرنجى .

وأدخلت المطبعة فى سنة ١٩٢٨ طريقة الطبع البارز بالضغط على قوالب محفورة على الصلب ، واقتنت آلة تدور ميكانيكياً للطبع بهذه الطريقة تطبع ١٠٠٠ نسخة فى الساعة.

وفى سنة ١٩٣١ اشترت المطبعة أول آلة انترتيب لجمع الحروف الأفرنجية ، وكما تقدمت مطبعة بولاق تقدمت المطابع الرسمية الأخرى ، وخاصة مطبعة مصلحة المساحة ، وقد نالت مطبوعاتها الدبلوم والميدالية الذهبية فى المعرض الدولى الذى أقيم فى مدينة لييج ببلجيكا سنة ١٩٣٠ وفى غيره من المعارض الدولية . وأدخلت المصلحة طباعة الروتوجرافير لطبع الطوابع البريدية .

أما مطابع الأجانب فقد بدأت تشعر بقوة منافسة المطابع المصرية لها ، وأخذ عددها يتناقص شيئاً فشيئاً . وأخذت مطابع المصريين تنمو وتزدهر الى أن وصلت الى مستوى مطابع الأجانب . وبلغ مجموع المطابع فى مصر سنة ١٩٣٦ ثلاثمائة وتسع عشرة مطبعة . وتعتبر « مطابع محرم » أول من أنشأ صناعة ورق اللعب فى مصر .

وتقدمت كذلك مطابع الصحف ، فأدخلت الأهرام الجمع الآلى العربى فى سنة ١٩٣٢ . وأدخلت اللطائف المصورة طباعة الروتوجرافير سنة ١٩٢٦ . وتأسست مطابع « المصرى » فى سنة ١٩٣٩ ، أى بعد ثلاث سنوات من صدور الجريدة . وهكذا نرى أن معظم الصحف المصرية العربية والأفرنجية أصبحت تطبع فى الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين بطابعات الروتاتيف السريعة .

ولم تتأثر الطباعة فى مصر من الحرب العالمية الثانية ، ذلك أن الحلفاء اعتمدوا على مطابعها ومطابع لبنان فى طبع أوراق الدعاية وما اليها . ولم تتعطل الآلات الطباعية بفضل وجود اخصائيين فى المطابع . واصبحت مطبعة بولاق تضم حوالى ألفى عامل فى سنة ١٩٤٨ ، وتستهلك مالا يقل عن ٣٥٠٠ طن من الورق فى السنة الواحدة . وقامت مطبعة مصلحة المساحة بطبع أوراق النقد الى جانب مطبوعاتها الأخرى . وفى أواخر سنة ١٩٤٥ بدأت مطبعة

جامعة القاهرة نشاطها . ويمكن أن يقال أن المطابع الرسمية فى مصر قد ساهمت مساهمة الأصيل فى النهضة المطبعية التى نلمس آثارها فى كل مكان . وهبط عدد المطابع الأجنبية خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها بسبب منافسة المطابع المصرية لها . واستطاعت دار المعارف أن تضع قوالب جديدة للحرف العربى المونوتيب . وفى مصر اليوم مئات المطابع التجارية التى لا تقل مطبوعاتها عن المطبوعات الأوربية والأمريكية . وتقدمت مطابع الصحف تقدماً كبيراً خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها ، فجلبت طابعات روتاتيف ضخمة وسريعة تستطيع أن تخرج أكثر من مائة ألف نسخة فى الساعة ، كما استوردت مطابع روتوجرافير وأوفست حديثة . وقامت الصحافة بدور هام فى تاريخ الطباعة فى مصر .

نشأة الطباعة فى العراق

أول مطبعة عرفها هذا البلد العربى هى مطبعة حجرية قامت بطبع كتاب « دوحة الوزراء فى تاريخ وقائع الزوراء » فى سنة ١٨٣٠ . ولكن الطباعة لم ترسخ إلا فى سنة ١٨٥٦ حين أسس الرهبان الدومنيكون فى الموصل مطبعة كاملة العدة . وأنشىء فى كربلاء مطبعة حجرية فى سنة ١٨٥٦ أيضاً . وفى بغداد أسس كامل التبريزى مطبعة حجرية فى سنة ١٨٦١ . وأسس الكلدانيون مطبعة فى الموصل سنة ١٨٦٣ . ويلاحظ على مطابع الفترة الأولى أنها كانت قصيرة العمر لعدم اقبال العراقيين على شراء الكتب .

وفى الحقبة الواقعة بين سنة ١٨٦٩ وسنة ١٩١٨ ظهرت المطابع الرسمية ورسخت أقدام مطابع الأفراد . فقد أنشأ مدحت باشا مطبعة الولاية فى بغداد سنة ١٨٦٩ ، وكانت تطبع فيها صحيفة « الزوراء » الرسمية . وكان الى جانب هذه المطبعة مطبعة رسمية أخرى اسمها مطبعة الفيلق أو المطبعة العسكرية . وفى سنة ١٨٧٥ تأسست مطبعة الولاية بالموصل . وفى الربع الأخير من القرن التاسع عشر نشأت بعض المطابع الصغيرة فى العراق . وكانت صحيفة « العرب » فى سنة ١٩١٨ أول صحيفة عراقية تنشر صوراً مطبوعة

بالزنكوغراف ، إلا أن الصور لم تكن واضحة مما يدل على أن هذا الفن لم يكن قد وصل الى نتيجة مرضية .

أما الطباعة فى العراق فى الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين فقد كانت فى تقدم مستمر . ففى سنة ١٩١٧ تأسست مطبعة الحكومة ببغداد . وانتشرت المطابع فى العاصمة العراقية انتشاراً سريعاً . وفى حوالى سنة ١٩٢٥ أنشأت الحكومة مطبعة المساحة وزودتها بطابعات أوفست كانت الأولى من نوعها فى العراق . وعلى العموم فان المستوى المطبعى قد تحسن فى العراق بفضل جهود الحكومة والأفراد .

ولم تصب الطباعة فى العراق خلال الحرب العالمية الثانية بما أصيبت به فى الحرب العالمية الأولى من تأخر . وما كادت الحرب تنتهى حتى خف أصحاب المطابع القديمة يستوردون الآلات الحديثة . وأسست مطابع جديدة قبل نهاية الحرب وبعدها .

نشأة الطباعة فى فلسطين

عرفت فلسطين الطباعة فى سنة ١٨٣٠ حين أنشأ أحد الأجانب مطبعة فى القدس لطبع الكتب الدينية . وفى سنة ١٨٤٦ أسس الرهبان الفرنسيسكان مطبعة كاملة المعدات . ويمكن يقال أن الطباعة لم ترسخ فى الأراضى المقدسة قبل انشاء تلك المطبعة . وحذا حذو الرهبان الفرنسيسكان فى سنة ١٨٤٨ جماعة من الانجليز أسسوا مطبعة بالقدس أسموها مطبعة لندن لانتشار الانجيل بين اليهود . وأنشأ الأرمن مطبعة لهم فى السنة نفسها . وفى سنة ١٨٤٩ أنشأت جمعية القبر المقدس اليونانية مطبعة وضعتها فى مقر البطريركية . وأخذ اليهود بعد ذلك ينشئون المطابع ، ولكن لم تكن واحدة من هذه المطابع جديرة بأن تدعى مطبعة متوسطة . أما المطابع العربية التى ظهرت فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر فكانت مطابع صغيرة لا تعنى إلا بنشر الكتب الدينية . وإن عدم الاستقرار الذى لازم القطر العربى الشقيق منذ الحرب العالمية الأولى جعل الطباعة فيه تتخلف عن الركب .

نشأة الطباعة فى الأردن

كان خليل نصر أول من أنشأ مطبعة فى عمان ، وكان ذلك فى سنة ١٩٢٢ . وفى سنة ١٩٢٦ ظهرت المطبعة الوطنية ، ثم تلتها فى سنة ١٩٣٢ مطبعة الاستقلال العربى . وفى الأردن اليوم مطابع أخرى أقل أهمية من المطابع الثلاث السابق ذكرها .

نشأة الطباعة فى اليمن

أمر بانشاء أول مطبعة فى صنعاء عاصمة اليمن السلطان عبد الحميد الثانى ، وكان ذلك فى سنة ١٨٧٧ . وحتى سنة ١٩٥٢ كانت توجد فى صنعاء مطبعتان .

نشأة الطباعة فى المملكة العربية السعودية

استحضرت الحكومة العثمانية سنة ١٨٨٢ مطبعة تدار بالقدم كانت تعرف باسم مطبعة ولاية الحجاز . وفى سنة ١٩١٩ أسس الشريف حسين مطبعة صغيرة فى مكة لطبع جريدة « القبلة » . وعرفت هذه المطبعة فى عهد الملك عبد العزيز ال سعود باسم « مطبعة أم القرى » ، وأطلق عليها فى سنة ١٩٣٧ اسم مطبعة الحكومة . وتوجد فى مكة مطابع أخرى أقل أهمية من مطبعة الحكومة التى تعتبر من أكبر مطابع المملكة . وفى المدينة المنورة عدة مطابع . ولكن أحدث مطبعة سعودية هى « مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر » التى أنشئت بجدة سنة ١٩٥٢ ، وزودت بأحدث الآلات المطبعية .

نشأة الطباعة فى الكويت

تعتبر مطبعة المعارف أول مطبعة أنشئت فى امارة الكويت ، اذ بدأت نشاطها فى سنة ١٩٤٧ . ويوجد فى الكويت اليوم عدة مطابع متوسطة . وقامت دائرة المطبوعات أخيراً بتشييد مطبعة على أحدث طراز ، وجلبت لها أدق الآلات المطبعية .

الفصل السادس

تكنولوجيا الميكروفيلم
وحاضر الكتاب ومستقبله

الفصل السادس

تكنولوجيا الميكروفيلم وحاضر الكتاب ومستقبله

تكنولوجيا الميكروفيلم :

اكتسبت المعلومات وأوعيتها الكتب والمجلات والدوريات وغيرها طابعاً حيوياً خاصاً في التاريخ المعاصر ، لما يتميز به العصر من كثرة المعلومات والبحوث التي تطرد يوماً بعد يوم في معدلات النشر وتعدد اللغات وتزايد التخصصات الدقيقة في كل العلوم والآداب والفنون فضلاً عن تزايد التعقد في المحتوى الفكري للمعلومات وتنوع احتياجات المستفيدين منها .

ومن ثم فقد برزت قضية هامة حول ضرورة تقنية ورفع كفاءة أساليب اختزان واسترجاع المعلومات للوصول إليها عند الحاجة وبالقدر المناسب . إزاء هذا الفيض الهائل من النشر ونظراً لما يشغله الكتاب أو المطبوع الورقي من حيز فقد أصبحت مشكلة تضخم المكتبات وضيق الأمكنة المخصصة لحفظ الكتب والوثائق ، العقبة الكؤود التي تواجه العمل المكتبي ومراكز التوثيق العلمي وأجهزة الأرشيف . مما فرض استخدام التكنولوجيا المعاصرة المتمثلة في المصغرات الفيلمية المعروفة بالميكروفيلم بأشكالها وتطبيقاتها المتنوعة كأحدث أسلوب لنظم التخزين والتوثيق المعاصر .

وقد تنبهت الدول المتقدمة لأهمية الميكروفيلم في الحفاظ على أوعية المعلومات ولتبادل هذه المعلومات فيما بينها ، مما أدى إلى مزيد من التطور التكنولوجي لرفع كفاءة مختلف أجهزة ومعدات التسجيل الميكروفيلمي بما يتلاءم واحتياجات التاريخ المعاصر من متطلبات متزايدة للوصول إلى أعلى درجات الدقة والتخصص .

ولعل وطننا العربي في هذه المرحلة من مراحل تطوره ، لفي أشد الحاجة إلى الاهتمام بتطبيق هذا المجال الحيوي ، حفاظاً على تراثنا العربي والإسلامي المتمثل

في مئات الألوف من المخطوطات ، وتدعيماً لحاضرنا ، وتأميناً للمستقبل القريب واتجاهاً إلى مواكبة العصر ، لننهل من بطون المعرفة الواردة إلينا من كل بقاع الأرض ، ولكي نبتكر ونضيف أسوة بغيرنا من الدول المتحضرة ، حيث التمدين والحضارة والابتكار والاكتشاف أخذ وعطاء متبادل بين الإنسان وأخيه الإنسان بما هو إنسان .

الميكروفيلم وتطور وسائل حفظ وتداول المعلومات

مما لا شك فيه أن التقدم العلمي والازدهار التجاري والصناعي الذي يعيشه عالمنا اليوم يعتمد أساساً على الكم الهائل من المعلومات المتداولة والمتدفقة من مراكز البحوث العلمية والفنية – كما أن اتساع رقعة المعاملات بأشكالها المختلفة سواء بين المؤسسات والهيئات وبعضها أو بينها وبين الأفراد أو بين الأفراد وبعضهم يحتم توثيق هذه المعاملات ، ونتيجة لهذا تراكمت الوثائق والمستندات وتزايدت في كل مكان بشكل أبرز أمراً خطيراً وهو كيف يمكن استرجاع معلومة معينة مسجلة على مستند بذاته من أرشيف يحتوي على كم هائل من المستندات والوثائق والتي أحياناً تكون غير منظمة بالقدر الكافي الذي يسمح بالوصول إلى الوثيقة المطلوبة في الوقت المناسب .

وفي المجتمعات المتخلفة والنامية يزداد تراكم أوعية المعلومات المتمثلة في الكتب والمجلات والدوريات وتظهر مشاكل التخزين والتزويد مع ازدياد التراكم نتيجة جهل كثير من الهيئات بأهمية الأرشيف كمصدر أساسي للمعلومات الدقيقة الصحيحة بجانب عدم الأخذ بأهمية اختيار الموظفين الأكفاء للإشراف عليه بل أصبح من المعروف أن بعض الهيئات تضع الموظفين المغضوب عليهم أو الغير أكفاء للعمل بالأرشيف . وهكذا أصبح بعض المسئولين يعتمدون في إدارة شئون عملهم على معلومات من ذاكرتهم أو من أرشيف خاص بهم محدود الطاقة ويحتوي على الوثائق والمستندات الهامة بالنسبة لهم فقط – وهكذا أصبح

نجاح وتقدم الهيئة أو المؤسسة يعتمد إلى حد بعيد على قدرات وكفاءات المسئولين – وقد ينقلب الحال بتغير هؤلاء المسئولين بالأقل منهم كفاءة مع أن النجاح مرتبط بخطط وسياسات مدروسة مبنية على استمرار تدفق المعلومات الدقيقة والتي قطعاً يجب أن يكون مصدرها الأرشيف الدقيق المنتظم والذي يديره موظفين أكفاء – والمشكلة قد تكون أعظم في المصانع الإنتاجية فقد تتعطل آلة أو خط إنتاج ويسعى مهندس الصيانة والإصلاح للحصول على الرسومات الهندسية الخاصة بهذا الخط الإنتاجي ويطول البحث في أرشيف غير منظم في حين تحسب كل دقيقة توقف عن الإنتاج بخسارة مالية كبيرة ما كانت تحدث لو أن هناك نظام دقيق لحفظ المعلومات .

وإذا ما كانت هذه هي المشكلة – إذن ما هو الحل ؟

لقد عرفت المجتمعات المتقدمة الحل الذي يساعد دائماً على التقدم أو النجاح من خلال نظام معلومات كفؤ يوفر المعلومات للمستفيدين في الوقت المناسب وبناء عليها يستطيع أن يتخذ القرار الصحيح . وكان هذا الحل هو وضع نظام المعلومات المتكامل وتسجيل الوثائق والمستندات على الميكروفيلم . ولكن لماذا الميكروفيلم ؟

الإجابة على هذا السؤال بدقة تتطلب أن نتعرف بشكل مركز على ما هو الميكروفيلم وأن نتناوله بالتفصيل لكي نعرف أهميته كوسيلة حفظ وتداول .

والميكروفيلم(١) كما يتضح من اسمه عبارة عن أفلام صغيرة قد تكون من خامات هاليدات الفضة ولكن لها صفات خاصة مميزة للاستخدام في هذا المجال أو من خامات غير تقليدية ابتكرت خصيصاً لتغطية احتياجات إنتاج الميكروفيلم بأشكاله ومقاساته المختلفة .

ويتم تسجيل الوثائق على الشكل الميكروفيلمي المناسب بنسب تصغير عالية

---

(١) الكلمة العربية المستخدمة لكلمة Microfilm هي المصغرات الفيلمية .

بواسطة أجهزة التسجيل الميكروفيلمي[١] ثم تتم عملية الإظهار والمعالجة لهذه الأفلام لتظهر الصور المصغرة للوثائق على الفيلم الذي يكون في هذه الحالة فيلم سالب تنعكس عليه القيم اللونية للوثيقة ونعني بالقيم اللونية الأبيض والأسود أو الفاتح والقاتم ولا نعني ألوان الوثائق حيث أن الخامات المستخدمة عادة من النوع الأبيض والأسود مع العلم بأن الميكروفيلم الملون لا يستخدم للمستندات العادية حتى ولو كانت ملونة ولكنه يستخدم في حدود ضيقة للغاية لتسجيل الموضوعات التي يكون اللون فيها ممثلاً لمعلومة يتغير معناها لو سجلت أبيض وأسود .

ومن هذا الفيلم السالب الأصلي عادة ما يتم نسخ فيلم سالب بديل ليحفظ في مكان بديل لمكان الفيلم الأول كعملية أمان لحفظ المعلومات المسجلة على هذه الأفلام ، كما يتم عمل عدد من النسخ الموجبة تناسب العمل وتحقق سهولة تداول ونشر المعلومات المسجلة عليها . وبعد عمليات فحص دقيقة للتحقق من صلاحية وكفاءة التسجيل توضع الأفلام في مكتبة ميكروفيلمية مزودة بأجهزة القراءة وأجهزة القراءة الطابعة التي تعمل على تكبير صور الوثائق على شاشة بمساحة مناسبة للقراءة وللطبع على نسخة ورقية يمكن الاحتفاظ بها خارج المكتبة .

ومن الجدير بالذكر أن عملية الإنتاج الميكروفيلمي نفسها تسمى التصوير المصغر Microphotography وهي تعني نقل التفاصيل مع تصغيرها بنسب كبيرة جداً على فيلم حساس يجب أن يتميز بالصفات التي تجعله قادر على

(١) تعتبر كلمة تسجيل ميكروفيلمي أدق من كلمة تصوير ميكروفيلمي لما تحمله كلمة تسجيل من معنى الدقة في حين أن كلمة تصوير تحمل في معناها فن التصوير بما يحمل ، من عناصر جمالية لا تكون هي المطلوب الأول في الإنتاج الميكروفيلمي . أما أجهزة التسجيل الميكروفيلمي فهي معدات تصوير من أجزائها الكاميرا ونظام الإضاءة ولكن ينطبق عليها لفظ أجهزة التسجيل لأنه أدق من لفظ تصوير في مجال الإنتاج الميكروفيلمي .

تسجيل التفاصيل الصغيرة بكفاءة عالية - وليتحقق هذا يجب أن تتوفر عناصر أساسية يمكن أن نوجزها في النقاط التالية :

١ - خامات حساسة للضوء ذات حبيبات دقيقة للغاية وقوة تحديد مرتفعة جداً وتباين مرتفع نسبياً .

٢ - أجهزة تسجيل ذات نظام بصري كفاءته عالية جداً من حيث تجنب عيوب العدسات ودقة عالية لضبط حدة الصورة ونظام دقيق لضبط معدل التعريض .

٣ - نظام معالجة معملية قياسي من حيث التحكم في ظروف الإظهار والمعالجة الكيميائية في المراحل التالية للإظهار .

فوائد استخدام المصغرات الفيلمية

١ - الحفـظ والأمـان :

يمكن بسهولة تحقيق هذا الهدف بعمل النسخ البديلة من الميكروفيلم وحفظها في أماكن مختلفة لمواجهة احتمالات الفقد لأحد هذه النسخ نتيجة أي سبب مثل الحريق أو الفيضان أو الدمار أو حتى التداول والاستخدام الطبيعي . وفي حالة حدوث تلف أو تدمير لأحد النسخ يمكن الحصول على النسخة الميكروفيلمية المحفوظة في المكان البديل لطبع نسخة بديلة بتكاليف زهيدة بالقياس لحجم الخسارة التي كان يمكن أن تحدث لو أن هذه التي تلفت دمرت كانت هي النسخة الوحيدة سواء ميكروفيلمية أو ورقية . وتتزايد أهم هذه العملية لزيادة أهمية المعلومات المسجلة على الوثائق فقد تكون القيمة الأدبية أو العلمية أكثر بكثير من أن تقدر بثمن مادي وبالتالي فإن عمل نسخ ميكروفيلمية لهذه الوثائق وعمل نسخ بديلة لحفظها في أماكن تبادلية يكون هو الأسلوب العلمي الوحيد لتوفير أكبر قدر من الأمان وبأقل التكاليف وخاصة أن هذه النسخ تحتاج إلى حيز حفظ صغير جداً بالقياس لحيز الحفظ المطلوب

لحفظ الوثائق الورقية وهذا بالتأكيد سوف يسهل الرقابة والأمن لأماكن الحفظ ، هذا بالإضافة لميزة الأعمار الافتراضية التي تتوفر للتسجيلات الميكروفيلمية حيث يمكن بسهولة عمل نسخ جديدة في حالة جيدة كلما استهلكت نسخة نتيجة للاستخدام أو التداول وهذه ميزة لا تتوفر للوثائق الورقية التي لا مفر من استهلاكها بكثرة الاستخدام وبالتالي يصعب عمل بدائل لها بعد ما تستهلك وبالبديهي فإن عمل نسخ ورقية بأسلوب التصوير بديلة للنسخ الأصلية سوف يتسبب في مشكلة إيجاد مكان للحفظ يستوعب النسخ الورقية البديلة .

٢ - توفير حيز الحفظ :

إذا عرفنا أن نسبة الوفر في أماكن الحفظ باستخدام الميكروفيلم كبديل للوثائق الورقية يصل إلى ٩٨ في المائة من المساحة الأصلية فإننا بسهولة سوف نتصور ما يعود علينا من فوائد من هذه الميزة . بالإضافة لميزة سهولة توفير الحماية والأمان لحيز الحفظ الصغير ، فإن هناك أيضاً الفائدة الاقتصادية التي ستتحقق من توفير المساحة الكبيرة التي يشغلها الأرشيف الورقي التقليدي ، وهذه الميزة تظهر واضحة للغاية خاصة في الأماكن التي تندر فيها المساحات المتوفرة للاستخدام ، وحيث تكون القيمة المادية لهذه المساحات مرتفعة للغاية .

وبالتالي فإن الزيادة المضطردة في حجم المعلومات والحاجة المستمرة لإيجاد مساحات جديدة لحفظ الوثائق والمستندات الورقية لن يواجهها غير استخدام الميكروفيلم كحل لهذه المشكلة .

٣ - سهولة النشر والتداول :

لقد حقق استخدام الميكروفيلم عديد من المميزات في عملية نشر وتداول المعلومات المسجلة عليه ما كانت تتحقق إذا بقيت الوثائق والمستندات على

شكلها الورقي التقليدي . فلو تصورنا مثلاً شركة منتجة لسلعة هندسية لها عدد من مراكز التوزيع ومراكز الصيانة موزعة في أماكن كثيرة سواء في دولة واحدة أو في دول مختلفة . وبالطبع فإن هذه الشركة تحتاج لإرسال كتالوجات الدعاية والتشغيل والصيانة والكتالوجات الفنية وغيره من المطبوعات الخاصة بمنتجاتها إلى مراكزها المختلفة ، فلو استخدمت هذه الشركة الأسلوب التقليدي في طبع كل هذه المعلومات على ورق بعدد النسخ المطلوبة وعملت على شحن هذه المطبوعات إلى فروعها ، فإننا بسهولة نستطيع أن نقدر أن تكاليف عملية الطباعة على ورق وعملية شحن هذه المطبوعات ذات الوزن والحجم الكبير لابد أنها ستكون أكثر بكثير جداً من تنفيذ هذه العملية بواسطة الميكروفيلم حيث يمكن تسجيل كل كتالوج على شريحة ميكروفيلمية صغيرة ثم نسخ العدد المطلوب من النسخ بواسطة أجهزة نسخ ميكروفيليمي سهلة وسريعة وبتكاليف زهيدة وبالتالي فإن إرسال هذه الشرائح بالبريد سوف يكون أسهل وأقل بكثير في النفقات وأسرع في الوصول وأقل في الإجراءات من النسخ الورقية .

ولهذا السبب فعلاً اتجهت كثير من الشركات العالمية لاستخدام الميكروفيلم بدلاً من الطبعات الورقية في نشر معلوماتها .

وينطبق نفس الأمر على المراكز العلمية والمكتبات والبنوك وخلافه من المؤسسات التي تحتم طبيعة عملها عملية نشر واسعة للمعلومات بينها وبين فروعها وبين مؤسسات أخرى .

وهناك مثل آخر يمكن أن يبين ما يقدمه الميكروفيلم من مميزات لسرعة تداول المعلومات على مستوى مؤسسة أو هيئة واحدة داخلياً . فقد جرت العادة على أن يكون لكل مؤسسة أو هيئة أو خلافه أرشيف مركزي يجمع كل الوثائق والمستندات فلو كانت إدارات ووحدات هذه الهيئة منتشرة على مساحة واسعة أو في مبنى ذا أدوار عديدة فإن كل من يحتاج إلى معلومات من الأرشيف المركزي عليه أن يتحرك إلى الأرشيف أو يرسل من يحضر له هذه المعلومات أو في أحسن الفروض يطلبها في التليفون .

ومما لا شك فيه أن هذا الأسلوب لن يوفر على الإطلاق سرعة وصول المعلومات إلى من يطلبها بل قد يتسبب هذا الوضع في بعض التكاسل أو التراخي في طلب المعلومات وقد تتسبب المشقة المبذولة إلى تأجيل طلبها لوقت آخر . وكل هذا سوف يؤثر بالتأكيد على أداء وفاعلية العمل واتخاذ القرار السريع في الوقت المناسب .

لو تصورنا بديلاً لهذا الأرشيف التقليدي مكتبة ميكروفيلمية في مكان مركزي أيضاً لأغراض الخدمة العامة بالإضافة لنسخة ميكروفيلمية أخرى لكل إدارة أو وحدة تحمل المعلومات الخاصة بها مع ملاحظة أن حفظ هذه النسخة لن يمثل أي مشكلة من حيث حيز الحفظ لصغر المساحة المطلوبة . وبالتالي فإن أي مسئول يستطيع أن يجد المعلومات التي يطلبها في متناول يديه في أي وقت يشاء وبدون أي عائق فإن ذلك بدون شك سوف يرفع من كفاءة أداء هذه المؤسسة أو الهيئة بالكامل ولهذا السبب قلما توجد حالياً مكتبة جامعة أو مؤسسة أو هيئة في الدول المتقدمة لا تستخدم الميكروفيلم في تداول المعلومات داخلياً بدلاً من الوثائق الورقية التقليدية .

٤ - سرعة وسهولة استرجاع المعلومات :

لكي يجدي نظام استخدام الميكروفيلم كبديل للوثائق الورقية ويعطي الفاعلية الكاملة فإن الأسلوب العلمي للعمل يحتم أن يتم عمل تنظيم وإعداد للوثائق ، بمعنى آخر يجب قبل تنفيذ عملية التسجيل الميكروفيلمي أن يتم حصر الوثائق واستكمال أي وثائق ناقصة واستبدال الوثائق السيئة بنسخ أخرى صالحة إن أمكن ذلك أو عمل ترميم وإصلاح للوثائق التي بها تلف وهذا أمر هام يوصف الحيوية واللازمة لنجاح استرجاع المعلومات من الميكروفيلم ، ألا وهو عمل تصنيف وفهرسة للوثائق وتصميم نظام معلومات مناسب لنوع المعلومات التي تتضمنها الوثائق ، بحيث يسمح هذا النظام بوجود علاقة ارتباط وتنسيق بين الوثائق وبعضها البعض ، وبحيث يمكن إضافة أي معلومات جديدة على الموضوع الواحد دونما أي ارتباك للنظام ، وعلى هذا الأساس يمكن عمل

الفهارس المناسبة لطلب معلومة معينة ، وتحديد موقعها من مجموعة التسجيلات الميكروفيلمية .

فإذا ما توفر هذا الأسلوب العلمي للعمل الميكروفيلمي فإن النتيجة ستكون إمكانية الوصول للمعلومات المطلوبة في وقت يسير للغاية حيث يمكن قراءتها من الميكروفيلم بواسطة جهاز القراءة الذي يقوم بتكبير صورة الوثيقة على شاشة الجهاز كما يمكن الحصول على نسخة ورقية بواسطة جهاز القراءة الطابع ومن الجدير بالذكر أنه في حالة توفر نظام جيد للمعلومات المسجلة على الميكروفيلم فإن الحصول على أي معلومة (صورة الوثيقة على شاشة جهاز القراءة) يمكن أن يستغرق زمن في حدود دقيقة واحدة وما لايزيد عن دقيقتين من لحظة البحث عن المعلومة المطلوبة في الفهرس إلى لحظة الحصول على نسخة ورقية بواسطة جهاز القراءة ، ماراً باستخراج الميكروفيلم من دولاب الحفظ الخاص بالأفلام ، ثم وضعه على جهاز القراءة ، ثم تشغيل الجهاز لوضع الصورة الميكروفيلمية أمام عدسة الجهاز لنحصل على صورة مكبرة على الشاشة ، ثم الضغط على زر الطبع ، ثم خروج النسخة الورقية المطبوعة من الجهاز .

ولقد قدمت التكنولوجيا الحديثة لاسترجاع المعلومات من الميكروفيلم كثير من الابتكارات لتحقيق سهولة وسرعة الاسترجاع بواسطة عمليات تسجيل كود أو شفرة معينة على جانب من صورة الوثيقة أو مجموعة الوثائق المطلو بتحديد الكود أو الشفرة المميزة لها والضغط على الأزرار التي تحمل ا الشفرة على الجهاز . إلا أن التعرف على هذا الكود يكون بواسطة الفهارس التي تربط بين التسجيلات الميكروفيلمية والكود أو الشفرة المحددة لكل معلومة مسجلة عليها .

كما تقدم التكنولوجيا الأكثر تقدماً لاسترجاع المعلومات المسجلة على الميكروفيلم إمكانية طلب المعلومة من جهاز الحاسب الآلي ذا الطاقة المحدود ، ليقوم بتحديد الشفرة ، وبمجرد وضع الميكروفيلم المحدد في مكانه في جهاز القراءة المتصل أيضاً بنفس الحاسب الآلي ، يعمل هذا الجهاز مباشرة لتظهر

صورة الوثيقة المطلوبة على شاشة الجهاز ، ويمكن أن يستمر الانتقال من صورة الوثيقة إلى أخرى تبعاً للمعلومات المخزونة في ذاكرة الحاسب الآلي .

وبمقارنة أساليب استرجاع المعلومات من التسجيلات الميكروفيلمية بأي أسلوب لاسترجاع الوثائق والمستندات من الأرشيف التقليدي فإننا سوف نجد فرقاً كبيراً في السهولة والسرعة والدقة ، ومهما توفر للأرشيف التقليدي من نظام ودقة في أسلوب الحفظ فإن عنصر حيز الحفظ ومساحة الوثائق نفسها وحتى إذا غضضنا النظر عن أي عناصر أخرى سوف يسببان فرقاً كبيراً لو تمت المقارنة حتى لو كان الأسلوب المستخدم يعتمد على النظام اليدوي البسيط وبدون استخدام حاسب آلي .

٥ – حل مشكلة الفرق بين سرعة مدخلات ومخرجات الحاسب الآلي :

الحاسب الآلي يخدم نظم استرجاعت المعلومات من الميكروفيلم والميكروفيلم يخدم أيضاً نظم الحاسبات الآلية حيث كان هو الحل لمشكلة فرق السرعة بين مدخلات ومخرجات الحاسب الآلي . حيث أنه من المعروف أن الحصول على المعلومات المحملة على الأشرطة الممغنطة يتم بواسطة وحدة الطبع التي تقوم بطبع هذه المعلومات على ورق ، والمشكلة هي أن سرعة عملية الطبع على ورق أبطأ كثيراً من إدخال المعلومات للحاسب وتحميلها على الأشرطة الممغنطة . وبواسطة النظام المسمى Com-Computer output Microfilm Systems أمكن الحصول على المعلومات من الشريط الممغنط أو من الحاسب الآلي مباشرة على شكل من الأشكال الميكروفيلمية ، قد يكون الفيلم الملفوف مقاس ١٦ مم أو الشرائح متعددة الكادرات Microfiche ، وبسرعة تسجيل عالية جداً بالمقارنة بالنظام التقليدي الذي يتم فيه تسجيل هذه المعلومات على ورق ، بواسطة وحدة الطبع تزيد سرعة تسجيل مخرجات الحاسب على الميكروفيلم أكثر من ٢٠ مرة في حالة التسجيل بواسطة وحدة الطبع كما أنها تصل إلى ٥٠٠ مرة عن سرعة وحدة الرسم .

ما سبق هو حصر لمميزات استخدام المصغرات الفيلمية ، لذا يجب أن نتنبه لأمر هام للغاية وهو - هل هذه المميزات سوف تتحقق بمجرد تسجيل الوثائق على هذه المصغرات الفيلمية - وهنا الخطأ الذي يقع فيه الكثيرين ممن أدخلوا الإنتاج الميكروفيلمي في عملهم دون الإعداد المناسب لهذه العملية من حيث تنظيم الوثائق الورقية أولاً .

حيث أن نقل المعلومات من الوثائق الورقية إلى المصغرات الفيلمية بدون عمليات تنظيم دقيقة للوثائق وما تحويه من معلومات ، وعلى أساس قواعد علمية ، وعلى أن يربط هذا التنظيم بين الوثائق وبعضها وما تحويه من معلومات ، مع وضع أسلوب الاسترجاع المناسب لنوع المعلومات التي تحملها هذه الوثائق ، وتجهيز الفهارس المناسبة قبل تحميل المعلومات على المصغرات الفيلمية يمكن أن تكون هذه العملية لها من الضرر أكثر مما لها من المميزات والفوائد .

فلو تصورنا كوماً من الوثائق الغير منظمة نحتاج وثيقة واحدة فإننا يمكن أن نصل إليها بشكل ما بغض النظر عن الزمن الذي ستستغرقه عملية البحث وهو بالتأكيد سوف يكون زمن طويل نسبياً .

ولكننا لو حاولنا البحث عن صورة هذه الوثيقة على المصغرات التي تم التسجيل عليها دون تنظيم للوثائق فإننا بالتأكيد سوف نتلف أو ندمر مجموعة الأفلام قبل أن نصل إلى صورة الوثيقة المطلوبة .

والميكروفيلم كحامل جديد للمعلومات بدلاً من الورق . ولكي يحة المميزات السابق عرضها فقد تعددت أشكاله لتناسب أنظمة المعلومات المختلد وتعددت أساليب إنتاجه لخدمة مئات الأعمال والمجالات في جميع أنحاء العالم .

حاضر الكتاب ومستقبله :

الكتاب أعظم الإنجازات البشرية عبر العصور ، وقد ازدادت أهمية في العصر الحاضر بعد تطور وسائل الطباعة والتكنولوجيا تطوراً مذهلاً سريعاً . والكتاب

هو الأمانة العظيمة التي يحملها كل جيل من الناس للأجيال التالية وكما فعلت الأجيال السابقة . فالامانة أن يقوم كل جيل بنقل ما ورثه من تراث أدبي وعلمي وفني عن تلك العصور وذلك بأسلوب جديد وعرض جديد يتلاءم مع الظروف المحيطة بالشعوب . وبهذه الطريقة تصل كل أمة ماضيها بحاضرها . وتجعل من جهود أسلافها في شتى العصور سلسلة متصلة الحلقات يمكن أن تعطي صورة دقيقة من حضارتها التي تميزت بها عن سائر الحضارات .

وطالما أن الكتاب يعتبر أهم مصادر المعرفة والثقافة وهو قبل أن يصل إلى أيدينا يمر بمراحل عديدة يتنقل فيها بين أيد مختلفة من مؤلفين وكتبة ومنسقين ، ومصورين وخطاطين وطبّاعين ومجلدين ، يضع كل منهم لبنة في سبيل تكوينه حتى ينتهي إلى الصورة التي نعرفه بها ، لست هنا بصدد التحدث فيما تنطوي عليه صفحاته من دين أو علم أو أدب أو تاريخ أو فن ، بل يدور بحثنا حول تطور صورته وتطور مواد صنعه في المستقبل تقريب استشفافاً واستدلالاً من تطوره التاريخي .

حيث مازال المعاصرون يؤكدون أن الكتاب هو وسيلة الاتصال الجماهيري التي تؤثر على حياة البشر جميعاً . فالكتاب ينقل الكثير من تراث الماضي . ولا تستمر حياة الأمة التعليمية والمهنية والاجتماعية بغير الكتاب . فالمعلمون والطلبة يجدون في الكتب المدرسية المقررة المعرفة الشاملة بالتاريخ والفلسفة والعلم والآداب والعلوم الاجتماعية التي تجمعت وتراكمت على مر العصور . والإنسان في كل عمل من أعمال الحياة يقرأ حتى يظل على صلة قوية بما يجري حوله في العالم السريع التغير من حوله ، وليجد إيحاءاً واستجماماً ولذة ، وليكتسب معرفة . والكتب ، بغير شك ، تفسر وتوضح كلّ وجه من أوجه النشاط . وكانت الكتب الخلاقة من السمات الرئيسية المميزة التي قيست بها كل حضارة عالمية تالية . فالكتب السماوية كانت النبراس المضيء للشعوب للهداية والعلم والعمل ، كما كان الفكر البشري الخالص هو المرآة التي رأى فيها الإنسان العقل إمكانياته ، لقد عكست أعمال أفلاطون وأرسطو فلسفة الحياة الأغريقية ، بل أضاءت الطريق لمن عاشوا بعدهم هذه الحياة . ولقد فحص المؤرخون

وأصحاب الدراسات الإنسانية الأدب الإبداعي ، كما فحصوا معالم الحضارة لكي يعرفوا حياة كل شعب في زمن معين ومكان معين .

إن عالم الكتب هو أكبر انجازات الإنسان ، فلا شيء غير الكتب يبقى نفس البقاء . فالنُصُب تنهار وتسقط ، والأمم تهلك ، والمدنيات تنمو وتزدهر ثم تذوي وتموت .. يعم الظلام حتى تأتي أجيال جديدة تعيد البناء الحضاري . ولكن في عالم الكتب نقع على مخطوطات قديمة مازالت شابة وجديدة رأت النور لأول مرة .

يقول أستاذنا الدكتور زكي نجيب محمود أن الكلمة تجمع في طبيعتها بين فن التعبير وفن التشكيل في آن معاً . بمعنى أن العمل الفني على إطلاقه إما أن يكون ذا طبيعة زمنية ، بمعنى أن القطعة الفنية لابد لها أن يمتد استعراضها لدى المتلقي فترة زمنية معينة ، كالمعزوفة الموسيقية ، أو قصيدة الشعر أو الرواية ، أو المسرحية . فهذه كلها أشياء لا تكفيها لحظة زمنية خاطفة ، ليلم المتلقي بكل أجزائها دفعة واحدة ، بل لابد لها من فترة تمضي منذ يبدأ سماعها أو مشاهدتها إلى أن ينتهي . وإما أن يكون العمل الفني ذا طبيعية (مكانية) ، وذلك عندما يكون معروضاً كلية دفعة واحدة في رقعة مكانية واحدة ، وعندئذ تكفيه اللحظة من المتلقي ليعلم كل ما هنالك ، حتى ولو احتاج بعد ذلك إلى تحليل العناصر المكونة له تحليلاً متأنياً ، وذلك هو الموقف بالنسبة إلى صورة أو تمثال . ولقد اصطلحنا على أن نطلق على أن العمل الفني ذي الطبيعة الزمنية اسم (الفن التعبيري) ، وعلى العمل الفني ذي الطبيعة المكانية اسم (الفن التشكيلي) .

وكل وسيلة من الوسائل الثقافية إما أن تقع في مجال التعبير أو في مجال التشكيل إلا (الكلمة) فهي تشكيل وتعبير معاً . ويشرح لنا هذه الفكرة الباهرة بأننا نستطيع أن نتبين صوراً أربع في حياة الكلمة . فهي في صورتها (المنطوقة) مصنوعة من موجات يهتز بها الهواء ، وفي صورتها المسموعة ذبذبات في جهاز السمع ، وفي صورتها المكتوبة كتلة من مادة – كالمداد أو

الرصاص أو الطباشير – كأية كتلة مادية أخرى في الطبيعة ، ثم هي في صورتها (المقروءة) ذبذبات في جهاز الأبصار . وواضح أن لكل من هذه الصور مميزاتها الخاصة ، على أن هذه الصور الأربع – عادة – تقترن معاً اثنتين اثنتين ، فإذا كانت (منطوقة – مسموعة) كانت أدخل في مجالت التعبير ذي الطبيعة الزمنية ، وأما إذا كانت (مكتوبة – مقروءة) فهي عندئذ أدخل في الفن التشكيلي ذي الطبيعة المكانية . ويمضي الدكتور قائلاً : « أن بيننا اليوم من أخذ يتساءل فيم عناء الكتابة والقراءة في عصر أصبحت فيه أشرطة التسجيل الصوتي بهذا اليسر كله وهذا الشيوع كله . ويجيب على ذلك بأنه لا ثقافة إلا إذا كان هناك كتاب ، إلا إذا كانت كتابة وقراءة . لماذا ؟ لأننا ننظر في حياة الناس الثقافية كلها . فلا نكاد نرى موقفاً واحداً لا يتضمن الكتاب (أو قل « الكتابة ») بطريق غير مباشر ، حتى وسائل التسجيل الصوتي نفسها ، يندر جداً ألا تكون مسبوقة بنص مكتوب ، قرأه قارىء ليتم التسجيل . يضاف إلى ذلك أن عملية الكتابة والقراءة منطوية على خصائص ذات أثر في التكوين الثقافي ، مما يستحيل أن يتحقق لو اكتفينا بالصوت المسموع وحده ، وذلك لأن العملية الرمزية التي تؤديها الحروف والكلمات والجمل – عندما تكون مكتوبة ثم مقروءة – تتضمن حركة عقلية لا تتوافر للإنسان ألا وهو في درجة عليا من درجات النماء والتطوير ؟ وأما الصوت وسماعه ، في قدرة الطفل منذ العام الأول بل هي قدرة في طبيعة الحيوان ، وحين يقول القائلون عن الإنسان أنه يتميز دون سائر الحيوان باستخدامه للرموز ، فهم إنما يعنون ، ثم هم يشيرون في تلك الرموز اللغوية إلى الرموز المكتوبة المقروءة أول ما يشيرون ، وذلك لأن عملية الكتابة (فالقراءة) فيها من التحليل والتركيب أكثر جداً مما تتضمنه من ذلك عملية النطق (فالسمع) ، ففي وسع الطفل ذي العامين أن يسمع جملة كاملة ثم ينطق بها دفعة واحدة ، مع أن هذه الجملة نفسها لا تستطاع كتابتها إلا بعد إدراك تحليلي لكلماتها وحروفها ، أي أنه لابد من معرفة الأجزاء الأولية وطرائق تركيبها . ونضيف إلى فاعلية العقل في عملية التحليل والتركيب أثناء الكتابة والقراءة فاعلية عقلية أخرى ، ليس لها ما

يوازيها في التلقي عن طريق السمع إلا إلى حد ضئيل ، وأعني بها ذلك الحوار الصامت الذي ينشأ بين القارىء والكاتب ، وأما في حالة الاستماع إلى إذاعة ، فالسامع أقرب إلى واقف مر به قطار ، أطل من نافذته راكب يتكلم ، فإما سمعه ووعاه ، وإما ضاعت منه الفرصة إلى الأبد . ولم أقل شيئاً عن المادة العلمية حين تكون متصلة ومستفيضة ، وحين تكون مكتوبة في أرقام ومعادلات واحصاءات وخرائط ، وحين يكون الموضوع عن فن التصوير والنحت والعمارة ، وحين يكون الكتاب معجماً أو موسوعة أو أي مرجع آخر نلجأ إليه حيناً بعد حين » .

إن الكتاب بشكله المعاصر ماض في طريقه ولا أعتقد أن تطور الأجهزة السمعية والبصرية خلال العشرين عاماً المقبلة قد يكون تطوراً كبيراً إلى الحد الذي تتوقف له كل المطابع وبالتالي كل الكتب أو بمعنى آخر تتوقف القراءة حتى ولو تم التعليم بتلك الوسائل فالحرف مكتوب والكلمة مكتوبة والعبارة مكتوبة . فهل يمكن أن تقرأ الفلسفة على الشاشة مثلاً ؟ لن نتعلم الهندسة الوصفية أو المعمارية على شاشات الكمبيوتر ولن نستطيع تعليم الأجيال كل العلوم والمواد المستحدثة عن طريق الأجهزة المساعدة دون الكتاب . إن استمرارية الكتاب في العشرين سنة الماضية لم تسجل هبوطاً في نسبة المطبوع من الكتب ولا في نسبة توزيعها . بل العكس ، تضاعفت الأرقام وازدادت القوة الشرائية .

وهنالك فارق كبير على الأقل في الوقت الحاضر بين ما نتلقه عن طريق القراءة الفردية وما نتلقاه عن طريق الأجهزة السمعية والبصرية .. تلك الأجهزة التي تؤكد على تأصيل عادة القراءة كعادة حضارية أو متحضرة . وهناك تساؤل هل يمكن مثلاً استبدال القواميس بشيء آخر . ولا ننسى (الكتب السماوية) الباقية كما هي على الرغم من نشرها بالوسائل السمعية والبصرية الأخرى .

قد تختلف الدول التكنولوجية عن دول العالم الثالث . ذلك أن الوفرة الاقتصادية تجعل المواطن في غنى إلى حد ما عن الكتاب الذي استبدله بالأجهزة

الحديثة . وهذا ما يدعو الناشرين إلى تغيير شكل الكتاب التقليدي ونشره في شرائط تسجيل سمعية أو فيديو أو « فيلم » . أما في الدول النامية فالكتاب يحتفظ بمتعته وفائدته حتى وإن ظل على شكله التقليدي .

وإذا ما كانت الكتب تتحول الآن إلى شرائط الميكروفيلم ، لكن هذا التحول هدفه الحفظ والتداول وليس القراءة ، أي أن الميكروفيلم مرحلة تأتي بعد صدور الكتاب ، أو هي مرحلة نتيجة لنشر الكتاب . وعلى الوجه الآخر لماذا لا ننظر إلى الكتاب يتفاؤل على اعتبار أن التعليم في تطور مستمر ، وأن عد المتعلمين في تزايد . وبالتالي فإن عدد القراء يتزايد وهذا يدعو إلى توفير الإمكانيات . ولقد اخترعت ماكينة طباعة وتجهيز الكتاب بحيث تطبع وتقص وتجلد ٢٠ ألف نسخة من كتاب عدد صفحاته يصل إلى ٣٠٠ صفحة في ساعة واحدة .

إن ما نأمله في كتاب المستقبل الوفرة في عناوين الكتب والتوفير في الحجم والحيز الذي تشغله هذه الكتب . أضف إلى ذلك الوضوح وسهولة القراءة ، فالتطور سنة الوجود وقانون الحياة ، وخروج الجديد من قلب القديم شيء نألفه ولابد أن ينطبق ذلك على الكتاب في تاريخه الطويل من حيث الشكل والمضمون ، والتساؤل كيف ؟ ذلك ما تجيب عنه الأجيال القادمة وفق ظروفها واحتياجاتها .. فالقضية الحقيقية هي حاضر الكتاب وكيف نثريه ونجوده ونحسن ظاهره وباطنه وهذه القضية إذا نجحنا في تجاوزها وعبورها ، نكون قد انتقلنا إلى المستقبل المنشود .

أهم مراجع الكتاب ومصادره

أهم المراجع العربية

١ - د. أحمد حسين الصاوي : **طباعة الصحف وإخراجها** - الدار القومية ١٩٦٦ .

٢ - إبراهيم إمام : **الإعلام والاتصال بالجماهير** - الأنجلو - القاهرة ١٩٧٥ .

٣ - أريك دي جروليه : **تاريخ الكتاب** - ترجمة : د. خليل صابات - مكتبة نهضة مصر - القاهرة .

٤ - أنتوني طومسون : **معجم المصطلحات المكتبية** - ترجمة : محمد أحمد حسن ، أحمد كايش ، الشنيطي - شعبة اليونسكو - القاهرة ١٩٦٥ .

٥ - د. السيد عبد العزيز سالم : **تاريخ العرب قبل الإسلام** (جزء أول) - مؤسسة شباب الجامعة .

٦ - د. الطاهر أحمد مكي : **دراسة في مصادر الأدب** (جزء أول) - دار المعارف ١٩٧٠ .

٧ - الفريد هيسيل : **تاريخ المكتبات** - ترجمة : د. شعبان خليفة - دار الثقافة - القاهرة ١٩٧٣ .

٨ - القلقشندي : **صبح الأعشى في صناعة الإنشا** - عرض وتحليل : د. عبد اللطيف حمزة - أعلام العرب - الهيئة العامة للكتاب .

٩ - جورج سارتون : **تاريخ العلم** (الجزء الثالث) - دار المعارف - ترجمة : د. إبراهيم مدكور وآخرون ١٩٥٨ .

١٠ - د. حسام عبد الحميد محمود : **تكنولوجيا صيانة وترميم المقتنيات الثقافية** - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ .

١١ - حسن سعفان شحاتة : **التليفزيون والمجتمع** - مطبعة دار التأليف - القاهرة ١٩٦١ .

١٢ - حسنين عبد القادر : **الرأي العام والدعاية وحرية الصحافة** - دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٦٢ .

١٣ - د. خليل صابات : **تاريخ الطباعة في الشرق العربي** - دار المعارف ١٩٦٦ .

١٤- د. خليل صابات : **وسائل الاتصال نشأتها وتطورها** - الأنجلو - القاهرة ١٩٧٩ .
١٥- د. جمال مختار : **الحضارة المصرية القديمة** - المطابع الأميرية - القاهرة ١٩٧٦ .
١٦- داتيس سميث : **صناعة الكتاب من المؤلف إلى الناشر إلى القارىء** - ترجمة : د. محمد علي العريان وآخرون - فرانكلين - القاهرة ١٩٧٠ .
١٧- ر. ح. رالف : **المكتبة ودورها في التربية** - ترجمة : مصطفى الصاوي الجويني - مؤسسة المطبوعات الحديثة - القاهرة ١٩٥٩ .
١٨- د. رشيد الناضوري : **العطاء الفكري لإنسان الشرق الأدنى القديم** - دار الرشاد ١٩٦٥ .
١٩- سفندال : **تاريخ الكتاب منذ أقدم العصور إلى الوقت الحاضر** - ترجمة : صلاح الدين حلمي - وزارة التربية والتعليم - القاهرة ١٩٥٨ .
٢٠- د. شعبان عبد العزيز خليفة : **تزويد المكتبات بالمطبوعات** - دار المريخ - السعودية ١٩٨٠ .
٢١- د. عبد الحليم منتصر : **تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه** - دار المعارف ١٩٦٥ .
٢٢- د. عبد الفتاح مصطفى غنيمة : **دراسات حول الكتابة العربية . تاريخها وتطورها** (جزء أول) ١٩٨٧ .
٢٣- د. عبد الستار الحلوجي : **المخطوط العربي** (جزء أول) - دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٨٦ .
٢٤- د. عبد الستار الحلوجي : **الكتاب في الحضارات** .
٢٥- د. عبد الستار الحلوجي : **لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات** - دار الثقافة ١٩٧٩ .
٢٦- د. عبد الصبور شاهين : **تاريخ القرآن** - دار العلم ١٩٦٦ .

٢٧- د . عبد اللطيف إبراهيم : **دراسات في الكتب والمكتبات الإسلامية** - دار الشعب - القاهرة ١٩٦٢ .
٢٨- د . عبد اللطيف حمزة : **الإعلام له تاريخه ومذاهبه** - دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٦٥ .
٢٩- د . عبد المعز شاهين : **طرق صيانة وترميم الآثار والمقتنيات الفنية** - مراجعة : د. زكي اسكندر - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ .
٣٠- فتح الباب عبد الحليم ، إبراهيم حفظ الله : **وسائل التعليم والأعلام** - عالم الكتب - مكتبة الأنجلو - القاهرة .
٣١- فرانسيس روجرز : **قصة الكتابة والطباعة** - ترجمة : د . أحمد حسين الصاوي - الأنجلو - القاهرة ١٩٦٩ .
٣٢- فريد رفاعي : **عصر المأمون** - دار المعارف - القاهرة .
٣٣- لطفي عبد الوهاب : **اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري** - مركز التعاون الجامعي .
٣٤- د . محمد أحمد خلف الله : **دراسات في الكتب العربية** - سرس الليان - مركز التربية ١٩٥٨ .
٣٥- د. محمد سيد محمد : **صناعة الكتاب ونشره** . دار المعارف ١٩٨٣ .

٣٦- محمد عجاج الخطيب : **أصول الحديث (علومه ومصطلحه)** الطبعة الرابعة - دار الفكر - بيروت ١٩٨١ ص ٢٠١ - ٢١٨ .
٣٧- محمد عجاج الخطيب : **لمحات في المكتبة والبحث والمصادر** .
٣٨- محمد عطية : **وسائل الاتصال ومجالاتها واستخدامها** - الجمعية الثقافية - القاهرة ١٩٧١ .
٣٩- محمد ماهر حمادة : **المكتبات في الإسلام . نشأتها وتطورها ومصدرها** مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر - دمشق ١٩٧٠ .
٤٠- د . محمود عباس حمودة : **تاريخ الكتاب الإسلامي** - دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة .

٤١- مصطفى العبادي : **مكتبة الإسكندرية القديمة** - الأنجلو - القاهرة ١٩٧١ .

٤٢- نعمان ماهر الكنفاني : **مدخل في الإعلام** - السلسلة الإعلامية - دار الجمهورية - بغداد ١٩٦٨ .

أهم المراجع الأجنبية

١ – Agnes Allen: **The Story of the Book** Mcml. London.

٢ – A. L. Kroeber: **Configuration of Culture Growth** California press 1951.

٣ – Chandler B. G.: **What Happens in Book Publishing** University press, New York 1976.

٤ – Gerald Gross: **Editors on Editing** New York 1962.

٥ – Emery Edwin & A. Philip **Introduction to Agee Warren** Mass Communication – New York 1970.

٦ – Oswold, John: **A History of Printing** New York 1984.

٧ – Stanley Unwin: **The truth about publishing** London 1974.

٨ – Steed, Henry: **The press** England 1938.

٩ – Wells Herman: **Mass Communication and Education** Washington 1958.

١٠ – Katz, **An Introduction to publishing** New York 1964.

١١ – Krech, David: **Theory and problems of publishing** London 1977.

محتويات الكتاب

الفصل السادس : تكنولوجيا الميكروفيلم وحاضر الكتاب ومستقبله

أهم مراجع الكتاب العربية والانجليزية